تهذيب مدارج السالكين

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابن القيم الجوزية / محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي، ١٢٩٢-١٣٥٠
تهذيب مدارج السالكين/ عبد المنعم صالح العلي العزي . - ط١- القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠١٨.
٦١٦ص؛ ٢٤سم.
تدمك: ٣ ٣٥١ ٣١٦ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - التصوف الإسلامي ٢- الإسلام - دعوة
أ- العزي، عبد المنعم صالح العلي، (مهذب)
ب- العنوان ٢٦٠

* تاريخ الإصدار: ١٤٣٩هـ -٢٠١٨م
* الناشـــر: دار النشر للجامعات - مصر

* رقم الإيداع: ٤٧٤٣/ ٢٠١٠م
* الترقيم الد ولي: ISBN: 978 - 977 - 316 - 351 - 3
* الكـــود: ٢/٣٢٢

دار النشر للجامعات



ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨
E-mail: darannshr@hotmail.com

تهذيب مدارج السالكين

كتبه

الإمام ابن القيم الجوزية

هذبه

عبد المنعم صالح العلي العزي



مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، الذي ميز طريق الهداية عن متاهات الغواية، وبين محاسن الأخلاق الإيمانية، وجعلها مدارج صاعدة إلى جنانه، مفتوحة أمام أولي الهمة من العابدين.

ثم الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفضل وأزكى من حرص على هذه الأخلاق، فكان أسرع السالكين، وأول الواصلين.

ورضي الله تعالى عن صحابته الطاهرين أجمعين، الذين اتبعوا النور، وامتثلوا الأمر، وعافوا بهارج الدنيا، وتجردوا للعبادة والجهاد، حتى صاروا خير مثال للتربية الكريمة النبوية، وعلى تابعيهم بإحسان، ومن تبعهم من أخيار القرون الأولى، ومن سار على نهجهم واقتدى بهديهم، من السلف الصالح ومن لحق بهم على مر العصور، من الفقهاء الزهاد، والدعاة العاملين، والقادة المشمرين.

وفي رجال الإسلام اليوم بركة، ولهم منا تحية ودعاء.

وبعد:

فإن الصحوة الإسلامية الحاضرة التي واكب انتشارها مقدم القرن الهجري المبارك الجديد تعتبر من أهم أحداث التاريخ الإسلامي المعاصر، وفي سعتها واندفاعتها ما يتيح للحريص على إبراز معالم ماضي الإسلام أن يجعلها تتويجًا ونهاية لسلسلة المفاخر التي قدمتها الدعوة الإسلامية في القرن الرابع عشر، كما أن في مضاء عزمة رجالها ووعيهم لضرورة الجد في استدراك النقص ما يتيح من باب آخر للمتفائل أن يعدها أول تباشير الحقائق التي تؤكد وتجزم بإذن الله تعالى بأن المستقبل لهذا الدين القيم في القرن الخامس عشر.

وصحوة هذا شأنها في تجميل التراث السالف وتقريب المستقبل الباسم من حقها علينا أن نبادر لرعايتها وإنمائها وتمتين عمليتها التربوية التي يفترض فيها أن ترتقي بمستويات أهلها، وتأخذ منهم مزيدًا من العطاء والبذل، وتضرم في أفئدتهم لهيباً من الحماسة والشجاعة، مثلما تمنحهم نقاء العقيدة، بإرجاعها إلى حدها السلفي الأصيل من غير بدعة، وجمال الأخلاق، بإحياء سمت المروءة ومكارم الأعمال القلبية بلا تكلف، ووضوح الفقه، بإسناده إلى صحاح النصوص ومقالات جمهور الفقهاء دونما شذوذ، وشمول الوعي بإحلال تناسب في الفن العملي مع أعراف المجتمعات الحاضرة وأبعادها المدنية.

ولقد كان من اجتهادنا في ذلك، اختيار كتاب « **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** » والقيام بتهذيبه، وتقديمه إلى شباب الإسلام، عنوانا للمساهمة في هذه التنمية للعملية التربوية، ورديفًا لتهذيب شرح العقيدة الطحاوية.

ولا يعرف قيمة «**المدارج**» حق معرفتها إلا من درج، وكتاب الإمام ابن القيم هذا عمل فذ، غزير المنفعة، بليغ العبارة، وفيه من دقة استخراج المعاني الإيمانية ولطف الإشارات القلبية ما ليس في غيره، حتى إن الكتابات الأخرى لابن القيم لا تستطيع أن تنافس نفسه فيه، وكأني به قد كتبه واعتكف له في أبهى أيامه وأثناء وصوله إلى ذروة صفاء حياته، فإن كل مصلح أو مؤلف أو شاعر يرتفع في حياته مرة إلى علو قد لا يتكرر، والمدارج نتاج تأملات تلك الأيام العوالي في حياة ابن القيم، حتى أنه هو نفسه لم يستطع الحفاظ على هذا المستوى يوم اختصر المدارج في المختصر الذي سماه: «**طريق الهجرتين** » وشتان ما بين الأسلوبين والروحين.

منازل سير .. وميزان اعتدال

والأصل الذي حكم ترتيب كلام ابن القيم هو كتاب «**منازل السائرين**» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي الحنبلي الصوفي المتوفي سنة ٤٨١ هـ، فقد قسم طريق سير المؤمن إلى الله تعالى إلى مائة منزل، هي مثل محطات التزود في أي طريق طويل، أو هي منازل طبقية ودرجات صعود ومدارج انطلاق، تتوالى في تتابع، وجعل لكل منزلة مفهوما وحدًّا يليق لعامة المسلمين، وآخر لخاصة المؤمنين، ثم لخاصة الخاصة، مما اضطره إلى كثير من التكلف المعنوي واللفظي الذي تأباه طبيعة السكينة الإيمانية.

ولم تكن متابعة ابن القيم للشيخ الهروي هدفًا له، ولا هي من أهدافنا، ولكنه وجد بعض المبتدعة يروجون لأخطاء وقع فيها الهروي، وشطحات وأوهام جنح إليها بسبب مشربه الصوفي، رغم اتباعه لعقيدة وفقه وطريقة سلوك الإمام أحمد بن حنبل على وجه الإجمال، فرد ابن القيم هذه الأخطاء، وأوضح الأوهام، وأدّاه رده وإيضاحه إلى استطراد مليء بالمخاطبات القلبية كانت أنفع وأهم من الرد،وهذه الاستطرادات هي مبتغانا، لقيمتها التربوية، وهي التي أبقى عليها هذا التهذيب.

كان الهروي من أجل أئمة السلف، ولكن الله أبى أن تكون العصمة لأحد.

قال ابن القيم:

(صاحب المنازل رحمه الله كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضادًّا للجهمية من كل وجه، وله كتاب «**الفاروق**»؛ استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها، ولم يسبق إلى مثله، وكتاب «**ذم الكلام وأهله**»؛ طريقته فيه أحسن طريقة، وكتاب لطيف في أصول الدين يسلك فيه طريقة أهل الإثبات ويقرها، وله مع الجهمية المقامات المشهودة ، وسعوا بقتله إلى السلطان مرارًا عديدة،

والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، على عادة بهت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث، الذين لم يتحيزوا إلى مقالة غير ما دلَّ عليه الكتاب والسنة) [١] .

وأكد ابن القيم أنه (**بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل ، على عادتهم في رمي أهل الحديث**) [٢] (**وهو بريء منهم عقلًا ودينًا وحالًا ومعرفة**)[٣] . وفي بعض كلام الهروي ما (**يدل على رسوخ الشيخ في العلم، ووقوفه مع أهل السنة، وفقهه في هذا الشأن**) [٤] .

وينال إنصاف ابن القيم إعجابنا واحترامنا، إذ كان صاحب ميزان اعتدال جعله شديد الحرص على انتفاع المسلمين من إحسان المحسن الذي يختلط صوابه بأخطاء، وهو يرى أن ما وقع فيه الهروي من مجانبة الصواب إنما هو (**من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ**) [٥] .

وتشفع سيرة الهروي له شفاعة قوية، وتنتصب مواقفه قرينة ترجح حسن الظن به، وتحمل على الاعتقاد بأنه ضحية التأويل فيما أخطأ فيه، وقد (**كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: عمله خير من علمه**).

قال ابن القيم: « **وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد أهل البدع، لا يشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله، وأبى الله أن يكسو ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ**» [٦] .

ومن الخير أن يظل القارئ في عافية من تعكير يولده ذكر هفوات الشيخ الهروي، ويكفيه أن يتابع ابن القيم في إنصافه والعمل بقاعدة الموازنة بين صواب رجال الإسلام وأخطائهم، وعلومهم وأعمالهم. ثم أولى له أن يدعو للهروي مع ابن القيم فيقول: (**الله يشكر لشيخ الإسلام سعيه، ويعلي درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته**) [٧] .

منهج هذا التهذيب

وقد حرصنا في هذا التهذيب على تخليص كتاب المدارج من جميع سلبياته التي كانت تقطع على القارئ استرساله واندماجه القلبي مع المعاني الواعظة، فإن أخطاء الهروي ومحاولة إبراز المبتدعة لها قد اضطرت ابن القيم إلى أن يطيل النفس في مواضع كثيرة في فضح عقيدة وحدة الوجود الزائغة، وإلى أن يبين تهافت من يرى نفي الأسباب، وقد حرصنا على حذف كل ذلك إلا نزرًا يسيرًا، لقلة حاجة المسلمين اليوم إلى التفقه في الرد عليه، تبعًا لضيق دائرة ذكرها، وانقراض هذا النوع من المبتدعة

---

(١) إلى (٧) : مدارج السالكين ١/ ٢،٢٦٣/ ٨٧، ١/ ٣،٥٠/ ٢،٢١٨/ ٣،٣٩/ ٢،٣٩٤/ ٥٢ .

تقريبًا من أغلب بلاد الإسلام، وبروز بدع من جنس آخر، وسيظل كتاب (**المدارج**) الأصل منتصبًا كالمنار يعين من يحتاج إلى أن يرد أهل وحدة الوجود ونفاة الأسباب، إن دندن منهم أحد.

ومما حذفته أيضًا.. الكثير من كلام الهروي المتكلف، لا مجرد عباراته الخاطئة، وقد رأيت أن أدمج كلماته القليلة مع كلمات ابن القيم من دون حصرها بقوس، حتى عاد لا يميزها القارئ، إلا في مواضع قليلة، وربما غيرت بعض ألفاظه إلى الأوضح، وإنما فعلت ذلك اجتهادًا، طلبًا لتمام الاسترسال وقطعًا للتقطيع والاستئناف، ولم أجد في ذلك بأسًا كبيرًا، إذ إن بإمكان من يحتاج تمييز كلمات الهروي أن يراجع الأصل غير المهذب ليجدها كاملة مفصولة.

وبنفس المقياس عاملت الحواشي التي أضافها الشيخ محمد حامد الفقي ﵀ خلال تحقيقه للكتاب، فقد حذفت الكثير منها، إما لتكرار المعنى، أو لخشونة ألفاظه وشدة نقده، وأبقيت على بعضها النافع والضروري، ولكن رفعتها عن الهامش ووضعتها في مواضع لائقة بين كلمات ابن القيم نفسه من دون فصل.

وألغيت أيضًا الاستطرادات الفقهية التي لجأ إليها ابن القيم إن لم يكن ذكرها ضروريًّا ، وهي تستطيل إلى عشر صفحات أحيانًا، وهذه الاستطرادات مليئة بالمنافع وغزيرة الفوائد، ولكنها ليست من أصل موضوع الكتاب.

وكذلك كان حذف الاستطرادات اللغوية، والشواهد الشعرية، والألفاظ الغريبة التي لم تعد متداولة، والاصطلاحات الصوفية الغامضة، والأحاديث الضعيفة، والآثار الإسرائيلية، والأقوال المنسوبة إلى زهاد مجروحين، والمعاني المكررة، والمنازل التي ظن الهروي أنها من منازل الإيمان ولكنها مرجوحة أو لا تشهد لها النصوص أو آداب السلف.

وكنت أحذف أحيانًا أسطرا لمجرد طلب الاختصار في مواضع التطويل، وجملاً أحس بذوقي وتجربتي صواب رفعها والاستغناء عنها، وأبياتا من قطع شعرية نظمها ابن القيم نفسه، لضعف ملكته في باب الشعر وبرودة أكثر ما أورده.

والسلبية الوحيدة التي لم أستطع التخلص منها: ما في الشرح من اضطرار ابن القيم لمجاراة أبي إسماعيل الهروي في استعمال اصطلاحات المتصوفة المهمة، كالسالك، والمريد، والحال، والمقام، وغير ذلك، ولم أر في الإبقاء عليها شيئًا من الحرج طالما لا يقترن بهذه الاصطلاحات المعنى الخاطئ، فإن هذا الكتاب كتاب سلفي على نهج أهل الحديث، ربطت معانيه باصطلاحات يمكننا أن نفهم من مطلق معانيها المعنى الصحيح الذي لا ينكره النص وإن أراد بها البعض معنى خاصًّا.

ويلحق بهذا السلب: عدم تحقيقنا للكمية الباقية من الأحاديث النبوية الكريمة أو نسبتها إلى رواتها، إذ حال دون ذلك عامل السرعة في إخراج الكتاب، مراعاة لفوائد اقتضت التعجيل، وإن

كان يشفع لنا في ذلك أن معظم هذه الأحاديث هي أحاديث صحيحة مشهورة يجدها المتتبع بسهولة في الصحيحين والسنن الأربعة ومسند أحمد، وقد أشار ابن القيم إلى صحتها أو حسنها في مواضع كثيرة.

وبمقابل هذا الحذف أنشأت وأضفت جميع العناوين الثانوية الجزئية المميزة بدائرة صغيرة سوداء بين الفقرات، واخترت لها أجمل العبارات التي تناسب السياق، وهي إضافة أراها مهمة، تزيد الوضوح، وتبرز المعاني، وتؤسس للقارئ انتباهًا متواصلا، وقد ساعد على نيل هذا الوضوح أيضًا بعض تقديم وتأخير لجأت إليه، ومناقلات من موضع إلى موضع، ومن جزء إلى جزء، جمعت المعاني المتماثلة في مكان واحد، ثم زاد الوضوح بإظهار متناسق لبدايات الفصول والمنازل، وترقيمها، وتجويد ترتيبها.

وهكذا فإني أظن أن كتاب «**مدارج السالكين**» الصعب قد أصبح بهذا التهذيب والترتيب كتابًا بسيطًا سلسًا قريبًا من الجميع، وصار أهلاً أن أقدمه وأرشحه كمنهج متكامل لمادة الأخلاق الإسلامية، ومنهج إضافي لمادة العقيدة، يعتمد تدريسه في كليات الشريعة والمعاهد الدينية، وفي جميع مدارس وزارات التربية، كما أنه يعتبر موردًا رئيسًا ورافدًا ثريا يعين الواعظ، وخطيب الجمعة، وإمام المسجد، ويصلح أن يوضع منهجا تأديبيا لعموم شباب الدعوة الإسلامية، وهو الآن، بصورته المهذبة هذه، من خير ما يقرأ على الأصحاب والجلساء في مجالس السمر العامة في بيوت أهل النبل في الحواضر، أو في دواوين الضيافة عند رؤساء البوادي والأرياف، ووصيتي لدعاة الإسلام خاصة أن يقرءوه مرة، بعد مرة، بعد مرة وأن يحفظوا المهم من سطوره وشواهده من الآيات والأحاديث، فإنهم - إن فعلوا ذلك - ارتقوا إلى أرفع درجات المقدرة على الوعظ والخطابة والتبليغ والتأثير والإقناع.

لذة الفصاحة العربية

وقد تكون ترجمة هذا الكتاب إلى اللغات الأخرى جد مفيدة، لتبليغ من لا يحسن العربية هذه المعاني الأساسية المهمة، ولكن التذاذهم بها سوف لا يرقى إلى مثل لذة القارئ العربي، إذ هيهات ثم هيهات أن تنقل هذه البلاغة الفذة المقتبسة من مشكاة البيان العربي القرآني إلى لغة أخرى دون أن تفقد رونقها، فإن الهروي متفنن في ألفاظه، كما أن ابن القيم كان في أقصى انغماسه الإيماني حين كتب هذا الشرح، فجاءت عباراته سهلة جميلة ذات طلاوة تمتنع على الترجمة من غير نقصان بهائها. وتتكرر هذه الظاهرة في كتب كثيرة، وهي تهيب بالمسلمين غير العرب أن يتعلموا العربية بإتقان ليتسنى لهم فهم معنى ونيل لذة ما هم بحائزين له ولا بنائليها من خلال الترجمات قط.

اعتراض .. ولكن!

وقد يعترض البعض فينتقد هذه الخطة التي اتبعتها في هذا التهذيب لهذا الكتاب القيم، ويأتي المعترض بشواهد من أعراف الناس في الاختصار، أو ينطلق من منطق حماسته في التصدي للمبتدعة، إلا أن تجربتي في التربية لا تترك لي مجالاً أتنازل فيه عن الاعتقاد بأن هذا المقدار الذي اخترته من الكتاب، بهذا الترتيب والإخراج، هو أنفع لشباب الإسلام من المتن الكامل أضعافًا مضاعفة، وأن عدد الذين يفهمون الأصل، مع زيادة لذة واندماج مع هذه الأسطر الباقية في استرسال هادىء يلين القلوب لم يكونوا بواجديه لما كان هذا الكلام مختلطًا بالنقاش مع الفلاسفة والمبتدعة، أو لما كان الكلام مقطعًا بالتقريع، والاستطراد الجانبي، والهوامش، والفصل بين كلام الهروي والشرح.

أنا لم أستصوب أن تقف أعراف المؤلفين حائلاً دون جعل تهذيب المدارج وثيقة تربوية سليمة في يد الشباب المسلم، فإن الذين يهذبون الكتب يحرصون على جميع المعاني في الأصل، ولكن في عبارات موجزة، ولسنا نريد ذلك، بل غايتنا إعانة شباب الإسلام على تزكية قلوبهم وتعميرها بأخلاق الإيمان، دون إقلاقها بذكر البدع والرد عليها، فإن أكثر هذه البدع اليوم تكاد لا تجد لها معتنقًا، إلا قلة يحصرون أنفسهم في دوائر ضيقة، وفي بعض البلاد دون بعض، مما سوّغ لنا أن ندع سمع الشباب في عافية من هذا التخليط الذي فضحه ابن القيم، وأن نترك أفئدتهم منسابة مع حلاوة التذكير، دونما نقاش يصحبه التعكير، فمن وافقنا في طريقتنا التهذيبية هذه، كانت موافقته قرينة على مقاربة تجربته التربوية لتجاربنا، ومن أبى وأنكر علينا ما حذفناه وبدلنا، دعوناه إلى أن يعتبر «تهذيب مدارج السالكين» مؤلفًا جديدًا كان المدارج مصدره الوحيد، ولا نحب أن تحول الشكليات دون تعميم الفوائد، وليس المهم أن نحفظ فخرًا لابن القيم، لنميز عباراته، ولا سبقًا للهروي، لنبقي على استقلال ألفاظه، فإن ذلك محفوظ لهما في طبعة المدارج الكاملة، ولكن المهم أن نضع خلاصة تربوية بين يدي المربي والتلميذ معًا، تعين على ترقيق قلوبهم، وتزكية نفوسهم، ولو أني كنت صنعت هذا الذي صنعته تجاه مخطوط لم ينشر من قبل لجاز هذا الاعتراض علينا، ولكني لم أزد على أن اخترت منهجًا من أصل مطبوع متداول يسهل على طالب نصوصه الكاملة أن يظفر به.

سَلَفي .. وصوفي .. معًا

وكأن هذا الكتاب سيكون جامعًا إن شاء الله، تجتمع عليه قلوب أصحاب المشارب المختلفة من المسلمين، فإنه مجموعة معان وتقريرات سلفية، مشروحة مؤداة بلغة صوفية.

ولا تعجل فتنكر علينا أن لم نخلصه من هذه اللغة الصوفية، فإن القارئ بروية وإمعان لهذا الكتاب النفيس سيدرك - كما أدركنا - أنه من أرقى ما دونته المدرسة السلفية، وأنه لا يمكن تأدية نفس ما أداه ابن القيم فيه إذا عرَّينا أسلوبه عن هذه الاصطلاحات الصوفية، ولذلك لم

نجد في الإبقاء على مجاراته لأسلوب شيخ الإسلام الهروي ضيرًا، طالما أن ابن القيم كان موفقًا في هذا الكتاب كما هو موفق في جميع كتاباته لبيان خطل البدع والتمثيل والتأويل والتعطيل.

ويملكني شعور في النهاية بأن فضل الله تعالى عليَّ كبير حين ألهمني أن أجعل لإخواني دعاة الإسلام وعموم العابدين شغل خير بتهذيب المدارج والإشراف على طبعه، والترويج له، والحث على مطالعته، منذ سنوات من قبل طبعه، فملأت أوقاتهم بالنفع، وخواطر الجد، وروضت ألسنتهم على التلفظ بالأقوال اللطاف والرقاق الواعظة، فضيقت على وساوس السوء الثغرات التي تلج منها، وعزلت ألفاظ الشيطان أن تتحرك بها الألسنة، وتلك نعمة يجب عليّ شكرها، وحسنة وفقت لها يحق لي أن أملأ قلبي سرورًا بها ، وأنا أرجو كل منتفع من هذا التهذيب أن يطيل الاستغفار لي، ثمنًا لتمهيدي درب فراره إلى الله ﷻ، وأن يشكر لوزارة العدل والشئون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة حسن احتفالها بمقدم القرن الهجري المبارك الخامس عشر، وحرصها على المشاركة في تمهيد الطريق للسالكين من خلال المساهمة بتبني الطبعة الأولى من هذه التوطئة لمدارج الإيمان.

وكذلك هو الطريق الأعلى دائمًا، يوصلنا إليه التواضع، والسجود، وخفض الجناح والإخبات.

وفي كل آخر يليق استئناف الحمد لرب رؤوف رحيم .

عبد المنعم صالح العلي العزي
خبير البحوث الإسلامية
بوزارة العدل والشئون الإسلامية والأوقاف
بدولة الإمارات العربية المتحدة
محرم الحرام ١٤٠٢ هـ.

مقتبسات من مقدمة الشيخ محمد حامد الفقي

الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله وسلم على خاتم المرسلين، وإمام المهتدين، من اصطفاه الله ربنا، فأرسله رحمة للعاملين، وأحسن قدوة للمتقين، عبد الله ورسوله محمد، وعلى آله أجمعين، وجعلنا من آله وحزبه المفلحين في الدنيا ويوم الدين.

وبعد، فهذا كتاب «**مدارج السالكين**» تأليف شيخ الإسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق ونصر الدين، الذاب - بما أوتي من قوة - عن سنة سيد المرسلين، الطاعن بسنان قلمه الحاد في نحور المبتدعين، القاطع بسيف حقه البتار أعناق المخرفين، ترجمان القرآن، ذي الفنون البديعة الحسان، الملهم من ربه القيام بالهدى والبيان، المؤيد من الله بواضح الحجة وناصع البرهان ، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، المعروف بمواقفه الخالدة:

ابن قيم الجوزية

غفر الله لنا وله وللمؤمنين، وأسكنه فسيح جنته، وألحقنا به على صادق الإيمان ، حاول فيه - رحمه الله ورضي عنه - أن يجعل من كتاب «**منازل السائرين**» لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الحنبلي ـ المتوفى في سنة ٤٨١ هجرية ـ منارا يهدي إلى الرشد، ودليلاً إلى صراط الله المستقيم.

وإنما يقوم هذا الإسلام على العبودية التامة بكل خصائصها للجميع، وأن تكون في كل مواقفها صادقة، بكل ذل وحب، واستسلام وإذعان وانقياد، وطاعة تامة لله رب العالمين ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] لا تجهل ولا تغفل ولا تنسى.

ولا تقول على الله وفي الله إلا ما قال الله وقال رسوله، تشكر نعمة الله على الجميع في الإنسانية السميعة البصيرة العاقلة المميزة الكريمة ، وفي هدي الفطرة وهدي الرسالة ، وتحرص أشد الحرص على إعطاء كل ذي حق حقه ، مؤمنة بأن الله ما خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، وإنما خلق كل شيء بالحق الثابت الذي لا يتغير بهوى الإنسان وجهله، وباطل أمانيه، فالله ربنا هو الحق، ووعده الحق، وقوله الحق، وكتبه الحق، وقضاؤه الحق.

* * *

ودين الجاهلية، دين شياطين الإنس والجن، دين أعداء الله وأعداء رسله وأعداء أنفسهم: يطرد كذلك، ويحاول أن يغلب ويتمكن ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف] ويروج هذا الدين ويقوم على سوقه ويشتد كلما تكاثفت ظلمات الجاهلية التقليدية، وكلما انتشر عفن الإعراض والعمى عن آثار أسماء الله وصفاته في الأنفس والآفاق وعن سُنن الله وآياته في الأنفس والآفاق، وعن كتبه وفهمها وتدبرها، وعن هدي رسله، فيضل الناس حينئذ طريق الرشد والخير، ويعموا عن الحقائق الثابتة في السماوات والأرض، وفي أنفسهم، ويَشْقون بتفرقهم وراء عدوهم الشيطان في كل واد من أودية الهلكة، معرضين غافلين ناسين لآيات الله - في الأنفس والآفاق- التي تذكرهم بأسمائه وصفاته: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه].

* * *

ومن أمعن النظر والفكر في آيات الله الكونية وآياته القرآنية، وتأمل وتدبر صادقًا مخلصًا - بما آتاه الله من أسباب العلم والهدى في سمعه وبصره وعقله هو - في آي القرآن وقصصه وتذكيره ووعيده ونذره وعبره، وألقى السمع وهو شهيد، فإنه ينكشف له تمام الانكشاف، أن كل ما تشقى به البشرية اليوم - وفي كل عصر - من الكفر، والفسوق، والعصيان، إنما تولد كله بحذافيره من طريق التقليد الأعمى الذي زينه وأوحى به أعداء الرسل من شياطين الجن والإنس وزخرفوا القول به غرورًا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام] من بدع يشرعونها، وخرافات وأهواء يستحسنونها، وشهوات يروجونها، حتى تقسو عليها القلوب، فتظلم النفوس، وتعمى القلوب التي في الصدور، وما أصدق نصيحة رسول الله ﷺ للناس لو عقلوا ونصحوا لأنفسهم، إذ قال: «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك» وقال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي».

فما أشد حاجة البشرية - في شرق الأرض وغربها - اليوم إلى الرجوع إلى هذه المحجة البيضاء، مستمسكين بحبل الله المتين، من هدي كلامه، الذي لايزال غضًا طريًا، كما نزل به جبريل على صفوة خلقه، وأكرم عباده، وخاتم رسله، من عند الله رب الناس، ملك الناس، إله الناس، هدى وشفاء لما في الصدور، وهاديًا لهم إلى التي هي أقوم في كل شأن وكل عمل، إنهم

- والله - لو فعلوا، ورجعوا إلى ربهم وإلى فهم كتابه صادقين مخلصين ولأنفسهم ناصحين.. لهُدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط العزيز الحميد.

* * *

وفي الحق إن كتاب «مدارج السالكين» من خير ما كتب الإمام ابن القيم - وحسبك بابن القيم - في تهذيب النفوس والأخلاق والتأدب بآداب المتقين الصادقين ، مما يدل أوضح دلالة على أنه كان من أولئك المهتدين الصادقين ، الذين طابت نفوسهم بتقوى الله، واستنارت بصائرهم بهدى الله، وأنه - إن شاء الله - في جنة الرضوان مع المتقين الصادقين.

ولما كان مكان كتاب «مدارج السالكين» كذلك، وكانت الطبعة الأولى - التي طبعت في مطبعة المنار سنة ١٣٣٤ هـ - قد نفدت، واشتد حرص الناس عليه، وعظمت حاجتهم إليه بالأخص في هذا العصر الذي أغرق الناس فيه طوفان المادة، واشتد تعلقهم بها، وتعليق نجاحهم في كل شأن من الشئون بأذيالها، فاشتعلت نيران العداوة والبغضاء بينهم، واستشرت الوحشية في كل مجتمعاتهم، واشتدت لذلك متاعبهم، وتضاعفت همومهم، وتراكمت أسباب الشقاء، ونكد العيش، وتضافرت المحن والفتن، وألحت عليهم من كل ناحية، متولدة من احتكاكات المادة، وتركيز الأنظار إليها، وتكريس الجهود فيها، حتى صارت إلاههم المسيطر على قلوبهم.

لأجل ذلك توجهت الهمة إلى طبعه هذه الطبعة المجودة الأنيقة ، ليسد الحاجة الماسة إليه في عصر المادة ، راجيًا أن ينفع الله به، ويجمع به إلى هذا النشاط المادي عند الناس، صفاء الأرواح، وتقوى النفوس، وتهذيب الأخلاق، حتى يجعل الله حياة العرب والمسلمين - فيما آتاهم من الأسباب المادية، والغنى والثراء الحاضر، والمنتظر في المستقبل، إن شاء الله - حياةً عزيزةً كريمة طيبة آمنة في ظل الإسلام، على مثال ما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، الذين جمع الله لهم الدين والدنيا، فمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، لأنهم كانوا يعبدونه لا يشركون به شيئًا.

كتبه فقير عفو الله

محمد حامد الفقي

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥م

القاهرة

مقدمة ابن القيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السماوات والأرضين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، والشك واليقين، أنزله لنقرأه تدبرًا، ونتأمله تبصرًا، ونسعد به تذكرًا، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه. ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحكم من بين رياضه وأزهاره، فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يغلق إذا غلقت الأبواب، وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملا وتفكيرا، زادها هداية وتبصيرًا. وكلما بجست معينه فجر لها ينابيع الحكمة تفجيرًا ، فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح، حي على الفلاح. نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف].

ولقد كان كمال الإنسان بالعلم النافع، والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر] أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره – بل أنفاسه – فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخرج كنوزه وإثارة

دفائنه، وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد، في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد.

ونحن - بعون الله - ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها، ولا يسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

فاتحة المطالب العالية

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة].

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود – تبارك وتعالى – بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها.. وهي «الله، الرب، الرحمن» وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة ، فـ «إياك نعْبُدُ» مبني على الإلهية. و«إياك نسْتعِين» على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل ، وكل هذا تحت قوله: «مالِكِ يومِ الدِينِ».

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين. فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملاً ، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به. وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود ، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرَّحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه،

والحجة إنما قامت برسله وكتبه، وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله «إياك نعبد» فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه ، وعبادته - وهي شكره وحبه وخشيته - فطري ومعقول للعقول السليمة ، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع، فمن أنكر الرسول فقد أنكر الرسل ولم يؤمن به، ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفرًا به.

الموضع السادس: من قوله : «اهدنا الصراط المستقيم».

فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرًا له، راضيا به، راغبًا فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلا وإجمالاً ، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة على القيام بموجب الهد ى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم ، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده ، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوق الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى - وهي آخر مراتبها - وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصول إليها، فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم ، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يحبو حبوا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْو القذَّة بالقذة، جزاءً وفاقا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، إنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسئول، وهو الصراط المستقيم، ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقا للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته، وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعينه طريقًا.

و«الصراط» تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى] وتارة يضاف إلى العباد، كما في الفاتحة، لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم، وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال.

فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة، لأن العبد إما أن يكون عالمًا بالحق أو جاهلاً به، والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفًا له، فهذه أقسام المكلفين، لا يخرجون عنها ألبتة، فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه، وهو الذي زكَّى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس]. والعالم به المتبع هواه: هو المغضوب عليه. والجاهل بالحق: هو الضال. والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به، ومن هنا كان اليهود أحق به، وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعالى في حقهم :﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾ [المائدة] والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال، ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ

ﵟٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧ﵞ [المائدة]. فالأولى: في سياق الخطاب مع اليهود. والثانية: في سياقه مع النصارى. وفي الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون».

ففي ذكر المنعم عليهم – وهم من عرف الحق واتبعه ـ والمغضوب عليهم – وهم من عرفه واتبع هواه ـ والضالين ـ وهم من جهله ـ ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة، لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه:

منها: أن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه، وحذف الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن: ﵟوَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ﵞ [الجن] ومنه قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﵟفَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَاﵞ [الكهف:٨٢] وقال في خرق السفينة: ﵟفَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَاﵞ [الكهف:٧٩] ثم قال بعد ذلك: ﵟوَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيﵞ [الكهف:٨٢].

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم ﵟ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِﵞ [النحل:٥٣] فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرى للنعمة، وأما الغضب على أعدائه، فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه وأولياؤه يغضبون لغضبه، فكان في لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أوليائه له من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها ما ليس في لفظة «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره ورفع قدره، ما ليس في حذفه، فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ورفع قدره ، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه. كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أكرم وخُلع عليه وشُرف وأعطي.

وتأمل سرًّا بديعًا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاث بأوجز لفظ وأخصره، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدى ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء، فهذا تمام النعمة،ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين.

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه ، فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاء أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب، وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال، فذكر «المغضوب عليهم» و«الضالين» في مقابلة المهتدين المنعم عليهم، وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح. فالثاني كقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة] وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام] والأول كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر] وقوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾﴾ [البقرة] وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه] فهذا الهدى والسعادة. ثم قال: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه] فذكر الضلال والشقاء.

فالهدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان.

الهداية تورث الاستعلاء

وذكر «الصراط المستقيم» مفردًا معرفًا تعريفين؛ تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣] فوحد لفظ «الصراط» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له. وقال ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا وقال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: «هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل

إليه أحد إلا من هذا الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر] قال الحسن: معناه صراط إليَّ مستقيم. وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «عليّ» مقام «إليّ». والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي :صراط موصل إليّ. وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يعرج على شيء. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه، وهو من أصح ما قيل في الآية، وقيل :«عليّ» فيه للوجوب، أي :عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه. والقولان نظير القولين في آية النحل، وهي: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩] والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر؛ أن السبيل القاصد - وهو المستقيم المعتدل - يرجع إلى الله ويوصل إليه. قال طفيل الغنوي:

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم وصرف المنال بالرجال تشقلب

أي :ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا. وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي، أو عليّ طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إليّ» التي هي للانتهاء، لا أداة «عليّ» التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية] وقال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس:٧٠] وقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨] وقال لما أراد الوجوب :﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية] وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة] وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام] ونظائر ذلك.

قيل: في أداة «عليّ» سر لطيف؛ وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين :﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٥] ، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل] والله ﷻ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة «عليّ» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إليّ» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «عليّ» في ذلك أيضًا؟ وكيف يكون المؤمن مستعليا على الحق، وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة «عليّ» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسيسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:٣٩] وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ] فإن طريق الحق تأخذ علوًّا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

إن ربي على صراط مستقيم

الصراط المستقيم: هو صراط الله، وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا، ويخبرأنه سبحانه على الصراط المستقيم. وهذا في موضعين من القرآن: في هود والنحل . قال في هود : ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ وقال في النحل: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وهي كَلّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه، فكيف يسوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غني، وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، فقوله صدق ورشد ونصح وهدى، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة، هذا أصح الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره.

ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم، فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله. فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لا يناقض القول الأول، فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه، فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه، وعلى هذا يكون المثل مضروبًا لإمام الكفار وهاديهم، وهو الصنم الذي هو أبكم، لا يقدر على هدى ولا خير. ولإمام الأبرار، وهو رسول الله ﷺ الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروبًا لمعبود الكفار ومعبود الأبرار، والقولان متلازمان،

فبعضهم ذكر هذا، وبعضهم ذكر هذا، وكلاهما مراد من الآية، قال : وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر . يرويه عطية عن ابن عباس .

وقال عطاء: الأبكم أبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية تحتمله، ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله. وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع، وبعضهم ذكر الهادي، وبعضهم ذكر المستجيب القابل، وتكون الآية متناولة ذلك كله، لذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحدًا، هو أن الله سبحانه على صراط مستقيم، وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم؛ فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥] وأفعاله كلها مصالح وحكم ورحمة وعدل وخير ، فالشر لا يدخل في أفعاله ولا أقواله ألبتة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم، فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه وفي أقواله.

وفي دعائه ﷺ: «لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك» ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لا يتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك، فإن المعنى أجلُّ من ذلك، وأكبر وأعظم قدرا، فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل؛ يستحيل دخول الشر في أسمائه أو أوصافه، أو أفعاله وأقواله، فطابق بين هذا المعنى وبين قوله :﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود] وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ [هود:٥٦] أي :هو ربي، فلا يسلمني ولا يضيعني ، وهو ربكم ؛ فلا يسلطكم عليّ ولا يمكنكم مني ، فإنّ نواصيكم بيده ؛ لا تفعلون شيئًا بدون مشيئته، فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه، فهو المتصرف فيها، ومع هذا، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها على صراط مستقيم، لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلطكم عليّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه؛ لأنه تسليط مَنْ هو على صراط مستقيم، لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة.

وحشة التفرد.. علاجها عدم الالتفات

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوك طريق، مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه

الله سبحانه على الرفيق في هذا الطريق، وأنهم هم الـذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم ، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له؛ فإنهم هم الأقلون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددا، كما قال بعض السلف : «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين» وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم؛ فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم؛ فإنك متى التفتَّ إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين، فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلاما يؤذيه، فوقف ورد عليه، وتماسكا، فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه من الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة، فإن التفت إليه أطمعه في نفسه، وربما فترت عزيمته، فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه، فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت :«اللهم اهدني فيمن هديت» أي :أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية ، أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيبا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق علي في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إلي في جملة من شملته بإحسانك.

نتوسل إلى الله بأسمائه وبعبوديته

ولما كان سؤال الله إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب، ونيله أشرف المواهب؛ علم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم؛ توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء، ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد والترمذي.

أحدهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى» قال الترمذي: حديث صحيح. فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية، وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» ، وهو كما قال ابن عباس :«العالم الذي كمل علمه، والقادر الذي كملت قدرته» وفي رواية عنه :«هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد» وقال أبو وائل :«هو السيد الذي انتهى سؤدده » وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله» وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص] وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة، والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس:«أن رسول الله ﷺ سَمِعَ رجلاً يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال: « لقد سأل الله باسمه الأعظم» فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين ؛ وهما التوسل بالحمد، والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب ؛ وهو الهداية بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبي ﷺ، الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل، رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس :«اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك

أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فـاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إلـه إلا أنـت» فـذكر التوسـل إليـه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له، ثم سأله المغفرة.

❊ ❊ ❊

فاتحة التوحيد

تشتمل الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفق عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد، ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى الأول: التوحيد العلمي. والثاني: التوحيد القصدي الإرادي؛ لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة، وهذا الثاني أيضا نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه، وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان الحمد كله لله حمد لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه، ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي ولا تنفع ولا تضر. وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرا، فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجته لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم] فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر علي؟ لكن كان - مع شركه - أعرف بالله من الجهمية ،وكذلك كفار قريش كانوا مع شركهم مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف] فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك.

فإن قيل: فالله تعالى لا يكلم عباده.

قيل: بلى، قد كلمهم، فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى، ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكي، وهم الأنبياء، وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله، فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه.

وقالوا لهم: هذا كلام الله الذي تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم، ومن هاهنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلما فقد أنكر رسالة الرسل كلهم؛ لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده، فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة، وقال تعالى في سورة طه عن السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه] ورجع القول: هو التكلم والتكليم، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل] فجعل نفي صفة الكلام موجبا لبطلان الإلهية: وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية، أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا، ولا مدبرًا ولا ربًّا، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لا في الأولى، ولا في الآخرة، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التي لأجلها استحق الحمد، ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه وكلامه وتكليمه: توحيدا؛ لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع وجحد له. وإنما توحيده: إثبات صفات كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص. فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدًا، وجعلوا إثباتها لله تشبيهًا وتجسيمًا وتركيبًا، فسموا الباطل باسم الحق، ترغيبًا فيه، وزخرفًا ينفقونه به، وسموا الحق باسم الباطل تنفيرًا عنه، والناس أكثرهم ليس لهم نقد النقاد ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف] والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت ألبتة ، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس] وحمد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكا له،فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه؛ لأن الموجود أكمل من المعدوم، ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنًا لثبوت

كمال، كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته، وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم لتضمن ذلك كمال قيوميته، وحمد نفسه بأنه لا يعزُب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته، وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدًا، لكمال عدله وإحسانه، وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، لا يرى ولا يدرك، كما أنه يعلم ولا يحاط به علما، فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال؛ لأن العدم لا يرى، فليس في كون الشيء لا يرى كمال ألبتة، وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكا، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له ،وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده، فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

لا ننفي معاني الأسماء

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبني على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات. فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى ، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم ، واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف] ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله،كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات] فعلم أن «القوي» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة، وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠] فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًّا ولا عزيزًا، وكذلك قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء:١٦٦] ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود:١٤].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه «البصير».

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات».

وفي الصحيح حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك» فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف:١٤٤] فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي» وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾ [غافر] وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو قوته، أو عزته، أو عظمته، انعقدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه.

وأيضا: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضا: فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به، فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذا مكابرة صريحة، وبهت بين، فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطي» هو معنى اسم « المانع » فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها.

ضرورة فهم لوازم الصفات

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل على دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم،فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة ويدل على الصفة الأخرى باللزوم، فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل على اسم «الحي» وصفه الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته، ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن هاهنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازمان للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة؛ أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق، بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء» بل هو سبحانه فوق كل شيء، فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوق أظهر من الفائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهرًا بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

دلالة اسم «الله» على جميع الأسماء الحسنى

إذا تقرر هذان الأصلان فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث؛ فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] ويقال: «الرحمن والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله» واسم «الله» دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة، أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب] ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة] ولم يجيء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلئ غضبا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مُلئ بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرا، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان:٥٩] فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها ، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: « لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش، إن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ :«فهو عنده على العرش».

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله :﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان:٥٩] ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى.

وصفات العدل والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم ونحوها، أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، ولتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة، ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

* * *

معنى الرب والرحمن

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة، وهي «الله والرب والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والإخبات والخشية والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة، فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

فالدين والشرع والأمر والنهي مظهره وقيامه من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك، وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهي التعلق ، والسبب الذي بين الله وبين عباده، فالتالية منهم له، والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته، فـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ مطابق لقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها اقتضى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

المحمود

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال؛ كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالغني صفة كمال، والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضا، وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضًا، وقدرته كمال ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء] واقتران العلم بالحلم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء].

فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليما، ولا كل حليم عالم، فما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء] ومن هاهنا كان قول المسيح عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، أي: إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عزة، وهي كمال القدرة، وعن حكمة، وهي كمال العلم، فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني لا يكون قادرًا حكيمًا عليمًا، بل لا يكون ذلك إلا عجزًا ،فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها، فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت، فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، كان في هذا من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ما ينزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل له ولدًا واتخذه إلهًا من دونه ، فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة، وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم] ولم يقل: فإنك عزيز حكيم، لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي:إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث :«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره، والله الموفق للصواب.

* * *

مراتب الهداية

مراتب الهداية الخاصة والعامة عشر مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله ﷻ لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه، وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء] فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه، وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية، ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعًا لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أَنَّهُ إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم، فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز، قال الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلامًا بأي طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة. يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة. ويقال: أراد الجدار. ولا يقال: إرادة. لأنه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣] وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون، وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر، لا في الأول، وفيه أعطي الألواح، وكان عن مواعدة من الله، والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه قال الله له: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف:١٤٤] أي :بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنه ناداه وناجاه، فالنداء من بُعد، والنجاء من قرب.

وفي حديث الإسراء في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية، قال: «وذلك بتفضيله بكلام الله» ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى، ولا كان يسمى «كليم الرحمن» ،وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١] ففرق بين تكليم الوحي، والتكليم بإرسال الرسول، والتكليم من وراء حجاب.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣] وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١] فجعل الوحي في هذه الآية قسمًا من أقسام التكليم، وجعله في آية النساء

قسيمًا للتكليم، وذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

والوحي في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي، ويقال في فعله: وحى، وأوحى، قال رؤبة: «وحى لها القرار فاستقرت» وهو أقسام كما سنذكره.

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري، فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلاً، يراه عيانا ويخاطبه، وقد يراه على صورته التي خُلق عليها، وقد يدخل فيه الملك، ويوحي إليه ما يوحيه، ثم يفصم عنه، أي :يقلع، والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

كما قال النبي ﷺ: «إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب».

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا وعلق وجودهم في هذه الأمة بـ«إنَّ» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدّث: هو الذي يحدّث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث، لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول ﷺ.

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، وإلا رده، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات :«حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثني قلبي عن ربي» كان مسندًا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوه به يومًا من الدهر، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يومًا «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: «لا..

امحه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريء» وقال في الكلالة: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله ،وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ».

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين، وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئًا واحدًا.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام، قال الله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء] فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة، وقال علي بن أبي طالب وقد سُئل :«هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟» فقال: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه، وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر» وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما و«الفهم الفهم فيما أدلي إليك» فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، فيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُد ألف بواحد، فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ وما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًّا، وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه، أما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة : مرتبة البيان العام، وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودًا للقلب، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدًا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٥] فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم ولم يعملوا به،

فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلال من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥] ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء:١٥٥] فالأول: كفر عناد، والثاني: كفر طبع، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] فهذا هدى بعد البيان والدلالة، وهو شرط لا موجب، فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء، وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة وبيان بالآيات المشهودة المرئية، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكير في هذه وهذه، وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل، وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم] فالرسل تبين، والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة: البيان الخاص، وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة، قال تعالى في هذه المرتبة: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧] وقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٥٦﴾ [سورة ص] فالبيان الأول شرط، وهذا موجب.

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾ [فاطر] وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة

والتبليغ، فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ معنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما، فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء] وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه، فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه :﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم ، فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه، ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر، وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته، ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب وسماع القبول والإجابة.

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس] وقال النبي ﷺ لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم :«قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي».

والإلهام أعم من التحديث، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم ،فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان، فأما التحديث: فالنبي ﷺ قال فيه: «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر» يعني من المحدثين، فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلى غير الأنبياء ؛إما من المكلفين كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة:١١١] وإما من غير المكلفين، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل] فهذا كله وحي إلهام.

وصورته الشائعة: أن يكون خطابًا يلقى في قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور: «إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب الوعد» ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨] وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢] قيل في تفسيرها: قوّوا قلوبهم

وبشروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم القتال. والقولان حق؛ فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

ومن هذا الخطاب: واعظ الله ﷻ في قلوب عباده المؤمنين،كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى ضرب مثلا: صراطا مستقيما، وعلى كنفتي الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتى يكشف الستر، والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن» فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة.

وأما لمة الشيطان فهي وعده وتمنيته حين بَعدُ الإنسي، ويأمره وينهاه. كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء]، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغيلان بن سلمة ـ وهو من الصحابة ـ لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه :«إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك، فقذفه في نفسك».

وعلامة هذا الشيطاني أن خطأه كثير، كما قال النبي ﷺ لابن صائد :«ما ترى؟» قال: أرى صادقًا وكاذبًا. فقال: «لُبِّس عليك» فالكشف الشيطاني لابد أن يكذب، ولا يستمر صدقه ألبتة.

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة، وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة».

والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا، وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ، كما قال النبي ﷺ، وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا، وأما في زمن قوة نور النبوة ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

وقد قال النبي ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قيل: وما المبشرات، يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له» وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب،وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: «أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر،فمن كان منكم متحريها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان».

والرؤيا كالكشف؛ منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها شيطاني، وقال النبي ﷺ: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة، فيراه في المنام».

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحي، فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح؛ فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منهبة على اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك، ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار؛ فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين، وعكسه رؤيا العتمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام».

* * *

الفاتحة الشافية

وقد اشتملت على الشفاءين:

شفاء القلوب وشفاء الأبدان.

فأما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال؛ فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد،وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها، فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية: أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه؟

والتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ علماً ومعرفة، وعملاً وحالاً يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق آخر، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان وعزله عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسرًا، إذا حقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة، وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله. ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم

اللقاء، إذا حقت الحقائق وفاز المحققون ،وخسر المبطلون وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء :(١) عبودية الله لا غيره.(٢) بأمره وشرعه.(٣) لا بالهوى. (٤) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم وأفكارهم. (٥) بالاستعانة على عبوديته به. (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ فإن ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد، وهما الرياء، والكبر، فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله كلامه، وفهمت عنه فهمًا خاصًّا اختصها به من معاني هذه السورة.

وأما تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة.

ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري :«أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي من العرب، فلم يقْرُوهم ولم يضيفوهم ، فلدغ سيد الحي، فأتوهم، فقالوا: هل عندكم من رُقية، أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا، فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً. فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قَلَبَة. فقلنا: لا تجعلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فأتيناه، فذكرنا له ذلك.

فقال: «ما يدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم»».

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنته عن الدواء وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم، فكيف إذا كان المحل قابلاً ؟

* * *

فاتحة التفنيد

وأيضًا، فقد اشتملت الفاتحة الرد على المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذا يعلم بطريقين، مجمل ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. وما جاء به علمًا وعملاً في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى، وكل ذلك مسلم إلى رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية، بحيث يكون من ضرب المدينة. فهو من الصراط المستقيم ،وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال. فما ثمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث: طريق الرسول ﷺ وما جاء به، وطريق أهل الغضب، وهي طريق من عرف الحق وعانده. وطريق أهل الضلال: وهي طريق من أضله الله عنه، ولهذا قال عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم: «الصراط المستقيم: هو الإسلام» وقال عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «هو القرآن» وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره، وقال سهل بن عبد الله: «طريق السنة والجماعة» وقال بكر بن عبد الله المزني «طريق رسول الله ﷺ».

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علمًا وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره، فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له.

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه باطل. وهو من صراط الأمتين: الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال.

إثبات الربوبية لا يحتاج إلى دليل

وأما المفصل: فبمعرفة المذاهب الباطلة، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها. فنقول: الناس قسمان: مقر بالحق تعالى، وجاحد له. فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى، والرد على من جحده، بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين.

وتأمل حال العالم كله، علويه وسفليه، بجميع أجزائه: تجده شاهدًا بإثبات صانعه وفاطره ومليكه. فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده، لا فرق بينهما، بل دلالة الخالق على المخلوق، والفعال على الفعل، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقية العلوية، والفطر الصحيحة، أظهر من العكس.

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه، إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه، ولا ريب أنهما طريقان صحيحان، كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما.

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير، وأما الاستدلال بالصانع فله شأن. وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم:١٠]، أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١].

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية قدس الله روحه يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمها.

اختلاف الناس في الألوهية

ولكن من الناس طوائف تريهم فطرتهم هذا المقدار من الحق، فلا يشركون بالله في ربوبيته أحدًا، ولا يثبتون معه خالقًا آخر، لكنهم أهل إشراك به في إلهيته. وهم المقرون بأنه وحده رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين، ورب السماوات السبع، ورب العرش العظيم. وهم مع هذا يعبدون غيره، ويعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم.

وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا. فهؤلاء لم يوفوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقه، وإن كان لهم نصيب من ﴿نَعْبُدُ﴾ لكن ليس لهم نصيب من «إياك نعبد» المتضمن معنى: لا نعبد إلا إياك، حبًا وخوفًا ورجاء وطاعة وتعظيمًا، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تحقيق لهذا التوحيد، وإبطال للشرك في الإلهية، كما أن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تحقيق لتوحيد الربوبية، وإبطال للشرك به فيها، وكذلك قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ﴾ فإنهم أهل التوحيد، وهم أهل تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وأهل الإشراك: هم أهل الغضب والضلال.

تعطيل التعطيل

وقد تضمنت الفاتحة الرد على الجهمية معطلة الصفات، أهل التوحيد الناقص، الذين ينفون أن تكون ذات الله ﷻ متصفة بالعلم والقدرة والرزق ونحو ذلك من وجوه:

أحدها: من قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه، من صفات كماله، ونعوت جلاله، إذ مَنْ عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق.

وغايته: أنه محمود من وجه دون وجه، ولا يكون محمودًا بكل وجه، وبكل اعتبار، بجميع أنواع الحمد: إلا من استولى على صفات الكمال جميعها. فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها.

وكذلك في إثبات صفة الرحمة له ما يتضمن إثبات الصفات التي تستلزمها: من الحياة، والإرادة والقدرة، والسمع والبصر، وغيرها.

وكذلك صفة الربوبية: تستلزم جميع صفات الفعل وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال: ذاتًا وأفعالاً، كما تقدم بيانه.

فكونه محمودًا إلهاً ربًّا، رحمانًا رحيمًا، ملكاً معبودًا، مستعانًا، هاديا منعمًا، يرضى ويغضب مع نفي قيام الصفات به جمع بين النقيضين. وهو من أمحل المحال.

وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين:

أحدهما: أنها من لوازم كماله المطلق. فإن استواءه على عرشه من لوازم علوه، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا في نصف الليل .الثاني: من لوازم رحمته وربوبيته. وهكذا سائر الصفات الخبرية.

الوجه الثاني: أن السمع ورد بها، ثناء على الله ومدحًا له، وتعرفًا منه إلى عباده بها. فجحدها وتحريفها عما دلت عليه، وعما أريد بها مناقض لما جاءت به. فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال، وأن تستدل بالعقل كما تقدم.

كسر الجبر

وكذلك تضمنت الرد على الجبرية، الذين يقولون: إن أفعال العباد كلها لا خيار لهم فيها.وذلك من وجوه:

أحدها: من إثبات عموم حمده سبحانه. فإنه يقتضي أن لا يعاقب عبيده على ما لا قدرة لهم عليه، ولا هو من فعلهم، بل هو بمنزلة ألوانهم، وطولهم وقصرهم، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم. فهو الفاعل لقبائحهم في الحقيقة. وهو المعاقب لهم عليها. فحمده عليها يأبى ذلك أشد الإباء، وينفيه أعظم النفي. فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علوّا كبيرًا، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التي فعلوها حقيقة. فهي لا أفعاله، وإنما أفعاله العدل، والإحسان والخيرات.

الوجه الثاني: إثبات رحمته ورحمانيته ينفي ذلك. إذ لا يمكن اجتماع هذين الأمرين قط أن يكون رحمانًا رحيمًا ويعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه، ولا هو من فعله، بل يكلفه ما لا يطيقه، ولا له عليه قدرة ألبتة، ثم يعاقبه عليه. وهل هذا إلا ضد الرحمة. ونقض لها وإبطال؟ وهل يصح في معقول أحد اجتماع ذلك، والرحمة التامة الكاملة، في ذات واحدة؟

الوجه الثالث: إثبات العبادة والاستعانة لهم، ونسبتها إليهم، بقولهم: ﴿نَعۡبُدُ﴾، ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ وهي نسبة حقيقية لا مجازية. والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التي هي من أفعال عبيده، بل العبد حقيقة هو العابد المستعين. والله هو المعبود المستعان به.

إثبات النبوات

وتضمنت الفاتحة الرد على منكري النبوات.

وذلك من وجوه:

أحدهما: إثبات حمده التام. فإنه يقتضي كمال حكمته، وأن لا يخلق خلقه عبثا، ولا يتركهم سُدى، لا يؤْمَرون ولا ينهون. ولذلك نزه الله نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه. وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة وأن يكون ما أنزل على بشر من شيء فإنه ما عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه، ولا قدره حق قدره، بل نسبه إلى ما لا يليق به، ويأباه حمده ومجده.

فمن أعطى الحمد حقه علمًا ومعرفة وبصيرة استنبط منه «أشهد أن محمدا رسول الله» كما يستنبط منه «أشهد أن لا إله إلا الله» وعلم قطعًا أن تعطيل النبوات في منافاته للحمد، كتعطيل صفات الكمال، وكإثبات الشركاء والأنداد.

الثاني: إلهيته، وكونه إلهاً. فإن ذلك مستلزم لكونه معبودًا مطاعًا. ولا سبيل إلى معرفة ما يعبد به ويطاع إلا من جهة رسله.

الثالث: كونه ربا. فإن الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم. وجزاء محسنهم بإحسانه، ومسيئهم بإساءته، هذا حقيقة الربوبية. وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة.

الرابع: كونه رحمانًا رحيما. فإن من كمال رحمته: أن يعرف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه، ويباعدهم منه. ويثيبهم على طاعته، ويجزيهم بالحسنى. وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة. فكانت رحمته مقتضية لها.

الخامس: ملكه. فإن الملك يقتضي التصرف بالقول، كما أن الملك يقتضي التصرف بالفعل، فالملك هو المتصرف بأمره وقوله فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء. والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله. والله له الملك. وهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل.

وتصرفه بقوله نوعان: تصرف بكلماته الكونية، وتصرف بكلماته الدينية، وكمال الملك بهما.

فإرسال الرسل: موجب كمال ملكه وسلطانه، وهذا هو الملك المعقول في فطر الناس وعقولهم. فكل ملك لا تكون له رسل يبثهم في أقطار مملكته فليس بملك.

وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه. فإنهم رسل الله في خلقه وأمره.

السادس: ثبوت «يوم الدين» وهو يوم الجزاء، الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرًا وشرًّا، وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة، وقيام الحجة التي بسببها يدان المطيع والعاصي.

السابع: كونه معبودًا. فإنه لا يعبد إلا بما يحبه ويرضاه. ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله. فإنكار رسله إنكار لكونه معبودًا.

الثامن: كونه هاديا إلى الصراط المستقيم. وهو معرفة الحق والعمل به، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب. فإن الخط المستقيم: هو أقرب خط موصل بين نقطتين. وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل. فتوقفه على الرسل ضروري. أعظم من توقف الطريق الحسي على سلامة الحواس.

التاسع: كونه منعمًا على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم. فإن إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم، وجعلهم قابلين الرسالة، مستجيبين لدعوته. وبذلك ذكّرهم منته عليهم، وإنعامه في كتابه.

العاشر: انقسام خلقه إلى منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالين. فإن هذا الانقسام ضروري بحسب انقسامهم في معرفة الحق، والعمل به إلى عالم به، عامل بموجبه. وهم أهل النعمة..وعالم به معاند له. وهم أهل الغضب. وجاهل به وهم الضالون. هذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل. فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة. فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة. وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع. فالرسالة ضرورية.

وقد تبين لك بهذه الطريق، والتي قبلها: بيان تضمنها لثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهي. وهو الحق الذي خُلقت به وله السماوات والأرض، والدنيا والآخرة. وهو مقتضى الخلق والأمر، ونفيه نفي لهما.

وكلم الله موسى تكليما

إذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم.

فإن حقيقة الرسالة: تبليغ كلام المرسل. فإذا لم يكن ثَمَّ كلام فماذا يبلِّغ الرسول؟ بل كيف يعقل كونه رسولاً؟ ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلماً، أو يكون القرآن كلامه فقد أنكر رسالة محمد ﷺ، بل ورسالة جميع الرسل، التي حقيقتها: تبليغ كلام الله

تبارك وتعالى. ولهذا قال منكروا رسالته ﷺ عن القرآن : ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر] وإنما عنوا القرآن المسموع الذي بُلِّغوه، وأنذروا به.

فمن قال: إن الله لم يتكلم به، فقد ضاهأ قوله قولهم. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

* * *

عبادة واستعانة

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين: فنصفهما له تعالى وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصفهما لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له. ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبّا خاضعًا. ومن هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوباً لهم . بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم: منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم. فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨] ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ إلى قوله :﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾ [المؤمنون:٨٤- ٨٩] ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

و«الاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه. فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عيه في أموره مع ثقته به لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذان الأصلان وهما التوكل، والعبادة قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها. هذا أحدها.

الثاني: قول شعيب :﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود] .

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ [هود].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)﴾ [الممتحنة].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل].

السادس: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)﴾ [الرعد].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين. وهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها. ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله» و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة. لأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب. فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به. و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد. فكان من الشطر الذي له، وهو «اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس. ولأن «الاستعانة » طلب منه، و«العبادة» طلب له.

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، و «الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك. وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و «الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها. فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و«العبودية» محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدًا، حتى يقضي العبد نحبه.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم. وفيه الاهتمام وشدة العناية به. وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصر، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك. والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة] ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة] كيف تجده

في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ هو في قوة لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك. وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين. ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلاً: إياك أحب. وإياك أخاف. كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره، ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف.

نستعين بالله على عبادته

إذا عرفت هذا؛ فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام.

أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها. فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك. فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته. وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه : تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته. ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

إمداد الكافر.. زيادةُ حُجة عليه

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة. بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها. ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته. كانت زيادة له في شقوته. وبعده عن الله وطرده عنه. وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته: كان مبعدًا له عن مرضاته قاطعًا له عنه ولابد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته. ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه. ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا، لا بخلاً. وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه. فيظن بجهله أن الله لا

يحبه ولا يكرمه. ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه. وهذا حشو قلبه ولا يشعر به. والمعصوم من عصمه الله. والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار. وعتابه الباطن لها. كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إلي؟ والعاقل خصم نفسه. والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خيرته وعاقبته مغيبة عنك. وإذا لم تجد من سؤاله بدا، فعلّقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة. وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة. ولا تكن استخارة اللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها. ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر] أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته وما ذاك لكرامته علي؛ ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخوّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه علي ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره. فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته. إنما يكرم من يكرم بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا . وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

العبادة بلا استعانة.. نقص

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان.

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها. بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة. فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء. ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان. وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر، فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه. فهم موكولون إلى أنفسهم. مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد. قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم. ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضرر والنفع، والعطاء والمنع. وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به. ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولابد. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي

كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأسعف بها. سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له. فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ولا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر. فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه. فالحال من الدنيا. فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

متابعة وإخلاص

إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققًا بـ«إياك نعبد» إلا بأصلين عظيمين.

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق «إِيَّاك نعبد».

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلى أربعة أقسام:

الضرب الأول: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل «إِيَّاك نعبد» حقيقة. فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمّهم. بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعا ، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم ألبتة، بل من جاهل بشأنهم وجاهل بربه. فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه. لا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ

﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً. قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا: لم يقبل ،وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصا: لم يقبل. حتى يكون خالصًا وصوابًا، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥] فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره. وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورا. وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي ﷺ: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا. فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقًا لشرع، وليس هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس والمرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله ﷻ. ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران] يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص.

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم. فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم. فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر كجهال العباد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله. كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة، وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: مَنْ أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله، كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال. فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة، فلا تقبل ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥] فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الميزان الصحيح لأفضلية العبادة

ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثًا لا أصل له « أفضل الأعمال أحمزها » أي أصعبها وأشقها.

وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه. ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا آية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا أن هذا مقصود لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعدّ، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر. فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعد إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْر النعم» وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي.

واحتجوا بقوله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء».

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم. لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهيب. ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه. حتى كأن الله تعالى يخاطبك به. فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشْر الآخر من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير: فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق. والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل لا يزال متنقلاً في منازل العبودية. كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم. وإن رأيت العباد رأيته معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم. وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم.

فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾. القائم بهما صدقًا. ملبسه ما تهيأ. ومأكله ما تيسر. واشتغاله بما أمره الله به في كل وقت بوقته. ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليا. لا تملكه إشارة. ولا يتعبده قيد. ولا يستولي عليه رسم. حر مجرد. دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه. ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق. ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها. وكلها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله. فهو لله وبالله ومع الله. قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فواهًا له! ما أغربه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه! والله المستعان. وعليه التكلان.

حرمان الجبْري من حلاوة العبادة

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة. وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: الجبرية الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصرف الإرادة، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة. وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة.

وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها. وليست الصلاة قرة أعينهم. وليست الأوامر سرور قلوبهم، وغذاء أرواحهم وحياتهم. ولهذا يسمونها «تكاليف» أي قد كلفوا بها. ولو سمى مُدّع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا، وقال :إني إنما أفعله بكلفة: لم يعده أحد محبًّا له. ولهذا أنكر هؤلاء أو كثير منهم محبة العبد لربه. وقالوا: إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به. لا أنه يحب ذاته. فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه. وحقيقة العبودية هي كمال المحبة. فأنكروا حقيقة العبودية ولبها. وحقيقة الإلهية: كونه مألوهًا محبوبًا بغاية الحب، المقرون بغاية الذل والخضوع، والإجلال والتعظيم. فأنكروا كونه محبوبًا. وذلك إنكار لإلهيته، وشيخ هؤلاء: هو الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري في يوم أضحى. وقال: «إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا » وإنما كان إنكاره: لكونه تعالى محبوبًا محبًّا، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه، التي هي الخلة عند الجهمية، التي يشترك فيها جميع الخلائق. فكلهم أخلاء الله عندهم.

وبعضٌ يمنُّون إسلامَهم

الصنف الثاني:القَدَرة النُفاة، الذين يقولون إن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضًا كقوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل] وقوله: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النمل] وقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها» وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر].

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجرًا وثوابًا. لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أي : يرجع إليه منه.

وإنما كان الجزاء ثوابًا والله أعلم لأنه يثوب إلى العامل، وترجع إليه ثمرة عمله في الدنيا لينقدها ويحاسب نفسه عليها، ويعرف ما في عمله من نقص وانحراف عن الجادة ولابد بقدر ما وجد في ثمرته التي ثابت، ورجعت إليه في الدنيا، ككل الشئون والأعمال الدنيوية، من صناعة

وزراعة وتجارة وغيرها، فيتدارك العبد النقص، ويتحرى الصراط المستقيم. فإذا لم ينقد عمله، ولم يحاسب نفسه، لما يغلب عليه من الغفلة والجهالة والتقليد الأعمى، كان ذلك قاطعًا لعذره يوم القيامة.

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاء ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى.

قالوا: ويدل عليه الوزن. فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى. وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل. وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء ألبتة. وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته، وينعم من أفنى عمره في معصيته. وكلاهما بالنسبة إليه سواء. وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات. والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح .وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنًا لها. وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله. ما أجهلهم بالله وأغرهم به ، جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، حتى قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة. ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء ألبتة.

والطائفتان جائرتان منحرفتان عن الصراط المستقيم الذي فطر الله عليه عباده وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب. وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب. مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنَّه وصدقته على عبده. إن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحببها إليه، وزينها في قلبه وكره إليه أضدادها. ومع هذا فليست ثمنًا لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها إذا بذل العبد فيها نصحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه. فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها.

فلذلك لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم لكانت

رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ. ولهذا نفى النبي ﷺ دخول الجنة بالعمل، كما قال: "لن يدخل أحدا منكم الجنة عمله "وفي لفظ: "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله". وفي لفظ: "لن ينجي أحدا منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل] ولا تنافي بينهما. إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد. فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًّا على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجابًا. وحق لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة. ويكفي في جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سماواته وأرضه في منَّته. وأن من تمام الفرح والسرور والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنَّة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقرارًا بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة لها لأجلها. فهل يتقلب أحد قط إلا في منته؟ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات].

واحتمال منة المخلوق: إنما كانت نقصًا لأنه نظيره. فإذا مَنَّ عليه استعلى عليه، ورأى الممنون عليه نفسه دونه. هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله ﷺ المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «الله ورسوله أَمَنُّ» ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها، فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده. فهو المنان عليهم. بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها وكملها لهم، وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل].

فهذه باء السببية، ردًّا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ولا هي أسباب له.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء كما هي مبطلة لقول أولئك. وأدلة المعقول والفطرة أيضًا تبطل قول الفريقين. وتبين لمن له قلب ولب مقدار قول أهل السنة. وهم الفرقة الوسط المثبتون لعموم مشيئة الله وقدرته، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدرًا وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعًا من الحق، وارتكبت لأجله نوعًا من الباطل بل أنواعًا. وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة] و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾ [الجمعة].

تَفَلسُف

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها، وخروج قواها عن قوى النفوس البهيمية. فلو عُطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم. والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة، فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها.

المحبة أساس العبادة

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية، أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته، ومراده بها.

فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشُبه الباطلة، والقواعد الفاسدة، ما عندهم وراء ذلك شيء. قد فرحوا بما عندهم من المحال، وقنعوا بما ألفوه من الخيال. ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم، لما ارتضوا بدونه، ولكن عقولهم قصرت عنه، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة، ولم يشعروا به، ليجتهدوا في طلبه، ورأوا أن ما معهم خير من الجهل، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.

فتركّب من هذه الأمور إيثار ما عندهم على ما سواه. وهذه بلية الطوائف. والمعافى من عافاه الله.

فاعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب ﷻ، ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلها، بل هو الإله الحق وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل. وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالمقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه مَنْ خلق السماوات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلاً. ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سدى مهملاً. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا

خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون] أي لغير شيء ولا حكمة ولا لعبادتي ومجازاتي لكم، وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها. قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] أي مهملاً، قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي. والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة العبادة امتثالها. وقال تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر] وقال: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية:٢٢].

فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فليتأمل اللبيب الفُرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي، يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه؛ وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كَحُبِّه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره. واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع دون وجود شرطه وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم. فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله. ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك لا يغفره الله لصاحبه ألبتة، ولا يهديه الله. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ

ﭐقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه. أو معاملة أحدهم على معاملة الله. فهو ممن ليس الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ،وإن قال بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه. وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله.

الأركان الأربعة للعبادة التامة

ومبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب «إياك نعبد» حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

العبودية ذروة الشرف

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم. فقال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾

[الأعراف:٥٩] وكذلك هود وصالح وشعيب [الأعراف:٦٥، ٧٣، ٨٥] وإبراهيم قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) ﴾ [المؤمنون].

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه. فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾ [الأعراف] وهذا الموقف يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنبياء:١٩] هاهنا. ثم يبتدئ ﴿ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) ﴾ [الأنبياء] فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي إن له من في السماوات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا. ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني لا يأنفون عنها ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ، يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم، فالأول: وصف لعبيد ربوبيته. والثاني: وصف لعبيد إلهيته. وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلى آخر السورة [الفرقان: ٦٣-٧٧]. وقال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) ﴾ [الإنسان] وقال: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ [سورة ص:١٧] وقال: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ [سورة ص:٤١] وقال: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [سورة ص:٤٥] وقال عن سليمان: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) ﴾ [سورة ص:٣٠] وقال عن المسيح: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف:٥٩] فجعل العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى. ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته. فقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة:٢٣] وقال تبارك وتعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان:١] وقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف:١] فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) ﴾ [الجن] فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه. وقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء:١] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ؛فإنما أنا عبد ،فقولوا :عبد الله ورسوله»

وفي الحديث: «أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد» وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو قال: «قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر».

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده. فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ......﴾ [الزمر] وجعل الأمن المطلق لهم. فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف] وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل].

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان. فقال في حديث جبريل وقد سأله عن الإحسان :«أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

لزوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر] وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر] واليقين هاهنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفي الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه وأرضاه أن النبي ﷺ قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه » أي الموت وما فيه، فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان :«من كان يعبد؟ وما يقول في رسول ﷺ؟» ويلتمسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود. فيسجد المؤمنون. ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود. فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد حسب مرتبته.

انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم] فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان:١٧] فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة. وأما المطلقة: فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر] وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف] وقال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر] وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾....﴾ [الفرقان] وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر] وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه: إما مُنكَرا، كقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم] والثاني: معرفًا باللام، كقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان:١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده. فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر. كقوله: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم. كقوله: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٣].

وقد يقال: إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع. يقال: «طريق معبد» إذا كان مذللاً بوطء الأقدام، و:«فلان عبَّده الحب» إذا ذلله، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و«السجود» كذلك. قال تعالى في القنوت الخاص: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩] وقال في حق مريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم] وهو كثير في القرآن.

وقال في القنوت العام: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الروم] أي خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف] وقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم] وهو كثير في القرآن.

وقال في السجود العام: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد].

ولهذا كان هذا السجود الكُره غير السجود المذكور في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:١٨] فخص بالسجود هنا كثيرًا من الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل :﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل:٤٩] وهو سجود الذل والقهر والخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه تعالى.

مراتب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ علماً وعملاً

للعبودية مراتب بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان: إحداهما: دينه الأمري الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

خاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بحسن النية في تلقي هذه النعم والآلاء من ربهم العليم الحكيم، الذي ما أعطى عباده هذه النعم إلا ليربيهم بها، وينمي فيهم ملكات الخير، ويزيدهم بها من عناصر الإنسانية الكريمة يرقون بها على معارج الخير والإحسان والرشد والحكمة، فيكونون من الأبرار. فهم في كل شئونهم وأحوالهم عابدون ذاكرون لربهم الرحمن. بكل أنواع الذل والخضوع والمحبة والإسلام. فهم في حقلهم عابدون، وفي متاجرهم عابدون، وفي مضاجعهم مع أزواجهم عابدون، وهكذا لا يرون في شيء مما آتاهم الله ما يشغلهم عن ربهم وينسيهم أسماءه، ما يرون في شيء إلا أنه عنصر جديد من عناصر التربية والإحسان، فيزدادون لمسديها إليهم سبحانه شكرًا وحبًّا وخضوعًا وذلًّا وإسلامًا وطاعة.

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة. ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات. وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات. لأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

قواعد العبودية

ورحى العبودية على خمس عشرة قاعدة. من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل ، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة، فهذا قدر زائد على الإخلاص. فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان.

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وكذلك النصح في العبودية. ومدار الدين عليه. وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له. وأصل هذا واجب. وكماله مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق، وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب، وهو مرتبة المقربين.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن، أو بضع وتسعين، وله طرفان أيضًا: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه كالرضا. فإن في وجوبه قولين:

فمن أوجبه قال: السخط حرام. ولا خلاص عنه إلا بالرضا. وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

ومن قال هو مستحب، قال: لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السنة، بخلاف الصبر، فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه. وكذلك التوكل. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس] وأمر بالإنابة. فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٤] وأمر بالإخلاص كقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥] وكذلك الخوف كقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة:١٥٠] وقوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة] وكذلك الصدق قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ [التوبة] وكذلك المحبة. وهي أفرض الواجبات. إذ هي قلب العبادة المأمور بها، ومخها وروحها.

وأما الرضا: فإنما جاء في القرآن مدحُ أهله، والثناء عليهم. لا الأمر به.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم. وظن أنهما متباينان وليس كما ظنه. فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به ، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها. فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربًّا وإلها، والرضا بأمره الديني، فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلمًا إلا بهذا الرضا: أن يرضى بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً.

ومن هذا أيضًا اختلافهم في الخشوع في الصلاة، وفيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته. فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر مَن سَها في صلاته بسجدتي السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله: «إن الشيطان يأتي أحدكم في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا ـ لما لم يكن يذكر ـ حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى» ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه، كما قال النبي ﷺ: «إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها، ثلثها، ربعها حتى بلغ عشرها» وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» فليست صحيحة باعتبارها ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة، ولا ينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها. فيقال «صلاة صحيحة» مع أنه لا يثاب عليها فاعلها، والقول بأن الصلاة التي لا خشوع فيها ألبتة ولا تدبر للقراءة والذكر تسمى صحيحة، مبني على أن كلمة «الصحة» إنما تطلق على ما اجتمعت الشروط الاصطلاحية في أعمالها البدنية الظاهرة، دون الأعمال الباطنة كالإخلاص، كما تطلق في عرف الأطباء على سلامة الجسد. دون سلامة النفس من فساد العقائد والأخلاق. وصحة الصلاة بهذا المعنى لا تقتضي سقوط الفرض وعدم المؤاخذة في الآخرة. ولا مراد أنها صحيحة ظاهرًا كتسمية المنافق مسلمًا في الظاهر.

والقصد: أن هذه الأعمال: – واجبها ومستحبها – هي عبودية القلب. فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك. وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء – وهو القلب – قائمًا بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته. وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق، وهي نوعان: كفر، ومعصية.

فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها. والتوبة منها. وإلا فهو قلب فاسد. وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح. فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضا: شهوة المحرمات وتمنيها. وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى. فشهوة الكفر والشرك: كفر. وشهوة البدعة: فسق. وشهوة الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزًا بعد بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع. ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا تواجه المسلمان، بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: هذا القاتل. يا رسول الله. فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه» فنزله منزلة القاتل، لحرصه على قتل صاحبه، في الإثم دون الحكم. وله نظائره كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

عبودية اللسان

وأما عبوديات اللسان الخمس. فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن. وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها

ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف: هل في حقه كلام مباح، متساوي الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره. أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله. ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لا له ولا عليه، كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي، وهذا شأن المباح.

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن للسان شأنا ليس لسائر الجوارح، وأكثر ما يكب الناس على مناخيرهم في النار حصائد ألسنتهم. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح. فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح به استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة. وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة.

وربما كانت الجوارح في الحركة مضرة، ومنفعة، ومسئولية سواء، وظهور ذلك من اللسان: إنما هو لكثرة استعمال الإنسان له. فهو متنبه له، وغافل عن الجوارح الأخرى وخصوصا السمع والبصر.

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين. فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين، كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك فقد يكون الشيء مباحًا، بل واجبًا، ووسيلته مكروهة كالوفاء بالطاعة المنذورة هو واجب، مع أن وسيلته وهو النذر مكروه منهي عنه. وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة، وهذا كثير جدًّا. فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

عبودية الجوارح

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضًا. إذ الحواس خمس. وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الإسلام والإيمان، وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر الإمام بها، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة: من رده، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف، وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها، ولا يجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا: نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه. وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات لشهوة مطلقًا، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام، والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلما، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته، وذلك أوجب الواجبات، فإنه قد ورد الأمر المشدد به في القرآن كثيرًا جدًّا، وجاء التوعد الشديد لمن عمي وغفل عن آيات الله الكونية. فإن العمى عنها مؤد ولابد إلى التكذيب بآيات الله في الأنفس والآفاق، ومن المحال أن يكون إيمان بالله وكتابه ورسوله إلا ثمرة التفكر في آيات الله في الأنفس وفي الآفاق.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضول. وكم قاد فضولها إلى فضول عزَّ التخلص منها، وأعيى دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهي قسمان:

عورة وراء الثياب وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة، ففقأ عينه، لم يكن عليه شيء، وذهب هَدَرا، بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حل لهم أن يفقئوا عينه» ورواه أبو داود. وفيه «ففقئوا عينه فقد هدرت».

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في الاطلاع عليها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات مات عاصيا قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاوس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة. وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها.

وفي السنن: أن رسول الله ﷺ: «نهى عن طعام المتبارين» وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوِّم، وربّ الخِبْرة، عند الحكم بالتقويم، ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغضوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك.

ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «من عرضت عليه ريحان فلا يرده، فإنه طيب الريح، خفيف المحمل».

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمَة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تَبِعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة. وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام، إذا لم يأمن على نفسه، ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا : هي عورة.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضًا مرتبة على البطش باليد، والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف.

والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه. ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر، ورمي الجمار.

والحرام: كقتل النفس التي حرم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب ما لا يحل ضربه، ونحو ذلك وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، أو ما هو أشد تحريمًا منه عند أهل المدينة كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونًا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولاسيما إن كسبت عليه مالا: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة] وكذلك كتاب المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين ، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابته،أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلاً، مذكورة في غير هذا الموضع، والمشي حول البيت للطواف الواجب. والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رَجْل الشيطان. قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[الإسراء:٦٤] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه: في الركوب في الغزو، والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين.

وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله ﷻ.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة.

* * *

مصطلحات وأساليب

وقد أكثر الناس القول في صفة منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره إلى الله تعالى، وأكثروا في عدّها، فمنهم من جعلها ألفًا، ومنهم من جعلها مائة، ومنهم من زاد ونقص، فكلٌّ وصفها بحسب سيره وسلوكه.

ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها، وكلّ يصف منازل سيره، وحال سلوكه. ولهم اختلاف في بعض منازل السير: هل هي من قسم الأحوال؟ والفرق بينهما: أن المقامات كسبية. والأحوال وهبية. ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامات. والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملاً كان أعلى مقاماً، وكل من كان أعلى مقامًا كان أعظم حالاً.

والصحيح في هذا: أن الواردات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوامع بوارق ولوائح عند أول ظهورها وَبُدُوِّها، كما يلمع البارق ويلوح عن بعد، فإذا نازَلتْه وباشرها فهي أحوال، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات. وهي لوامع ولوائح في أولها، وأحوال في أوسطها، ومقامات في نهاياتها. فالذي كان بارقا هو بعينه الحال. والذي كان حالاً هو بعينه المقام. وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب، وظهوره له، وثباته فيه.

فالحال ثمرة العلم ولا يصفو حال إلا بصفاء العلم المثمر له.

وعلى هذا، فإن الحال هو تكيف القلب وانصباغه بحكم الواردات، فهو يدعو صاحبه إلى المقام الذي جاء منه الوارد، كما تدعوه رائحة البستان الطيبة إلى دخوله والمقام فيه.

وهذا لأن الرجل قد يكون عالماً بالشيء ولا يكون متصفًا بالتخلق به واستعماله. فالعلم شيء والحال شيء آخر. فعلم العشق، والصحة ، والشكر، والعافية غير حصولها والاتصاف بها، فإذا غلب عليه حال تلك المعلومات صار علمه بها كالمغفول عنه. وليس مغفول عنه. بل صار الحكم للحال.

فإن العبد يعرف الخوف من حيث العلم. ولكن إذا اتصف بالخوف، وباشر الخوف قلبه: غلب عليه حال الخوف والانزعاج، واستغرق علمه في حاله. فلم يذكر علمه لغلبة حاله عليه.

ومَنْ هذه حالهُ فقد ظفر بالاستقامة. لأن العلوم إذا أثمرت الأحوال: كانت عنها الاستقامة في الأعمال. ووقوعها على وجه الصواب. وتحقق صاحبها في الإشارة إلى ما وجده من الأحوال. ولم تكن إشارته عن تخمين وظن وحسبان. واستحق اسم النسبة في صحة العبودية إلى الرحمن

ﷻ. لقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢] وقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا .....﴾ الآيات [الفرقان:٦٣-٧٦] وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] وقوله: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف].

والمقصود: أن هذا قد انتقل من أحكام العمل وحده إلى أحكام العمل بالحال المصاحب للعلم. فهو عامل بالمواجيد الحالية، والمصحوبة بالعلوم النبوية: فإن انفراد العلم عن الحال تعطيل وبطالة، وانفراد الحال عن العلم: كفر وإلحاد. والأكمل: أن لا يغيب عن شهود العلم بالحال، وإن استغرفه الحال عن شهود العلم، مع قيامه بأحكامه: لم يضره.

وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب، وينزل إلى ما دونه، ثم قد يعود إليه، وقد لا يعود.

ومن المقامات: ما يكون جامعًا لمقامين.

ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك.

ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات. فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجودها بدونهما.

و«التوكل» جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا. ولا يتصور وجوده بدونهما.

و «الرجاء» جامع لمقام الخوف والإرادة.

و «الخوف» جامع لمقام الرجاء والإرادة.

و «الإنابة» جامعة لمقام المحبة والخشية، لا يكون العبد منيبًا إلا باجتماعهما.

و «الإخبات له » جامع لمقام المحبة والذل والخضوع لا يكمل أحدها بدون الآخر إخباتاً.

و «الزهد» جامع لمقام الرغبة والرهبة. لا يكون زاهدًا من لم يرغب فيما يرجو نفعه، ويرهب مما يخاف ضرره.

ومقام «المحبة» جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة. فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة وبها تحققها.

ومقام «الخشية» جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته. فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته. قال النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

ومقام «الهيبة» جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام «الشكر» جامع لجميع مقامات الإيمان. ولذلك كان أرفعها وأعلاها. وهو فوق «الرضا» وهو يتضمن «الصبر» من غير عكس. ويتضمن «التوكل» و «الإنابة» و «الحب» و«الإخبات» و «الخشوع» و«الرجاء» فجميع المقامات مندرجة فيه. لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر، والصبر داخل في الشكر، فرجع الإيمان كله شكرًا. والشاكرون هم أقل العباد، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ].

ومقام «الحياء» جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقام «الأنس» جامع لمقام الحب مع القرب. فلو كان المحب بعيدًا عن محبوبه لم يأنس به. ولو كان قريبًا من رجل ولم يحبه لم يأنس به، حتى يجتمع له حبه مع القرب منه.

ومقام «الصدق» جامع للإخلاص والعزم. فباجتماعهما يصح له مقام الصدق.

ومقام «المراقبة» جامع للمعرفة مع الخشية، فبحسبهما يصح مقام المراقبة.

ومقام «الطمأنينة» جامع للإنابة والتوكل، والتفويض والرضا والتسليم، فهو معنى ملتئم من هذه الأمور. إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة. وما نقص منها نقص من الطمأنينة.

وكذلك «الرغبة» و «الرهبة» كل منهما ملتئم من «الرجاء» و «الخوف» ،والرجاء على الرغبة أغلب، والخوف على الرهبة أغلب.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومقربون، فالأبرار في أذياله، والمقربون في ذروة سنامه. وهكذا مراتب الإيمان جميعها. وكل من النوعين لا يحصى تفاوتهما، وتفاضل درجاتهما إلا الله.

و«المريد» في الاصطلاح: هو الذي قد شرع في السير إلى الله. وهو فوق العابد، ودون الواصل. وهذا اصطلاح بحسب حال السالكين. وإلا فالعابد مريد، والسالك مريد، والواصل مريد. فالإرادة لا تفارق العبد مادام تحت حكم العبودية.

و«العارف» فوق السالك. ولا يفارقه السلوك، لكنه مع السلوك قد ظفر بالمعرفة. فأخذ منها اسما أخص من اسم السالك. وهكذا الشأن في سائر المقامات والأحوال. فإنها لا تفارق من ترقى فيها. ولكن إذا ترقى في مقام أخذ اسمه، وكان أحق به مع ثبوت الأول له.

والمتكلمون في هذا الشأن يرجحون «المعرفة» على «العلم» جدًّا. وكثير منهم لا يرفع بالعلم رأسًا. ويعده قاطعًا وحجابًا دون المعرفة. وأهل الاستقامة منهم: أشد الناس وصية للمريدين بالعلم. وعندهم: أنه لا يكون ولي الله كامل الولاية من غير أولي العلم أبدًا. فما اتخذ الله ولا يتخذ وليا جاهلاً. والجهل رأس كل بدعة وضلالة ونقص. والعلم أصل كل خير وهدى وكمال.

والفرق بين «العلم» و«المعرفة» عند أهل الاستقامة من المتكلمين في هذا الشأن: أن «المعرفة» عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه. فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالمًا بالله، وبالطريق الموصل إلى الله، وبآفاتها وقواطعها. وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة. فالعارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله. ثم صدق الله في معاملته. ثم أخلص له في قصوده ونياته. ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخلفاته، ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته. ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته. ثم جرد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله، ولم يشُبْها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم. ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من (الله) أفضل صلواته. فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة، إذا سمى به غيره على الدعوى والاستعارة.

وحقيقة الفرق بين العلم والمعرفة من وجوه:

أحدها: أن «المعرفة» تتعلق بذات الشيء و «العلم» يتعلق بأحواله. فتقول: عرفت أباك، وعلمته صالحًا عالمًا. ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة. كقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩] وقوله: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [المائدة:٩٨] وقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:١٤].

فالمعرفة: حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس. والعلم: حضور أحواله وصفاته، ونسبتها إليه. فالمعرفة: تشبه التصور. والعلم: يشبه التصديق.

الثاني: أن «المعرفة» في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه. فإذا أدركه قيل: عرفه، أو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه. فإذا رآه علم أنه الموصوف بها، قيل: عرفه، قال الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [يونس:٤٥] وقال تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ ﴾ [يوسف] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾ [الأنعام:٢٠] لما كانت صفاته معلومة عندهم، فرأوه: عرفوه بتلك الصفات. وفي الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولًا: أتعرف الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم. فيقول: تَمَنَّ .فيتمنى على ربه» وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة:٨٩] فالمعرفة : تشبه الذكر للشيء. وهو حضور ما كان غائبًا عن الذكر. ولهذا كان ضد المعرفة: الإنكار، وضد العلم: الجهل. قال تعالى: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل:٨٣] ويقال : عرف الحق فأقر به. وعرفه فأنكره.

وقد وقع في القرآن لفظ «المعرفة» ولفظ «العلم» فلفظ «المعرفة» كقوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣] وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام:٢٠].

وأما لفظ «العلم» فهو أوسع إطلاقًا. كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:١٩] وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [آل عمران:١٨] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤] وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه] وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد:١٩] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم:٥٦] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص:٨٠] وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت] وقوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [النمل:٤٠] وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧] وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد:٢٠] وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ [البقرة:٢٢٣] وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود:١٤] وهذا كثير.

واختار سبحانه لنفسه اسم «العلم» وما تصرف منه. فوصف نفسه بأنه عالم، وعليم، وعلام، وعَلِمَ، ويعلم. وأخبر أن له علما، دون لفظ «المعرفة» في القرآن. ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له في معناه، ومن هاهنا تدرك أن هؤلاء القوم قد أخطئوا حين رجحوا اصطلاح «المعرفة» وأكثروا الدندنة حوله. وإنما جاريناهم في ذلك خروجًا من الخلاف، وحرصًا على المعاني المباركة الصائبة الكثيرة التي وصفوا بها العارفين.

وإنما جاء لفظ «المعرفة» في القرآن في مؤمني أهل الكتاب خاصة. كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ إلى قوله ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٢، ٨٣] وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [البقرة:١٤٦].

والسالكون ضربانْ أيضا من باب آخر: سالكون على الحال، ملتفتون إلى العلم، وسالكون على العلم، ملتفتون إلى الحال، حتى كأنهما غيران وحزبان، وكل فرقة منهما لا تأنس بالأخرى، ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه.

وهذا من تقصير الفريقين، حيث ضعف أحدهما عن السير في العلم. وضعف الآخر عن الحال في العلم. فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم. فأخذ هؤلاء العلم، وسَعته

ونوره. ورجحوه، وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه. ورجحوه. وصار الصادق الضعيف من الفريقين: يسير بأحدهما ملتفتًا إلى الآخر.

فهذا مطيع للحال. وهذا مطيع للعلم. لكن المطيع للحال متى عصى به العلم: كان منقطعا محجوبًا، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون. والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيعًا منقوصًا. مشتغلاً بالوسيلة عن الغاية.

وصاحب التمكين: يتصرف علمه في حاله، ويحكم عليه فينقاد لحكمه ويتصرف حاله في علمه، فلا يدعه أن يقف معه. بل يدعوه إلى غاية العلم، فيجيبه ويلبي دعوته. فهذه حال الكمل من هذا الأمة. ومن استقرأ أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدها كذلك.

فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم: دخل عليهم النقص والخلل. والله المستعان: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى] فكذلك يهب لمن يشاء علمًا. ولمن يشاء حالاً. ويجمع بينهما لمن يشاء. ويخلي منهما من يشاء.

واعلم أن الترتيب الذي يشير إليه كل مرتب للمنازل لا يخلو عن تحكم، ودعوى من غير مطابقة، فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام، ودخل فيه كله، فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة، ومقاماته وأحواله. وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات. لا يكون موفيا لذلك العقد والواجب إلا بها. وكلما وفي واجبًا أشرف على واجب آخر بعده. وكلما قطع منزلة استقبل أخرى.

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال في أول بداية سيره. فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد لسالك في نهايته. ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور من البصيرة. والتوبة، والمحاسبة أعظم من حاجة صاحب البداية إليها. فليس في ذلك ترتيب كلي لازم للسلوك.

بل إن التوبة – التي جعلوها من أول المقامات– هي غاية العارفين، ونهاية أولياء الله المقربين. ولا ريب أن حاجتهم إلى المحاسبة في نهايتهم، فوق حاجتهم إليها في بدايتهم.

واعلم أيضًا أن السائر إلى الله لا ينقطع سيره إليه مادام في قيد الحياة. ولا يصل العبد مادام حيا إلى الله وصولًا يستغني به عن السير إليه ألبتة وهذا عين المحال. بل يشتد سيره إلى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده، وأسمائه وصفاته. ولهذا كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق اجتهادًا، وقيامًا بالأعمال، ومحافظة عليها إلى أن توفاه الله. وهو أعظم من كان اجتهادًا وقيامًا بوظائف العبودية. فلو أتى العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير إلى الله. وإن بعد في طريق الطلب والإرادة.

وعلى هذا فإن تقسيم السائرين إلى الله إلى طالب، وسائر، وواصل، أو إلى مريد، يريد الله، ومراد ، أعلى منه، يريده الله ويجذبه إليه: تقسيم فيه مساهلة، لا تقسيمًا حقيقيا، فإن الطلب والسلوك والإرادة لو فارق العبد: لانقطع عن الله بالكلية.

ولكن هذا التقسيم باعتبار تنقل العبد في أحوال سيره وإلا فإرادة العبد المراد، وطلبه وسيره: أشد من إرادة غيره، وطلبه وسيره.

وأيضًا فإنه مراد أولاً، حيث أقيم في مقام الطلب، وجذب إلى السير. فكل مريد مراد، وكل واصل وسالك وطالب لا يفارقه طلبه ولا سيره، وإن تنوعت طرق السير، بحسب اختلاف حال العبد.

فمن السالكين: من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلب عليه من سيره بقلبه وروحه.

ومنهم: من سيره بقلبه أغلب عليه، أعني قوة سيره وحدته.

ومنهم - وهم الكمل الأقوياء - من يعطي كل مرتبة حقها. فيسير إلى الله ببدنه وجوارحه، وقلبه وروحه.

وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بأنهم دائماً في مقام الإرادة له. فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل] فالعبد أخص أوصافه، وأعلى مقاماته: أن يكون مريدًا صادق الإرادة، عبدا في إرادته، بحيث يكون مرادهُ تبعًا لمراد ربه الديني منه. ليس له إرادة في سواه.

فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلامًا مطلقًا في كل مقام. ببيان حقيقته وموجبه، وآفته المانعة من حصوله، والقاطع عنه، وذكر عامه وخاصه.

فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج، فمن تأمله - كسهل بن عبد الله التستري وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد، وأبي عثمان النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرازي - وأرفع من هؤلاء طبقة، مثل: أبي سليمان الداراني، وعون بن عبد الله - الذي كان يقال له حكيم الأمة وأضرابهما.. فإنهم تكلموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلامًا مفصلاً جامعًا مبينًا مطلقًا من غير ترتيب. ولا حصر للمقامات بعدد معلوم. فإنهم كانوا أجل من هذا. وهمهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة. ولهذا كلامهم قليل فيه البركة. وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة.

واعلم أن منتهى همة الصادقين أرباب البصائر إلى ثلاثة أشياء:

أحدها: الكشف عن منازل السير.

والثاني: الكشف عن عيوب النفس، وآفات الأعمال ومفسداتها.

والثالث: الكشف عن معاني الأسماء والصفات، وحقائق التوحيد والمعرفة.

وهذه الأبواب الثلاثة: هي مجامع علوم القوم. وعليها يحومون. وحولها يدندنون. وإليها يشمرون. فمنهم من جل كلامه ومعظمه: في السير وصفة المنازل. ومنهم من جل كلامه: في الآفات، والقواطع. ومنهم من جل كلامه: في التوحيد والمعرفة، وحقائق الأسماء والصفات.

والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق. فيستعين به على مطلبه. ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر، ويهدره به. فالكمال المطلق لله رب العالمين، وما من العباد إلا له مقام معلوم.

ولابد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم. إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقي السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم. ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه، ولعدوه سلوكًا عاميا، وللخاصة سلوك آخر، كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم «إن القوم كانوا أسلم، وإن طريقنا أعلم» وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه «إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه. وضبط قواعده وأحكامه. اشتغالا منهم بغيره. والمتأخرون تفرغوا لذلك. فهم أفقه».

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم. وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء. فالمتأخرون في شأن والقوم في شأن، و﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق].

فالأولى بنا: أن نذكر منازل «العبودية» الواردة في القرآن والسنة. ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها. إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله. وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق. فقال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩٧] فبمعرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية: يستكمل العبد الإيمان، ويكون من أهل ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق] .

ونذكر لها ترتيبًا غير مستحق، بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحسي، ليكون ذلك أقرب إلى تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس. فيكون التصديق أتم، ومعرفته أكمل، وضبطه أسهل.

فهذه فائدة ضرب الأمثال، وهي خاصة العقل ولبه، ولهذا أكثر الله تعالى منها في القرآن ونفى عقلها من غير العلماء. وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت] .

المنازل الأربع الأساسية الأولى

(١) اليقظة (٢) الفكرة (٣) البصيرة (٤) العزم

انتفاضة اليقظة

فأول منازل العبودية «اليقظة» وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين. ولله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى، وأوطانه التي سُبي منها.

واعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة، قلبه نائم وطرفه يقظان. فصاح به الناصح. وأسمعه داعي النجاح. وأذن به مؤمن الرحمن: حي على الفلاح.

فأولى مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم. وقد ذكرنا: أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه.

وكأنها هي القومة لله المذكورة في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ:٤٦].

فالقومة لله هي اليقظة من سِنَة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة. وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه. وأول أنوارها: لَحْظُ القلب إلى النعمة، على اليأس من عدِّها، والوقوف على حدها، والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير في حقها.

وهذا هو موجب اليقظة وأثرها. فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبيه. أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة. وكلما حدق قلبه وطرفه فيها، شاهد عظمتها وكثرتها. فيئس من عدها، والوقوف على حدها، وفرَّغ قلبه لمشاهدة منة الله عليه بها، من غير استحقاق، ولا استجلاب لها بثمن، فتيقن حينئذ تقصيره في واجبها. وهو القيام بشكرها.

فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية: محبة المنعم، واللهج بذكره وتذكر الله وخضوعه له، وإزراءه على نفسه. حيث عجز عن شكر نعمه. فصار متحققًا بـ«أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» وعلم حينئذ أن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار. وعلم حينئذ أن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. وعلم أن العبد دائمًا سائر إلى الله بين مطالعة المنة، ومشاهدة التقصير.

وهذا اللحظ يؤدي به إلى مطالعة الجناية، والوقوف على الخطر فيها، والتشمير لتداركها، والتخلص من رقها، وطلب النجاة بتمحيصها.

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة. ويعلم أنه على خطر عظيم فيها وأنه مسرف على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه. وقد ذم الله تعالى في كتابه من نسي ما تُقَدِّم يداه فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف:٥٧] فإذا طالع جنايته شمر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل. وتخلص من رقِّ الجناية بالاستغفار والندم. وطلب التمحيص. وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية، كتمحيص الذهب والفضة،وهو تخليصهما من خبثهما. ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص. فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب. ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النحل:٣٢] فليس في الجنة ذرة خبث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. فإن محصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. يبشرونهم بالجنة وكان من الذين: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [فصلت:٣٠] عند الموت: ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت].

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحًا وهي العامة الشاملة الصادقة - ولم يكن الاستغفار كاملاً تامًا - وهو المصحوب بمفارقة الذنب، والندم عليه وهذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من في يده قدح السكر، وهو يقول: أستغفر الله، ثم يرفعه إلى فيه. ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب. وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف المحصن، وإما لهما : مُحِّص في البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتان، والعصرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحج، والصيام عنه، وقراءة القرآن عنه، والصلاة وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء. قال الإمام أحمد: لا يختلفون في ذلك. وما عداهما فيه اختلاف. والأكثرون يقولون

بوصول الحج. وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه الإنفاق، وأحمد ومن وافقه: مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب. يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب، بدَنِيها وماليها.

فإن لم تف هذه بالتمحيص. محص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة. وشدة الموقف. وشفاعة الشفعاء. وعفو الله ﷻ.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلابد له من دخول الكير، رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص، ويتطهر في النار، فتكون النار طهرة له وتمحيصًا لخبثه. ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه وتراكمه. فإذا خرج خبثه وصفي ذهبه. وصار خاصًا طيبًا، أخرج من النار، وأدخل الجنة.

ثم إن من أعلى مراتب اليقظة: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام، والتنصل من تضييعها، والنظر إلى الظن بها لتدارك فائتها، وتعمير باقيها.

فيعرف ما معه من الزيادة والنقصان. فيتدارك ما فاته في بقية عمره التي لا ثمن لها، ويبخل بساعاته بل بأنفاسه عن ذهابها ضياعًا في غير ما يقَرِّبَه إلى الله. فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس، مع تفاوتهم في قدرة، قلة وكثرة. فكل نَفَس يخرج في غير ما يقرب إلى الله فهو حسرة على العبد في معاده، ووقفه له في طريق سيره، أو نكسة إن استمر، أو حجاب إن انقطع به.

فأما معرفة النعمة: فإنها تصفو بثلاثة أشياء: بنور العقل، وشيم بروق المنة، والاعتبار بأهل البلاء.

فهي النور الذي أوجب اليقظة، فاستنار القلب به لرؤية التنبه. وعلى حسبه قوة وضعفاً تصفو له مشاهدة النعمة. فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملبسه، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس. فليس له نصيب من هذا النور ألبتة. فنعمة الله بالإسلام والإيمان، وجذب عبده إلى الإقبال عليه، والتنعم بذكره، والتلذذ بطاعته: هو أعظم النعم. وهذا إنما يدرك بنور العقل، وهداية التوفيق.

وكذلك شَيمهُ بروق منن الله عليه. وهو النظر إليها، ومطالعتها من خلال سحب الطبع، وظلمات النفس. والنظر إلى أهل البلاء - وهم أهل الغفلة عن الله، والابتداع في دين الله - فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقًّا، فإذا رآهم، وعلم ما هم عليه، عظمت نعمة الله عليه في قلبه، وصفت له وعرف قدرها. فالضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء.

حتى إن من تمام نعيم أهل الجنة: رؤية أهل النار وما هم فيه من العذاب.

وأما مطالعة الجناية: فإنها تصح بثلاثة أشياء: بتعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد.

فمن كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته. لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه. ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونفس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس.

وأيضًا فإذا عرف حقارتها مع عظم قدر من خالفه عظمت الجناية عنده. فشمر في التخلص منها. وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به.

ومدار السعادة، وقطب رحاها: على التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابًا لا يرجى معه فلاح ألبتة. والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد. وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون بالآيات دون من عداهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣] وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات] وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة ق] وأخبر تعالى أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه. فقال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم].

وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام: فإنها تستقيم بثلاثة أشياء: سماع العلم، وإجابة داعي الحرمة، وصحبة الصالحين. وملاك ذلك كله: خلع العادات.

ذلك أن السالك: على حسب علمه بمراتب الأعمال، ونفائس الكسب. تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه. وكذلك تَفقُّد إجابة داعي تعظيم حرمات الله من قلبه: هل هو سريع الإجابة لها، أم هو بطيء عنها؟ فبحسب إجابة الداعي – سرعة وإبطاء – تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبة أرباب العزائم، المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى، يعرف به ما معه من الزيادة والنقصان.

والذي يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات، وتوطين النفس على مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة، والإعراض، وما على العبد أضر من ملك العادات له. وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين. فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه. فهو مقطوع. وعن فلاحه وفوزه ممنوع: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة].

منزلة الفكرة

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة. وهي كما تقدم تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماسًا له.

والفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة.

فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي. والتي تتعلق بالطلب والإرادة: هي الفكرة التي تميز بين النافع والضار.

ثم يترتب عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ما ينفع، فيسلكها، والطريق إلى ما يضر فيتركها.

فهذه ستة أقسام. لا سابع لها، هي مجال أفكار العقلاء.

وأصلها: الفكرة في التوحيد: وهي استحضار أدلته، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين. فكذلك من أبطل الباطل عبادة اثنين، والتوكل على اثنين، بل لا تصح العبادة إلا للإله الحق، والرب الحق. وهو الله الواحد القهار.

وهذه الفكرة هي حقيقة البراء والولاء. البراء من عبادة غير الله، والولاء لله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤] وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف] وقال أيضًا: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام] وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾....﴾ إلى آخرها [الكافرون] وهذه براءة منهم ومن معبودهم وسماها براءة من الشرك.

وهي حقيقة المحو والإثبات. فيمحو محبة ما سوى الله ﷻ من قلبه، علمًا وقصدًا وعبادة، كما هي ممحوة من الوجود. ويثبت فيه إلهيته سبحانه وحده.

وهي حقيقة الجمع والفرق. فيفرق بين الإله الحق وبين من ادعيت له الإلهية بالباطل. ويجمع تأليهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانته على إلهه الحق الذي لا إله سواه.

وهي حقيقة التجريد والتفريد. فيتجرد عن عبادة ما سواه، ويفرده وحده بالعبادة. فالتجريد نفي، والتفريد إثبات. ومجموعها هو التوحيد.

فهذا الولاء والبراء. والمحو والإثبات والجمع والتجريد. والتفرد المتعلق بتوحيد الإلهية: هو النافع المثمر المنجي. الذي به تنال السعادة والفلاح.

بصائر تهدي

فإذا صحت فكرته أوجبت له «البصيرة» فهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه. فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السماوات فأحاطت بهم، ووضع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء، وقد نصب الميزان، وتطايرت الصحف، واجتمعت الخصوم، وتعلق كل غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كثب. وكثر العطاش وقل الوارد. ونصب الجسر للعبور، ولُزَّ الناس إليه. وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه. والنار يحطم بعضها بعضًا تحته. والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين.

فينفتح في قلبه عين يرى بها ذلك. ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها، والدنيا وسرعة انقضائها.

فـ «البصيرة: نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأى عين فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم وهذا معنى قول بعض العارفين «البصيرة: تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به» وقال بعضهم «البصيرة: ما خلصك من الحيرة، إما بإيمان إما بعيان».

و«البصيرة» على ثلاث درجات. من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنهي، وبصيرة في الوعد والوعيد.

المرتبة الأولى من البصيرة

فالبصيرة في الأسماء والصفات: أن لا يتأثر بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله. بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله. فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر.

وعقد هذا: أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستويا على عرشه، متكلمًا بأمره ونهيه، بصيرًا بحركات العالم علويه وسفليه، وأشخاصه وذواته، سمعيا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم. وأمر الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك. موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزها عن العيوب والنقائص والمثال. فهو كما وصف نفسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه. حي لا يموت. قيوم لا ينام. عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. بصير يرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء. سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. تمت كلماته صدقًا وعدلاً، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبها ومثلاً. وتعالت ذاته أن تشبه شيئًا من الذوات أصلا. ووسعت الخليقة أفعاله عدلاً. وحكمة ورحمة

وإحسانًا وفضلاً. له الخلق والأمر. وله النعمة والفضل. وله الملك والحمد. وله الثناء والمجد. أول ليس قبله شيء. وآخر ليس بعده شيء. ظاهر ليس فوقه شيء. باطن ليس دونه شيء. أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد. ولذلك كانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل. كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه. لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولا ترك الإنسان سدى عاطلاً. بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته. تعرف إلى عباده بأنواع التعريفات. وصرف لهم الآيات. ونوع لهم الدلالات. ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب. ومد بينه وبينهم من عهده أقوي الأسباب. فأتم عليهم نعمه السابغة. وأقام عليهم حجته البالغة، وأفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة. وضمن الكتاب الذي كتبه: أن رحمته تغلب غضبه.

وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف، لجهلهم بالنصوص ومعانيها، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم، وإذا تأملت حال العامة الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم رأيتهم أتم بصيرة منهم، وأقوى إيمانًا، وأعظم تسليما للوحي، وانقيادًا للحق.

المرتبة الثانية من البصيرة

البصيرة في الأمر والنهي. وهي تجريده عن المعارضة بتأويل، أو تقليد، أو هوى. فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله، والأخذ به، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص.

وقد علمت بهذا أهل البصائر من العلماء من غيرهم.

المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد

وهي أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر، عاجلاً وآجلاً، في دار العمل ودار الجزاء. وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته، وعدله وحكمته. فإن الشك في ذلك في إلهيته وربوبيته. بل شك في وجوده. فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك. ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة، وإرسالها هملاً،وتركها سدى. تعالى الله عن هذا الحسبان علوًّا كبيرًا.

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية. ولهذا كان الصحيح: أن المعاد معلوم بالعقل. وإنما اهتُدي إلى تفاصيله بالوحي. ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفرًا به سبحانه. لأنه إنكار

لقدرته ولإلهيته. وكلاهما مستلزم للكفر به. قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ [الرعد] .

وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:٥] فعجبٌ قولهم! كيف ينكرون هذا. وقد خُلقوا من تراب ولم يكونوا شيئًا.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. فإنكارهم للبعث، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان. وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته. وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه.

ولصاحب كتاب منازل السائرين الذي نشرحه، شيخ الإسلام الهروي، في «البصيرة» طريقة أخرى، إذ جعل: «البصيرة ما يخلصك من الحيرة» وجعل الدرجة الأولى منها: أن تعلم أن خبر رسول الله ﷺ: من حقه أن تؤديه يقينًا، وتغضب له غيرة.

ومعنى كلامه: أن ما أخبر به الرسول ﷺ صادر عن حقيقة صادقة، لا يخاف متبعها فيما بعد مكروهًا. بل يكون آمنًا من عاقبة اتباعها. إذ هي حق. ومتبع الحق لا خوف عليه. ومن حق ذلك الخبر عليك: أن تؤدي ما أمرت به من غير شك ولا شكوى، والأحوط بك والذي لا تبرأ ذمتك إلا به تناول الأمر بامتثال صادر عن تصديق محقق، لا يصحبه شك، وأن تغضب على من خالف ذلك غيرة عليه أن يضيع حق، ويهمل جانبه.

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام من تمام «البصيرة» لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله: تكون الغيرة عليه أن يضيع، والغضب على من أضاعه. فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه. وذلك عين البصيرة. فكما أن الشك القادح في كمال الامتثال مُعمٍ لعين البصيرة، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله - إذا ضيعت، ومحارمه إذا انتهكت- معم لعين البصيرة.

ثم جعل الدرجة الثانية: أن تشهد في هداية الله للناس وإضلاله لهم: إصابة العدل، وتعاين في جذبه إياك من نفسك الأمارة بالسوء: حبل الوصل.

يريد رحمه الله بشهود العدل في هدايته من هداه، وفي إضلاله من أضله: أمرين.

أحدهما: تفرده بالخلق، والهدى والضلال.

والثاني: وقوع ذلك منه على وجه الحكمة والعدل، لا بالاتفاق، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، بل بحكمة اقتضت هدي من علم أنه يزكو على الهدى، ويقبله ويشكره عليه، ويثمر عنده، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، أصلاً وميراثًا. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام] وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هد وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه، من يليق به التقريب والهدى والإكرام، بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد. وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه.

ولا يبقى إلا أن يقال: فَلِمَ خلق من هو بهذه المثابة؟

فهذا سؤال جاهل ظالم ضال، مفرط في الجهل والظلم والضلال. لأن خلق الأضداد والمتقابلات هو من كمال الربوبية، كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والنعيم والجحيم.

أما قوله الآخر فيريد به أن تعاين في توفيقه لك للطاعة، وجذبه إياك من نفسك: أنه يريد تقريبك منه. فاستعار للتوفيق الخاص الجذب، وللتقريب الوصال، وأراد بالحبل السبب الموصل لك إليه.

فأشار بهذا إلى أنك تستدل بتوفيقه لك، وجذبك نفسك، وجعلك متمسكا بحبله الذي هو عهده ووصيته إلى عباده على تقريبه لك. تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر، وبذل النصيحة في العبودية. وهذا كله من تمام البصيرة التي تؤدي إلى درجة ثالثة منها رآها الهروي تفجر المعرفة، وتُنْبِت الفراسة.

وصدق - رحمه الله - فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف، التي لا تنال بكسبٍ ولا دراسة. إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبدًا في كتابه ودينه، على قدر بصيرة قلبه.

الفراسة ثمرة البصيرة

فالبصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر] قال مجاهد: للمتفرسين: وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله عز وجل» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر].

و«التوسم» تفعل من السيما. وهي العلامة. فسمي المتفرس متوسمًا. لأنه يستدل بما يشهد

على ما غاب. فيستدل بالعيان على الإيمان. ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء لأنهم يستدلون بها يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهي، والثواب والعقاب. وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء، وآتاه من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ما عرف به حقائق الأشياء ومزاياها وصفاتها، ليشكرها بحسن الانتفاع بها، ووضعها في مواضعها الصالحة لها بأصل الخلق والفطرة لأنها إنما خُلقت وسُخرت له. وبنوه هم نسخته وخلفاؤه. فكل قلب فهو قابل لذلك. وهو فيه بالقوة. وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة. وبعث الله رسله مذكرين ومنبهين ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي والإيمان، فيضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد، فيصير نورًا على نور. فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم، بزيادة مادته ودوامها. ولايزال في تزايد حتى يرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال. ومن لم يقبل هدي الله ولم يرفع به رأسا دخل قلبه في الغلاف والأكنة. فأظلم. وعمي عن البصيرة. فحجبت عنه حقائق الإيمان. فيرى الحق باطلاً، والباطل حقًّا، والرشد غيا، والغي رشدًا. قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين] و«الرين» و«الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له.

على حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة. ففراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره، متصلة بالله، ذلك أن همتهم لما تعلق بمحبة الله ومعرفته وعبوديته، ودعوة الخلق إليه على بصيرة. كانت فراستهم متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان. فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه، من الأعيان والأقوال والأعمال. وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب، وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله. فحملت كل إنسان على قدر استعداده، علمًا وإرادة وعملاً.

ففراسة هؤلاء دائمًا حائمة حول كشف طريق الرسول وتعريفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين. فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة. وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

قصد يحث على الاقتحام

فإذا انتبه وأبصر أخذ في «القصد» وصدق الإرادة، وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله. وعلم وتيقن أنه لابد له منه. فأخذ في أهبة السفر، وتعبئة الزاد ليوم المعاد. والتجرد عن عوائق السفر، وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج.

وقد رآه الشيخ الهروي:

«قصدًا يبعث على الارتياض، ويخلص من التردد، ويدعو إلى مجانبة الأغراض».

فهو يبعث على السلوك بلا توقف، ولا تردد، ولا علة غير العبودية، من رياء أو سمعة، أو

طلب محمدة، أو جاه ومنزلة عند الخلق، بحيث لا يلقى سببًا يعوِّق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلاً دونه إلا منعه، ولا صعوبة إلا سهَّلها، فيجعل ديدنه الاستسلام لتهذيب العلم، وإجابة داعي الحكم.

فهو ينقاد إلى العلم ليتهذب به ويصلح. ويقصد إجابة داعي الحكم الديني الأمري كلما دعاه. فإن للحكم في كل مسألة من مسائل العلم مناديا ينادي للإيمان بها علماً وعملاً. فيقصد إجابة داعيها.

أما الأسرار والحكم الداعية إلى شرع الحكم. فإجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال. فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال ، والمعرفة والحمد. فالأمر يدعو إلى الامتثال. وما تضمنه من الحكم. والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة.

ابتداء العزم على الانتهاء

فإذا استحكم قصده صار «عزما» جازما، مستلزمًا للشروع في السفر، مقرونًا بالتوكل على الله. قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

و«العزم» هو القصد الجازم المتصل بالفعل. ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود. وأن التحقيق: أن الشروع في الحركة ناشئ عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصلٍ ظُن أنه هو.

وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

و«العزم» نوعان. أحدهما: عزم المريد على الدخول في الطريق. وهو من البدايات. والثاني: عزم في حال السير معه. وهو أخص من هذا. وهو من المقامات. وسنذكره في موضعه إن شاء الله.

وفي هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ما له مما عليه، ليستصحب ما له ويؤدي ما عليه. وهو و«المحاسبة» وهي قبل «التوبة» في المرتبة. فإنه إذا عرف ما له وما عليه أخذ في أداء ما عليه، والخروج منه. وهو «التوبة».

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام، ويفارقه وينتقل إلى الثاني. كمنازل السير الحسي. هذا محال. ألا ترى أن «اليقظة» معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك «البصيرة» و «الإرادة» و «العزم» وكذلك «التوبة» فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضًا. بل هي في كل مقام مستصحبة. ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته. فقال تعالى في غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ

مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة] فجعل التوبة أول أمرهم وآخره. وقال في سورة أجل رسول الله ﷺ التي هي آخر سورة أنزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة وإلا قال في ركوعه وسجوده. «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن» فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولي لله. وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته. وما ينبغي له. قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب] فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

وكذلك «الصبر» فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات.

وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له.

ومثال ذلك: أن «الرضا» مترتب على «الصبر» لتوقف الرضا عليه. واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل: إن مقام «الرضا» بعد مقام «الصبر» لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر. فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية.

وإذا كان كذلك علمت أن «القصد» و«العزم» متقدم على سائر المنازل، وعلمت بذلك أن «المحاسبة» متقدمة على «التوبة» بالرتبة أيضًا. فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه، وهي حقيقة التوبة. وأن منزلة «التوكل» قبل منزلة «الإنابة» لأنه يتوكل في حصولها. فالتوكل وسيلة، والإنابة غاية.

* * *

(٥) منزلة المحاسبة

ذكرنا «اليقظة» و «الفكرة» و «البصيرة» و «العزم».

وهذه المنازل الأربع لسائر المنازل كالأساس للبنيان. وعليها مدار منازل السفر إلى الله. ولا يتصور السفر دون نزولها ألبتة. وهي على ترتيب السير الحسي. فإن المقيم في وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر، ثم يتبصر في أمر سفره وخطره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة. ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه. فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة «المحاسبة» وهي «التمييز» بين ما له وما عليه. فيستصحب ماله. ويؤدي ما عليه. لأنه مسافر سفر من لا يعود.

ومن منزلة «المحاسبة» يصح له نزول منزلة «التوبة» لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق، فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه. وهي حقيقة «التوبة» فكان تقديم «المحاسبة» عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضًا. وهو أن «المحاسبة» لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين. محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها. ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها، فالتوبة محفوفة بمحاسبتين. وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر:١٨] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقي الله به أو لا يصلح؟

والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ (١٨)﴾ [الحاقة] أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم».

ما غرّك بربك.. الكريم؟

وبداية المحاسبة أن تقايس بين نعمته عز وجل، وجنايتك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعَطَب.

وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد. ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل. وكل نقمة منه عدل. وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبية فاطرها وخالقها. فإذا قايست ظهر لك

أنها منبع كل شر، وأساس كل نقص، وأن حَدَّها: الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته لها ما زكت أبدا. ولولا هداه ما اهتدت. ولولا إرشاده وتوفيقه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة. وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها وتوقفه عليه كتوقف وجودها على إيجاده. فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود. فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود. فليس لها من ذاتها إلا العدم عدم الذات، وعدم الكمال فهناك تقول حقا: «أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي».

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات. فتعلم بهذه المقايسة: أيهما أكثر وأرجح قدرًا وصفة.

وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة.

آلات المقايسة

إلا أن هذه المقايسة تشق على من ليس له نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة، فهي تتوقف على نور الحكمة، وهو النور الذي نوَّر الله به قلوب أتباع الرسل، فبقدره ترى التفاوت، وتتمكن من المحاسبة.

ونور الحكمة هاهنا: هو العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والضار والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر. ويبصر به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها. وكلما كان حظه من هذا النور أقوى، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويلبس عليه. فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالا. فإن المحب يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السَخط تبدي المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها. ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه.

وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية. وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه! وأكثر الخلق عندهم: أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح. ذلك مبلغهم من العلم.

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة. وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة. فليحذر إنما هو مستدرج، ويميز بذلك أيضاً بين المنة والحجة. فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى!

فإن العبد بين منة من الله عليه، وحجة منه عليه، ولا ينفك عنهما، وذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤] وقوله : ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧] وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩].

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منه. وإلا فهي حجة. وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه. والدعوة إليه فهو منة منه. وإلا فهو حجة. وكل مالٍ اقْتُرن به إنفاق في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور فهو منة من الله عليه وإلا فهو حُجة وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول في الناس، وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة، وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد، اتصل بـه عـبرة ومزيد في العقل، ومعرفة الإيمان فهي منة، وإلا فهي حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد. فهو منـة من الله. وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به، وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به وطمأنينتها إليـه، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الوضع العظيم الخطر.ويميز بين مواقع المنن والمحن. والحجج والنعم. فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب الـسلوك: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة].

لك .. وعليك!

فإذا توغلت في هذه المقايسات: فتحت المحاسبة لك بابًا مـن التمييـز بـين مـا عليـك لله مـن وجوب العبودية والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، وبين مالك. فالذي لك: هو المباح الشرعي، فعليك حق، ولك حق، فأدِّ ما عليك يؤتك مالك.

ولابد من التمييز بين ما لك وما عليك. وإعطاء كل ذي حق حقه.

وكثير من الناس يجعل كثيرًا مما عليه من الحق من قسم ماله. فيتحـير بـين فعلـه وتركـه، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لاحق أدَّاه.

وبإزاء هؤلاء من يرى كثيرًا مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو تركه.

فيتعبد بترك ما له فعله، كترك كثير من المباحات. ويظن ذلك حقًّا عليـه، كمـن يتعبـد بـترك النكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلاً، أو الطيبات من المطاعم والملابس. ويرى لجهله أن

ذلك مما عليه. فيوجب على نفسه تركه. أو يرى تركه من أفضل القرب، وأجل الطاعات. وقد أنكر النبي ﷺ على من زعم ذلك. ففي الصحيح: «أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا عن عبادته في السر؟ فكأنهم تقالوها. فقال أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش. فبلغ النبي ﷺ مقالتهم. فخطب، وقال «ما بال أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم، ويقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج ويقول الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش؟ لكني أتزوج النساء، وآكل اللحم. وأنا وأقوم وأصوم وأفطر، فمن رغب عن سنتي فليس مني» فتبرأ ممن رغب عن سنته، وتعبد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات، رغبة عنه، واعتقادًا أن الرغبة عنه وهجره عبادة. فهذا لم يميز بين ما عليه وما له.

الكثير.. القليل!

ومن تمام هذا التمييز أن يعلم أن رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه. وجهله بحقوق العبودية. وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامله به.

وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك: من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوها.

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات. وهو أجل المواقف وأفضلها. فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران] قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر. ثم جلسوا يستغفرون الله ﷻ. وفي الصحيح: «أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا. ثم قال: «اللهم أنت السلام. ومنك السلام. تباركت يا ذا الجلال والإكرام» وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله. فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر].

ومن هاهنا فهم عمرو ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا أجل رسول الله ﷺ أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه. فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء. فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل. وخاتمة الوضوء أيضًا أن يقول بعد فراغه: «سبحانك اللهم وبحمدك. أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين».

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها.

وقال بعض العارفين: متى رضيت نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عرضه لكل آفة ونقص، كيف يرضي لله نفسه وعمله؟

ولله در الشيخ أبي مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس: تبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله.

ازدراء البطيء.. وراء!

ولا يكمل هذا المعين إلا بأن تربأ بنفسك عن تعبير المقصرين، فلعل تعبيرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه، وأشد من معصيته. لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب. وأن أخاك باء به. ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع، والازدراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها. فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت الله. فذنب تذل به لديه، أحب إليه من طاعة تدل بها عليه. وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك أن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مدل. وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر.

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر. فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون. وقد قال النبي ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولا يثرِّب» أي لا يعير، من قول يوسف عليه السلام

لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢] فإن الميزان بيد الله. والحكم لله. فالسوط الذي ضُرب به هذا العاصي بيد مقلب القلوب. والقصد إقامة الحد لا التعبير والتثريب. ولا يأمن كَرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله. وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وسيلة: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء] وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف] وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ «لا ومقلب القلوب» وقال: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ. إن شاء أن أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه» ثم قال: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

* * *

(٦) منزلة التوبة

فإذا صح هذا المقام، ونزل العبد في هذه المنزلة، أشرف منها على مقام «التوبة» لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه. فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الممات.

ومنزل «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به. واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته. وحاجته إليها في النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها في البداية كذلك. وقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور] وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون. جعلنا الله منهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات] قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث ألبتة. وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتب. ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه. وبعيب نفسه وآفات أعماله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من مائة مرة» وكان أصحابه يعُدُّون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة، وما صلى صلاة قط بعد إذا أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر] إلى آخرها. إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي» وصح عنه ﷺ أنه قال: «لن ينجي أحدا منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

فاتحة التوبة

ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله،ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفاتحة حقها علما وشهودًا وحالاً ومعرفة علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح. فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها، فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى والثاني غَي ينافي قصده وإرادته. فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخرًا.

الاعتصام.. أو الذنوب

وأول معاني التوبة: أن تنظر إلى ما كان من انخلاعك عن الاعتصام بالله حين إتيان الذنب، وأن الله منع عصمته عنك، وأن تنظر إلى ما كان من فرحك عند ظفرك بذلك الذنب، وقعودك عن تداركه، مصرا عليه، مع تيقنك نظر الحق إليك، فإن العبد لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران] فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبدًا. قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج] أي متى اعتصمتم به تولاكم. ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان. وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد. وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج. فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج. وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله، ونقص هذا الاعتصام يؤدي إلى الانخلاع عن عصمة الله، وهو حقيقة الخذلان فما خلى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك، وخلى بينك وبين نفسك. ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلاً.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان: أن يكلك الله إلى نفسك، ويخلي بينك وبينها، والتوفيق: أن لا يكلك الله إلى نفسك. وله سبحانه في هذه التخلية بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته حكم وأسرار. سنذكر بعضها.

وهكذا ترجع «التوبة» إلى اعتصامك به وعصمته لك.

وتشتد الغفلة على مقارفة الذنب حتى يفرح عند ظفره بشهوته المحرمة، وهذا الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها. ففرحه بها غطى عليه ذلك كله. وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مواقعتها. والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا. ولا يكمل بها فرحه. بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به. ومتى خلى قلبه من هذا الحزن. واشتد غبطته وسروره، فَلْيَتَّهِم إيمانه. ولْيبْكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكاب الذنب، وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام.

وهذه النكتة في الذنب قل من يهتدي إليها أو ينتبه لها. وهي موضع مخوف جدًّا، مترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة. وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد في استدراكه.

فإذا اشتدت غفلته إلى هذا الحد: نقلته ولابد إلى الإصرار، وهو الاستقرار على المخالفة. والعزم على المعاودة وذلك ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير. وهذا من عقوبة

الذنب: أنه يوجب ذنبًا أكبر منه. ثم الثاني كذلك. ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار على المعصية معصية أخرى. والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها، وطمأنينة إليها. وذلك علامة الهلاك. وأشد من هذا كله: المجاهرة بالذنب، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم. وإن لم يؤمن بنظره إليه وإطلاعه عليه فذلك كفر، وانسلاخ من الإسلام بالكلية: فهو دائر بين الأمرين: بين قلة الحياء، ومجاهرة نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين. فلذلك يشترط في صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظرًا ولا يزال إليه مطلعًا عليه، يراه جهرة عند مواقعة الذنب. لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم، إلا أن يكون كافرًا بنظر الله إليه جاحدًا له. فتوبته دخوله في الإسلام، وإقراره بصفات الرب جل جلاله، إذ حقيقة التوبة: الرجوع إلى الله. ولا يصح الرجوع ويتم إلا بمعرفة الرب بأسمائه وصفاته وآثارها في نفسه وفي الآفاق. ومعرفة أنه كان فارًا من ربه، أسيرًا في قبضة عدوه. وأنه ما وقع في مخالب عدوه إلا بسبب جهله بربه، وجرأته عليه. فلابد أن يعرف كيف جهل؟ ومتى جهل؟ وكيف وقع أسيرًا، ومتى وقع؟ ويؤمن أن التوبة إنما هي عملية شاقة بمجهود كبير، ويقظة تامة للتخلص من العدو والرجوع والفرار إلى ربه الرحمن الرحيم. والعود من طريق الهلاك الذي أخذه عدوه إليه، ومعرفة مقدار الخطوات التي يعُد بها عن ربه، والمجهود والعقبات التي لابد من الحرص على اقتحامها للعود إلى صراط الله المستقيم.

وشرائط التوبة ثلاثة: الندم. والإقلاع. والاعتذار.

فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي. والإقلاع عنه في الحال. والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة: فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها. وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به. وإصراره عليه. وفي المسند «الندم توبة».

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

وأما الاعتذار: فإنه من تمام التوبة أيضًا، ولا نقصد به الاعتذار الذي هو محاجة عن الجناية، بل بأن يقول في قلبه ولسانه: اللهم لا براءة لي من ذنب فأعتذر. ولا قوة لي فأنتصر، ولكني مذنب مستغفر. اللهم لا عذر لي، وإنما هو محض حقك، ومحض جنايتي، فإن عفوت وإلا فالحق لك.

فهو اعتذار بإظهار الضعف والمسكنة، وإنه ضحية غلبة الشيطان العدو وقوة سلطان النفس الأمارة بالسوء والقول بلسانه: يا رب: لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلا به، ولا إنكارًا لإطلاعك، ولا استهانة بوعيدك. وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك واتكالاً على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك. وغرني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخي علي، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك. ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك. ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة: وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم ﷻ، والله يحب من عبده أن يتملق له.

حقائق التوبة

وحقائق التوبة ثلاثة أشياء: تعظيم الجناية، واتهام التوبة، والغيرة لله والغضب له إذا خولفت أوامره وعدم الاعتذار للمخالف بأن حكم القدر قد جرى عليه.

فأما تعظيم الجناية: فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها. وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها. فإن من استهان بإضاعة فلس مثلاً لم يندم على إضاعته. فإذا علم أنهُ دينار اشتد ندمه، وعظمت إضاعته عنده.

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الأمر، وتعظيم الآخر، والتصديق بالجزاء.

وأما اتهام التوبة: فلأنها حق عليه. لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبة علة وهو لا يشعر بها، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة على حاله. فتاب للحال، لا خوفًا من ذي الجلال. أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكد في تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدم في كون التوبة خوفًا من الله، وتعظيمًا له ولحرماته، وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، وعن البعد والطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة. فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون.

ومن اتهام التوبة أيضا: ضعف العزيمة، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة، وتذكر حلاوة مواقعته. فربما تنفس، وربما هاج هائجه.

ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد أعطى منشورًا

بالأمان. فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمود العين، واستمرار الغفلة، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات.

منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان عليه قبلها.

ومنها: أنه لايزال الخوف مصاحبًا لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندما وخوفًا. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة:١١٠] قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقة التوبة. لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفًا، تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلابد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء. ولا تكون لغير المذنب. لا تحصل بجوع، ولا حب مجرد. وإنما هي أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلاً خاشعًا.

فليس شيء أحب إلى الله من الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له. فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين. وابتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه».

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى

تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة. وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قدر.. وخيار

وأما الغيرة لله تعالى عند مخالفة الناس لأوامره وعدم الاعتذار عنهم بالقدر فلأن الله ﷻ أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر. فلا أحد أحب إليه العذر من الله. ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، إزالة لأعذار خلقه. لئلا يكون لهم عليه حجة.

ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه، ولله الحجة البالغة.

والثابت: أنه لا عذر لأحد ألبتة في معصية الله، ومخالفة أمره. مع علمه بذلك، وتمكنه من الفعل والترك. ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم. لا في الدنيا ولا في العقبى، ومن ادعى أن ذنبه كان قدرًا مقدورًا عليه لم يستطع دفعه فهو ظالم جاهل، ولولا جهله وظلمه لعلم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وإنها أولي بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء. و﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ ﴾ [العاديات]. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «كفور جحود لنعم الله» وقال الحسن «هو الذي يعد المصائب. وينسي النعم» وقال أبو عبيدة «هو قليل الخير» والأرض «الكنود» التي لا نبيت بها وقيل: التي لا تنبت شيئًا من المنافع، وقال الفضل بن عباس: «الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان».

ولولا جهله لعلم أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه، فهو الحجر في طريق الماء الذي به حياته.وهو السَّكْرْ الذي قد سد مجرى الماء إلى بستان قلبه، ويستغيث مع ذلك: العطش العطش، وقد وقف في طريق الماء. ومنع وصوله إليه. فهو حجاب قلبه عن سر غيبه. هو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب. فما عليه أضر منه، ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه.

ما تبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

فتبّا له ظالما في صورة مظلوم، وشاكيا والجناية منه. قد جد في الإعراض وهو ينادي: طردوني وأبعدوني.

يأخذ الشفيق بحجزته عن النار. وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها، ويستغيث : ما حيلتي؟ وقد قدموني إلى الحفيرة وقذفوني فيها. والله كم صاح به الناصح: الحذر الحذر، إياك إياك، وكم أمسك بثوبه. وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام.

يا ويله ظهيرًا للشيطان على ربه، خصما لله مع نفسه، جبري المعاصي، قدري الطاعات، عاجز

الرأي مضياع لفرصته، قاعد عن مصالحه، معاتب لأقدار ربه، يحتج على ربه بها لا يقبله من ولده وامرأته. إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره. فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه، أو نهاه عن شيء فارتكبه، وقال: القدر ساقني إلى ذلك. لما قبل منه هذه الحجة، ولبادر إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك، فهلا كان حجة لامرأتك في ترك بعض حقك؟ بل إذا أساء إليك مسيء وجنى عليك جان، واحتج بالقدر: لاشتد غضبك عليه. وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجته داحضة. ثم تحتج على ربك به. وتراه عذراً لنفسك؟ فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس: أزاح عللك، ومكنك من التزود إلى جنته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به، وما تحارب به قطاع الطريق عليك. فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرفك الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله. وأنزل إليك كتابه، ويسّره للذكر والفهم والعمل. وأعانك بمدد من جنده الكرام، يثبتونك ويحرسونك. ويحاربون عدوك ويطردونه عنك. ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه،وهم يكفونك مؤنته. وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم، وموالاته دونهم، بل تظاهره وتواليه دون وليك الحق الذي هو أولى بك. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف].

أمرك الله بشكره، لا لحاجته إليك، ولكن لتنال به المزيد من فضله، فجعلت كفر نعمه والاستعانة بها على مساخطه: من أكبر أسباب صرفها عنك.

وأمرك بذكره ليذكرك بإحسانه، فجعلت نسيانه سببًا لنسيان الله لك ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

أمرك بسؤاله ليعطيك، فلم تسأله، بل أعطاك أجلّ العطايا بلا سؤال، فلم تقبل.

تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك، وتتظلم ممن لا يظلمك، وتدع من يعاديك ويظلمك، وإن أنعم عليك بالصحة والعافية والمال والجاه استعنت بنعمه على معاصيه !

دعاك إلى بابه فما وقفت عليه وطرقته، ثم فتحه لك فما ولجته!

أرسل إليك رسوله يدعوك إلى دار كرامته، فعصيت الرسل، قلت: لا أترك ما أراه لشيء سمعت به.

ومع هذا فلم يؤيسك من رحمته. بل قال: «متى جئتني قبلتك. إن أتيتني ليلاً قبلتك. وإن أتيتني نهارًا قبلتك. وإن تقربت مني شبرًا تقربت منك ذراعا. وإن تقربت مني ذراعًا تقربت

منك باعًا. وإن مشيت إلى هرولتُ إليك. ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا. أتيتك بقرابها مغفرة، ولو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك. ومن أعظم مني جودًا وكرمًا؟

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فُرشهم، إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي. خيري إلى العباد نازل. وشرهم إلى صاعد. أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم. ويتبغضون إلى بالمعاصي، وهم أفقر شيء إلي.

من أقبل إليّ تلقيته من بعيد. ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد. ومن أراد رضاي أردت ما يريد. ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهل ذكري أهل مجالستي. وأهل شكري أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي. وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا إلى فأنا حبيبهم. فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين. وإن لم يتوبوا إلى فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب.

من آثرني على سواي آثرته على سواه، الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. والسيئة عندي بواحدة. فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل. وأغفر الكثير من الزلل. رحمتي سبقت غضبي، وحلمي سبق مؤاخذتي. وعفوي سبق عقوبتي. أنا أرحم بعبادي من الوالدة بوالدها «لله أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته بأرض مهلكة دوية عليها طعامه وشرابه. فطلبها حتى إذا أيس من حصولها. نام في أصل شجرة ينتظر الموت. فاستيقظ فإذا هي على رأسه. قد تعلق خطامها بالشجرة. فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته».

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده، منتفع بها، وكذلك موالاته لعبده إحسانًا إليه، ومحبة وبرًّا به. لا يتكثر به من قلة، ولا يتعزز من ذلة، ولا ينتصر به من غلبة، ولا يعده لنائبة، ولا يستعين به في أمر ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء] فنفى أن يكون له ولي من الذل. والله ولي الذين آمنوا. وهم أولياؤه.

فهذا شأن الرب وشأن العبد. وهم يقيمون أعذار أنفسهم، ويحملون ذنوبهم على أقداره.

استأثر الله بالمحامد والمجد وولي الملامة الرجلا

التحقيق: أن الغيرة لله، والغضب له، من حقائق التوبة. فتعطيل عذر الخليقة في مخالفة الأمر والنهي، وشدة الغضب: هو من علامات تعظيم الحرمة، ومن حقائق التوبة:

ولاسيما أنه يدخل في العذر: عذر عباد الأصنام والأوثان، وقتلة الأنبياء. وفرعون وهامان،

ونمرود بن كنعان، وأبي جهل وأصحابه، وإبليس وجنوده، وكل كافر وظالم، ومتعد حدود الله، ومنتهك محارم الله. فإنهم كلهم تحت القدر. وهم من الخليقة.

وأن التائبين حقًّا، المؤمنين بالقدر حقًّا، هم الذين ينتظرون سفينة الأمر الرباني، فلما قربت منهم ناداهم الربان ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١] فهي سفينة نوح حقًّا. وسفينة من بعده من الرسل. من ركبها نجا. ومن تخلف عنها غرق. فركبوا سفينة الأمر بالقدر. تجري بهم في تصاريف أمواجه على حكم التسليم لمن بيده التصرف في البحار. فلم يك إلا غفوة، حتى قيل لأرض الدنيا وسمائها: يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء. وقضي الأمر. واستوت على جودي دار القرار.

والمتخلفون عن السفينة كقوم نوح أغرقوا. ثم أحرقوا. ونودي عليهم على رؤوس العالمين: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [هود] ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزخرف] ثم نودي بلسان الشرع والقدر، تحقيقًا لتوحيده. وإثباتًا لحجته. وهو أعدل العادلين: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام].

ندفع القَدَر بالقَدَر

وراكب هذا البحر في سفينة الأمر، وظيفته: مصادمة أمواج القدر، ومعارضتها بعضها ببعض، وإلا هلك. فيرد القدر بالقدر، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين، وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني: «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا. فانفتحت لي فيه رَوْزَنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعًا للقدر، لا من يكون مستسلمًا مع القدر» ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف في معادهم؟

والله تعالى أمر أن تدفع السيئة وهي من قدره بالحسنة وهي من قدره وكذلك الجوع من قدره. وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره. ولو استسلم العبد لقدر الجوع، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل، حتى مات: مات عاصيا. وكذلك البرد والحر والعطش. كلها من أقداره. وأمر بدفعها بأقدار تضادها. والدافع والمدفوع والدفع من قدره.

وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا: «يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقى نتقي بها ، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله»».

وفي الحديث الآخر: «إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض».

وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله. أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر، وترك دفعه بقدر مثله. وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره؟

وكذلك المعصية إذا قدرت عليك، وفعلتها بالقدر، فادفع موجبها بالتوبة النصوح، وهي من القدر.

ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ولما يقع بأسباب أخرى من القدر تقابله فيمتنع وقوعه. كدفع العدو بقتاله. ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني: دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة. ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان.

فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة، فإنه عجز، والله تعالى يلوم على العجز.

شروط ثلاثة

وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء: تمييز التَّقية من العِزَّة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة، لأن التائب داخل في «الجميع» من قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور] فأمر التائب بالتوبة مما خالط توبته من شوائب الإدلال بها.

وتمييز التقية من العزة: أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله. وهو خوفه وخشيته، والقيام بأمره، واجتناب نهيه. فيعمل بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله على نور من الله. يخاف عقاب الله. لا يريد بذلك عز الطاعة. فإن للطاعة وللتوبة عزًا ظاهرًا وباطنًا. فلا يكون مقصوده العزة، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة. فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة.

وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم في ذلك. ولا يميزه إلا أولوا البصائر منهم، وهم في الصادقين كالصادقين في الناس.

وأما نسيان الجناية: فهذا موضع تفصيل. فقد اختلف فيه أرباب الطريق.

فمنهم: من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحًا. فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له. ولهذا قيل: ذكر الجفا في وقت الصفا جفا.

ومنهم: من رأى أن الأولى ألا ينسى ذنبه. بل ليزال جاعلاً له نصب عينيه يلاحظه كل وقت. فيحدث له ذلك انكسارًا وذلاً وخضوعًا، أنفع له من صفاء وقته.

قالوا: ولهذا نقش داود الخطيئة في كفه. وكان ينظر إليها ويبكي.

قالوا: ومتى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.

ومعنى ذلك: إنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت وأطرقت بين يدي الله ﷻ، خاشعًا ذليلاً خائفًا. وهذه طريق العبودية.

والصواب: التفصيل في هذه المسألة. وهو أن يقال: إذا أحس العبد من نفسه حال الصفاء غيمًا من الدعوى. ورقيقة من العجب ونسيان المنة، وخطفته نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذكر الذنب أنفع له. وإن كان في حال مشاهدته منة الله عليه، وكمال افتقاره إليه، وعدم استغنائه عنه في ذرة من ذراته، وقد خالط قلبه حال المحبة، والفرح بالله. والأنس به، والشوق إلى لقائه، وشهود سعة رحمته وحلمه، وعفوه. وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات. فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب: أولى به وأنفع، فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك. ونزل من علو إلى أسفل، ومن حال إلى حال، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض. وهذا من حسد الشيطان له. أراد أن يحطه عن مقامه، وسير قلبه في ميادين المعرفة والمحبة.

وبعد هذا: يتوب من رؤية التوبة. فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته. ولو خلى ونفسه لم تسمح بها ألبتة. فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به. وغفل عن منة الله عليه: تاب من هذه الرؤية والغفلة.

وقد يكون في التوبة علة ونقص، وآفة تمنع كمالها. وقد يشعر صاحبها بذلك. وقد لا يشعر به، فيتوب من نقصان التوبة، وعدم توفيتها حقها، والمقدار المفقود هو الذي يحتاج أن يتوب منه.

الحليم العادل .. سبحانه

ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء: أن ينظر الجناية التي قضاها الله عليه فيعرف مراد الله فيها. إذ خلاَّك وإتيانها، فإن الله ﷻ إنما خلى العبد والذنب لأجل معنيين.

أحدهما: أن يعرف عزته في قضائه، وبره في ستره، وحلمه في إمهال راكبه، وكرمه في قبول العذر منه، وفضله في مغفرته.

الثاني: أن يقيم على عبده حجة عدله. فيعاقبه على ذنبه بحجته.

وتفصيل ذلك أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور.

أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه. فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة، والإقرار على نفسه بالذنب.

الثاني: أن ينظر إلى الوعد والوعيد. فيحدث له ذلك خوفًا وخشية، تحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله منها، وتخليته بينه وبينها، وتقديرها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها. فيحدث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته ، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحلمه وكرمه. وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء، لا تحصل بدون لوازمها ألبتة. ويعلم ارتباط الخلق والأمر، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجب

الأسماء والصفات، وأثرها في الوجود، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه، متعلق به لابد منه.

وهذا المشهد يطلعه على رياض مورقة من المعارف والإيمان، وأسرار القدر والحكمة، يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

فمن بعضها: أن يعرف العبد عزته في قضائه، وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، بأن قلَّب قلبه وصرَّف إرادته على ما يشاء. وحال بين العبد وقلبه. وجعله مريدًا شائيا لما شاء منه العزيز الحكيم. وهذا من كمال العزة. إذ لا يقدر على ذلك إلا الله. وغاية المخلوق: أن يتصرف في بدنك وظاهرك. وأما جعلك مريدًا شائبًا لما يشاءه منك ويريده: فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مدبر مقهور، ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلا بعصمته. ولا توفيق له إلا بمعونته. فهو ذليل حقير، في قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضًا في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والغناء التام، والعزة. كلها لله، وأن العبد نفسه أولي بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحمده وغناه. وكذلك بالعكس، فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة.

ومنها: أن يعرف بره سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه، وهذا من كمال بره. ومن أسمائه «البَرّ» وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغل بمطالعة هذه المنة، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم. فيذهل عن ذكر الخطيئة. فيبقى مع الله سبحانه. وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته. وشهود ذل معصيته. فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقًا، بل في هذه الحال. فإذا فقدها ليرجع إلى مطالعة الخطيئة، وذكر الجناية، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به.

ومنها: شهود حلم الله سبحانه وتعالى في إمهال راكب الخطيئة. ولو شاء لعاجله بالعقوبة. ولكنه الحليم الذي لا يعجل. فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه «الحليم» ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبد بهذا الاسم.

ومنها: معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه، فيقبل عذره بكرمه وجوده.

فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك. فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك. فعبودية التوبة بعد الذنب لون. وهذا لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله. وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلاً محمودًا. وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك. فيوجب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة، وإنابة إليه، وفرحًا وابتهاجًا به، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبدًا بمقتضاها. وذلكم أكمل في العبودية، والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه، فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية. ولو قدرت لقالت كقول فرعون. ولكنه قدر فأظهر. وغيره عجز فأضمر. وإنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية. وهو أربع مراتب:

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق، وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله، فأهل السماوات والأرض جميعًا محتاجون إليه، فقراء إليه. وهو وحده الغني عنهم. وكل أهل السماوات والأرض يسألونه. وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة، والعبودية. وهو ذل الاختيار. وهذا خاص بأهل طاعته. وهو سر العبودية.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة. فإن المحب ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب، كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب. فليس في حكم الهوى آنف يشال ويعقد

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم. إذ يذل له خوفًا وخشية، ومحبة وإنابة، وطاعة، وفقرًا وفاقة.

وحقيقة ذلك : هو الفقر الذي يشير إليه القوم. وهذا المعنى أجل من أن يسمى بالفقر. بل هو لب العبودية وسرها. وحصوله أنفع شيء للعبد، وأحب شيء إلى الله.

ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها فاسم «الرزاق» يقتضي مرزوقًا. واسم «الرحيم» يقتضي مرحومًا. وكذلك أسماء «الغفور، والعفو، والتواب، والحليم» يقتضي من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه. ويحلم. ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود. فلابد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله. صلوات الله وسلامه عليه.

حيث يقول: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم».

وأنت إذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم. فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت، والعبيد أغنياء معافون. فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة، والتخصيص، بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات. ودلهم عليه بأنواع الدلالات. وفتح لهم إليه جميع الطرقات. ثم نصب إليه الصراط المستقيم. وعرَّفهم به ودلهم عليه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال].

الرحيم .. سبحانه

ومنها: السر الأعظم، الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد. فازدادت به معرفة لربها ومحبة له. وطمأنينة وشوقًا إليه، ولهجًا بذكره. وشهودًا لبره، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافًا على حقيقة الإلهية. وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه. فأيس منها. فأتى شجرة فاضطجع في ظلها. قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها. ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح» هذا لفظ مسلم.

والقصد: أن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله.

ذلك أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله. وشرفه وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له. وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره. وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له. وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته. وأنزل إليه وعليه كتبه. وأرسله وأرسل إليه. وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأخبار. وجعلهم معدن أسراره. ومحل حكمته. وموضع حبه. وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني. فإنه خلاصة الخلق. وهو المقصود بالأمر والنهي. وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات. وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته. وعلمه أسماء كل شيء وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات وطرد إبليس عن قربه. وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين. واتخذه عدوًا له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق. وخيرة الله من العالمين فإنه خلقه ليتم نعمته عليه. وليتواتر إحسانه إليه. وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته. ولم يخطر على باله ولم يشعر به. ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته. ولا تنال محبته إلا بطاعته، وإيثاره على ما سواه، فاتخذه محبوبًا له. وأعدَّ له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه. وعهد إليه عهدًا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه. ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه.

وللمحبوب عدو، هو أبغض خلقه إليه. قد جاهره بالعداوة وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له، دون وليهم ومعبودهم الحق، واستقطع عباده، واتخذ منهم حزبًا ظاهروه ووالوه على ربهم. وكانوا أعداء له مع هذا العدو، يدعون إلى سخطه. ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه. ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذى. ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم. ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه. فعّرفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم ومالهم. وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم.

وأخبره في عهده: أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين. وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته. وأنه قد أفاض على خلقه النعمة. وكتب على نفسه الرحمة. وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر. وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود كله له. وأحب ما إليه: أن يجود على عباده ويوسعهم فضلاً. ويغمرهم إحسانًا وجودًا. ويتم عليهم نعمته. ويضاعف لديهم منته. ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه. ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته. وجود كل جواد خلقه الله ويخلقه أبدًا: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده. فليس الجواد على الإطلاق إلا هو. وجود كل جواد فمن جوده. ومحبته للجود والإعطاء والإحسان والبر والإنعام والإفضال: فوق ما يخطر ببال الخلق، أو يدور في أوهامهم. وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه ويأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدرًا. فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المعطي؟ ففرح المعطي سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثل الأعلى. إذ هذا شأن الجواد من الخلق. فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده، فوق ما يحصل لمن يعطيه. ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه، عن لذة المعطي، وابتهاجه وسروره. هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه. وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه. ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كل واحد ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته، كما أنه الحي لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته. فجوده العالي من لوازم ذاته. والعفو أحب إليه من الانتقام. والرحمة أحب إليه من العقوبة. والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه. وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله، ولم يتركه سدى. فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه. ووالى عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه. وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه. وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه. وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه. فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه رأى في بعض السكك بابًا قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي. وأمه خلفه تطرده، حتى خرج. فأغلقت الباب في وجهه ودخلت. فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكرًا. فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤيه غير والدته. فرجع مكسور القلب حزينًا. فوجد الباب مرتجًا، فتوسَّده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه. فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي. وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤيك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم «لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة».

وتأمل قوله ﷺ: «الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها» وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه. فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهي بالإحسان والجود والبر.

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبودًا: فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه. وإنما يشهده خواص المحبين.

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته. وهذا هو الحق الذي خلقت به السماوات والأرض. وهو غاية الخلق والأمر، وهو سبحانه يحب أن يعبد ويطاع ولا يعبأ بخلقه شيئًا لولا محبتهم له، وطاعتهم له، ودعاؤهم له.

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك، وأنهم خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثًا وباطلاً وسدى. وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين. والإله الحق. فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية. فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خلقت الخليقة. وصار كأنه خلق عبثًا لغير شيء، إذ لم تُخرج أرضه البذر الذي وضع فيها. بل قلبته شوكًا ودغلا. فإذا راجع ما خلق له وأوجد لأجله فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره. ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق لأجلها. وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل. فاشتدت محبة الرب له. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. فأوجبت هذه المحبة فرحًا كأعظم ما يقدر من الفرح. ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي ﷺ لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه في سفره، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده. وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه. ثم وجده وصار طوع يده. فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حبًّا شديدًا، أسره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب. ويعرضه لأنواع الهلاك. وأنت أولى به منه. وهو غرسك وتربيتك. ثم إنه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد فلم يفجأك إلا وهو على بابك، يتملقك ويترضاك ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقربك، وآثرته على سواه؟

هذا. ولست الذي أوجدته وخلقته. وأسبغت عليه نعمك، والله عز وجل هو الذي أوجد عبده. وخلقه وكونه. وأسبغ عليه نعمه. وهو يحب أن يتمها عليه، فيصير مظهرًا لنعمه، قابلاً لها، شاكرًا لها، محبًّا لوليها، مطيعًا له عابدًا له، معاديا لعدوه، مبغضًا له عاصيا له. والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته، كما يحب أن يوالي الله مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده.

فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبته لعداوة عدوه. ومعصيته ومخالفته، فتشتد المحبة منه سبحانه، مع حصول محبوبه، وهذا هو حقيقة الفرح.

وفي صفة النبي ﷺ في بعض الكتب المتقدمة «عبدي الذي سرَّت به نفسي» وهذا الكمال محبته له، جعله مما تسر به نفسه سبحانه.

ومع الفرح.. ضحك أيضًا

ومن هذا «ضحكه» سبحانه من عبده، حين يأتي من عبوديته بأعظم ما يحبه.

فيضحك سبحانه فرحًا ورضا. كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته، يتلو آياته ويتملقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو. فأقبل إليهم. باع نفسه لله ولَقَّاهم نَحْره، حتى قُتل في محبته ورضاه.

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سرًّا، حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاء. فهذا الضحك منه حبًّا له. وفرحًا به، وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة. فيضحك إليه فرحًا به وبقدومه عليه.

وهو «فرح» ليس كمثله شيء، و«ضحك» ليس كمثله شيء، نؤمن بهما لورودهما في نص الحديث كإيماننا بسائر صفات الله التي أثبتتها النصوص.

العقوبة بعد إقامة الحُجّة

أما أن الله عز وجل خلّي بين العبد والذنب من أجل أن يقيم على عبده حجة عدله، فيعاقبه على ذنبه بحجته، فمغزاها أن اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه. فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء] وقال: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك] وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود].

وفي الآية قولان. أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم. الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه. والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم. وهم مصلحون الآن. أي إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من ظلم.

وعلى القول الثاني إنه لم يكن ظالمًا لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما

أهلكهم وهم ظالمون، فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم. والقولان في آية الأنعام أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس].

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع، يقبل الإنذار وينتفع به. وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير ألبتة. فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان. بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس] وحق عليه العذاب. كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر].

فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر] وكلمته سبحانه، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته.

وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم. لا مع مراد أنفسهم، مع علمه بموت قلوب بعضهم، فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم، فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله، فعاقبهم بظلمهم.

نفس معيبة.. ورب متفضل

قد ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهي. ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محال الجناية ومصدرها. وهو النفس الأمارة بالسوء، فيعرف أنها جاهلة ظالمة. وأن الجهل والظلم يصدر عنها كل قول وعمل قبيح، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها بها عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذي خرجها به عن وصف الظلم. ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها. وأن يؤتيها تقواها

ويزكيها. فهو خير من زكاها. فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين. فإنه إن وكله إليها هلك. فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه. وقال النبي ﷺ لحصين بن المنذر: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي» وفي خطبة الحاجة «الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا» وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر] وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

فمن عرف حقيقة نفسه وما طُبعت عليه: علم أنها منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله من به عليها. لم يكن منها. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات] وهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي مَنْ بهما، فجعل العبد بسببهما من الراشدين ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات] «عليم» بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده. «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

اللطيفة الثانية من أسرار التوبة: أن يعلم أن نظر البصير الصادق في سيئته لم يبق له حسنة بحال. لأنه يسير بين مشاهدة المنة. وتطلب عيب النفس والعمل، فإن من له بصيرة بنفسه، وبصيرة حقوق الله. وهو صادق في طلبه: لم يبق له نظره في سيئاته حسنة ألبتة. فلا يلقى الله إلا بالإفلاس من المحض، والفقر الصرف. لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تُشترى بها النجاة من عذاب الله. فضلاً عن الفوز بعظيم ثواب الله. فإن خلص له عمل وحال مع الله. وصفاً له معه وقت شاهد منة الله عليه به، ومجرد فضله. وأنه ليس من نفسه، ولا هي أهل لذاك. فهو دائمًا مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله. لأنه متى تطلبها رآها.

وهذا من أجل أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت. خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك علي. وأبوء بذنبي. فاغفر لي. إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

فتضمن هذا الاستغفار: الاعتراف من العبد بربوبية الله، وإلهيته وتوحيده، والاعتراف بأنه خالقه، العالم به. إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مهرب له منه. ولا ولي له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده – وهو أمره ونهيه – الذي عهده إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقك، فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جهد المقل وقدر الطاقة. ومع ذلك فأنا مصدق

بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب. فأنا مقيم على عهدك، مصدق بوعدك، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك. فإنك إن لم تُعِذْني من شره، وإلا حاطت بي الهلكة. فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أقر لك وألتزم بنعمتك علي. وأقر وألتزم وأبخع بذنبي. فمنك النعمة والإحسان والفضل. ومني الذنب والإساءة. فأسألك أن تغفر لي بمحو ذنبي، وأن تعفيني من شره، أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار. وهو متضمن لمحض العبودية. فأي حسنة تبقي للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله، ومنة الله عليه؟ فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه.

الشيطان ملحاح بطيء اليأس

النظر الرابع: نظره إلى الآمر له بالمعصية، المزين له فعلها، الحاض له عليها، وهو شيطانه الموكل به.

فيفيده النظر إليه، وملاحظته: اتخاذه عدوًّا، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة. والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض. لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجزعن الظفر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة. إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه. وإما بالتعبد لما لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا. والبدعتان في الغالب متلازمتان. قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى.

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر. فإن ظفر به فيها زينها له، وحسنها في عينه. وسوف به وفتح له باب الإرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه أعمال الفسوق والعصيان، فإن الشيطان يقول له - عند فتح باب الإرجاء - إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي. وهذا هو معنى الإرجاء الذي هو شر البدع التي أفسدت الدين، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: «لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة» والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه. لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لا يتوب منها. ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق

إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم. ومعاداة صريح السنة.ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة. وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله. واعتبارها ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره. وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه. وإثبات ما نفاه. ونفي ما أثبته. وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب ومعارضة الحق بالباطل وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب. وطلب العوج لصراط الله المستقيم. وفتح باب تبديل الدين جملة، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين. كما تنسل الشعرة من العجين. فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر فيقول له: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أو ما علمت بأنها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات. ولايزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها. فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه. فالإصرار على الذنب أقبح منه. ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار. ولا صغيرة مع الإصرار. وقد قال ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، ثم ضرب لذلك مثلاً بقوم نزلوا بفلاة من الأرض. فأعوزهم الحطب. فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود. حتى جمعوا حطبا كثيرا. فأوقدوا نارا. وأنضجوا خبزتهم. فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه».

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار. وأتبع السيئة الحسنة، طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها. فشغلته بها عن الاستكثار من الطاعات. وعن الاجتهاد في التزود بمعاده. ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن. ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات. وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة. والمنازل العالية. ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئًا من القربات. ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد. ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته وضمن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح. طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات. فأمره بها. وحسنها في عينه. وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا. لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية. فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرض له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها، فإن في الأعمال والأقوال سيدا ومسودا ورئيساً ومرؤوسا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح «سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت - الحديث» وفي الحديث الآخر: «الجهاد ذروة سنام الأمر» ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

عبودية المراغمة

فإذا نجا مما سبق لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه. وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير. فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله. وظاهر عليه بجنده. وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط. وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها. فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء بها، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب. وأخذ في محاربة العدو لله وبالله. فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين. وهي تسمي عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولوا البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له. وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه.

أحدها: قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠] سمي المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته. كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة:١٢٠] وقال تعالى في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩] فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له. فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين. وقال: «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان» وفي رواية «ترغيما للشيطان» وسماهما «المرغمتين».

فمن تعبد لله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر. وعلى قدر محبة العبد لربه،

وموالاته ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة. ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله. لما في ذلك من إرغام العدو. وبذل محبوبه من نفسه وما لله عز وجل.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس. ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان. وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى.

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لا تستهزئ بها. فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر ألبتة. ولله الحمد والمنة. وبه التوفيق.

الفطرة تأبى القبائح

أما اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة، ففي أن يرى التائب قبح ما نهى الله عنه، وحسن ما أمر به، وأنه كان مفسدًا حين ركب ما نهاه الله تعالى عنه، مفوتًا لمصلحة حين قصر في تنفيذ ما أراده الله منه، وإن الله تعالى ما نهى إلا عن أمر قبيح بالذات، وما أمر إلا بأمر حسن الذات، فإن الله سبحانه فطر عباده على استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر. وفطرهم على استقباح أضدادها. ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النتن إلى مشامهم، وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم. وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة. فيفرقون بين طيبه وخبيثه. ونافعه وضاره.

من أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف] فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهيه عنه. وأمر باجتنابه بأخذ الزينة. و«الفاحشة» هاهنا هي طوافهم بالبيت عراة –

الرجال والنساء - غير قريش ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، إذ كانت قريش هي التي تقوم بتطويف الحجاج والمعتمرين، وقيادتهم في كل مناسك الحج وشعائره. ويأخذون منهم ما يعيشون به، استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم] فرزقهم الله ما أهوت إليهم أفئدتهم، ولكن أكثرهم لم يقم الصلاة كما أحب الله، ولا شكرًا لله. بل كفروا، واتخذوا الآلهة والأنداد من الموتى، فكانت صلتهم بأوليائهم أقوى من صلتهم بالله رب العالمين. وكان الشيطان مولاهم من دون الله. فقلل في أعينهم من نعمة الله فيما يسوق إليهم من الأرزاق. وأوحى إليهم أن يشرعوا للناس بدعة فاحشة: أن لا يطوف أحد بالبيت إلا في ثياب من عند قريش، وهم الحمس وأن يخلعوا ثيابهم ويجعلوها لقي تحت أقدام الطائفين حول الكعبة. فانقاد الناس لهم بالتقليد وأصبح موردًا لقريش يتحكمون به في الناس كما يشاءون. ثم أوحى إليهم أن يزيدوا في الأثمان كلما رأوا إقبال الناس، حتى عجز أكثر الناس. وطلبوا من السادة المستكبرين الرخصة عن الثمن. فقالوا: لابد من ذلك، وإلا فطوفوا عراة، فطافوا عراة.

ثم قال: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾؟ دل على أنه طيب قبل التحريم، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة.

ثم قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فهي فواحش قبل التحريم وبعده، والشارع كساها بنهيه عنها قبحًا إلى قبحها. فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحًا عند العقل بنهي الرب تعالى عنها، وذمه لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها. كما أن العدل والصدق والتوحيد، ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر: حسن في نفسه، وازداد حسنا إلى حسنه بأمر الرب به، وثنائه على فاعله، وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله.

بل من أعلام نبوة محمد ﷺ: أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث.

فالمدح والثناء والعلم الدال على نبوته: أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنه وكونه معروفًا. وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكرًا. وما يحله تشهد كونه طيبا. وما يحرمه تشهد كونه خبيثًا. وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين. والكذابين والسحرة. فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب - وقد أسلم، لما عرف دعوته ﷺ :عن أي شيء أسلمت؟ وما

رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ قال: «ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به، ولا أحلّ شيئًا. فقال العقل: ليته حرمه. ولا حرّم شيئًا، فقال العقل: ليته أباحه» فانظر إلى هذا الأعرابي، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه، واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل. وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه.

وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] أي لغير شيء لا تؤمرون ولا تنهون. ولا تثابون ولا تعاقبون. والعبث قبيح. فدل على أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول. ولذلك أنكره عليهم إنكار مُنَبِّه لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم. وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثًا، لا لأمر ولا لنهي، ولا لثواب ولا لعقاب. وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر. وأن من جوّز على الله الإخلال به فقد نسبه إلى ما لا يليق به، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية] فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه، وأنه حكم سيئ، والحاكم به مسيء ظالم.

وكذلك قوله: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة ص] وهذا استفهام إنكار. فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر. أفتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله؟ فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة على قبحه. وأنه لا يليق بالله نسبته إليه.

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به في إلهيته، بالبراهين الدالة على قبحه في صريح العقول والفطر؟ وأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم؟ وأي شيء يصح في العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتي، وأن العلم بقبحه بَدَهي معلوم بضرورة العقل، وأن الرسل نبهوا الأمم على ما في عقولهم وفطرهم من قبحه، وأن أصحابه ليست لهم عقول ولا ألباب ولا أفئدة. بل نفى عنهم السمع والبصر. والمراد: سمع القلب وبصره. فأخبر أنهم صم بكم عمي. وذلك وصف قلوبهم أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق. وشبههم بالأنعام التي لا عقول لها تميز بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل. ولذلك اعترفوا في النار بأنهم لم يكونوا من أهل السمع والعقل. وأنهم لو رجعوا إلى أسماعهم وعقولهم لعلموا حسن ما جاءت به الرسل وقبح مخالفتهم.

قال الله تعالى حاكياً عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك] وكم يقول لهم في كتابه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. فينبههم على ما في عقولهم

وفطرهم من الحسن والقبيح. ويحتج عليهم بها، ويخبر أنه أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح والحق والباطل.

وكم في القرآن من مثل عقلي وحسي ينبه به العقول على حسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره. كقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الروم] يحتج سبحانه عليهم بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكاً له. فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضى بذلك. فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادي؟وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر والسمع نبه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له. فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؟ لا يستويان.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة] ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل، والمنّ والأذى المبطل للصدقات بـ«الصفوان» وهو الحجر الأملس «عليه تراب» غبار قد لصق به « فأصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب «فتركه صلدًا» أملس لا شيء عليه، وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه. فـ«الصفوان» وهو الحجر. كقلب الرائي والمان والمؤذي. و«التراب» الذي لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدقته. و«الوابل» المطر الذي به حياة الأرض. فإذا صادفها لينة قابلة: نبت فيها الكلأ وإذا صادف الصخور والحجارة الصم: لم ينبت فيها شيئًا. فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقًا، فأزال. فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات.

وهذا يدل على أن قبح «المن، والأذى، والرياء» مستقر في العقول. فلذلك نبهها على شبهه ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ

أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة] فإن كانت هذه الجنة التي بموضع عال، حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد. فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يخرج غيرها - إن كانت مستحسنة في العقل والحس، فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل بثبات من نفسه، وقوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبه يرجف على خروجها، ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق، بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين: كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت: كمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف. فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلَّته. وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه. أفلا تراه سبحانه نبه العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟

وكذلك قوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة] . فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة التي تحبط ثواب الحسنات وشبهها بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء، بحيث يخشى عليهم الضيعة و على نفسه. وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته. فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات. فأرجى وأفقر ما هو له وأسر ما كان به إذ أصابه نار شديدة فأحرقته. فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال. وبهذا فسرها عمر، وابن عباس رضي الله عنهم: «لرجل غني عمل بطاعة الله زمانًا. فبعث الله له الشيطان. فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة، وضرب لقبحها هذا المثل؟

ثم هؤلاء الفقهاء: يتكلمون في العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم. ويفرقون بين المصالح الخالصة والراجحة والمرجوحة. والمفاسد التي هي كذلك. ويقدمون أرجح المصلحتين على مرجوحهما. ويدفعون أقوى المفسدتين باحتمال أدناهما. ولا يتم لهم ذلك إلا باستخراج الحكم والعلل، ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الأفعال.

يشاء الله السوء ولا يرضاه

وهذه اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة التي يتضح فيها الحسن والقبح تقتضي رؤية الفرق بين محبة الله ورضاه، ومشيئته وإرادته الكونية، وعدم التسوية بينهما، أو اعتقاد تلازمهما، كما فعل الجبرية الذين قالوا: المشيئة والمحبة سواء، أو متلازمان، وإن كل ما شاءه الله فقد أحبه ورضيه،

وقالوا: إن الأفعال جميعها محبوبة للرب، إذ هي صادرة عن مشيئته، وهي عين محبته ورضاه، فلزم من ذلك أن صار أن حدهم لا يستقبح سيئة، ولا يستنكر منكرًا.

ولما ورد على هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة] ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] وقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء] والتبس عليهم كيف يكون مكروهًا له. وقد أراد كونه؟ وكيف لا يحبه، وقد أراد وجوده؟ أولَّوا هذه الآيات ونحوها بأنه لا يحبها دينًا. ولا يرضاها شرعًا. ويكرهها كذلك، بمعنى أنه لا يشرعها، مع كونه يحب وجودها ويريده.

ثم بنوا على ذلك أنهم مأمورون بالرضا بالقضاء. وهذه قضاء من قضائه. فنحن نرضى بها. فما لنا لإنكارها ومعاداة فاعلها. ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء؟ فتركب من اعتقادهم: كونها محبوبة للرب، وكونهم مأمورين بالرضا بها، والتسوية بين الأفعال، وعدم استقباح شيء منها أو إنكاره.

وانضاف إلى ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها، وأنها ليست فعله.

فلزم من ذلك: رفع الأمر والنهي، وطي بساط الشرع، والاستسلام للقدر، والذهاب معه حيث كان.

فمنشأ الغلط: التسوية بين المشيئة والمحبة، واعتقادهم وجوب الرضا بالقضاء. ونحن نبين ما في الفصلين إن شاء الله تعالى. فإن القوة لله جميعًا.

فأما المشيئة، والمحبة: فقد دل على الفرق بينهما القرآن والسنة، والعقل، والفطرة، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء] فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتونه من القول، المتضمن البهت ورمي البريء، وشهادة الزور، وبراءة الجاني. فإن الآية نزلت في قصة هذا شأنها، مع أن كله بمشيئته. إذ أجمع المسلمون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه دينا، مع محبته لوقوعه: مما ينبغي أن يصان كلام الله عنه. إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له. ولكن لا يثاب فاعله عليه. فهو محبوب بالمشيئة، غير مثاب عليه شرعًا.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب، مكروه له قدرًا وشرعًا، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه. فإنه يخلق ما يحب ويكره. وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه. وفيها ما يبغضه ويكرهه - كإبليس وجنوده، وسائر الأعيان الخبيثة - وفيها ما يحبه ويرضاه - كأنبيائه ورسله،

وملائكته وأوليائه - وهكذا الأفعال كلها خلقه. ومنها ما هو محبوب له وما هو مكروه له، خلقه لحكمة له في خلق ما يكره ويبغض كالأعيان. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة] مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره. وقال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر:٧] فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره. وأحدهما محبوب له مرضي. والآخر مبغوض له مسخوط.

وكذلك قوله عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء] فهو مكروه له، مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال: وكثرة السؤال. وإضاعة المال» فهذه كراهة لموجود تعلقت به المشيئة.

وفي المسند: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته» فهذه محبة وكراهة لأمرين موجودين. اجتمعا في المشيئة، وافترقا في المحبة والكراهة. وهذا في الكتاب والسنَّة أكثر من أن يذكر جميعه.

وقد فطر الله عباده على قولهم: هذا الفعل يحبه الله، وهذا يكرهه الله ويبغضه وفلان يفعل ما لا يحبه الله. والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه على أعدائه. وذلك صفة قائمة به، يترتب عليها العذاب واللعنة. لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة بل هما أثر السخط والغضب وموجبها. ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء] ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته. وجعل كل واحد غير الآخر.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك».

فتأمل ذكر استعاذته ﷺ بصفة «الرضا» من صفة «السخط» وبفعل «المعافاة» من فعل «العقوبة» فالأول: للصفة، والثاني: لأثرها المترتب عليها. ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده. لا إلى غيره. فما أعوذ منه: واقع بمشيئتك وإرادتك. وما أعوذ به: من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، وإن شئت أن ترضي عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه. فإعاذتي مما أكره وأحذر، ومنعه أن يحل بي: هو بمشيئتك أيضًا. فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك. فعياذي بك منك: عياذي بحولك وقوتك، وقدرتك ورحمتك وإحسانك، مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك وحكمتك. فلا أستعيذ بغيرك من غيرك. ولا أستعيذ إلا بك من شيء هو صادر عن مشيئتك وخلقك. بل هو منك، ولا أستعيذ

بغيرك من شيء هو صادر عن مشيئتك وقضائك، بل أنت الذي تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك. فأعوذ بك منك.

ولا يعلم ما في هذه الكلمات - من التوحيد والمعارف والعبودية - إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته.

وأشرنا إلى شيء يسير من معناها. ولو استقصينا شرحها لقام منه سفر ضخم. ولكن قد فتح لك الباب. فإن دخلت رأيت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر.

والمقصود: أن انقسام الكون في أعيانه وصفاته وأفعاله إلى محبوب للرب مرضي له، ومسخوط مبغوض له، مكروه له: أمر معلوم بجميع أنواع الأدلة، من العقل والنقل، والفطرة والاعتبار، فمن سوى بين ذلك كله فقد خالف فطرة الله التي فطر عليها عباده. وخالف المعقول والمنقول وخرج عما جاءت به الرسل.

ولأي شيء نوَّع الله سبحانه وتعالى العقوبات البليغة في الدنيا والآخرة. وأشهد عباده منها ما أشهدهم؟ لولا شدة غضبه وسخطه على الفاعلين لما اشتدت كراهته وبغضه له. فأوجبت تلك الكراهة والبغض منه: وقوع أنواع المكاره بهم، كما أن محبته لما يحبه من الأفعال ويرضاه: أوجبت وقوع أنواع المحاب لمن فعلها. وشهود ما في العالم من إكرام أوليائه، وإتمام نعمه عليهم، ونصرهم وإعزازهم،وإهانة أعدائه عقوبتهم، وإيقاع المكاره بهم: من أدل الدليل على حبه وبغضه وكراهته، بل نفس موالاته لمن والاه، ومعاداته لمن عاداه: هي عين محبته وبغضه. فإن الموالاة: أصلها الحب. والمعاداة: أصلها البغض. فإنكار صفة «المحبة، والكراهة» إنكار لحقيقة «الموالاة، والمعاداة».

وبالجملة: فشهود القلوب لمحبته وكراهته، كشهود العيان لكرامته وإهانته. وأما مسألة «الرضا بالقضاء» فيقال:

أولا: بأي كتاب، أم بأي سنة، أم بأي معقول: علمتم وجوب الرضا بكل ما يقضيه ويقدره؟ بل بجواز ذلك، فضلاً عن وجوبه؟ هذا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وأدلة العقول ليس في شيء منها الأمر بذلك، ولا إباحته.

بل من المقضي ما يرضى به، ومنه ما يسخطه ويمقته، فلا نرضى بكل قضاء كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه. بل من القضاء ما يسخطه، كما أن من الأعيان المقضية: ما يغضب عليه، ويمقت عليه، ويلعن ويذم.

ثم يقال: القضاء له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى، ونسبته إليه. فمن هذا الوجه: يرضى به كله.

الوجه الثاني: تعلقه بالعبد، ونسبته إليه. فمن هذا الوجه: ينقسم إلى ما يرضى به، وإلى ما لا يرضى به.

مثال ذلك: قتل النفس - له اعتباران.... فمن حيث إنه قدّره الله وقضاه وكتبه وشاءه، وجعله أجلاً للمقتول، ونهاية لعمره: يرضى به، ومن حيث إنه صدر من القاتل، وباشره وكسبه، وأقدم عليه باختياره، وعصى الله بفعله: يسخطه ولا يرضى به.

راقب عملك.. وناقش نفسك

ومن العابدين أناس توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات. دون مطالعة عيب النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما. ويحملهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها؛ ولو تفرغوا لتفتيشها، ومحاسبة النفس عليها، والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق. لشغلهم ذلك عن استكثارها. ولأجل هذا كان عمل العابد القليل المراقبة لعمله خفيفًا عليه، فيستكثر منه، ويصير بمنزلة العادة، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب، وتنقيتها من الكدر، وما في ذلك من شوك الرياء: وجد لعمله ثقلاً كالجبال وقل في عينه. ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعم به مع ثقله.

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي فانظر وقت أخذك في القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعقلها. وفهم ما أريد بكل آية، وحظك من الخطاب بها، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيد بها، كيف تدرك الختمة - أو أكثرها، أو ما قرأت منها - بسهولة وخفة. مستكثرًا من القراءة. فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد، والنظر إلى ما لا يخصك منه والتعبد به، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك، والاستشفاء به. لم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها. وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين، أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور، والخشوع والمراقبة: لم تكد أن تصلي غيرهما إلا بجهد. فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب. فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها دليل على قلة الفقه.

وقد يرى فاعلها أن له حقًّا على الله في مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان، ولهذا كثرت في عينه مع غفلته عن أعماله، لا يدري أنه لن ينجو أحد البتة من النار بعمله، إلا بعفو الله ورحمته.

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح، من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله، قليل المنفعة، دنيا وأخرى، كثير المؤنة، فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود. فإنه - وإن كثر - متعب غير مفيد. فهكذا العمل الخارجي القشوري بمنزلة النخالة كثيرة المنظر قليلة الفائدة. فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها.

وهكذا ينبغي أن يكون سائر الأعمال التي يؤمر بها بالحضور فيها والخشوع، كالطواف، وأعمال المناسك ونحوها.

ولكن أحب العباد إلى الله: الذين يستكثرون من الصالحات، مع مراقبة لها، فقد ندب الله تعالى إلى ذلك فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات] قال الحسن: مدّوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون. وقال النبي ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد» وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبث به: «لايزال لسانك رطبا من ذكر الله».

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحب خلق الله إليه: أعظمهم استكثارًا منها.

وفي الحديث الصحيح الإلهي: «ما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولايزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه».

فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته.

صغيرة المؤمن .. كبيرة

وأيضًا ، فإن استقلال المعصية ذنب، كما أن استكثار الطاعة ذنب، والعارف من صغرت حسناته في عينه. وعظمت ذنوبه عنده. وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله. وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلَّت وصغرت عند الله. وسيئاتك بالعكس. ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية، تلاشت حسناته عنده. وصغرت جدًّا في عينه. وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه. وأن الذي يليق بعزته، ويصلح له من العبودية: أمر آخر. وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها. لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه. فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله. ولو كانت أعمال الثقلين. وإذا كثرت في عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله، غير عارف به وبما ينبغي له. وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه. وتعظم في عينه، لمشاهدته الحق ومستحقه. وتقصيره في القيام به. وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه.

الوقوف .. رجوع

وتوبة الخواص تكون من تضييع الوقت في لغو أو لهو، فإنه يفضي إلى درك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة، وأما الحافظ لوقته فهو مترق على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف موضعه. بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد. فالعبد سائر لا واقف. فإما

إلى فوق، وإما إلى أسفل. إما إلى أمام وإما إلى وراء. وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف ألبتة. ما هو إلا مراحل تطوي أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ ومتقدم ومتأخر وليس في الطريق واقف ألبتة. وإنما يتخالفون في جهة السير. وفي السرعة والبطء: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر] ولم يذكر واقفًا. إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لابد أن يعرض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه.

قلت: لابد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجمع نفسه، ويعدها للسير. فهذا وقفته سير. ولا تضره الوقفة فإن «لكل عمل شرة.. ولكل شرة فترة».

وأما أن يقف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخَّره ولابد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع. ووثب واشتد سعيا ليلحق الركب. وإن استمر مع داعي التأخر، وأصغى إليه لم يرض بردِّه إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركًا. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منها وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه، وتخليصه. وإلا فهو في تأخر إلى الممات. راجع القهقهري، ناكص على عقبيه، أو مولِّ ظهره، ولا قوة إلا بالله، والمعصوم من عصمه الله.

وفوق هذا مقام آخر من التوبة، أرفع منه وأخص. لا يعرفه إلا الخواص المحبون، الذين يستقلون في حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها، ويرون شأن محبوبهم أعظم، وقدره أعلى من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له. فهم أشد شيء احتقارًا لها وإزراء عليها. وإذا غفلوا من مراد محبوبهم منهم، ولم يوفوه حقه، تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكبائر منها. فالتوبة لا تفارقهم أبدًا. وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف] وكلما ازدادوا حبًّا له ازدادوا معرفة بحقه، وشهودًا لتقصيرهم. فعظمت لذلك توبتهم. ولذلك كان خوفهم أشد. وإزراؤهم على أنفسهم أعظم. وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم.

* * *

من أحكام التوبة

ونـــذكر نبذًا تتعلق بأحكام التوبة، تشتد الحاجة إليها، ولا يليق بالعبد جهلها.

منها: أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور. ولا يجوز تأخيرهـا. فمتـى أخَّرهـا عـصى بالتأخير. فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى. وهي توبته من تأخير التوبة. وقـلّ أن تخطـر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر. وقد بقي عليه التوبة مـن تأخير التوبة. ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه وما لا يعلم. فـإن مـا لا يعلمـه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه. ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كـان متمكنًـا مـن العلـم. فإنه عاصٍ بترك العلم والعمل. فالمعصية في حقه أشد. وفي صحيح ابن حبان: أن النبي ﷺ قال: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل. فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يـا رسـول الله؟ قال: أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم».

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولا يعلمه العبد.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «أنه كان يدعو في صلاته: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهـلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي جَدِّي وهزلي، وخطئي وعمدي. وكل ذلك عنـدي. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني. أنـت إلهـي لا إله إلا أنت».

وفي الحديث الآخر: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجلّه، خطأه وعمده، سره وعلانيته، أوله وآخره».

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه.

التوبة متجددة أبداً

ومن أحكام «التوبة» أنه: هل يشترط في صحتها أن لا يعود إلى الـذنب أبـدًا، أم لـيس ذلـك بشرط؟

فشرط بعض الناس: عدم معاودة الذنب. وقال: متى عاد إليه تبينًا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط. وإنما صحة التوبة تتوقـف عـلى الإقـلاع عـن الـذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته.

فإن كانت في حق آدمي: فهل يشترط تحلله؟ فيه تفصيل - سنذكره إن شاء الله - فإذا عـاوده،

مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده. صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبته المتقدمة.

والمسألة مبنية على أصل، وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر، إن مات مصرا؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية. فلا يعود إليه إثمه. وإنما يعاقب على هذا الأخير؟

وفي هذا الأصل قولان:

فقالت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول لفساد التوبة، وبطلانها بالمعاودة.

قالوا: لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر. والكافر إذا أسلم هدَم إسلامُه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه. فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية. ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» فهذا حال من أسلم وأساء في إسلامه. ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام. فإذا أخذ بعدها بما كان منه في حال كفره. ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما. فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق. كما لا تمنع الإثم اللاحق.

قالوا: ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها، والموافاة عليها، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط، كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه.

قالوا: والتوبة واجبة وجوبًا مضيقًا مدى العمر. فوقتها مدة العمر. إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره. فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم. فإذا أمسك معظم النهار، ثم نقض إمساكه بالمفطرات: بطل ما تقدم من صيامه. ولم يعتد به. وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه.

قالوا: ويدل على هذا الحديث الصحيح. وهو قوله ﷺ: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثاني كفرًا موجبًا للخلود. أو معصية موجبة للدخول. فإنه لم يقل: «فيرتد فيفارق الإسلام» وإنما أخبر: أنه يعمل بعمل يوجب له النار. وفي بعض السنن: «إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة. فإذا كان عند الموت جار في وصيته فدخل النار» فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية والأعمال بالخواتيم.

فإن قيل: فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات. وهذا قول المعتزلة. والقرآن والسنة قد دلا على أن الحسنات هي التي تحبط السيئات لا العكس. كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤] وقال النبي ﷺ لمعاذ : «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

قيل: والقرآن والسنة، قد دلا على الموازنة، وإحباط الحسنات بالسيئات فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض. ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه - فعل أهل الهوى والتعصب - بل نقبل الحق ممن قاله، ونرد الباطل على من قاله.

فأما الموازنة: فمذكورة في سورة الأعراف [٨-٩] والأنبياء [٤٢] والمؤمنون [١٠١-١١١] والقارعة، والحاقة [١٩-٣٧].

وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد] وتفسير الإبطال ها هنا بالردة. لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المبطل ينحصر فيها. وقال تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤] فهذان سببان عرضا بعد للصدقة فأبطلاها. شبه سبحانه بطلانها - بالمن والأذى - بحال المتصدق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات] وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» وقالت عائشة ﵂ لأم ولد زيد بن أرقم - وقد باع بيع العينة- «أخبري زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ؛ إلا أن يتوب» وقد نص أحمد على هذا في رواية، فقال: ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه. فيستدين ويتزوج، لا يقع في محظور فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة - أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع ومنها ما يحبطها بالنص - جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة، فتصير التوبة كأنها لم تكن. فيلتقي العملان، ولا حاجز بينهما، فيكون التأثير لهما جميعًا.

قالوا: وقد دل القرآن، والسنة، وإجماع السلف على الموازنة. وفائدتها: اعتبار الراجح فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح ، قال ابن مسعود: «يحاسب الناس يوم القيامة. فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة. ثم قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف] ثم قال: «إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح».

واحتج الفريق الآخر - وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة - بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة. وصار بمنزلة ما لم يعمله. وكأنه لم يكن. فلا يعود إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

قالوا: ولا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى الممات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك: محي

عنه إثم الذنب بمجرد ذلك. فإذا استأنفه استأنف إثمه.

قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال. فإن الكفر له شأن آخر. ولهذا يحبط جميع الحسنات. ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات. فلو أبطلتها معاودة الذنب لأبطلت غيرها من الحسنات وهذا باطل قطعًا. وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب، والمعتزلة المخلدين في النار بالكبيرة، التي تقدمها الألوف من الحسنات. فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر في النار. ولكن الخوارج كفَّروهم، والمعتزلة فسقوهم. وكلا المذهبين باطل في دين الإسلام مخالف للمنقول والمعقول وموجب العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النساء].

قالوا: وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب».

قلت: وهو الذي كلما فتن بالذنب تاب منه. فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوبًا للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران] والإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به. فهذا الذي يمنع مغفرته.

قالوا: وأما استمرار التوبة: فشرط في صحة كمالها ونفعها. لا شرط في صحة ما مضي منها. وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة. فإن تلك عبادة واحدة. لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأما التوبة: فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب. فكل ذنب له توبة تخصه. فإذا أتى بعبادة وترك أخرى، لم يكن ما ترك موجبًا لبطلان ما فعل. كما تقدم تقريره.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر. فهل يكون ما أفطره منه مبطلاً لأجر ما صامه منه؟

بل نظير من صلى ولم يصم. أو زكي ولم يحج.

ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة. فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر. فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوبًا لله مبغوضًا له من وجهين أيضًا. بل يكون

فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر. ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر. فيكون من أهله. كما قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٦٧] وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف] أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر. فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي. وشرك جلي. فالخفي قد يغفر. وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه. فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة. فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة. ولا يظلم مثقال ذرة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت].

حُسن الخاتمة يحفظ ذخيرة العمر

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها. ثم تاب منها توبة نصوحًا خالصة عادت إليه حسناته. ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها. بل يقال له: ثبت على ما أسلفت من خير. فالحسنات التي فعلتها في الإسلام أعظم من الحسنات التي يفعلها الكافر في كفره: من عتاقة، وصدقة، وصلة. وقد قال حكيم بن حزام: «يا رسول الله، أرأيت عتاقة أعتقتها في الجاهلية، وصدقة تصدقت بها، وصلة وصلت بها رحمي». فهل لي فيها من أجر؟ فقال: «أسلمت على ما أسلفت من خير» وذلك لأن الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن. فتلاقت الطاعتان واجتمعتا. والله أعلم.

توبة القلب تامة

ومن أحكامها: أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها. بحيث يتعذر وقوعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والزاني إذا جب، والسارق إذا أتى على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قطعت يده. ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

الأظهر: أن توبته صحيحة ممكنة، بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه. والمقدور له منها الندم. وفي المسند مرفوعًا «الندم توبة» فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه. فهذه توبة.

وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه؟ ولاسيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحًا والفعل مقدورًا له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نزَّل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته. كقوله في الحديث الصحيح: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما» وفي الصحيح أيضًا عنه : «إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة. حبسهم العذر» وله نظائر في الحديث. فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهرًا - مع نيته تركها اختيارًا لو أمكنه - منزلة التارك المختار أولى.

نتحلل الذي ظلمناه

ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي: أن يخرج التائب إليه منه، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به. وإن كان حقًّا ماليا أو جناية على بدنه أو بدن موروثه. كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات».

وإن كانت المظلمة بقدح فيه، بغيبة أو قذف: فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام مَنْ قذفه وإعتابه؟

على ثلاثة أقوال. وعن أحمد روايتان منصوصتان في حد القذف، هل يشترط في توبة القاذف: إعلام المقذوف، والتحلل منه أم لا؟ ويخرَّج عليهما توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف في مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل. هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم.

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي: فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه. لاسيما إذا كان من الحق عارفًا بقدره. فلابد من إعلام مستحقه به. لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور. وهو قوله ﷺ: «من كان لأخيه عنده مظلمة - من مال أو عرض فليتحلله اليوم».

قالوا: ولأن في هذه الجناية حقين: حقًّا لله، وحقًّا للآدمي. فالتوبة منها بتحلل الآدمي لأجل حقه. والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولي الدم من نفسه، إن شاء اقتص وإن شاء عفا. وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله. وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه، وقذفه بذكر عفته وإحصانه. ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية. قدس الله روحه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة. فإنه لا يزيد ، إلا أذى وحنقًا وغمًا، وقد كان مستريحًا قبل سماعه. فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله، وأورثته ضررًا في نفسه أو بدنه، كما قال الشاعر:

فإن الذي يؤذيك منه سماعه وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه. فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سببًا للعداوة والحرب بينه وبين القائل. فلا يصفو له أبدًا. ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولِّدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف. هذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحابب.

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين:

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه. فلا يجوز إخفاؤها عنه. فإنه محض حقه. فيجب عليه أداؤه إليه. بخلاف الغيبة والقذف. فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط. فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه، ولم تهج منه غضبًا ولا عداوة. بل ربما سره ذلك وفرح به بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلاً ونهارًا، من أنواع القذف والغيبة والهجو. فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد. وهذا هو الصحيح في القولين كما رأيت. والله أعلم.

إذا نزل بالذنب .. صعد بالتوبة

ومن أحكامها: أن العبد إذا تاب من الذنب: فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطه عنها الذنب، أو لا يرجع إليها؟ الصحيح: أن من التائبين من لا يعود إلى درجته ومنهم من يعود إليها. ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيرًا مما كان قبل الذنب.

وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجدِّه وعزمه. وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيرًا مما كان وأعلى درجة. وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله. وإن كان دونه لم يعد إلى درجته. وكان منحطا عنها.

ويتبين هذا بمثلين مضروبين:

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن. فهو يعدو مرة ويمشي أخرى، ويستريح تارة وينام أخرى. فبينا هو كذلك إذ عرض له في سيره ظل ظليل، وماء بارد ومُقيل، وروضة مزهرة. فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها، فوثب عليه منها عدو، فأخذه وقيده وكتفه ومنعه من السير. فعاين الهلاك. وظن أنه منقطع به، وأنه رزق الوحوش والسباع. وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه. فبينا هو على ذلك تتقاذفه الظنون، إذ وقف على رأسه والد الشفيق القادر. فحلَّ كتافه وقيوده. وقال له: اركب الطريق واحذر هذا العدو. فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد. واعلم أنك مادمت حاذرًا منه، متيقظًا له لا يقدر عليك. فإذا غفلت وثب عليك. وأنا متقدمك إلى المنزل، وفرط لك فاتبعني على الأثر.

فإذا كان هذا السائر كَيِّسًا فطنًا لبيبًا، حاضر الذهن والعقل، استقبل سيره استقبالاً آخر، أقوى من الأول وأتم. واشتد حذره. وتأهب لهذا العدو. وأعد له عدته. فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيرًا منه. ووصوله إلى المنزل أسرع. وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد، عاد كما كان ، وهو معرض لما عرض له أولاً.

وإن أورثه ذلك توانيا في سيره وفتورًا، وتذكرًا لطيب مقيلة، وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه، وتفيؤ ظلاله، وسكونًا بقلبه إليه. لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان.

المثل الثاني: عبد في صحة وعافية جسم، عرض له مرض أوجب له حِمْية وشرب دواء وتحفظًا من التخليط. ونقص بذلك مادة ردية كانت منقصة لكمال قوته وصحته. فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله، كما قيل:

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

وإن أوجب له ذلك المرض ضعفًا في القوة، وتداركه بمثل ما نقص من قوته. عاد إلى مثل ما كان.

وإن تداركه بدون ما نقص من قوته، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة.

وفي هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما.

وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول. لا يلوي على شيء في طريقه. فعرض له رجل من خلفه جذب ثوبه وأوقفه قليلاً. يريد تعويقه عن الصلاة. فله معه حالان.

أحدهما: أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة. فهذه حال غير التائب.

الثاني: أن يجاذبه على نفسه، ويتفلت منه، لئلا تفوته الصلاة.

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يكون سيره جمزاً ووثبًا، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة. فربما استدركه وزاد عليه.

الثاني: أن يعود إلى مثل سيره.

الثالث: أن تورث تلك الوقفة فتورًا وتهاونًا. فيفوته فضيلة الصف الأول، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت. فهكذا حال التائبين السائرين سواء.

* * *

مفاضلة

ويتبين هذا بمسألة شريفة. وهي أنه: هل المطيع الذي لم يعص خير من العاصي الذي تاب إلى الله توبة نصوحًا، أو هذا التائب أفضل منه؟

اختلف في ذلك.

جمال البراءة

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحًا. واحتجوا بوجوه:

أحدها: أن أكمل الخلق وأفضلهم: أطوعهم لله. وهذا الذي لم يعص أطوع. فيكون أفضل.

الثاني: أن في زمن اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق. فتكون درجته أعلى من درجته. وغايته: أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه. وذلك في سير آخر فأني له بلحاقه؟ فهما بمنزلة رجلين مشتركين في الكسب، كلما كسب أحدهما شيئًا كسب الآخر مثله. فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه، وأمسك عن الكسب المستأنف. والآخر مجد في الكسب. فإذا أدركته حمية المنافسة، وعاد إلى الكسب: وجد صاحبه قد كسب في تلك المدة شيئًا كثيرًا. فلا يكسب شيئًا إلا كسب صاحبه نظيره. فأنَّى له بمساواته؟

الثالث: أن غاية التوبة أن تمحو عن هذا سيئاته، ويصير بمنزلة من لم يعملها. فيكون سعيه في مدة المعصية لا له ولا عليه. فأين هذا السعي من سعي من هو كاسب رابح؟

الرابع: أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره. ففي مدة اشتغال هذا بالذنوب كان حظه المقت، وحظ المطيع الرضا. فالله لم يزل عنه راضيا. ولا ريب أن هذا خير ممن كان الله راضيا عنه ثم مقته، ثم رضي عنه. فإن الرضا المستمر خير من الذي تخلله المقت.

الخامس: أن الذنب بمنزلة شرب السم. والتوبة ترياقه ودواؤه. والطاعة هي الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه. وربما أدَّيا به إلى التلف أو المرض أبدًا.

السادس: أن العاصي على خطر شديد. فإنه دائر بين ثلاثة أشياء. أحدها: العطب والهلاك بشرب السم. الثاني: النقصان من القوة وضعفها، إن سلم من الهلاك. والثالث: عود قوته إليه كما كانت أو خيرًا منها بعيد.

والأكثر إنما هو القسمان الأولان. ولعل الثالث نادر جدًّا. فهو على يقين من ضرر السم، وعلى رجاء من حصول العافية، بخلاف من لم يتناول ذلك.

السابع: أن المطيع قد أحاط بستان طاعته حائطًا حصينًا، لا يجد الأعداء إليه سبيلاً. فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته في زيادة ونمو أبدًا. والعاصي قد فتح فيه ثغرًا، وثلم فيه ثلمة. ومكّن منه السراق والأعداء. فدخلوا فعاثوا فيه يمينًا وشمالاً: أفسدوا أغصانه، وخربوا حيطانه، وقطعوا ثمراته، وأحرقوا في نواحيه، وقطعوا ماءه، ونقصوا سقيه. فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول؟ فإذا تداركه قَيمه ولمّ شعثه، وأصلح ما فسد منه، وفتح طرق مائه، وعمر ما خرب منه، فإنه إما أن يعود كما كان، أو أنقص، أو خيرًا، ولكن لا يلحق بستان صاحبه الذي لم يزل على نضارته وحسنه. بل في زيادة ونمو، وتضاعف ثمرة، وكثرة غرس.

الثامن: أن طمع العدو في هذا العاصي إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته، ولذلك يسمي جاهلاً. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصي الله به فهو جهالة. وكذلك قال الله تعالى في حق آدم: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه] وقال في حق غيره: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] وأما من قويت عزيمته، وكمل علمه، وقوي إيمانه: لم يطمع فيه عدوه. وكان أفضل.

التاسع: أن المعصية لابد أن تؤثر أثرًا سيئًا ولابد: إما هلاكًا كليا. وإما خسرانًا وعقابًا، يعقبه: إما عفو ودخول الجنة، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمان. وعمل التائب في رفع هذه الآثار والتكفير. وعمل المطيع في الزيادة، ورفع الدرجات.

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبي ﷺ خاصة. فإنه يعمل في زيادة الدرجات، وغيره يعمل في تكفير السيئات. وأين هذا من هذا؟

العاشر: أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله. وكلما زادت طاعته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم. وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله. فسافر ثانيًا برأس ماله الأول وكسبه. فكسب عشرة أضعافه أيضًا. فسافر ثالثًا أيضًا بهذا المال كله. وكان ربحه كذلك، وهلم جرا. فإذا فتر عن السفر في آخر أمره، مرة واحدة فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه. وهذا معنى قول الجنيد رحمه الله: «لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته أكثر مما ناله» وهو صحيح بهذا المعنى. فإنه قد فاته في مدة الإعراض ربح تلك الأعمال كلها. وهو أزيد من الربح المتقدم. فإذا كان هذا حال من أعرض، فكيف من عصى وأذنب؟ وفي هذا الوجه كفاية.

وللمستدرك جمال.. أيضًا

وطائفة رجحت التائب، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه. واحتجت بوجوه.

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه. فإنه سبحانه يحب

التوابين. ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلي بالذنب أكرم الخلق عليه. فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة وزيادة محبته لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة. يوضح ذلك:

الوجه الثاني: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات. ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدّر، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة، بعدما فقدها، وأيس من أسباب الحياة، ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة. ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه. وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد. فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية. فيصير حبيبًا لله. فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب. ويوضحه:

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتملق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة. وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة. فإن الذل والانكسار روح العبودية، ومخها ولبها. يوضحه:

الوجه الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره. فإنه قد شارك من لم يذنب في ذل الفقر، والعبودية، والمحبة. وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية. والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله، وانكسار قلبه. ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» لأنه مقام ذلك وانكسار بين يدي ربه.

وتأمل قول النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل: «أنه يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني. قال: رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: يارب، كيف أسقيك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يارب ، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما إن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما لو عدته لوجدتني عنده» فقال في عيادة المريض «لوجدتني عنده» وقال في الإطعام، والإسقاء «لوجدت ذلك عندي» ففرق بينهما. فإن المريض مكسور القلب، ولو كان من كان، فلابد أن يكسره المرض فإذا كان مؤمنًا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا – والله أعلم – هو السر في استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم. فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد في نفسه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر ثورة النفس السبعية الحيوانية، ويذلها.

الوجه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من الطاعات.

وهذا معنى قول بعض السلف: «قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة. ويعمل الطاعة فيدخل بها النار قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلايزال نصب عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشي، ذكر ذنبه. فَيحدِثُ له انكسارًا، وتوبة، واستغفارًا، وندمًا، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشي، كلما ذكرها أورثته عجبًا وكبراً ومنة. فتكون سبب هلاكه. فيكون الذنب موجبًا لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكسًا رأسه خجلاً، باكيا نادمًا، مستقيلاً ربه. وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب لـه صولة، وكبرًا، وازدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار. ولا ريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من المعجب بطاعته، الصائل بها، المان بها، وبحاله على الله عز وجل وعباده. وإن قال بلسانه خلاف ذلك. فالله شهيد على ما في قلبه. ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ويخضعوا له. ويجد في قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك. ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامنًا. ولهذا تراه عاتبًا على من لم يعظِّمه ويعرف له حقه. متطلبًا لعيبه في قالب حمية لله، وغضب له، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه، ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا. فتح لـه باب المعاذير والرجاء. وأغمض عنه عينه وسمعه. وكف لسانه وقلبه، وقال : باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود. وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيرًا ألقاه في ذنب يكسره به، ويعرفه قدره، ويكفي به عباده شره. وينكس به رأسه، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده. فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة. ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال. كما قيل بلسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه:

يا آدم، لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك، فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به. وألبست بها حلة العبودية.

يا آدم إنما ابتليتك بالذنب لأني أحب أن أظهر فضلي، وجودي وكرمي، على من عصاني «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

يا آدم، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب، فعلى من أجود بحلمي؟ وعلى من أجود بعفوي ومغفرتي، وتوبتي، وأنا التواب الرحيم؟

يا آدم، لا تجزع من قولي لك (اخرج منها) فلك خلقتها، ولكن اهبط إلى دار المجاهدة. وابذر بذر التقوى. وأمطر عليه سحائب الجفون. فإذا اشتد الحب واستغلظ، واستوى على سوقه، فتعال فاحصده.

يا آدم، ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إلى في الصعود، وما أخرجتك منها نفيا لك عنها، ما أخرجتك منها إلا لتعود.

يا آدم، ذنب تذل به لدينا، أحب إلينا من طاعة تدل بها علينا.

يا آدم، أنين المذنبين، أحب إلينا من تسبيح المدلين.

«يا ابن آدم، إنك ما دعوتني، ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم، لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا. أتيتك بها مغفرة».

يذكر عن بعض العبَّاد: أنه كان يسأل ربه في طوافه بالبيت، أن يعصمه ثم غلبته عيناه، فنام، فسمع قائلاً يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة، فإذا عصمتهم ف على من أتفضل وأجود بمغفرتي وعفوي؟ و على من أتوب؟ وأين كرمي وعفوي ومغفرتي وفضلي؟ ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، آمنت بي ولم تشرك بي شيئًا، أقمت حملة عرشي ومن حوله يسبحون بحمدي ويستغفرون لك وأنت على فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا. فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي» ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

يا عبدي لا تعجز. فمنك الدعاء وعلي الإجابة. ومنك الاستغفار وعلي المغفرة، ومنك التوبة وعلي تبديل سيئاتك حسنات يوضحه:

الوجه السادس: وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان] وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت. وفرحه بنزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح].

واختلفوا في صفة التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين:

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها. فبدلهم بالشرك إيمانًا وبالزنا عفة وإحصانًا، وبالكذب صدقًا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة. فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها هاهنا ». قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه».

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات. إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لابد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه. فلابد إذاً من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث. ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه. فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطي مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنب وخبثها، كان أولي بأن يعطي مكان كل سيئة حسنة. لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله. وإزالة النار بدل منها. وهي الأصل. فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه:

الوجه السابع: وهو أن التائب قد بدّل كل سيئة بندمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون

فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها يوضحه:

الوجه الثامن: أن ذنب العارفين بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب، من ذلك وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة. فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍ﴾ ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فلهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عُذب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي ﷺ عن كبار ذنوبه: ولما انتهى إليها ضحك. ولم يبين ما يفعل الله بها. وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله «اخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعًا عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك. وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرَّر عليها ولا يسأل عنها. وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع. لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

* * *

الركيزة الجامعة

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي. وإن كان في حق آدمي: فلابد من أمر رابع. وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله - كما تتضمن ذلك - تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، بل وتتضمن مقت من يتركه ومقاطعته. والتزام الأمر به والنهي عن تركه، فإن العمل الصالح - المشروط للتوبة، في آية الفرقان - هو ضد ما كان يأتيه من السوء، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبًا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة. وهي اسم لمجموع الأمرين. لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين. وهي كلفظة «التقوى» التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر به، وترك ما نهى الله عنه. وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور، وإن كان معناها أعم، إذ التقوى هي اتخاذ كل ما أعطى الله العبد ـ من عافية، ومال وولد، وليل ونهار، وغير ذلك - وقاية يتقي بها ما يكره ويخاف. في سيره إلى ربه والدار الآخرة فإن الطريق كله عقبات، وأعداء من النفس الأمارة والهوى والشيطان- تتناوشه، وتجذبه، محاولة صده وإرجاعه وإهلاكه، وقد ابتلاه الله بكل ذلك. وآتاه ما يمكنه من السلامة والعافية والنجاح. وذلك بحسن وضع النعمة من كل ذلك موضعه، فإن الهلاك إنما يكون بوضع هذه النعم على غير وضعها، بالجاهلية واتباع الهوى، وتغليب الشهوة البهيمية، والانسلاخ من آيات الله، واتخاذ الشيطان وليا من دون الله.

إن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره. فهي رجوع من مكروه إلى محبوب. فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها. والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور] فكل تائب مفلح. ولا يكون مفلحًا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نُهي عنه. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات] وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم. وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين. فالناس قسمان: تائب وظالم، ليس إلا. فالتائبون هم: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١٢] فحفظ حدود الله: جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور وإنما سمي تائبًا: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، بل لرجوعه إلى الله

مولاه وحبيبه.وتخليصه نفسه من عدوه. فإن عدوه يريد لشقائه. فيجذبه إليه بحبل الحيوانية وسفهها وجهلها وشهواتها. والله مولاه يريده لسعادته، وهو يتودد إليه بجميع ما يعطيه في نفسه وما سخر له، ويجذبه إليه بأسباب نعمه التي لا تحصى. ومن أقواها، آياته في الأنفس والآفاق، وسننه التي لا تتبدل. وما يوحي الله إلى رسله من الهدى والبصائر ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام].

فإذن: «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى «التوبة» وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذن «التوبة» هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا أو باطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان. وتتناول جميع المقامات. ولهذا كانت غاية كل مؤمن. وبداية الأمر وخاتمته. كما تقدم. وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها. بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علمًا وعملاً صالحًا ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة » اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

نفارق الباطل ثم نرجع إلى الحق

وأما «الاستغفار» فهو نوعان : مفرد ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح]. وكقول صالح لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل] وكقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة]. والمقرون كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣]. وقول هود لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود:٥٢]. وقول صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود] . وقول شعيب: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود]. فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه

بعض الناس: أنها الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له. ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه. فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب. ومنه المغفر، لما يقي الرأس من الأذى. والستر لازم لهذا المعنى. وإلا فالعمامة لا تسمى مغفرًا، ولا القبع ونحوه مع ستره. فلابد في لفظ «المغفر» من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال] فإن الله لا يعذب مستغفرًا. وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته فهذا ليس باستغفار مطلق. ولهذا لا يمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

ومع ذلك فلا مانع أن يكون معنى الاستغفار طلب الغفر، وهو الستر، ستر العيوب والنقائض المهلكة الضارة وأكبر عيب الإنسان نقصه: هو جهله وظلمه. فبخطام الجهل والظلم يجره العدو إلى ما يهلكه ويرديه، وسترهما إنما يكون باليقظة والحرص على الانتفاع بما يؤتيه الله ربه من العلم والعدل والإحسان. وكلما غفل العبد عن كرامته الإنسانية، التي نفخها الله فيه من روحه، أخلد إلى أرض البهيمية، فاشتد جهله وظلمه، وفضح نفسه. وكلما عني بإنسانيته وغذاها بالتفكر في آيات الله وسننه الكونية في نفسه وفي الآفاق، وتدبر آياته العلمية المرسل بها رسله، كلما غفر الله له وستر من عيوبه ونقصانه. وبهذا يفهم قول الله لرسوله ﷺ: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ [الفتح:٢] فإنه ﷺ لم يأت منكرًا قط ولا عصى ربه قط ولا فسق عن أمره. وإنما هو ستر عيوب البشرية وجبلاتها بما أوتي من العلم والهدى الذي مكن له ربه به. من التحكم في هذه الطبائع البشرية، والإحسان بها وفيها. حتى كان الحكيم الرشيد ﷺ.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى. فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخاف في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله. والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤدي إلى هلاكه. ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره. ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته. والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء والرجوع إلى غيره. فخصت «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة. وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهـذا جاء - والله أعلم - الأمر بهما

مرتبًا بقوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [هود:٩٠] فإن الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر. والتوبة طلب جلب المنفعة. فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده والله أعلم.

التوبة النصوح

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم:٨] فجعل وقاية شر السيئات – وهو تكفيرها – بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات – وهو حصول ما يحب العبد – منوطـًا بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصدًا للمبالغة. كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد. وإيقاعها على أكمل الوجوه والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شيء واحد. فقال عمر بن الخطاب وأبي بن كعب – رضي الله عنهما : «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع» وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضي، مجمعًا على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي: «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب: «توبة نصوحا تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يشبْهَا بغش فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل، أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تَلَوُّم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهروب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان. وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إثابة أولها.. إلهام

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها. وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولاً إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيا، قبولاً وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين. فكانت سببًا مقتضيا لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فقد أعطاه ربه هداية الفطرة: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان] فإن أحسن الاهتداء بهداية الفطرة في سمعه وبصره وفؤاده، وشكر ربه عليها باستعمالها في إيصال المعلومات إلى فؤاده على حقيقتها التي خلقها الله، فعقلها وأحسن تربيتها والاستفادة منها زاده الله هدى وزاده من نعمة التفكر والتأمل صفاء ونورًا، اهتدى به إلى الفقه في كلامه وكلام رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

فإذا اهتدى العبد: أوجبت تلك الهداية هداية أخر يثيبه الله بها هداية على هدايته. فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧] فهداهم أولاً فاهتدوا، فزادهم هدى ثانيًا. وعكسه في أهل الزيغ

كمقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول» و«الآخر» فهو المعدُّ. وهو المُمِد ومنه السبب والمسبب. وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «وأعوذ بك منك» والعبد تواب. والله تواب. فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

و«التوبة» لها مبدأ ومنتهى. فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلاً إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣] وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى] وبقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج].

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد. وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته. فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان] قال البغوي وغيره: «يتوب إلى الله متابا: يعود إليه بعد الموت، متابًا حسنًا يفضل على غيره» فالتوبة الأولى - وهي قوله: «ومن تاب» - رجوع عن الشرك . والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجـزاء متضمن معنى الأوامر. والمعنى: ومن عزم على التـوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصًا، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه، ورجع إليه . والمعنى فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧] .أي اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوى العزم وصار جازمًا، وُجد به فعل التوبة.

فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها.

والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصدًا ونية وعزمًا، فتوبته إلى الله عملاً وفعلاً. وهذا نظير قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

صغائر دون الكبائر

و«الذنوب» تنقسم إلى صغائر وكبائر، بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وبالاعتبار. قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء:٣١] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر».

والذي جاء في لفظ الشارع، تسمية ذلك «لمما» و«محقرات» كما في الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب» وقد قيل: إن «اللمم» المذكور في الآية من الكبائر. حكاه البغوي وغيره.

قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يلم بالكبيرة مرة، ثم يتوب منها، ويقع فيها، ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه. و على هذا يكون استثناء «اللمم» من الاجتناب إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لممـًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر. وهو منقطع. أي لكن يقع منهم اللمم.

وحسن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب - والغالب خلافه - أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ. إذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحًا. فالمعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش، فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال: «الذنوب كلها كبائر» إذ الأصل في الاستثناء الاتصال. ولاسيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر.

ثم اختلفوا فـي فصلين:

أحدهما: في «اللمم» ما هو؟

والثاني: في «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها، أو حد يحدها؟ فلنذكر شيئًا يتعلق بالفصلين.

تفسير اللمم

فأما «اللمم» فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لا يعود إليه، وإن كان كبيرًا. قال البغوي: هذا قول أبي هريرة، ومجاهد، والحسـن، وروايــة عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص: «اللمم ما دون الشرك» قال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن قول الله عز وجل ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ فقلت: «هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده» فذكرت ذلك لابن عباس فقال: «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: على أن ﴿ٱللَّمَمَ﴾ ما دون الكبائر. وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في صحيح البخاري من حديث طاووس عنه قال: «ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا. أدرك ذلك لا محالة. فزنا العين: النظر. وزنا اللسان: النطق. والنفس تمني وتشتهي. والفرج يصدق ذلك أو يكذِّبه» رواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة. وفيه: «والعينان زناهما: النظر. والأذنان: زناهما الاستماع. اللسان: زناه الكلام. واليد: زناها البطش. والرِّجل: زناها الخطى».

وقال الكلبي ﴿ٱللَّمَمَ﴾ على وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا في الدنيا، ولا عذابًا في الآخرة، فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش.

والوجه الآخر: هو الذنب العظيم، يلم به المسلم المرة بعد المرة، فيتوب منه.

قال سعيد بن المسيب: هو ما ألمّ بالقلب. أي ما خطر عليه.

قال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمد، فهو مغفور. فإن أعاد النظر فليس بلمم، وهو ذنب. وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما».

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم. فالله لا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية. هذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور إن اللمم: صغائر الذنوب، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم. وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، ومسروق، والشعبي، ولا ينافي هذا قول أبي هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى: «إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها» فإن «اللمم» إما أن يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين. كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة - ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره - باللمم. ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مرارًا عديدة. وهذا من فقه الصحابة ﵃ وغور علومهم. ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث. وإنما يخاف العنت على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مرارًا كثيرة. وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا. ويذكر عن علي ﵁: أنه «دفع إليه سارق، فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت غير هذه المرة، فقال: كذبت، فلما قطعت يده قال: اصدقني، كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال: صدقت، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب» أو كما قال. فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم، فهو من جنسه ونظيره. فالقولان عن أبي هريرة، وابن عباس، متفقان غير مختلفين، والله أعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حينًا بعد حين. فإنه يقال: ألمّ بكذا. إذا قاربه، ولم يغشه، ومن هذا سميت القُبلة والغمزة لممًا، لأنها تلم بها بعدها. ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماماً.أي حينًا بعد حين. فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية. وليس معنى الآية ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ فإنهم لا يجتنبونه فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال. وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه. فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه. ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. ومضمون هذا: أنه لا يكون محسنًا مجزيا بإحسانه، ناجيا من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش. فحسن حينئذ استثناء اللمم. وإن لم يدخل في الكبائر، فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ [مريم:٦٢] فإن «السلام» داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [النبأ] فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل:

في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلامًا.

وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئًا إلا حميًا وغساقًا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحًا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ [النساء:١٥٧] فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء:٢٢] إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك: ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾ [النساء:٢٣] . وإن كان المراد به ما كان في شرع مَنْ تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم، والذم لمن فعله فحسن أن يقال: «إلا ما قد سلف».

فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

وأما قوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان:٥٦] فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء ألبتة. إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه

إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم. وهذا جار في كل منقطع. فتأمله فإنه من أسرار العربية.

وقريب من هذا لفظة «أو» في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤] وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات:١٤٧] هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة، فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها. وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها. فذكر «أو» هاهنا كالتنصيص على حفظ المائة ألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

إحصاء الكبائر

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس».

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ - ثلاثا - قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئا فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت».

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: «قلت يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ » قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال : قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك» فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان:٦٨].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله،وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم: سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه» قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن من أكبر الكبائر: استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير حق».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أكبر الكبائر: الشرك بالله، والأمن من مكر الله. والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله».

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر «أسبع هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال: «كل شيء عُصي الله به فهو كبيرة. من عمل شيئًا منها فليستغفر الله. فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعًا عن الإسلام، أو جاحدًا فريضة، أو مكذبًا بالقدر».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [٣١] فهو كبيرة». وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أو لعنة، أو عذاب.

وقال الضحاك: هي ما أوعد الله عليه حدًّا في الدنيا، أو عذابًا في الآخرة. وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيرًا أو عظيمًا. نحو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء] ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾ [الإسراء] ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان] ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يونس] ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦﴾ [النور] ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾ [الأحزاب] .

وقال مالك بن مغول: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السنة.

قلت: يريد أن البدعة من الكبائر، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة. فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع. وهذا معنى قول بعض السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية. لأن البدعة لا يتاب منها. والمعصية يتاب منها.

وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحدين، والكبائر: ما تعلق بها أحد الحدين.

ومرادهم بالحدين: عقوبة الدنيا والآخرة. فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا، كالزنا وشرب الخمر والسرقة والقذف. أو عليه وعيد في الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب في آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيانته أمانته، ونحو ذلك. فهو من الكبائر. وصدق ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: «هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع».

حسنات المسيء تشفع له

وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها - من الحياء والخوف، والاستعظام لها - ما يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة- من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها - ما يلحقها بالكبائر. بل يجعلها في أعلى رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل. والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضًا فإنه يعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: انظر إلى موسى - صلوات الله وسلامه عليه - رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجرَّ بلحية نبي مثله، وهو هارون، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورفعه عليه، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدي عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمتي القبط وبني إسرائيل أشد المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر.

وانظر إلى يونس بن متَّى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى، غاضب ربه مرة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى، وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع. كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكّر به إذا وقع في الشدائد. قال تعالى عن ذي النون: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس] قال له جبريل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس].

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك. لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له. ويسامحه ما لا يسامح به المشرك. وكلما كان توحيد العبد أعظم، كانت مغفرة الله له أتم. فمن لقيه لا يشرك به شيئًا ألبتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت. ولم يعذَّب بها.

ولسنا نقول: إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد. بل كثير منهم يدخل بذنوبه. ويعذب على مقدار جرمه، ثم يخرج منها. ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علمًا بما قدمناه.
ونزيد هاهنا إيضاحًا لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه.

اعلم أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوت أهلها في ذلك النور- قوة، وضعفًا- لا يحصيه إلا الله تعالى.

فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.

ومنهم : من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

ومنهم: من نورها في قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر: كالسراج المضيء. وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم، وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علمًا وعملاً، ومعرفة وحالاً.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته. حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة، ولا ذنبًا، إلا أحرقه. وهذا حال الصادق في توحيده، الذي لم يشرك بالله شيئًا، فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها. فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته. فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لابد منها للبشر. فإذا استيقظ وعلم ما سُرق منه استنقذه من سارقه. أو حصّل أضعافه بكسبه. فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته، وولى الباب ظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون. بل التوحيد يتضمن – من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض – ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي، والإصرار عليها. ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» وقوله: «لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله» وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي، واستقرار الشرع.

والشارع – صلوات الله وسلامه عليه – لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط. فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام. فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار. فلابد من قول القلب، وقول اللسان. وقول القلب: يتضمن من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته – من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب: علمًا ومعرفة ويقينًا، وحالاً – ما يوجب تحريم قائلها على النار. وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام. كقوله ﷺ: «من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة، حطت عنه خطاياه – أو غفرت ذنوبه – ولو كانت مثل زبد البحر» وليس هذا مرتبًا على مجرد قول اللسان.

نعم من قالها بلسانه، غافلاً عن معناها، معرضًا عن تدبرها، ولم يواطئ قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجيا مع ذلك ثوابها، حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه. فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب. فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض. والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدًا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته - وهو في تلك الحال - على أن جعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت. فهذا أمر آخر، وإيمان آخر. ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة، وجعل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب - وقد اشتد به العطش يأكل الثرى - فقام بقلبها ذلك الوقت - مع عدم الآلة، وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها - ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها، وهو ملآن، حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب، من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكورًا. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعمل عند الله. والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي، الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبًا. والله المستعان.

علو المنزلة يوجب زيادة الانتباه

فإن قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره، ويعفي للولي عما لا يعفي لسواه.

فهذا الذي ذكرتم صحيح. وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء] أي لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهن بعض الشيء. ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة] أي لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه، ومن التقول عليه

سبحانه. وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وما ذكرتم في قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسامح بغضبة، وسجن لأجلها في بطن الحوت. ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة، وكانت سببه إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضًا حق. ولا تنافي بين الأمرين. فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره؛ في إعطائه منها ما حرمه غيره، فحبي بالإنعام، وخص بالإكرام، وخص بمزيد التقريب، وجعل في منزلة الولي الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص أن يراعي مرتبته من أدنى مشوش وقاطع. فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم، ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره. فهو إذا غفل وأخلّ بمقتضى مرتبته نبه لما لم ينبه عليه البعيد البراني، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضًا. فيجتمع في حقه الأمران.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع، حيث جعل حدّ من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا: الرجم، وحدّ من لم يعطه هذه النعمة الجلد.

فسبحان من بهرت حكمته في خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين.

لله سر تحـــــت كـــــل لطيفـــــة فـــأخو البـــصائر غـــائص يتملـــق

* * *

أجناس المحرمات

ولا يستحق العبد اسم «التائب» حتى يتخلص من جميع أجناس المحرمات.

وهي اثنا عشر جنسا مذكورة في كتاب الله عز وجل: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم. وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها، وقد يعلم ذلك. وقد لا يعلم.

فالتوبة النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها. وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

ونحـن نذكرها، ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت، لتتبين حدودها وحقائقها. والله الموفق لما وراء ذلك، كما وفق له. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب. والعبد أحوج شيء إليه.

كفر دون كفر

فأما «الكفر» فنوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. كما في قوله ﷺ في الحديث: «اثنتان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة» وقوله: «من أتى كاهنا أو عرافًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمد» وقوله: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة] قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة. بل إذا فعله فهو به كفر. وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاوس. وقال عطاء: «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدًا له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أم لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكناني. وهو أيضًا بعيد. إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمدًا من غير جهل به، ولا خطأ في التأويل. حكاه البغوي عن العلماء عمومًا.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب.وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ. فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفرًا ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانًا، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر. وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله. فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه، فهذا مخطئ، له حكم المخطئين.

والقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر. فإنها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة.

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار. فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة. وأزال به المعذرة. قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

وإن سمي هذا كفر تكذيب أيضًا فصحيح: إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس. فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار. ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباء واستكبارًا. وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون:٤٧] وقول الأمم لرسلهم ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾﴾ [الشمس] وهو كفر اليهود كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩] وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُ،

كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة:١٤٦] وهو كفر أبي طالب أيضاً. فإنه صدقه ولم يشك في صدقه، ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملته، ويشهد عليهم بالكفر.

وأما كفر الإعراض: فإن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بني عبد يا ليل للنبي ﷺ: «والله أقول لك كلمة؛ إن كنت صادقًا، فأنت أجلّ في عيني من أن أرد عليك. وإن كنت كاذبا، فأنت أحقر من أن أكلمك».

وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء إسلامية، المقلدين للإفرنج من اليهود والنصارى المنحلين عن كل خلق وفضيلة، زاعمين بجاهليتهم وسفههم: أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية.

وأما كفر الشك: إنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك في أمره. وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة. فلا يسمعها ولا يلتفت إليها. وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها، فإنه لا يبقى معه شك. لأنها مستلزمة للصدق، ولاسيما بمجموعها. فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب. فهذا هو النفاق الأكبر، وسيأتي بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله، وإرساله الرسول.

الخاص المقيد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله به، عمدًا، أو تقديمًا لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلاً، أو تأويلاً يعذر فيه صاحبه، فلا يكفر صاحبه، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه. وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح. ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله. إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادًا أو تكذيبًا، والقصة مروية في صحيح البخاري وغيره.

والشرك شركان أيضًا

وأما الشرك، فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه. وهو أن يتخذ من دون الله ندًا، يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا

﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾ [الشعراء] مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت، إنها كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم ، بل كلهم. يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله. وكثير منهم – بل أكثرهم– يحبون إلهتهم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم – من المشايخ– أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذ حرد. وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضوا عنه. ولم تتنكر له قلوبهم. وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة. وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهة ومعبوده من دون الله على لسانه ديدنا له إن قام وإن قعد. وإن عثر وإن مرض وإن استوحش. فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه. وهو لا ينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده، ووسيلته إليه.

وهكذا كان عبَّاد الأصنام سواء. وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم. فأولئك كانت آلهتهم من الحجر وغيرهم اتخذوها من البشر. قال الله تعالى، حاكيًا عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ [الزمر:٣] ثم شهد عليهم بالكفر والكذب، وأخبر أنه لا يهديهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [الزمر:٣].

فهذه حال من اتخذ من دون الله وليًّا، يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أعز من يخلص من هذا؟ بل أعز من لا يعادي من أنكره!

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله،وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه، ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه، فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له، صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعًا من دون الله ربه ومولاه.

و«الشفاعة» التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وَحَّدَه، والتي نفاها الله: هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم، ويفوز بها الموحدون.

وتأمل قول النبي ﷺ لأبي هريرة وقد سأله: «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال:

أسعد الناس بشفاعتي: من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه» كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله. فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد. فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه وليا أو شفيعًا أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله.

كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨] .

وبقي فصل ثالث: وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟».

فهذه ثلاثة أصول، تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها. لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله. فالله تعالى: لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام] وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة، كما في الآية الأخرى ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء] وكما في آية البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسويهم بالله، ثم يغضب لهم ولحرماتهم – إذا انتهكت – أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم، ويتبشبش به، لاسيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين الله وبين عباده. فإنك ترى المشرك يفرح ويسر ويحن قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده، وجردت توحيده لحقته وحشة، وضيق، وحرج ورماك بنقص الإلهية التي له، وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عيانًا، ورمونا بعداوتهم، وبغوا لنا الغوائل، والله مخزيهم في الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله. وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ، لما قال لهم: «إن المسيح عبد الله» قالوا: تنقصت المسيح وعبته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانًا تعبد،

ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها..!
وما ذلك بغريب، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر] .

والشرك الجديد هو بعينه القديم: ومنشأ هذا جميعه: التكذيب بيوم الدين، وأنه ليس على ما وصف الله العليم الحكيم، من الجزاء العادل، ووزن الأعمال بالقسط. وإنما هو - كما زعموا - بالأغراض والشفاعات التي لا يقدر الله - بزعمهم - على دفعها. وليس هذه هي الآخرة التي وصفها الله، وحذر عباده مواقفها. والمشركون - قديمًا وحديثًا - يعتقدون أن أولياءهم فيهم شيء من خصائص الرب، ولذلك فهم ينادونهم، وقد ماتوا ودفنوهم. ويزعمون أنهم أحياء ليست حياة قبور وسؤال فيها، ولكن من جنس حياة الرب - سبحانه - يقدرون بها وفيها على ما لا يقدر عليه البشر الأحياء، فضلاً عن الموتى. فلما جاءت الرسل يقولون لهم: إنهم بشر ماتوا. قالوا لهم: أنتم تسبون آلهتنا وتنقصونها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف].

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعًا، قطعًا يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله وليا، أو شفيعًا فهو: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت:٤١] فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكا كان شريكًا للمالك. فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيا مترتبًا، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاة، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوّبه وحسنه. وهو لا يعرف: أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره، أو شر منه، أو دونه. فينقض بذلك عري الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة. ويكفّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقه الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانًا، والله المستعان.

إحصاء النفاق الأصغر

وأما الشرك الأصغر: فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك».

وإنما كان الحلف بغير الله شركا، لأن حقيقة اليمين ومقتضاه: أن الحالف يؤكد صدق خبره بأنه لو كان كاذبًا ينتقم منه المحلوف به انتقامًا لا يقدر هو – ولا أحد من البشر – أن يدفعه. لأن المحلوف به يقدر أن يوصل انتقامه وبطشه من طريق فوق قدرة البشر وطاقتهم. وهذا لا يكون إلا لله القوي المتين ذي البطش الشديد، الفعال لما يريد.

ومثله قول الرجل للرجل «ما شاء الله وشئت» و«هذا من الله ومنك» و«أنا بالله وبك» و«مالي إلا الله وأنت» و«أنا متوكل على الله وعليك» و«لولا أنت لم يكن كذا وكذا» وقد يكون هذا شركًا أكبر، بحسب قائله ومقصده. وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له: «ما شاء الله وشئت»: «أجعلتني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده» وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

ومن أنواعه: التوبة للشيخ. فإنها شرك عظيم. فإن التوبة لا تكون إلا لله. كالصلاة والصيام، والحج، والنسك، فهي خالص حق الله.

وفي المسند: أن رسول الله ﷺ: «أتـُي بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك. ولا أتوب إلى محمد». فقال رسول الله ﷺ: «عرف الحق لأهله».

فالتوبة عبادة لا تنبغي إلا لله، كالسجود والصيام.

ومن أنواعه: النذر لغير الله، فإنه شرك، وهو أعظم من الحلف بغير الله. فإذا كان «من حلف بغير الله فقد أشرك» فكيف بمن نذر لغير الله؟ مع أن السنن من حديث عقبة بن عامر عنه ﷺ: «النذر حلفة».

ومن أنواعه: الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة

والخضوع، والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى، والغنية بذلك عن حمده سبحانه، والذم والسخط على ما لم يقسمه، ولم يجر به القدر، وإضافة نعمه إلى غيره، واعتقاد أن يكون في الكون ما لا يشاؤه.

ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم.

وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلاً عمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده، كما تقدم. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه. والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه. وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد. فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن. وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك. والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين: «أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة».

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وأخلص قصده لله، متبعًا لأمره، متطلبًا لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله، وبالله، ومع الله.

والشرك أنواع كثيرة لا يحصيها إلا الله.

ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتسع الكلام أعظم اتساع.

داء النفاق

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئًا منه، وهو لا يشعر. فأنه أمر خفي على الناس، وكثيرًا ما يخفى على من تلبس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل. وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلي لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر. وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين،

والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة آية. لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله. فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدًّا، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته، وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة. يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟ وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟ وكم من عَلَم له قد طمسوه؟ وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟! وكم ضربوا بمعاول الشُّبه في أصول غراسه ليقلعوها؟! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟!

فلايزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولايزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الصف].

قبائح الشخصية النفاقية

اتفقوا على مفارقة الوحي، فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون]، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢] ولأجل ذلك ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان].

درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحبونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها. لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأسًا ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا. خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، وقالوا: مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين؟ حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين. فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين. وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور، ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هممهم إلى فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة المتأخرين، أعلم وأحكم، وطريقة السلف الماضين أجهل لكنها أسلم.

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إرادتهم ونياتهم فأفسدتها. ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر، فهي لا تسمع منادي الإيمان. وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى. فهي لا تبصر حقائق القرآن وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة].

لهم علامات يعرفون بها مبينة في السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان قام بهم - والله - الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن. فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلا: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء].

أحدهم كالشاة العاثرة بين الغنمين، تيعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلا: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [النساء].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم. وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين، فلا تحتاج بعده دليلاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النساء].

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ونيته. فتراه عند الحق نائمًا، وفي الباطل على الأقدام. فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة].

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة].

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين. فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمدًا بعيدًا، ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضًا شديدًا ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء].

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه، لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه. فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه. وكذلك أهل الريبة يكذبون ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، قد ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون].

تبًّا لهم! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان، فلما رأوا طول الطريق وبعد الشقة نكصوا على أعقابهم ورجعوا، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام في ديارهم. فما متعوا به ولا بتلك الهجعة انتفعوا. فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا، وعموا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون].

أحسن الناس أجسامًا، وأخلبهم لسانًا، وألطفهم بيانًا، وأخبثهم قلوبًا، وأضعفهم جنانًا، فهم كالخشب المسندة التي لا ثمر لها، قد قلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، لئلا يطأها السالكون: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون].

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول، فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب، إذ هي صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب. ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففي البيت أو الدكان.

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمهم. وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم، ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠].

كره الله طاعاتهم، لخبث قلوبهم وفساد نياتهم، فثبطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قربهم منه وجواره، لميلهم إلى أعدائه، فطردهم عنه وأبعدهم، وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم، وأشقاهم وما أسعدهم، وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين. فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة] ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال: وهو أحكم الحاكمين: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة].

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت

منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها. ولقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم، واعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم. فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر وبينها لهم. فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [محمد].

أسرُّوا سرائر النفاق، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم، وفلتات اللسان. ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان. وظنوا أنهم إذا كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد].

فكيف إذا جمعوا ليوم التلاقي، وتجلى الله - جل جلاله- للعباد وقد كُشف عن ساق؟ ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم].

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم؟ وفي أدق من الشعرة، وأحد من الحسام. وهو دحض مزلة، مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام. فقُسمت بين الناس الأنوار. وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب. وأعطوها نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام، كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام، فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق، فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح، فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور. فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور لـه باب. ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح، باطنه - الذي يلي المؤمنين - فيه الرحمة، وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة. ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم، تبدو لنظار الإنسان ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] لنتمكن في هذا المضيق من العبور، فقد أطفئت أنوارنا، ولا جواز إلا بمصباح من النور ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] حيث قسمت الأنوار. فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار! كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق؟ فهل يلوي اليوم أحد على أحد في هذا الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار. كما يذكّر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] نصوم كما تصومون، ونصلي كما تصلون، ونقرأ كما تقرءون، ونتصدق كما تصدقون، ونحج كما تحجون؟ فما الذي فرق بيننا اليوم، حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الحديد: ١٤] ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد،وكل ظلوم كفور: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ

وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد] .

لا تستطل أوصاف القوم. فالمتروك - والله - أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور. فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات. سمع حذيفة رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم أهلك المنافقين. فقال: «يا ابن أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك».

تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، لعلمهم بدقة وجله وتفاصيله وجمله. ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما «يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا ولا أزكي بعدك أحدًا» وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل» ذكره البخاري. وذكر عن الحسن البصري: «ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن» ولقد ذُكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعًا والقلب ليس بخاشع».

تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيمانًا ويقينًا، وخوفهم من النفاق شديد، وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

زرع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء. ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة، فإذا تمت هذه الأركان الأربعة استحكم نبات النفاق وبنيانه. ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار. فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر، وكشف المستور، وبُعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق: أن حواصله التي حصّلها كانت كالسراب ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور].

قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة في فجاجهم فاشية، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية.

فهذه - والله - أمارات النفاق، فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية. إذا عاهدوا لم

يفوا. وإن وعدوا أخلفوا. وإن قالوا لم ينصفوا، وإن دعوا إلى الطاعة وقفوا، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدفوا، وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا. فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان، والخزي والخسران، فلا تثق بعهودهم، ولا تطمئن إلى وعودهم. فإنهم فيها كاذبون، وهم لما سواها مخالفون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة].

أنواع الفسوق

وأما الفسوق: فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر، يخرج عن الإسلام. وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات].

والمفرد - الذي هو فسوق كفر - كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة] وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة] وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ الآية [السجدة: ٢٠] فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق، الذي لا يخرج عن الإسلام، فكقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات] فإن هذه الآية أنزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مُصْدِقًا. وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية. فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه، تعظيمًا لأمر رسول الله ﷺ. فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله. فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ. فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم. وأرادوا قتلي. فغضب رسول الله ﷺ، وهمّ أن يغزوهم. فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله، فقالوا يا رسول الله سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله» فبدا له في الرجوع. فخشينا أنه إنما ردّه من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا. وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر، وأمره أن يخفي عليهم قدومه. وقال له: «انظر، فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة

أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار». ففعل ذلك خالد، ووافاهم. فسمع منهم أذان صلاة المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير. فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر. فنزل ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ ﴾ الآية [الحجرات:٦].

و«النبأ» هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن. و«التبين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علما.

وهاهنا فائدة لطيفة. وهي أنه سبحانه لم يأمره برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين. فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق. ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته. وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحري الصدق غاية التحري. وفسقه من جهات أخر. فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته. ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق. وبطل كثير من الأخبار الصحيحة. ولاسيما مَنْ فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق. فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب: فإن كثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته. وإن ندر منه مرة ومرتين، ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذي لا يخرج إلى الكفر.

والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذي ترد به الرواية والشهادة.

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه. وهو قسمان: فسق من جهة العمل. وفسق من جهة الاعتقاد.

ففسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه. والعصيان: هو عصيان أمره. كما قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم:٦] وقال موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾ [طه] وقال الشاعر:

أمرتك أمرا جازما، فعصيتني فأصبحت مسلوب الإمارة نادما

فالفسق أخص بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيرًا. كقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨٢] والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم. ويطلق كل منهما على

صاحبه. كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠] فسُميت مخالفته للأمر فسقًا. وقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه] فسمى ارتكابه للنهي معصية. فهذا عند الإفراد. فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهي.

و«التقوى»: اتقاء مجموع الأمرين. وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله، على نور من الله، يخاف عقاب الله.

ومن تأمل كلمة «التقوى» في كلام الله سبحانه وكلام رسول الله ﷺ وكلام العرب - وقد سلم من التقليد وترديد الكلام بلا تدبر - علم أن «التقوى» هي أن يأخذ العبد من كل ما أعطاه الله به وقاية له من كل ما يكره ويخاف من الخيبة والخسران في الأولى والأخرى، ويتحرى بكل يقظة وهدى وبصيرة أن يجعل منه سببًا لفلاحه في الأولى والأخرى، مؤمنًا بأن كل ما آتاه ربه في نفسه وماله وولده وما سخر له، صالح أن يكون سببًا للفلاح وسببًا للخسران، بل القرآن نفسه كذلك ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء] فضلاً عن غيره. ولذلك أوصانا الله ربنا أن نعوذ به ونلجأ إليه حال تلاوتنا لكل كلمة من القرآن من الشيطان الرجيم، حتى لا يضلنا في فهمها على وضعها الذي أراد الله لنا منها فنكون من الخاسرين.

وأما فسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله، ويوجبون ما أوجب الله. ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله، جهلاً وتأويلاً، وتقليدًا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

فالتوبة من هذا الفسوق بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله، من غير تشبيه ولا تمثيل، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل. وتلقى النفي والإثبات من مشكاة الوحي، لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة.

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة بمحض اتباع السنة. ولا يكتفى منهم بذلك أيضًا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة. إذ التوبة من ذنب هي بفعل ضده. ولهذا شرط الله تعالى في توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى: البيان. لأن ذنبهم لما كان بالكتمان، كانت توبتهم منه بالبيان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة] وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم. لأن ذلك كتم الحق، وهذا كتمه ودعا إلى خلافه. فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس.

وشرط في توبة المنافق: الإخلاص. لأن ذنبه بالرياء. فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء].

ألوان من السوء.. أخرى

وأما «الإثم والعدوان» فهما قرينان. قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة:٢] وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر. فكل إثم عدوان، إذ هو فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به. فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم . فإنه يأثم به صاحبه. ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما.

فـ«الإثم» ما كان محرم الجنس كالكذب، والزنا، وشرب الخمر، ونحو ذلك. و«العدوان» ما كان محرم القدر والزيادة.

فالعدوان: تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة، كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله، أو بدنه أو عرضه. فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره. وإذا أتلف عليه شيئًا أتلف عليه أضعافه. وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها. فهذا كله عدوان وتعد للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان في حق الله، وعدوان في حق العبد، كما إذا تعدي ما أباح الله له من الوطء والحلال في الأزواج والمملوكات إلى ما حرم عليه من سواهما. كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون] وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حرم عليه منها، كوطئها في حيضها أو نفاسها، أو إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب. ونحو ذلك.

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين فتعداه إلى أكثر منه، فهو من العدوان. كمن أبيح له نظرة الخطبة، والشهادة، والمعاملة، والمداواة، فأطلق طرفه في ميادين محاسن المنظور، فتعدى المباح إلى القدر المحظور، وحام حول الحمى المحوط المحجور.

و«الإثم» و«العدوان» هما الإثم والبغي المذكوران في سورة الأعراف (٣٣) مع أن «البغي» غالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم.

وعلى هذا فإذا قرن البغي بالعدوان كان «البغي» ظلمهم بمحرم الجنس، كالسرقة والكذب، والبهت والابتداء بالأذى. و«العدوان» تعدى الحق في استيفائه إلى أكبر منه. فيكون البغي والعدوان في حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله.

فهاهنا أربعة أمور: حق لله وله حد، وحق لعباده وله حد. فالبغي والعدوان والظلم تجاوز الحدين إلى ما وراءهما، أو التقصير عنهما، فلا يصل إليهما.

وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء، صفة لموصوف قد حذف تجريدًا لقصد الصفة، وهي الفعلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء وهو ما ظهر قبحها لكل أحد، واستفحشه كل ذي عقل سليم. ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماهما الله «فاحشة» لتناهي قبحهما. وكذلك القبيح من القول يسمى فحشًا، وهو ما ظهر قبحه جدًّا من السب القبيح، والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضًا. أي الفعل المنكر. وهو الذي تستنكره العقول والفطر. ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين. والطعم المستكره إلى الذوق. والصوت المستنكر إلى الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة، كما فحش إنكار الحواس له من هذه المدركات.

فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكره لها، الذي تشتد نفرتها عنه وهو الفاحشة. ولذلك قال ابن عباس: «الفاحشة الزنا، والمنكر ما لم يعرف في شريعة ولا سنة».

فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حسنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول.

القول على الله بلا علم.. أصل المفاسد

وأما «القول على الله بلا علم» فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا، وأعظمها إثمًا. ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان. ولا تباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة. وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذي يباح في حال دون حال.

فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم في وقت دون وقت. وقال الله تعالى في المحرم لذاته: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف:٣٣] ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثمًا. فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثمًا. وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها. وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض. وحذروا فتنتهم

أشد التحذير. وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش، والظلم والعدوان. إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد. وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده، بلا برهان من الله. فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ الآية [النحل:١١٦].

فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه؟

قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم الله كذا. فيقول الله: كذبت. لم أحلَّ هذا، ولم أحرِّم هذا.

يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد، بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر: هو القول على الله بلا علم. فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله، يقرّبه إلى الله، ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل على الله بلا علم. دون العكس. إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله. فهو أعم من الشرك. والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجبًا لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مبوءا، وهو المنزل اللازم الذي لا يفارقه صاحبه. لأنه متضمن للقول على الله بلا علم، كصريح الكذب عليه. لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل. والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام:٢١].

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع.

وأنّى بالتوبة منها لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة، وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث والتفتيش عليها. ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدًا.

فإن السنة - بالذات - تمحق البدعة، ولا تقوم لها. وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة. إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس. ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله، بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللجوء إلى الله، والهجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته : «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة. والله المستعان.

مشاهد المعصية

وهي: مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة، ومشهد الجبر، ومشهد القدر. ومشهد الحكمة، ومشهد التوفيق والخذلان، ومشهد التوحيد، ومشهد الأسماء والصفات، ومشهد الإيمان وتعدد شواهده. ومشهد الرحمة، ومشهد العجز والضعف، ومشهد الذل والافتقار، ومشهد المحبة والعبودية.

فالثلاثة الأول: للمنحرفين، والبواقي لأهل الاستقامة.

وهذا الفصل من أجلِّ فصول الكتاب. وأنفعها لكل أحد.وهو حقيق بأن تثني عليه الخناصر، ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه. إلا ما ذكرناه في كتابنا المسمى «سفر الهجرتين في طريق السعادتين».

الطبائع الحيوانية في بعض البشر

فأما مشهد الحيوانية، وقضاء الشهوة: فمشهد الجهال الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان، إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان. ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية، لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية، فضلاً عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر. وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم: من نفسه كلبية. لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها، وحماها من سائر الكلاب. ونبح كل كلب يدنو منها. فلا تقربها الكلاب إلى على كره منه وغلبة. ولا يسمح للكلب بشيء منها. وهمه شبع بطنه من أي طعام اتفق: ميتة أو مذكي، خبيث أو طيب. ولا يستحي من قبيح. إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك. وإن منعته هَرَّك ونبحك.

ومنهم: من نفسه حمارية. لم تخلق إلا للكد والعلف. كلما زيد في علفه زيد في كده. أبكم الحيوان، وأقله بصيرة. ولهذا مَثَّل الله سبحانه وتعالى به من حمَّله كتابه. فلم يحمله معرفة ولا فقها ولا عملاً. ومثل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. وفي هذين المثلين أسرار عظيمة. ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم: من نفسه سبعية غضبية. همته العدوان على الناس، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه.

وعلى هذا الشبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذا الحيوانات في المنام عند الإنسان وفي

داره. أو أنها تحاربه. وهو كما اعتمدوه . وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائع كثيرة. فكان تأويلها مطابقًا لأقوام على طباع تلك الحيوانات. وقد رأى النبي ﷺ في قصة أحد «بقرًا تنحر» فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار. فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض. وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع، فإنها ذلول مذللة، منقادة غير أبية. ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكا نقره ثلاث نقرات، فكان طعن أبي لؤلوة له. والديك رجل أعجمي شرير.

ومن الناس: من طبعه خنزير، يمر بالطيبات فلا يلوي عليها. فإذا قام الإنسان عن رجيعه قمَّه. وهكذا كثير من الناس. يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه. فإذا رأى سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها. فجعلها فاكهته ونقله.

ومنهم: من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التطوس والتزين بالريش. وليس وراء ذلك من شيء.

وأحمد طبائع الحيوانات: طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوسا، وأكرمها طبعا. وكذلك الغنم. وكل من ألف ضربا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه. فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى. فإن الغاذي شبيه بالمتغذي.

ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها. والله أعلم.

والمقصود: أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم. لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة.

مشهد أصحاب الجَبر

ثم مشهد أصحاب الجبر. وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم، بل لا يشهدون أنها أفعالهم ألبتة.

يقولون: إن أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر، وأن الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه. وأنه آلة محضة، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح، وحركات الأشجار.

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر، وحملوا ذنوبهم عليه، وقد يغالون في ذلك. حتى يروا أفعالهم كلها طاعات. خيرها وشرها، لموافقتها للمشيئة والقدر.

ويقولون: كما أن موافقة الأمر طاعة، فموافقة المشيئة طاعة. كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانهم: أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلاً على أمره بها ورضاه. وهؤلاء شر من القدرية النفاة. وأشد منهم عداوة لله، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه. حتى إن من هؤلاء من

يتعذر عن إبليس، ويتوجع له، ويقيم عذره بجهده. وينسب ربه تعالى إلى ظلمه بلسان الحال والمقال. ويقول: ما ذنبه، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته منه؟ ثم كيف يمكنه السجود، وهو الذي منعه منه وحال بينه وبينه؟ وهل كان في ترك السجود لغير الله إلا محسنا؟

وهؤلاء أعداء الله حقًّا، وأولياء إبليس، وإخوانه. وإذا ناح منهم نائح على إبليس، رأيت من البكاء والحنين أمرًا عجيبًا. ورأيت من ظلمهم الأقدار، واتهامهم الجبار ما يبدو على فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم، وتسمع من أحدهم التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه.

مشهد القدرية النفاة

ثم مشهد القدرية النفاة: يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب، هم الذين أحدثوها، وأنها واقعة بمشيئتهم، دون مشيئة الله تعالى، وأن الله لم يقدر ذلك عليهم ولم يكتبه، ولا شاء، ولا خلق أفعالهم، وأنه لا يقدر أن يهدي أحدًا ولا يضله إلا بمجرد البيان. لا أنه يلهمه الهدى والضلال، والفجور والتقوى، فيجعل ذلك في قلبه.

ويشهدون أنه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه، وأنه يشاء ما لا يكون، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله.

فالمعاصي والذنوب خلقهم، وموجب مشيئتهم، لا أنها خلق الله. ولا تتعلق بمشيئته. وهم لذلك مبخوسو الحظ جدًّا من الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاعتصام به، وسؤاله أن يهديهم، وأن يثبت قلوبهم، وأن لا يزيغها، وأن يوفقهم لمرضاته، ويجنبهم معصيته. إذ هذا كله واقع بهم، وعين أفعالهم. لا يدخل تحت مشيئة الرب شيء منها.

والشيطان قد رضي منهم بهذا القدر، فلا يوزهم إلى المعاصي ذلك الأز، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج. وله في ذلك غرضان مهمان.

أحدهما: أن يقر في قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة. وأنكم تاركون الذنوب والكبائر التي يقع فيها أهل السنة. فدل على أن الأمر مفوض إليكم واقع بكم، وإنكم العاصمون لأنفسكم، المانعون لها من المعصية.

الغرض الثاني: أنه يصطاد على أيديهم الجهال. فإذا رأوهم أهل عبادة، وزهادة وتورع عن المعاصي، وتعظيم لها. قالوا: هؤلاء أهل الحق - والبدعة آثر عنده وأحب إليه من المعصية - فإذا ظفر بها منهم، واصطاد الجهال على أيديهم، كيف يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويقبحها في أعينهم وقلوبهم. ولا يكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر.

أول الاستقامة: اكتشاف حكمة الخلق

ولكن أهل الاستقامة يشهدون حكمة الله في تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه، ويلوم ويعاقب عليه. وأنه لو شاء لعصمه منه، ولحال بينه وبينه. وأنه سبحانه لا يعصى قسرًا. وأنه لا يكون في العالم شيء إلا بمشيئته: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئًا عبثًا ولا سُدى، وأن الحكمة البالغة في كل ما قدره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها. وتكل الألسن عن التعبير عنها.

فمصدر قضائه وقدره لما يبغضه ويسخطه: اسمه «الحكيم» الذي بهرت حكمته الألباب، وقد قال تعالى لملائكته لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠] فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فلله سبحانه في ظهور المعاصي والذنوب والجرائم، وترتب آثارها من الآيات والحكم. وأنواع التعرفات إلى خلقه وتنويع آياته، ودلائل ربوبيته ووحدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزه، وتمام ملكه، وكمال قدرته. وإحاطة علمه، ما يشهده أولو البصائر عينًا ببصائر قلوبهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران:١٩١] إن هي إلا حكمتك الباهرة وآياتك الظاهرة.

وللّه في كل تحريكة وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فكم من آية في الأرض بينة، ودالة على الله، و على صدق رسله، و على أن لقاءه حق. كان سببها معاصي بني آدم وذنوبهم، كآيته في إغراق قوم نوح، وعلو الماء على رؤوس الجبال، حتى أغرق جميع أهل الأرض، ونجي أولياءه، وأهل معرفته وتوحيده. فكم في ذلك من آية وعبرة، ودلالة باقية على ممر الدهور؟! وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود.

وكذلكم إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم. وإلقائهم له في النار، حتى صارت تلك آية، وحتى نال إبراهيم بها ما نال من كمال الخلة.

وكذلك ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزلفى عند الله، والوجاهة عنده، بسبب صبرهم على أذى قومهم، وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم.

وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء من بني آدم، بسبب صبرهم على أذى بني آدم من أهل المعاصي والظلم، ومجاهدتهم في الله، وتحملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه، واستحقاقهم بذلكم رفعة الدرجات.

إلى غير ذلك من المصالح والحكم التي وجدت بسبب ظهور المعاصي والجرائم. وكان من سببها: تقدير ما يبغضه الله ويسخطه. وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه وآثره عنده من فوته بتقدير عدم المعصية.

فحصول هذا المحبوب العظيم أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط، فإن فواته وعدمه – وإن كان محبوبًا له – لكن حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه. وفوات هذا المحبوب أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط. وكمال حكمته تقتضي حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنى المحبوبين، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه. وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها، والملزومات بدون لوازمها، مما تمنعه حكمة الله، وكمال قدرته وربوبيته.

وكم في تسليط أوليائه على أعدائه، وتسليط أعدائه على أوليائه، والجمع بينهما في دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض، من حكمة بالغة، ونعمة سابغة.

وكم فيها من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سماواته وأرضه،وخضوع له وتذلل، وخشية وافتقار إليه وانكسار بين يديه، أن لا يجعلهم من أعدائه. إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، ومقته لهم، وما أعد لهم من العذاب. وكل ذلك بمشيئته وإرادته، وتصرفه في مملكته، فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون، على أشد وَجَل، وأعظم مخافة، وأتم انكسار.

فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وهاروت وماروت، وضعت رؤوسها بين يدي الرب خضوعًا لعظمته، واستكانة لعزته، وخشية من إبعاده وطرده، وتذللاً لهيبته، وافتقارًا إلى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منته عليهم، وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته.

وكذلك أولياؤه المتقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم، وغضبه عليهم، وخذلانه لهم، ازدادوا خضوعًا وذلًا، وافتقارًا وانكسارًا، وبه استعانة وإليه إنابة، وعليه توكلًا، وفيه رغبة، ومنه رهبة. وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخرًا.

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه. والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه. فيطلعه على عجائب من حكمته، لا تبلغها العبارة، ولا تنالها الصفة.

وأما حظ العبد في نفسه، وما يخصه من شهود هذه الحكمة: فبحسب استعداده وقوة

بصيرته، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له من ذلك شِرْب معلوم، ومقام لا يتعداه ولا يتخطاه. والله الموفق والمعين.

مشهد التوحيد

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه. إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه. فالقلوب بيده. وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف أراد، وأنه هو الذي آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذي هداها وزكاها وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف] يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته. هذا فضله وعطاؤه. وما فضل الكريم بممنون. وهذا عدله وقضاؤه. ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده».

وفي هذا المشهد: يتحقق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ علمًا وحالاً، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء؛ كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب، ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلي عنه. وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها، وأرقها وأصفاها، وأشدها وألينها، من اتخذه وحده إلهًا ومعبودًا. فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه. فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعًا لها كما ينساق الجيش تبعًا للسلطان. ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف كلها تبعًا لخوفه. ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعًا لرجائه.

فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية.

فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية. ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر. ويحتج عليهم به، ويقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف] أي فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون: أن لا رب غيره، ولا خالق سواه. وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾....﴾ [المؤمنون] فتعملون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ الآية [المؤمنون] وهكذا قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ إلى آخر الآيات [النمل:٥٩- ٦٥] .

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإله لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا. فكيف تجعلون معه إلها آخر؟

ولهذا كان الصحيح في القولين في تقدير الآية «أإله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم التدليل فلابد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله. فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى «هل مع الله إله آخر؟» من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» فقوله ضعيف لوجهين.

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى. ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير أي فإذا كنتم تقولون: أنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلها آخر لا يخلق شيئًا وهو عاجز؟ وهذا كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد] وقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان:١١] وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل] وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان:٣] وهو كثير في القرآن. وبه تتم الحجة كما تبين.

والمقصود: أن العبد له هذا في المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه و على

الخليقة بتقدير العزيز الحكيم. وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو. ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته. ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه. فموارد الأمور كلها منه. ومصادرها إليه. وأزمة التوفيق جميعها بيديه فلا مستعان للعباد إلا به، ولا متكل إلا عليه. كما قال شعيب خطيب الأنبياء ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

مشهد التوفيق والخذلان

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه. ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به. وقد أجمع العارفون بالله: أن «التوفيق» هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن «الخذلان» هو أن يخلي بينك وبين نفسك. فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه. بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا. فيطيعه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له. ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له. فهو دائر بين توفيقه وخذلانه. فإن وفقه فبفضله ورحمته. وإن خذله فبعدله وحكمته. وهو المحمود على هذا وهذا. له أتم حمد وأكمله . ولم يمنع العبد شيئًا هو له. وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه. وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نفس وكل لحظة وطرفة عين. وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى. لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلَّ عرش توحيده، ولخرّت سماء إيمانه على الأرض وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فدأب لسانه «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرّف القلوب صرّف قلبي إلى طاعتك» ودعواه: «يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام. لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث. أصلح لي شأني كله. ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. ولا إلى أحد من خلقك».

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه. فيسأله توفيقه مسألة المضطر. ويعوذ به من خذلانه، عياذ الملهوف. ويلقي نفسه بين يديه، طريحا ببابه مستسلما له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعًا ذليلاً مستكينًا، لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

و«التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادرًا على فعل ما يرضيه، مريدًا له، محبًّا له، مؤثرًا له على غيره. ويبغض إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه. وهذا مجرد فعله. والعبد محل له. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات] فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل، ومن لا يصلح له. حكيم يضعه في

مواضعه وعند أهله. لا يمنعه أهله، ولا يضعه عند غير أهله. وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧] ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تُقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم. ولا تقدمتم به إليها. فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك. ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان. فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم. ولا سمحت به أنفسكم.

وقد فسرت القدرية الجبرية «التوفيق» بأنه خلق الطاعة و«الخذلان» بأنه خلق المعصية.

ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم، وردوا الأمر إلى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

وقابلهم القدرية النفاة، ففسروا «التوفيق» بالبيان العام، والهدى العام، والتمكن من الطاعة والإقبال عليها. وتهيئة أسبابها. وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة. وتمكن من الإيمان.

فالتوفيق عندهم: أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين. ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم. والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم. ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فلم يرضوا بطريق هؤلاء ولا بطريق هؤلاء وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم. فأثبتوا القضاء والقدر، وعموم مشيئة الله للكائنات. وأثبتوا الأسباب والحكم. والغايات والمصالح. ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء، أو أن يقدر خلقه على ما لا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته، أو أن يكون شيء من أفعالهم واقعًا بغير اختياره ودون مشيئته، ومن قال ذلك لم يعرف ربه، ولم يثبت له كمال الربوبية.

ونزهوه - مع ذلك - عن العبث وفعل القبيح، وأن يخلق شيئًا سدى، وأن تخلو أفعاله عن حكم بالغة، لأجلها أوجدها، وأسباب بها سببها، وغايات جعلت طرقًا ووسائل إليها. وأن له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة. وتلك الحكمة صفة له قائمة به. ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة في الحقيقة.

فأهل الصراط المستقيم بريئون من الطائفتين، إلا من حق تتضمنه مقالاتهم. فإنهم يوافقونهم عليه. ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى. ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوا من الباطل. فهم شهداء الله على الطوائف، وأمناؤه عليهم، حكام بينهم، حاكمون عليهم. ولا يحكم عليهم أحد منهم. يكشفون أحوال الطوائف، ولا يكشفهم إلا من كشف له عن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ وعرف الفرق بينه وبين غيره. ولم يلتبس عليه. وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زُبرا، بل ممن هو على بينة من ربه وبصيرة في إيمانه، ومعرفة بما عند الناس. والله الموفق.

مشهد الأسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد. وهو أعلى مما قبله وأوسع.

والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقًا وأمرًا بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها، وإن كان العالم - بما فيه - من بعض آثارها ومقتضياتها.

وهذا من أجلِّ المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتض وفعل: إما لازما. وإما متعديا. ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. وكل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه. وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصاف صفات كمال، وأفعاله حكما ومصالح، وأسماؤه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه. ولهذا ينكر سبحانه على من عطله من أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى ما لا يليق به وإلى ما يتنزه عنه وأن ذلك حكم سيئ ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى في حق منكري النبوة وإرسال الرسل، وإنزال الكتب: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام:٩١] وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر:٦٧] وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾ [الجاثية] فأخبر أن هذا حكم سيئ لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته. وقال

سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون] عن هذا الظن والحسبان، الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة. ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته. إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد، المجيد» يمنع ترك الإنسان سُدى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى. ولا يثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك. وكذلك اسمه «الملك» واسمه «الحي» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل. بل حقيقة «الحياة» الفعل. فكل حي فعال. وكونه سبحانه «خالقا قيوما» من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعًا ومرئيا. واسمه «الخالق» يقتضي مخلوقًا. وكذلك «الرزاق» واسمه «الملك» يقتضي مملكة وتصرفًا وتدبيرًا، وإعطاء ومنعًا، وإحسانًا وعدلاً، وثوابًا وعقابًا. واسم «البر، المحسن، المعطي، المنان» ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا. فمن أسمائه سبحانه «الغفار، التواب، العفو» فلابد لهذه الأسماء من متعلقات. ولابد من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفي عنها، ولابد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم «الخالق، الرازق، المعطي، المانع» للمخلوق والمرزوق والمعطي والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة. ويحب التوبة. ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه: من موجب أسمائه وصفاته. وحصوله ما يحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه: ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك. ليست كمن يغفر عجزا. ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك. قادر على استيفائه، حكيم في الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم، وفي الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغايتها أيضًا: مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عبادة بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى. إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علمًا ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر. فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسمه «المنتقم» أو التعبد بأسماء «التودد، والبر، واللطف، والإحسان» عن أسماء «العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء» ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله. وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء ودعاء التعبد. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته.

فهو «عليم» يحب كل عليم، «جواد» يحب كل جواد، «وتر» يحب الوتر، «جميل» يحب الجمال، «عفو» يحب العفو وأهله، «حيي» يحب الحياء وأهله، «برٌّ» يحب الأبرار، «شكور» يحب الشاكرين، «صبور» يحب الصابرين، «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر له، ويتوب عليه ويعفو عنه. وقدر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له.

مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده

وهذا من ألطف المشاهد، وأخصها بأهل المعرفة. ولعل سامعه يبادر إلى إنكاره، ويقول: كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصي؟ ولاسيما ذنوب العبد ومعاصيه. وهل ذلك إلا منقص للإيمان فإنه بإجماع السلف: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلى الذنوب والمعاصي منه ومن غيره وإلى ترتب آثارها عليها. وترتب هذه الآثار عليها علم من أعلام النبوة. وبرهان من براهين صدق الرسل، وصحة ما جاءوا به. فإن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم، في معاشهم ومعادهم ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش

والمعاد. وأخبروهم عن الله عز وجل: أنه يحب كذا وكذا، ويثيب عليه بكذا وكذا، وأنه يبغض كيت وكيت، ويعاقب عليه بـكيت وكيت. وأنه إذا أطيع بما أمر به شكر عليه بالإمداد والزيادة، والنعم، في القلوب والأبدان والأموال. ووجد العبد زيادته وقوته في حاله كلها، وأنه إذا خولف أمره ونهيه، ترتب عليه من النقص، والفساد والضعف، والذل والمهانة، والحقارة، وضيق العيش وتنكد الحياة ما ترتب، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل] وقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر] وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه].

وقد يكون المراد بلفظ «ذكري» ما يذكر بالله سبحانه. وهو أولا المشار إليه بقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات] وبقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك] وهذا كثير جدًّا في القرآن. فإن الغفلة عن آيات الله وعن آثار أسمائه وصفاته في الأنفس والآفاق والانسلاخ منها: هو الذي أركس الإنسان في ظلمات الجاهلية. ومكن لولاية الشيطان منه فاتبع وحيه الجاهلي الوثني واتخذ القرآن مهجورا. فلم يحاول أن يتدبر آياته، ولا أن يتلوه حق تلاوته، لأنه زعم له أنه ليس بحاجة إليه لا في عقيدة ولا في عمل ولا خلق ولا حال. فقد جمع له كل ذلك فيما زخرف له من القول غرورا. وزاده غرورًا ومخادعة بإيهامه أن تكرار ألفاظ القرآن للموتى وللتبرك، واتخاذ المصحف تميمة يخرجه عن المعرضين عن ذكر الله.

وفسرت المعيشة الضنك: بعذاب القبر. والصحيح: أنها في الدنيا، وفي البرزخ. فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله، فله من ضيق الصدر، ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب، لسكرته، وانغماسه في السكر. فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم. فبادر إلى إزالته بسكر ثان. فهو هكذا مدة حياته. وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟

فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار] هذا في دورهم الثلاث. ليس مختصًّا بالدار الآخرة. وإن كان تمامه

وكماله وظهوره إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور:٤٧] وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النمل].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيبة. لذاتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهة، وحزازات تربي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس: «إن للحسنة نورًا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه. وظلمة في القلب ووهنا في البدن. ونقصا في الرزق. وبغضة في قلوب الخلق» وهذا يعرفه صاحب البصيرة، ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب. وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى] وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥] وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله. ولهذا قال: «ما أصابك» ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة. فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال أمر مشهود في العالم. لا ينكره ذو عقل سليم. بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعته: مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل. وبالثواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم. ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة. كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم

أبادره، ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيئ. فإذا أصابني - أو فوقه أو دونه - كما حسبت: أكثرت قول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا. فجعلت كلما فعلت شيئًا من ذلك وحصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علما بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا لكل أحد. بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه. فلا يشهد شيئًا من ذلك ولا يشعر به ألبتة.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه. فهو يشاهد هذا وهذا. ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح. فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكفئها ولاسيما إذا انكسرت به وبقي على لوح تلعب به الرياح. فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك فقلبه في واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم، ومجريات الخلق، بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد:٣٣] وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] فكل ما تراه في الوجود - من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك - فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ الآية [الإسراء:٥] .

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات. فإن تداركها من سقي بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك. كما قال بعض السلف «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسداد الأبواب في وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أتى؟ ووقوعه على السبب الموجب لذلك: مما يقوي إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه - ازداد إيمانًا مع إيمانه، فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزمر].

وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه، وأعطاه حقه: صار من أطباء القلوب، العالمين بدائها ودوائها. فنفعه الله في نفسه. ونفع به من شاء من خلقه. والله أعلم.

مشهد الرحمة

فإن العبد إذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتى لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه، غضبًا منه لله، وحرصًا على أن لا يعصى. فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين. ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء. ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وخلي ونفسه استغاث بالله والتجأ إليه. وتململ بين يديه تململ السليم. ودعا دعاء المضطر. فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة. وتلك القساوة على الخاطئين رحمة ولينًا مع قيامه بحدود الله. وتبدل دعاؤه عليهم دعاء لهم. وجعل لهم وظيفة من عمره. يسأل الله أن يغفر لهم.

فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه. والله أعلم.

مسكين.. هذا العاجز

ثم يشهد الضعف، وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهد قلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح يمينًا وشمالاً. ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارة. وتخفضها تارة أخرى. تجري عليه أحكام القدر. وهو كالآلة طريحًا بين يدي وليه، ملقى ببابه، واضعًا خده على ثرى أعتابه. لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولاموتًا ولا حياة ولا نشورًا. ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتها. فالهلاك أدنى إليه من شراك نعله كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع. لا يردها عنها إلا الراعي. فلو تخلّى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاء.

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه. من شياطين الإنس والجن فإن حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا. وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظفر به منهم.

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقًّا، ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور «من عرف نفسه عرف ربه» وليس حديثًا عن رسول الله ﷺ ولكن يمكن تأويله بثلاثة تأويلات:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة. ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة. ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز. ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم. فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغني. والعبد فقير ناقص محتاج. وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

التأويل الثاني: أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به، فمعطي الكمال أحق بالكمال فكيف يكون العبد حيا متكلمًا سميعًا بصيرًا مريدًا عالمًا، يفعل باختياره، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولي بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال. بل من جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلمًا ومن جعله حيا عليمًا بصيرًا فاعلاً قادرًا، أولى أن يكون كذلك.

فالتأويل الأول من باب الضد. وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي، أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك، فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟

والمقصود: أن المشهد يعرِّف العبد أنه عاجز ضعيف. فتزول عنه رعونات الدعاوي، والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

استشعار الافتقار لله

ثم مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة: ضرورة تامة، وافتقارًا تامًا إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها. وإنما تدرك بالحصول. فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة. ولا يرغب في مثله. وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيمه. فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير. ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيرًا. فأي خير ناله من الله استكثره على نفسه. وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه. واستقل ما في نفسه من الطاعات لربه، ورآها – ولو ساوت طاعات الثقلين – من أقل ما ينبغي لربه عليه. واستكثر قليل معاصيه وذنوبه. فإن الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة. وملكته هذه الذلة فهو ناكس الرأس بين يدي ربه. لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلاً من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم. يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه. وإذا سجد القلب لله - هذه السجدة العظمى - سجدت معه جميع الجوارح. وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم. وخشع الصوت والجوارح كلها. وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظرًا بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم. فلا يرى إلا متملقًا لربه، خاضعًا له، ذليلاً مستعطفًا له. يسأله عطفه ورحمته، فهو يترضي ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له. الذي لا غنى له عنه. ولابد له منه. فليس له همٌّ غير استرضائه واستعطافه. لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه، ومحبته له، يقول: كيف أغضب مَنْ حياتي في رضاه؟ وكيف أعدل عمن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره؟

وصاحب هذا المشهد: يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية،ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية. وهو القيم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه في حاجة له. فخرج عليه في طريقه عدو فأسره وكتفه وشده وثاقًا. ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب. وعامله بضد ما كان أبوه يعامله. فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة. فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله. ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه. فبينما هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد نحره في آخر الأمر. إذ حانت التفاتة إلى ديار أبيه. فرأى أباه منه قريبا، فسعي إليه، وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه. يستغيث: يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه. ودموعه تستبق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه، حتى وقف على رأسه. وهو ملتزم لوالده ممسك به. فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلي بينه وبينهم؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فر عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحًا ببابه. يمرغ خده في ثرى أعتابه باكيا بين يديه، يقول: يارب، يا رب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك. مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك. لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك. أنت معاذه وبك ملاذه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره

فإذا استبصر في هذا المشهد، وتمكن من قلبه. وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقى منه إلى مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به، فتقر به عينه، ويسكن إليه قلبه. وتطمئن إليه جوارحه ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه. فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية. وإرادات التقريب إليه وإلى مرضاته، مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصي، قد امتلأ قلبه من

محبته. ولهج لسانه بذكره. وانقادت الجوارح لطاعته. فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها. فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام. فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار. فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه. ولا مزاحم فيه ولا معوق.. فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو - سبحانه - قد أخذ بيدي وأدخلني.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية.

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة. يفتح له مها باب لا يفتح له منها هذه الطريق. وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة. لكن الذي يفتح منها طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب في الناس. وهم في واد وهو في واد. فالله المستعان. وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده. فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد منن سبحانه عليه قبل الذنب، وفي حال مواقعته، وبعده، وبِّره به وحلمه عنه، وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه. فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي، وهو يمده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويسبل عليه ستره؟

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها، ومعرفة أحكامها، وتفاصيلها ومسائلها، والله الموفق لمراعاة ذلك. والقيام به عملاً وحالاً. كما وفق له علمًا ومعرفة. فما خاب من توكل عليه. ولاذ به ولجأ إليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

(٧) منزلة الإنابة

قد علمت أن من نزل في منزلة «التوبة» وقام في مقامها نـزل في جميـع منـازل الإسـلام. فـإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها. وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل.تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة» وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر:٥٤] وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود] وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة ق] وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [الروم:٣١].

فـ«منيبين» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن هذا الخطاب له ولأمته. أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠] أي فطرهم منيبين إليه. فلو خلوا وفرطهم لما عدلت عن الإنابة إليه. ولكنها تحول وتتغير عما فُطرهم عليه. كما قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» وفي رواية: «على الملة - حتى يعرب عنه لسانه». وقال عن نبيه داود: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص] وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ [سورة ق] وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة. فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر:١٧].

و«الإنابة» إنابتان: إنابة لربوبيته. وهي إنابة المخلوقات كلها. يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم:٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر. كما هو الواقع. وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر. كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و«الإنابة» الثانية هي إنابة أوليائه. وهي إنابة لإلهيته. إنابة عبودية ومحبة.

وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والتقدم. و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت. المتقدم إلى محابه. وهي في اللغة: الرجوع. وهي هنا الرجوع إلى الحق.

قال الشيخ الهروي:

«وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحًا، كما رجع إليه اعتذارًا، والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهدًا. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة». أي لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان:٧٠] وقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ﴾ [البقرة:١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح؛ ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخلٍ عن معصيته، وتحلٍ بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيا. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده وعلى هؤلاء بالتعلم. و على هؤلاء بالنعم. ومدح الموفين بعهده. وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح] وقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء] وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل:٩١] وقال: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة:١٧٧] وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة. وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبي ﷺ: أن من علامات النفاق «الغدر بعد العهد».

فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به. كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: «والرجوع إليه حالًا. كما رجعت إليه إجابة».

أي هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولًا. فلابد من الإجابة حالًا تصدق به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال. فارجع إليه إجابة بالحال. قال الحسن: ابن آدم: لك قول وعمل. وعملك أولى بك من قولك. ولك سريرة وعلانية. وسريرتك أملك بك من علانيتك.

رجوع الإصلاح

قال: «وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحًا بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات. والتوجع للعثرات. واستدراك الفائتات».

والخروج من التبعات: هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله. وأداء الحقوق التي عليه للخلق.

ثم أن يتوجع لعثرته إذا عثر. فيتوجع قلبه وينصدع. وهذا دليل على إنابته إلى الله. بخلاف من لا يتألم قلبه، ولا ينصدع من عثرته. فإنه دليل على فساد قلبه وموته.

وأيضًا أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر حتى كأنه هو الذي عثر بها ولا يشمت به. فهو دليل على رقة قلبه وإنابته.

ويكمل ذلك باستدراك الفائتات: وهو استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها، أو خير منها ولاسيما في بقية عمره، عند قرب رحيله إلى الله. فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها. يستدرك بها ما فات. ويحيي بها ما أمات.

الرجوع وفاء بالعهد

قال: «وإنما يستقيم الرجوع إليه عهدًا: بثلاثة أشياء بالخلاص من لذة الذنب. وبترك الاستهانة بأهل الغفلة، تخوفًا عليهم، مع الرجاء لنفسك. وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة».

فإن العبد إذا صفت له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة في لذة الذنب. وعاد مكانها ألمًا وتوجعًا لذكره، والفكرة فيه. فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة في قلبه، فإنابته غير صافية.

فإن قيل: أي الحالين أعلى؟ حال من يجد لذة الذنب في قلبه، فهو يجاهدها لله، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه وصار مكانها ألمًا وتوجعًا وطمأنينة إلى ربه، وسكونًا إليه، والتذاذا بحبه، وتنعمًا بذكره؟

قيل: حال هذا أكمل وأرفع. وغاية صاحب المجاهدة: أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته، ولكنه يتلوه في المنزلة والقرب ومنوط به.

فإن قيل: فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة، وتركه محابه لله، وإيثاره رضا الله على هواه؟

وبهذا كان النوع الإنساني أفضل من النوع الملكي عند أهل السنة وكانوا خير البرية.

والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفي منها. فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافى والمبتلى.

قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثم اللوم عليه والندم منه، ثم الطمأنينة إلى ربها والإقبال بكليتها عليه. وهذه الحال أعلى أحوالها. وأرفعها وهي التي يشمر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله. فهو بمنزلة راكب القفار، والمهامة والأهوال، ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به. والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفًا وقائمًا، وراكعًا وساجدًا. ليس له التفات إلى غيره. فهذا مشغول بالغاية وذاك بالوسيلة. وكل له أجر. ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بون.

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله، وإن كان أكثر عملاً، فقد عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فما سبق الصدِّيق الصحابة بكثرة عمل. وقد كان فيهم من هو أكثر صيامًا وحجًّا وقراءة وصلاة منه. ولكن بأمر آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه.

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق. ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة. فأفضل الأعمال الإيمان بالله. والجهاد أشق منه وهو تاليه في الدرجة. ودرجة الصدِّيقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء.

وَجَل.. دون يأس

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك. فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن أرْجُ لهم الرحمة. واخش على نفسك النقمة، فإن كنت لابد مستهينًا بهم ماقتًا لهم، لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه. فكن لنفسك أشد مقتًا منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتًا.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله. فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني، لم يجد بدًا من مقتهم. ولا يمكنه غير ذلك ألبتة. ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك، كان لنفسه أشد مقتًا واستهانة. فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة: فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز

حق الرب منها من حظ النفس. ولعل أكثرها - أو كلها - أن تكون حظا لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله. كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟ وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبتة، وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقًا، وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة. وفي تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب. فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة. ولا نور يفرق بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره. فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق. ورأى الحق والباطل. وميز بين أولياء الله وأعدائه. وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة. وعليها قطَّاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصي في طلبها لرأى العجب. ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة. ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي واشتغل بها العباد عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يطبب النفوس. فلا يعمر قصرًا ويهدم مصرًا.

ولابد من حال يصدق المقال

وإنما يستقيم الرجوع إليه حالاً بثلاثة أشياء: بالإياس من عملك. وبمعاينة اضطرارك، ورؤية لطفه بك.

فتيأس من النجاة بعملك. وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وعمله وفضله، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لن ينجي أحدا منكم عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وأما معاينة الاضطرار: فإنه إذا أيس من عمله، شهد أن الله عز وجل غني بالذات، فإنه الغني وصف ذاتي للرب، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

وعلى العبد بعد ذلك أن ينظر إلى ألطاف الله، ويعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له لطف من الله به، ومنة مَنَّ بها عليه، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه. إذ هو المحسن بالسبب والمسبب. والأمر له من قبل ومن بعد. وهو الأول والآخر. لا إله غيره. ولا رب سواه.

* * *

(٨) منزلة التذكر

ثم ينزل القلب منزل «التذكر» وهو قرين الإنابة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر] ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة ق] وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة] .

و«التذكر» و«التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لايزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت.

و«التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صوره المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج، كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه. ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذكرى. كما قال في المتلوة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر] وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة] وقال في آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة ق].

فـ«التبصرة» آلة البصر، و«التذكرة» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة. لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ما هي آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة. لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره.

وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة ق] .

والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت. فذلك الذي لا قلب له. فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

والثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب ليس حاضرًا. فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستعد. تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه. ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب. ملقٍ السمع. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصرة إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره. وقابله على توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقاد. مليء باستخراج العبر، واستنباط الحكم. فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار. فإذا سمع الآيات كانت له نورًا على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله. وأعظمهم إيمانًا وبصيرة. حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة، ازداد بها نورًا إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقي السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل هل التذكر أيضًا ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:٢٦٥] والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما. حتى إن شراب أحد النوعين الصّرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجـًا. قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ] فكل مؤمن يرى هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

تفكر يقود إلى صالح العمل

وأبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة. والاستبصار بالعبرة. والظفر بثمرة الفكرة.

الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح في القلب قادح الخوف والرجاء. فيتحرك للعمل، طلبًا للخلاص من الخوف، ورغبة في حصول المرجو.

و«العظة» هي الأمر والنهي، المعروف بالترغيب والترهيب.

و«العظة» نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود، فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد، والنصائح التي جاءت على لسان الرسل وما أوحي إليهم. وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

و«العظة» بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، ومجاريه. وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

وأما استبصار العبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في منزل التفكر بقوة الاستحضار. لأن التذكر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكر في مواقع الآيات والعبر. فهو يظفر بها بالتفكر. وتنصقل له وتنجلي بالتذكر. فيقوي العزم على السير بحسب قوة الاستبصار. لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور. فكلما قوي الشعور بالمحبوب اشتد سفر القلب إليه. وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه. والتذكر له.

وأما الظفرة بثمرة الفكرة: فهذا موضع لطيف.

وللفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تامًا بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعاية لحقه. فإن القلب حال التفكر كان قد كلّ بأعماله في تحصيل المطلوب. فلما حصلت له المعاني وتخمرت في القلب، واستراح العقل، عاد فتذكر ما كان حصله وطالعه. فابتهج به وفرح به. وصحح في هذا المنزل ما كان فاته في منزل التفكر. لأنه قد أشرف عليه في مقام التذكر، الذي هو أعلى منه. فأخذ حينئذ في الثمرة المقصودة. وهي العمل بموجبه مراعاة لحقه. فإن العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع، الذي هو ثمرة التفكر.

وإذا أردت فهم هذا بمثال حسي، فطالب المال مادام جادًا في طلبه، فهو في كلال وتعب، حتى إذا ظفر به استراح من كدّ الطلب. وقدم من سفر التجارة. فطالع ما حصله وأبصره، وصحح في هذا الحال ما عساه غلط فيه في حال اشتغاله بالطلب. فإذا صح له وبردت غنيمته له، أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه. والله أعلم.

شروط الانتفاع بالعظة

وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها. والعمى عن عيب الواعظ. وتذكر الوعد والوعيد.

إذ يشتد افتقار العبد إلى العظة – وهي الترغيب والترهيب – إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب. والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة. إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما «الموعظة» فقيدها بوصف الإحسان . إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك «الجدال» قد يكون بالتي هي أحسن. وقد يكون بغير ذلك. وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه. فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود. وأصله إلى المطلوب. والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

وأما العمى عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته. لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به.

ولأجل هذه النظرة: قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ ﴾ [هود:٨٨] وقال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به. وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه. وقد قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذي السقام من	الضنى ومن الضنى تمسي وأنت سقيم
لا تنه عن خلق، وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت ذميم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهنـــاك يقبـــل مـــا تقـــول ويقتـــدي بـــالقول منـــك، وينفـــع التعلـــيم

فالعمى عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هـود:١٠٣] وقـال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى] وقـال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات] وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة ق] فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر، يستحيل حصوله بدونه.

شروط استبصار العبرة

وإنما تستبصر العبرة بثلاثة أشياء: بحياة العقل. ومعرفة الأيام. والسلامة من الأغراض.

و«العبرة» هي الاعتبار. وحقيقتها: العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله. فإذا رأى من قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.

وحياة العقل: هي صحة الإدراك، وقوة الفهم وجودته. وتحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به. وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه. وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه، ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم. ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين.

ومن تجريبات السالكين، التي جربوها فألفوا صحيحة: أن من أدمن «يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية – قـدس الله روحه – شديد اللهج بها جدًّا.

وقال لي يومـا: لهذين الاسمين – وهما «الحي القيوم» – تأثير عظيم في حياة القلب.

وأما معرفة الأيام: فبأن يعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة. كل نفس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء. فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء. وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع. فما أولاه أن لا يصرف منها نفسًا إلا في أحب الأمور إلى الله. فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطًا فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه؟ فالله المستعان ولا قوة إلا به.

وكذلك يتذكر أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥] وقد فسرت «أيام الله» بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي. فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد. والثاني: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تنعم النوعين.وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه. وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها «أياما» لأنها ظرف لها. تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس. أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام. فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر. وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته. قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١].

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض. من متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء. فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل. ويعمي بصيرة القلب. ويصد عن اتباع الحق.

ويضل عن الطريق المستقيم. فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة. والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره. فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن. فالتبس عليه الحق بالباطل. فأنى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة؟

ثمرة الفكرة تُجتنى بقصر الأمل

وإنما تجتنى الفكرة بثلاثة أشياء:

أحدها: قصر الأمل. والثاني: تدبر القرآن، والثالث: تجنب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل. وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معاقصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهد من شواهد اليقين. يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائه، وقلة ما بقي منها. وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس:٤٥] وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات] وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن

نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف] وقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه] وخطب النبي ﷺ أصحابه يومًا والشمس على رؤوس الجبال فقال: «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه» وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها. ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار.

تدبر القرآن يولد الأفكار

وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر. قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون:٦٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف] وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به. فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن، وإطالة التأمل. وجمع فيه الفكر على معاني آياته. فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها. وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما. وتثبت قواعد الإيمان في قلبه. وتشيد بنيانه. وتوطد أركانه. وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه. وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم. وتبصره مواقع العبر. وتشهده عدل الله وفضله. وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها. وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه. وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها. فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها. وتميز له ببين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم. فتريه الحق حقًّا، والباطل باطلاً. وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال. والغي والرشاد. وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا. فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، و على الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم.

والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم، و على الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه. وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص. وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه. وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم،والمبادئ والغايات، في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل ، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل. وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواد السبيل. وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل. وتبصره بحدود الحلال والحرام. وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل. وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل. وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل. وتناديه كلما فترت عن عزماته، وونى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل. فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل. وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

مكدرات القلوب

وأما مفسدات القلب فهي: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام.

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب. ذلك أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، آفات النفس والعمل، وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وصحته وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعر عين بصيرته، وتثقل سمعه – إن لم تصمه وتبكه– وتضعف قواه كلها. وتوهن صحته وتفتر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميت القلب. وما لجرح بميت إيلام. فهي عائقة له عن نيل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له. وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة. فله جنتان. لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه- يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات. أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا. إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه – أو نحو هذا الكلام.

وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقًا.

وهذه الأشياء: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضًا وعللًا إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

تخالط الناس في الخير فقط

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًا وغمًا، وضعفًا، وحملًا لما يعجز عن حمله عن مؤنة قرناء السوء، وإضاعة نصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإرادتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب – عند الوفاة- أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندمًا، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان] وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف] وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت] وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزنًا وألمًا، وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة، وذما من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادين عليه لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة، أن يخالط الناس في الخير – كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد والنصيحة- ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات، فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلا، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فليسُلَ قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظًا. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقي به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجوء إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحًا ذليلا، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

في التمني مزيد فساد

ويفسد القلب أيضًا بركوبه بحر التمني وهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم. كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس. وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تلاعب براكبه، وكل حسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان. وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو

للأموال والأثمان، فيمثل المتمني صورة مطلوبة في نفسه وقد فاز بوصولها، والتذ بالظفر بها، فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذي يقربه إلى الله. ويدنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة. وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير. وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال: «هما في الأجر سواء».

تمام الخذلان في التعلق بغير الله

والمفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وخذله من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل. قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم] وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس].

فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله، كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء] مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذمومًا منصورًا كالذي قهر وتسلط عليه بباطل. وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق. والمشلاك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

النهم المميت

ومن مفسدات القلب: الطعام، والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات. وهي نوعان: محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع

والمخلب من الطير. ومحرمات حلق العباد. كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهرًا وإما حياء وتذممًا.

والثاني: ما يفسده بقدره، وتعدى حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيرًا شرب كثيرًا، فنام كثيرًا، فخسر كثيرًا، وفي الحديث المشهور: «ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

رقاد الغافلين

والمفسد الخامس: كثرة النوم، إذ النوم الكثير يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغلة والكسل. ومنه المكروه جدًّا. ومنه الضار غير النافع للبدن. وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع عن آخره. ونو وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه. وكثر ضرره. ولاسيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة. وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة. حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه. ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة. فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات. وهذا أعدل النوم عند الأطباء. وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه.

ومن النوم الذي ينفع أيضًا: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء، وكان رسول الله ﷺ يكرهه. فهو مكروه شرعًا وطبعًا.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره، مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم و العمل. ويورث أمراضًا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل. فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. والله المستعان.

(٩) منزلة الاعتصام

ثم ينزل القلب منزلة الاعتصام.

وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

و«الاعتصام» افتعال من العصمة: هو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية. والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله. ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة. والاعتصام به: يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق. والسلامة فيها. فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله، يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله، يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلئم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال: «عليكم بالجماعة. فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة».

وقال مجاهد وعطاء: «بعهد الله» وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: «هو القرآن».

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا. ويسخط لكم ثلاثًا. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال» رواه مسلم في الصحيح.

فالاعتصام بحبل الله: هو المحافظة على طاعته، مراقبًا لأمره.

ونريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحباه. لا لمجرد العادة، أو لعلة باعثة سوى امتثال الأمر. كما طلق بن حبيب في التقوى: «هي العمل بطاعة الله على نور من الله. ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله».

وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه في كلام النبي ﷺ كقوله: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا. ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غفر له» فالصيام والقيام: هم الطاعة و«الإيمان» مراقبة الأمر. وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الآمر، لا شيء سواه. و«الاحتساب» رجاء ثواب الله.

فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العم. والله أعلم.

وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه. والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به: هي الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا. فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب، ويحميه منه. فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه. ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه. فتفقد في حقه أسباب العطب. فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها. ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.

درجات الاعتصام

وهو على ثلاث درجات: اعتصام العامة بالخبر، استسلامًا وإذعانًا بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي. وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف.

فالعامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله، استسلامًا من غير منازعة، بل إيمانًا. وانقادوا إلى تعظيم الأمر والنهي والإذعان لهما، والتصديف بالوعد والوعيد. وأسسوا معاملتهم على اليقين، لا على الشك والتردد، وسلوك طريقة الاحتياط. كما قال القائل:

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تُبعث الأجساد. قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صحَّ قولي فالخسار عليكما

هذه طريق أهل الريب والشك. يقومون بالأمر والنهي احتياطًا. وهذه الطريق لا تنجي من عذاب الله. ولا تحصل لصاحبها السعادة. ولا توصله إلى المأمن.

وأما الإنصاف الذي أسسوا معاملتهم عليه: فهو الإنصاف في معاملتهم لله ولخلقه.

فأما الإنصاف في معاملة الله: فأن يعطي العبودية حقها، وألا ينازع ربه صفات إلهيته التي لا تليق بالعبد ولا تنبغي له، من العظمة، والكبرياء، والجبروت.

ومن إنصافه لربه: ألا يشكر سواه على نعمه وينساه. ولا يستعين بها على معاصيه.

العلائق

واعتصام الخاصة: وهو إسبال الخلق عن الخلق بسطًا، ورفض العلائق عزمًا.

فإن حُسن الخلق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق، يدل على سعة قلب صاحبه. وكرم نفسه وسجيته. وفي هذا الوصف، يكف الأذى، ويحمل الأذى.

وأما رفض العلائق عزمًا: فهو العزم التام على رفض العلائق وتركها في ظاهره وباطنه.

والأصل هو قطع علائق الباطن. فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر. فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر. ومتى كان في قلبك ضرك ولو لم يكن في يدك منه شيء.

قيل للإمام أحمد: أيكون الرجل زاهدًا ومعه ألف دينار؟ قال: نعم، على شريطة ألا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت.

ولعله ﷺ يقصد فرح الأشر والبطر. أما فرح المؤمن بالنعمة ليقدرها ويشكرها بحسن وضعها في موضعها من محاب الله ومراضيه. فلا يمكن أن يكره ذلك الإمام أحمد.

ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال.

وقيل لسفيان الثوري: أيكون ذو المال زاهدًا؟ قال: نعم إن كان إذا زيد في ماله شكر، وإن نقص شكر وصبر.

وإنما يحمد قطع العلائق الظاهرة في موضعين: حيث يخاف منها ضررًا في دينه، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة. والكمال من ذلك: قطع العلائق التي تصير كلاليب على الصراط تمنعه من العبور. وهي كلاليب الشهوات والشبهات. ولا يضره ما تعلق به بعدها.

وذروة الاعتصام إنما تكون بالقرب. إذ لا ريب أن العبد يقرب من ربه، والرب يقرب من عبده. فأما قرب العبد: فكقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ (١٩)﴾ [العلق] وقوله في الأثر الإلهي: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا» وكقوله: «وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي». وفي الحديث الصحيح: «أقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل الأخير»، وفي الحديث أيضًا: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، وفي الحديث الصحيح – لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي ﷺ في السفر– فقال: «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

* * *

(١٠) منزلة الفرار

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ «منزلة الفرار»

قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠] وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرار السعداء، وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل. وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فروا منه إليه، واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

وأدناه: الفرار من الجهل إلى العلم عقدًا وسعيًا. ومن الكسل إلى التشمير جدًّا وعزمًا. ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء.

و«الجهل» نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه. فكلاهما جهل لغة وعرفًا وشرعًا وحقيقة. قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة] لما قال له قومه ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾ أي من المستهزئين. وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف] أي من مرتكبي ما حرمت عليهم. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء:١٧] قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عصى الله به فهو جهالة. وقاله غيره: أجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل.

فالفرار المذكور: هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقادًا ومعرفة وبصيرة. ومن جهل العمل إلى السعي النافع، والعمل الصالح قصدًا وسعيًا.

ثم يفر من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشمير بالجد والاجتهاد.

و«الجد» هاهنا هو صدق العمل، وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون. وهو تحت السين، وسوف، وعسى، ولعل. فهي أضر شيء على العبد. وهي شجرة ثمرها الخسران والندامات.

والفرق بين الجد والعزم: أن «العزم» صدق الإرادة واستجماعها. و«الجد» صدق العمل وبذل الجهد فيه. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد. فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة:٦٣] وقال: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا

﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] وقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢] أي بجد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

ثم يهرب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه. وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه، ومصالح من يتعلق به، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه. يهرب من ضيق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى، وصدق التوكل عليه، وحسن الرجاء لجميل صنعه به، وتوقع المرجو من لطفه وبره. ومن أحسن كلام العامة قولهم: لا همَّ مع الله. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق] قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة؛ وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة. فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجًا. وقال الحسن: مخرجًا مما نهاه عنه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أهمه. و«الحسب» الكافي ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٥٩] كافينا الله.

وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة. فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له -بعد الإيمان- من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

تجريد

وأبعد الفرار: الفرار من الرسوم إلى الأصول، ومن الحظوظ إلى التجريد، فإن أرباب العزائم في السير لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها، ولا يعتدون إلا بأرواحها وحقائقها، ولا حاجة لنا إلى رسومها وظواهرها، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره. وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وأرواحها. فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك، وهممهم أعلى، وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر. فتركب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل.

وجملة الأمر: أن هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته. وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته. فظنوا أنهم يصلون إلى حقيقته، من غير رسمه وظاهره، فلم يصلوا إلا إلى الكفر والزندقة. وجحدوا ما علم بالضرورة مجيء الرسل به. فهؤلاء كفار زنادقة منافقون. وأولئك مقصرون غير كاملين. والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الأمر متوجه إلى قلوبهم قبل جوارحهم.

وأن على القلب عبودية في الأمر كما على الجوارح. وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح.

فهؤلاء خواص أهل الإيمان وأهل العلم والعرفان، الذين يكلمون فرارهم بفرار من حظوظ النفس على اختلاف مراتبها، إلى التجريد، وهذه الحظوظ لا يعرفها إلا المعتنون بمعرفة الله ومراده، وحقه على عبده، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتها، ورب مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها ويفرون إليه منها. يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم.

والحظ: ما سوى مراد الله الديني منك، كائنا ما كان. وهو ما يبرح حظا محرما إلى مكروه إلى مباح إلى مستحب، غيره أحب إلى الله منه. ولا يتميز هذا إلا في مقام الرسوخ في العلم بالله وأمره، وبالنفس وصفاتها وأحوالها.

فهناك تتبين له الحظوظ من الحقوق. ويفر من الحظ إلى التجريد. وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا. لأنهم إنما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه.

وبالجملة فصاحب هذا التجريد لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله، ولا يفرح بما حصل له دون الله، ولا يأسى على ما فاته سوى الله، ولا يستغنى برتبة شريفة، وإن عظمت عنده أو عند الناس. فلا يستغني إلا بالله. ولا يفتقر إلا إلى الله. ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله. ولا يحزن إلا على ما فاته من الله. ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله، واحتجاب الله عنه. فكله بالله، وكله لله. وكله مع الله. وسيره دائمًا إلى الله. قد رفع له عمله فشمر إليه. وتجرد له مطلوبه فعمل عليه. تناديه الحظوظ: إليّ، وهو يقول: إنما أريد من إذا حصل لي حصل لي كل شيء وإذا فاتني فاتني كل شيء فهو مع الله مجرد عن خلقه. ومع خلقه مجرد عن نفسه. ومع الأمر مجرد عن الحظ المزاحم للأمر. وأما الحظ المعين على الأمر: فإنه لا يحطه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربه.

وهذا أيضًا موضع غلط فيه من غلط الشيوخ، فظنوا أن إرادة الحظ نقص في الإرادة.

والتحقيق فيه: أن الحظ نوعان، حظ يزاحم الأمر، وحظ يؤازر الأمر فينفذه. فالأول هو المذموم. والثاني ممدوح. وتناوله من تمام العبودية. فهذا لون وهذا لون.

* * *

(١١) منزلة السماع

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «السماع».

وهو اسم مصدر كالنبات. وقد أمر الله به في كتابه. وأثنى على أهله. وأخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ﴾ [المائدة:١٠٨] وقال: ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ [التغابن:١٦] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء:٤٦] وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمَر] وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف] وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣] .

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلًا على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلًا على عدم الخير فيهم. فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال] .

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه. فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فُصِّلَت:٢٦] .

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه. وكم في القرآن من قوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج:٤٦].

فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه. وهو رائده وجليسه ووزيره. ولكن الشأن كل الشأن في المسموع. وفيه وقع خبط الناس واختلافهم. وغلط منهم من غلط.

وحقيقة «السماع» تنبيه القلب على معاني المسموع. وتحريكه عنها: طلبًا وهربًا وحبًّا وبغضًا. فهو حاد يحدو بكل أحد على وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع، منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه. فهذا حظه من مسموعه، ما وافق طبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله. فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله، لا يسمع بغيره. كما في الحديث الإلهي الصحيح «**فبي يسمع وبي يبصر**» وهذا أعلى سماعا، وأصح من كل أحد.

والكلام في «السماع» - مدحًا وذما - يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته، فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار. والحق والباطل. والممدوح والمذموم.

فأما «المسموع» فعلى ثلاثة أضرب.

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه. وأمر به عباده. وأثنى على أهله. ورضي عنهم به.

الثاني: مسموع يبغضه ويكرهه ونهى عنه. ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه. لا يحبه ولا يبغضه. ولا مدح صاحبه ولا ذمه. فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر، والمشام، والطعومات، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم. وحرم ما أحل الله. ومن جعله دينًا وقربة يتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع دينا لم يأذن به الله وضاهى بذلك المشركين.

السماع الإيماني

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله فيك كتابه. وأمر وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أضل من الأنعام سبيلا. وهم القائلون في النار: ﴿**وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ** ﴿١٠﴾﴾ [المُلك] وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله. فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه. وهو على ثلاثة أنواع. سماع إدراك بحاسبة الأذن وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابة وقبول. والثالثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم: ﴿**إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا** ﴿١﴾ **يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ**﴾ [الجن] وقوله: ﴿**يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ**﴾ [الأحقاف:٣٠] فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ**﴾ [الروم:٥٢] وقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ** ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر].

فالتخصيص هاهنا لإسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة لا تخصيص فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال] أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولًا وانقيادًا لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك «**ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**» أي ولو أفهمهم ملا انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا. لأن في قلوبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ [النور:٥١] فإن هذا سمع قبول وإجابة مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة. وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه، واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى: ﴿**وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ**﴾ [التوبة:٤٧] أي قابلون منهم مستجيبون لهم.

والمقصود: أن سماع المقربين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا وإجابة. وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه، فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء لإسماع قصائد الشعراء. وسماع المراشد، لا سماع القصائد. وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب، على جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح. ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات. ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان. وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح. من قِبل فالق الإصباح «حي على الفلاح، حي على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردًّا على ضلالة، وإرشادًا من غي، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى وحثًّا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان وتحقيق حق، وإبطال باطل.

فمن قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به، وعندئذ تزدحم معاني المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه، فما شئت من علم وحكمة، وبصيرة وهداية، فيزداد حثًّا

لنفسه وسفرًا إلى الغاية المقصودة بالمسموع الذي جعل وسيلة إليها. وهو الحق سبحانه. فإنه غاية كل مطلب ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم] وليس وراء الله مرمى، ولا دونه مستقر. ولا تقر العين بغيره ألبتة. وكل مطلوب سواه فظل زائل، وخيال مفارق مائل وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور.

السماع المذموم

وسماع آخر يبغضه الله ويكرهه. ويمدح المعرض عنه. وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه. كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقصد أن يعلم به حسن ضده فإن الضد يظهر حسنه الضد. كما قيل:

وإذا سمعت إلى حدثك زادني ... حبًّا له: سمعي حديث سواكا

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [القصص:٥٥] وقوله: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان:٧٢]. قال محمد بن الحنفية: هو الغناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته. فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر. ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه. فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرمهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طوَّل عليهم. وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرؤه. فلا تتحرك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب.

ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي

وعليهم خف الغنا لما رأوا ... إطلاقه في اللهو دون مناهي

يا فرقة ما ضَرَّ دين محمد ... وجنى عليه وملَّه إلا هي

سمعوا له رعدًا وبرقًا إذ حوى ... زجرًا وتخويفًا بفعل مناهي

ورأوه أعظم للنفس عن ... شهواتها. يا ويحها المتناهي

وأتى السماع موافقًا أغراضها ... فأجل ذاك غدًا عظيم الجاه

ومن أعجب العجائب: استدلال من استدل على أن هذا السماع مباح، بكونه مستلذا طبعًا. تلذه النفوس، وتستروح إليه. وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسي تعب السير

ومشقة الحمولة. فيهون عليه بالحُداء، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه، وزيادة في خلقه، وبأن الله ذم الصوت الفظيع، فقال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان]. وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة. فقال فيه: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥﴾ [الروم] وأن ذلك هو السماع الطيب. فكيف يكون حرامًا وهو في الجنة؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشيء كأذنه -أي كاستماعه- لنبي حسن الصوت يتغنى القرآن. وبأن أبا موسى الأشعري استمع النبي ﷺ إلى صوته، وأثنى عليه بحسن الصوت. وقال: «**لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود**» فقال له أبو موسى: «لو علمت أنك اسمتعت لحبّرته لك تحبيرا» أي زينته لك وحسنته. وبقوله ﷺ : «**زينوا القرآن بأصواتكم**».

وبقوله ﷺ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**» والصحيح: أنه من التغني بمعنى تحسين الصوت. وبذلك فسره الإمام أحمد رحمه الله ، فقال: يحسنه بصوته ما استطاع.

وبأن النبي ﷺ أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد. وقال لأبي بكر: «**دعهما. فإن لكل قوم عيدا، وهذا عيدنا أهل الإسلام**».

وبأنه ﷺ أذن في العرس في الغناء وسماه لهوًا. وقد سمع رسول الله ﷺ الحُداء، وأذن فيه. وكان يسمع أنسًا والصحابة، وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق.

نحـــن الـــذين بـــايعوا محمـــدًا ... عـــلى الجهـــاد مـــا بقينـــا أبـــدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه يشعر عبد الله بن رواحة، وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر ،فجعل يقول:

والله لـــــولا الله مـــــا اهتـــــدينا ... ولا تـــــــصدقنا ولا صـــــــلينا

فــــأنزلن ســـــكينة علينــــا ... وثبــــت الأقــــدام إن لاقينــــا

إن الـــذين قـــد بغـــوا علينــــا ... إذا أرادوا فتنــــــــة أبينــــــــا

ونحـــن إن صـــيح بنـــا أتينـــا ... وبالـــصياح عوَّلـــوا علينـــا

ونحن عن فضلك ما استغنينا

فدعا لقائله.

وسمع قصيدة كعب بن زهير، وأجازه ببرده.

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حمد بها ربه.

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية.

وأنشده الأعشى شيئًا من شعره فسمعه.

وصَدَّق لبيدًا في قوله: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

ودعا لحسان «**أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه**» وكان يعجبه شعره. وقال له «**اهْجُهُمْ، وروح القدس معك**».

وبأن ابن عمر رضي الله عنهما رخص فيه. وعبد الله بن جعفر، وأهل المدينة.

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية، فلذة سماع صوت الآدمي أولى بالإباحة، أو مساوية.

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه. فإن كان محبوبه حرامًا كان السماع معينًا له على الحرام. وإن كان مباحًا كان السمع في حقه مباحا. وإن كانت محبته رحمانية كان السماع في حقه قربة وطاعة. لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها.

وبأن التذاذ الأذن بالصوب الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن، والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الطيبة. فإن كان هذا حرامًا كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة.

فالجواب: أن هذه حيدة عن المقصود. وروغان عن محل النزاع. وتعلق بما لا متعلق به. فإن جهة كون الشيء مستلذًا للحاسة ملائما لها، لا يدل على إباحته ولا تحريمه، ولا كراهته ولا استحبابه. فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة: تكون في الحرام، والواجب، والمكروه، والمستحب، والمباح. فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل، ومواقع الاستدلال؟

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم، وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي ﷺ تحريمها، وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها. وقال جمهورهم: بتحريم جملتها إلا لذيذة تلذ السمع؟ وهل في التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه من إباحة، أو تحريم؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب، وهو زيادة نعمة منه لصاحبه.

فيقال: والصورة الحسنة الجميلة، أليست زيادة في النعمة. والله خالقها. ومعطي حسنها؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها، والالتذاذ على الإطلاق بها؟

وهل هذا إلا مذهب الإباحة.

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة. وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن في الجنة خمرًا. وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير. وعلى حل أواني الذهب والفضة والتحلي بهما للرجل بكون ذلك ثابتًا وجود النعيم به في الجنة.

أما القصائد التي مُدح بها الله ورسوله ودينه كتابه، وهجي بها أعداؤه، فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها. وهي التي سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأثاب عليها. وحرض حسانًا عليها. وهي التي غرّت أصحاب السماع الشيطاني. فقالوا: تلك قصائد وسماعنا قصائد. فنعم إذن. والسنة كلام. والبدعة كلام. والتسبيح كلام. والغيبة كلام. والدعاء كلام. والقذف كلام.

ونظير هذا: ما غرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن، وأذنه له وإذنه فيه، ومحبة الله له.

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد. وذكر القد والنهد والخصر، ووصف العيون وفعلها، والعتاب والاستعطاف، والاشتياق، والقلق والفراق، وما جرى هذا المجرى. مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر، بما لا نسبة بينهما.

وأعجب من هذا: استدلالهم على إباحة السماع - المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية بغناء بنتين صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح، بأبيات من أبيات العرب، في وصف الشجاعة والحروب، ومكارم الأخلاق والشيم. فأين هذا من هذا؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم. فإن الصديق الأكبر رضي الله عنه سمى ذلك «مزمورًا من مزامير الشيطان» وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية. ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين، ولا مفسدة في إنشادهما. ولا استماعهما. أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى. فيا سبحان الله! كيف ضلت العقول والأفهام؟

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد؟! وهل حرم أحد مطلق الشعر، وقوله واستماعه؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة. وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥] وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان، والأوتار والعيدان؟

والذي يفصل النزاع في حكم هذه المسألة أن تعلم أنه إذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال، أو حال من الأحوال، أو ذوق من الأذواق، هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين. وهي وحيه الذي تتلقى

أحكام النوازل والأحوال والواردات منه. وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول. وما أبطله ورده فهو الباطل المردود. ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله فليس على شيء من الدين. وإن وإن. وإنما معه خدع وغرور: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور].

فإذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته. فإن كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة. فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته. بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي، ولاسيما إذا كان طريقًا مفضيا إلى ما يغضب الله ورسوله موصلا إليه عن قرب، وهو رقية له ورائد وبريد. فهذا لا يشك في تحريمه أولو البصائر فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر. لأنه يسوق النفس إلى السكر الذي يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقًا للنفوس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغناء – كما قال ابن مسعود ﵁ – هو «رقية الزنا» وقد شاهد الناس: أنه ما عاناه صبي إلا وفسد، ولا امرأة إلا وبغت، ولا شاب إلا ولّى، ولا شيخ إلا والى. والعيان من ذلك يغني عن البرهان.

وإذا لم يكن بد من المحاكمة إلى الذوق. فهلم نحاكمك على ذوق لا ننكره نحن ولا أنت، غير هذه الأذواق التي ذكرناها.

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود، وحالة فرح ورضي بموجود. وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان.

وله بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضاء، وهي للسابقين. والصبر، وهي لأصحاب اليمين.

وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر. والشاكرون فيها أيضا نوعان: سابقون وأصحاب يمين. فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين، بصوتين أحمقين فاجرين. هما للشيطان لا للرحمن: صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب. وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه في حديث أنس ﵁ : «**إنما نهيت عن صوتين أحمقين، فاجرين: صوت ويل عند مصيبة. وصوت مزمار عند نعمة**».

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة. مع الإمعان في تفهم معانيه، وتدبر خطابه قليلا قليلا. إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات. ويلبس

محبة سماع الآيات. ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه. فحينئذ يعلم هو من نفسه: أنه لم يكن على شيء، ويتمثل حينئذ بقول القائل:

وكنت أرب أن قد تناهى بي الهوى إلى غاية ما فوقها لي مطلب

فلما تلاقينا. وعاينت حسنها تيقنت أني إنما كنت ألعب

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر: أمر معلوم بالضرورة من الدين. لا يمتري فيه إلا أبعد الناس عن العلم والإيمان. فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذي هو للشيطان. وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النائحة - وقد ضربها حتى بدا شعرها - وقال: "لا حرمة لها. إنها تأمر بالجزع. وقد نهى الله عنه. وتنهى عن الصبر. وقد أمر الله به، وتفتن الحي وتؤذي الميت. وتبيع عبرتها. وتبكي شجو غيرها".

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير. والذي شاهدناه - نحن وغيرنا - وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم، وفشت فيهم، واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء.

ذلك أنهم باللهو والغناء يقلبون حياتهم من الجد إلى اللعب والسخرية. ومن الرشد إلى السفه والغي. ومن القوة إلى الضعف والوهن. فإن حياة الغناء واللهو واللعب لابد تحلل عناصر القوة والنشاط العلمي والعملي الذي لا نجاح للأمة ولا قوة لها إلا به. فتضعف صناعيا واقتصاديا وزراعيا وعسكريا فضلاً عن انهيارها الخلقي، وشدة تعرضها للعنة الله. ويصبح أمرها فرطا. لأن قلوبها غفلت عن الحق في سنن الله وآياته وحكمته . واتبعت هواها. فهوى بها إلى درك الوهن والضعف.

* * *

(١٢) منزلة الخوف

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الخوف»

وهي من أجلِّ منازل الطريق، وأنفعها للقلب. وهي فرض على كل أحد. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤] ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون] وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: «يا رسول الله، قول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: «لا، يا ابنة الصديق. ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق. ويخاف أن لا يقبل منه» قال الحسن: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم. إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا.

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة.

قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام. وهذا سبب الخوف. لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره .

و«الخشية» أخص من الخوف. فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] فهي خوف مقرون بمعرفة. وقال النبي ﷺ: «إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية».

فالخوف حركة. والخشية انجماع، وانقباض وسكون. فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك، له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه. وهي الخشية. ومنه انخش الشيء، والمضاعف والمعتل أخوان. كتقضى البازي وتقضض.

وأما «الرهبة» فهي الإمعان في الهرب من المكروه. وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وبين الرهب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى. يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع.

وأما «الوجل» فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما «الهيبة»: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة. والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين. والخشية للعلماء العارفين. والهيبة للمحبين. والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية. كما قال النبي ﷺ: «إني لأعلمكم بالله. وأشدكم له خشية» وفي رواية «خوفا» وقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى».

فصاحب الخوف: يلتجئ إلى الهرب، والإمساك. وصاحب الخشية: يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم. ومثلهما مثل من لا علم له بالطب. ومثل الطبيب الحاذق. فالأول يلتجئ في الحمية والهرب. والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء.

قال أبو حفص: الخوف سوط الله، يقوِّم به الشاردين عن بابه. قال: الخوف سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر. وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل. فإنك إذا خفته هربت إليه.

فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب.

وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها. وطرد الدنيا عنها. وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف. فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

والخوف ليس مقصودا لذاته. بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل. ولهذا يزول بزوال المخوف فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والخوف يتعلق بالأفعال. والمحبة تتعلق بالذات والصفات. ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم. ولا يلحقهم فيها خوف. ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه.

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل. فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان: صدق الخوف هو الورع من الآثام ظاهرًا وباطنًا.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: الخوف المحمود: ما حجزك عن محارم الله.

وقال صاحب المنازل الشيخ الهروي ﷺ: «الخوف: هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر».

يعني الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد.

قال: «وأول الخوف: الخوف من العقوبة، وهو الخوف الذي يصح به الإيمان. وهو يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العافية».

والخوف مسبوق بالشعور والعلم. فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به.

وله متعلقان. أحدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه. والثاني: السبب والطريق المفضي إليه. فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف، وبقدر المخوف يكون خوفه. وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه.

فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي إلى محذور كذا، لم يخف منه ذلك السبب. ومن المعتقد أنه يفضي إلى مكروه ما، ولم يعرف قدره، لم يخف منه ذلك الخوف. فإذا عرف قدر المخوف، وتيقن إفضاء السبب إليه، حصل له الخوف.

هذا معنى تولده من تصديق الوعيد، وذكر الجناية.

وفي مراقبة العاقبة زيادة استحضار المخوف، وجعله نصب عينه، بحيث لا ينساه. فإنه وإن كان عالمًا به – لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف. فلذلك كان الخوف علامة صحة الإيمان. وترحله من القلب علامة ترحل الإيمان منه. والله أعلم.

ومن الخوف المحمود: خوف المر في جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظة، المشوبة بالحلاوة.

يريد: أن من حصلت له اليقظة بلا غفلة، واستغرقت أنفاسه فيها استحلي ذلك. فإنه لا أحلى من الحضور في اليقظة. فإنه ينبغي أن يخاف المكر، وأن يسلب هذا الحضور، واليقظة والحلاوة، فكم من مغبوط بحالة انعكس عليه الحال. ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال. فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمين على الشمال؟ بينما بدْرُ أحواله مستنيرًا في ليالي التمام. إذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام. فبدل بالأنس وحشة، وبالحضور غيبة، وبالإقبال إعراضًا، وبالتقريب إبعادًا، وبالجمع تفرقة.

تكامل الخوف والرجاء

القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر. فالمحبة رأسه. والخوف والرجاء جناحاه. فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران. ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى قد

الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر. ولكن السلف استحبوا أن يقوي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوي جناح الرجاء على جناح الخوف. هذه طريقة أبي سليمان وغيره.

قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف. فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق. والله الموصل بمنه وكرمه.

* * *

(١٣) منزلة الإشفاق

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الإشفاق»

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور].

«الإشفاق» رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه. فنسبته إلى الخوف نسب الرأفة إلى الرحمة. فإنها ألطف الرحمة وأرقها.

وبدايته: إشفاق على النفس أن تجمع إلى العناد، أو أن تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية. ثم هو إشفاق على العمل أن يصير إلى الضياع.

فيخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله فيها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] وهي الأعمال التي كانت لغير الله وعلى غير أمره وسنة رسوله ﷺ. ويخاف أيضًا أن يضيع عمله في المستقبل، إما بتركه، وإما بمعاصٍ تفرقه وتحبطه. فيذهب ضائعًا. ويكون حال صاحبه كحال التي قال الله تعالى عن أصحابها: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الآية [البقرة:٢٦٦] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم. فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: يا ابن أخي قل. ولا تحقرن نفسك. قال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله فبعث الله إليه الشيطان. فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله».

وأوسطه: إشفاق على الوقت: أن يشوبه تفرق.

أي يحذر على وقته أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل، وعلى القلب أن يزاحمه عارض.

والعارض المزاحم: إما فترة، وإما شبهة، وإما شهوة، وكل سبب يعوق السالك.

ونهايته: إشفاق يصون سعيه عن العجب، ويكف عن مخاصمة الخلق، ويحمل صاحب الإرادة على حفظ الجدّ.

فالعجب: يفسد العمل كما يفسده الرياء. فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه.

والمخاصمة للخلق: مفسدة للخُلُق. فيشفق على خلقه من هذا المفسد شفقة تصون عنه.

والإرادة: يفسدها عدم الجد. وهو الهزل واللعب، فيشفق على إرادته مما يفسدها فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته: استقام سلوكه وقلبه وحاله. والله المستعان.

* * *

(١٤) منزلة الخشوع

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الخشوع»

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين» وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن» وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون].

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨] أي سكنت، وذلت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩].

و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه.

وقيل: «الخشوع» الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وردّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

وقيل: «الخشوع» خمود نيران الشهوة. وسكون دخان الصدور. وإشراق نور التعظيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «الخشوع» محله القلب.وثمرته على الجوارح. وهي تظهره. «رأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خضع قلب هذا لخشعت جوارحه» وقال النبي ﷺ: «التقوى هاهنا - وأشار إلى صدره - ثلاث مرات» قال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن. فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا. وأشار إلى صدره. لا هاهنا. وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع» ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب. إنما الخشوع في القلوب». «ورأت عائشة رضي الله عنها شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم،

فقالت لأصحابها: من هؤلاء. فقالوا: نسّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشي أسرع. وإذا قال أسمع. وإذا ضرب أوجع. وإذا أطعم أشبع. وكان هو الناسك حقًّا».

وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه. وقال حذيفة رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصل لا خير فيه. ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا». وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

الخشوع تذلل واستسلام

وجماع الخشوع: التذلل للأمر، والاستسلام للحكم، والاتضاع لنظر الحق.

التذلل للأمر: تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال، ومواطأة الظاهر الباطن، مع إظهار الضعف، والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل، والإعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل.

وأما الاستسلام للحكم الشرعي: فبعدم معارضته برأي أو شهوة.

وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب إليها، واطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن] ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات] وهو مقام الرب على عبده بالإطلاع والقدرة الربوبية.

فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لا محالة. وكلما كان أشد استحضارًا له كان أشد خشوعًا. وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه، ونظره إليه.

والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه.

فعلى الأول: يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل.

وعلى الثاني: - وهو أليق بالآية - يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف.

واعلم أن نمو الخشوع إنما يكون بترقب آفات النفس والعمل، ورؤية كل ذي فضل عليك، فإن انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبها لك يجعل القلب خاشعًا لا محالة، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما؛ من الكبر والعجب، والرياء، وضعف الصدق، وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفساني، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربك، وغير ذلك من عيوب النفس، ومفسدات الأعمال.

وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك: فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها. ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم. فلا تعارضهم عليها. فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها. ولا تطالبهم بحقوق نفسك. وتعترف بفضل ذي الفضل منهم. وتنسى فضل نفسك.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: العارف لا يرى لـه عـلى أحـد حقًّا ولا يشهد له على غيره فضلاً. ولذلك لا يعاتب ولا يطالب، ولا يضارب.

افتقار واستتار

ويكمل الخشوع بتصفية الوقت من مراءاة الخلق، وتجريد رؤية الفضل، فيخفي أحوالـه عـن الخلق جهده، كخشوعه وذله وانكساره، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها. فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله. وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سـالك؟ والمعـصوم مـن عصمه الله. فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء. وأنه ممـن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ من ذلك أمرًا لم أشاهده مـن غيره. وكان يقول كثيرًا: مالي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء. وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنـــا المكـــدَى وابـــن المكـــدى ... وهكـــــذا كــــان أبي وجــــدي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت. ومـا أسـلمت بعد إسلامًا جيدًا.

وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه. وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنـــا الفقـــير إلى رب البريـــات ... أنـــا المـــسكين في مجمـــوع حـــالاتي

أنـــا الظلـــوم لنفـــسي. وهـــي ظـــالمتي ... والخـــير إن يأتنـــا مـــن عنـــده يـــأتي

لا أســـتطيع لنفـــسي جلـــب منفعـــة ... ولا عـــن الـــنفس لي دفـــع المـــضرات

والفقـــر لي وصـــف ذات لازم أبـــدا ... كـــما الغنـــى أبـــدا وصـــف لـــه ذاتي

وهـــذه الحـــال حـــال الخلـــق أجمعهـــم ... وكلهـــــم عنـــــده عبـــــد لي آتي

وأما تجريد رؤية الفضل: فهو أن لا يرى الفضل والإحسان إلا من الله. فهو المانُّ به بلا سبب من العبد، ولا وسيلة سبقت منه توسل بها إلى إحسانه، بل أن جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه، وبفضله عليه من غير استحقاق منه. ولا بذل عوض استوجب به ذلك. كما قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات].

وكذلك يشهد أن ما زوي عنه من الدنيا، أو ما لحقه منها من ضرر وأذى فهو منة أيـضًا مـن الله عليه من وجوه كثيرة، ويستخرجها الفكر الصحيح. كما قال بعض السلف: «يـا ابـن آدم، لا

تدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك، أو نعمته فيما زوي عنك؟» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت. إن كان الغنى، إن فيه للشكر. وإن كان الفقر، إن فيه للصبر» وقال بعض السلف: «نعمته فيما زوي عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها. إني رأيته أعطاها قوما فاغتروا».

* * *

(١٥) منزلة الإخبات

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الإخبات»

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج] ثم كشف عن معناهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود].

و«الخبت» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض. وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ «المخبتين» وقالا: هم المتواضعون. وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله عز وجل. قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعون. وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون. وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمر بن أوس: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله عز وجل، ولذلك عُدِّي بإلى، تضميناً لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله.

وهو من أول مقامات الطمأنينة.

كالسكينة، واليقين، والثقة بالله ونحوها. فالإخبات: مقدمتها ومبدؤها. وبه يكون ورود المأمن من الرجوع والتردد.

إذ لما كان «الإخبات» أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد - الذي هو نوع غفلة وإعراض - والسالك مسافر إلى ربه، سائر إليه على مدي أنفاسه. لا ينتهي مسيره إليه مادام نفسه يصحبه - كان حصول الإخبات له كالماء العذب الذي برده المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله. فيرويه مورده، ويزيل عنه خواطر تردده في إتمام سفره، أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر. فإذا ورد ذلك الماء، زال عنه التردد، وخاطر الرجوع. كذلك السالك إذا ورد مورد «الإخبات» تخلص من التردد والرجوع، ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره، وجَدَّ في السير.

وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: أن تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الإرادة الغفلة ويستهوي الطلب السلوة.

المريد السالك: تعرض له غفلة عن مراده، تضعف إرادته، وشهوة تعارض إرادته، فتصده عن مراده. ورجوع عن مراده وسلوة عنه.

فهـذه الـدرجة من الإخبـات تحميه من هذه الثلاثة. فتستغرق عصمتُه شهوتَه.

و«العصمة» هي الحماية والحفظ. و«الشهوة» الميل إلى مطالب النفس. و«الاستغراق» للـشيء الاحتواء عليه والإحاطة به.

فتغلب عصمته شهوته وتقهرها، وتستوفي جميع أجزائها. فإذا استوفت العصمة جميـع أجـزاء الشهوة، فذلك دليل على إخباته. ودخوله في مقام الطمأنينة، ونزوله أول منازلهـا، وخلاصـه في هذا المنزل من تردد الخواطر بـين الإقبـال والإدبـار، والرجـوع والعـزم، إلى الاسـتقامة والعـزم الجازم، والجد في السير، وذلك علامة السكينة.

وتستدرك إرادته غفلته. و«الإرادة» عند القـوم: هـي اسـم لأول منـازل القاصـدين إلى الله. و«المريد» هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه. وأخذ في السفر إلى الله، والدار الآخرة. فإذا نزل في منزل «الإخبات» أحاطت إرادته بغفلته. فاستدركها. واستدرك بها فاطرها.

وأما «استهواء طلبه لسلوته» فهـو قهـر محبتـه لـسلوته، وغلبتهـا لـه. بحيـث تهـوي الـسلوة وتسقط، كالذي يهوي في بئر. وهذا علامة المحبة الصادقة: أن تقهر فيه وارد السلوة، وتـدفنها في هوة لا تحيا بعدها أبدًا.

فالحاصل: أن عصمته وحمايته تقهر شهوته. وإرادته تقهر غفلته. ومحبته تقهر سلوته.

الـدرجة الثـانـية: أن لا يـوحـش قلبـه عارض، ولا يقطع عليه الطريق فتنة.

و«العارض» هو المخالف. كالشيء الذي يعترضك في طريقـك. فيجـيء في عرضـها. ومـن أقوى هذه العوارض: عارض وحشة التفرد. فلا يلتفت إليه، كما قال بعض الصادقين: انفـرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب. وقال آخر: لا تستوحش في طريقك من قلة الـسالكين ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وأما «الفتنة» التي تقطع عليه الطريق: فهي الواردات التـي تـرد عـلى القلـوب، تمنعهـا مـن مطالعة الحق وقصده، فإذا تمكن من منزل «الإخبـات» وصـحة الإرادة والطلـب، لم يطمـع فيـه عارض الفتنة.

وهذه العزائم لا تصح إلا لمن أشرق على قلبه أنوار آثـار الأسـماء والـصفات. وتجلـت عليـه معانيها.

الدرجة الثالثة: أن يستوي عنده المدح والذم، وتدوم لائمتُه لنفسه.

فاعلم أنه متى استقرت قدم العبد في منزلة «الإخبات» وتمكن فيها، ارتفعـت همتـه، وعلـت نفسه عن خطفات المدح والذم، فلا يفرح بمدح الناس. ولا يحزن لذمهم. هذا وصف من خـرج عن حظ نفسه.

وصار قلبه مطرحًا لأشعة أنوار الأسماء والصفات. وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه.

والوقوف عند مدح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب، وخلوه من الله، وإنه لم تباشره روح محبته ومعرفته، ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه.

ولا يتذوق العبد حلاوة الإيمان، وطعم الصدق واليقين ، حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه. والله لو تحقق الناس في هذا الزمان ذلك من قلب رجل لرموه عن قوس واحدة. وقالوا: هذا مبتدع، ومن دعاة البدع. فإلى الله المشتكى. وهو المسئول الصبر، والثبات. فلابد من لقائه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه] ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء].

والمراد بالنفس عند القوم: ما كان معلولاً من أوصاف العبد، مذمومًا من أخلاقه وأفعاله. سواء كان ذلك كسبيا، أو خلقيا، فهو شديد اللائمة لها. وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة] قال سعيد بن جبير وعكرمة: تلوم على الخير والشر. ولا تصبر على السراء ولا على الضراء.

وقال قتادة: اللوامة: هي الفاجرة.

وقال مجاهد:تندم على ما فات، وتقول: لو فعلت؟ ولو لم أفعل؟

وقال الفراء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها: إن كان عملت خيرًا قالت: هلا زدت؟ وإن عملت شرًا قالت: ليتني لم أفعل.

وقال الحسن: هي النفس المؤمنة. إن المؤمن - والله - ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة كذا؟ ما أردت بكذا؟ ما أردت بكذا؟ وأن الفاجر يمضي قدمًا، ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها.

وقال مقاتل: هي النفس الكافرة، تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله في الدنيا.

والقصد: إن من بذل نفسه له بصدق كره بقاءه معها. لأنه يريد أن يتقبلها من بذلت له. ولأنه قد قربها له قربانًا. ومن قرّب قربانًا فتقبل منه ليس كمن ردّ عليه قربانه. فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يتقبل قربانه.

فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عز وجل. وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل فلابد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه. ومنهم من هو سهل عليه. وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية، وعقبات، وشوك، ولصوص يقطعون الطريق على السائرين. ولاسيما أهل الليل المدجلين. فإذا لم يكن معهم عُدد الإيمان، ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات، وإلا

تعلقت بهم تلك الموانع. وتشبثت بهم تلك القواطع، وحالت بينهم وبين السير.

فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته. والشيطان على قلة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه. ويخوفهم منه. فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قلته. وضعف عزيمة السائر ونيته. فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع. والمعصوم من عصمه الله.

وكلما رقي السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع، وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قمته: انقلبت تلك المخاوف كلهن أمانًا. وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق، ومشقة عقباتها. ويرى طريقًا واسعًا آمنًا، يفضي به إلى المنازل والمناهل. وعليه الأعلام، وفيه الإقامات، قد أعدت لركب الرحمن.

فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

* * *

(١٦) منزلة الزهد

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الزهد».

قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦] وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٢٤] وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ إلى قوله ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧] وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى] وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف] وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزُّخرُف].

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والأخبار بخستها وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة، والأخبار بشرفها ودوامها. فإذا أراد الله بعبد خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة. ويؤثر منهما ما هو أولي بالإيثار.

وقد أكثر الناس من الكلام في «الزهد» وكل أشار إلى ذوقه. ونطق عن حاله وشاهده. فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم. والكلام بلسان العلم، أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلى الحجة والبرهان.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الزهد، الورع» وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء.

ذلك أن الزهد في الشيء في لغة العرب – التي هي لغة الإسلام – الانصراف عنه احتقارًا له، وتصغيرًا لشأنه للاستغناء عنه بخير منه. ولم يجئ في القرآن إلا في شأن الذين شروا يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف] والزهد فيما أنعم الله وتفضل به على الإنسان في هذه الحياة، بما جعله بلاء وعونًا للمهتدين على الإيمان والهدى وصالح الأعمال للمتقين، فيكون باقيا صالحًا للآخرة، وعونًا على الكفر والفسوق والعصيان، عند الغافلين الكافرين. الزهد في ذلك: إعراض عن نعم الله وتحقير لها. وليس هذا من هدي رسول الله ﷺ،ولا هدي أصحابه. وإنما كان هداهم تقدير هذه النعم وحبها والفرح بفضل الله عليهم بها وشكرها بالاستعانة بها على النجاح والفلاح فيما ابتلاهم الله به.

وقال الجنيد: الزهد في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد] فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح.

وقال ابن الخلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها.

وقيل: هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقال الإمام أحمد: الزهد في الدنيا قصر الأمل.

وعنه رواية أخرى: أنه عدم فرحه بإقبالها. ولا حزنه على إدبارها. فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار. هل يكون زاهدًا؟ فقال: نعم. على شريطة أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.

وقال أبو سليمان الداراني: ترك ما يشغل عن الله.

وسأل رويم الجنيد عن الزهد؟ فقال: استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب. وقال مرة: هو خلو اليد عن الملك، والقلب عن التتبع.

وقال يحيى بن معاذ: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة.

وقيل: الزهد الإيثار عند الاستغناء، والفتوة الإيثار عند الحاجة. قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه. الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال. وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته. وهو من أجمع الكلام. وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى. وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء «أحدها الزهد».

والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة. و على هذا صنف المتقدمون كتب الزهد. كالزهد لعبد الله بن المبارك. وللإمام أحمد، ولوكيع، ولهناد بن السري، ولغيرهم.

ومتعلقه ستة أشياء، لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها. وهي المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك. فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما ولهما من المال والملك والنساء ما لهما. وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق. وله تسع نسوة. وكان على بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحًا لهن، وأغناهم. وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مال كثير. وكذلك الليث ابن سعد من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزهد، كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال. ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك. فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه. وقد روي مرفوعًا.

سنة الزهد ماضية

وقد اختلف الناس في «الزهد» هل هو ممكن في هذه الأزمنة أم لا؟

فقال أبو حفص: الزهد لا يكون إلا في الحلال. ولا حلال في الدنيا، فلا زهد.

وخالفه الناس في هذا. وقالوا: بل الحلال موجود فيها. وفيها الحرام كثيرًا، و على تقدير: أن لا يكون فيها الحلال، فهذا أدعى إلى الزهد فيها، وتناول ما يتناوله المضطر منها، كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير.

وقال يوسف بن أسباط: لو بلغني أن رجلاً بلغ في الزهد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء

وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم ما قلت له زاهد. لأن الزاهد لا يكون إلا في الحلال المحض. والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا. وأما الحرام فإن ارتكبته عذبك الله عز وجل.

ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد.

فقالت طائفة: الزهد إنما هو في الحلال. لأن ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقة: بل الزهد لا يكون إلا في الحرام. وأما الحلال فنعمة من الله تعالى على عبده. والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. فشكره على نعمه، والاستعانة بها على طاعته، واتخاذها طريقًا إلى جنته، أفضل من الزهد فيها، والتخلي عنها، ومجانبة أسبابها.

والتحقيق: أنها إن شغلته عن الله. فالزهد فيها أفضل. وإن لم تشغله عن الله، بل كان شاكرًا الله فيها، فحاله أفضل ، والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها. والله أعلم.

استبراء واستعلاء

وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: الزهد في الشبهة، بعد ترك الحرام بالحذر من المعتبة، والأنفة من المنقصة، وكراهة مشاركة الفساق.

أما الزهد في الشبهة: فهو ترك ما يشتبه على العبد: هل حلال ، أو حرام ؟ كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : «الحلال بين، والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات. لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات اتقى الحرام. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى. ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد. وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد. ألا وهي القلب».

ثم يأنف لنفسه من نقصه عند ربه، وسقوطه من عينه. لا أنفته من نقصه عند الناس، وسقوطه من أعينهم. وإن كان ذلك ليس مذمومًا، بل هو محمود أيضًا. ولكن المذموم: أن تكون أنفته كلها من الناس، ولا يأنف من الله.

أما كراهة مشاركة «الفساق» فذلك أن الفساق يزدحمون على مواضع الرغبة في الدنيا. ولتلك المواقف بهم كظيظ من الزحام. فالزاهد يأنف من مشاركتهم في تلك المواقف. ويرفع نفسه عنها، لخسة شركائه فيها، كما قيل لبعضهم: ما الذي زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها.

إذا لم أترك الماء اتقاء	تركت لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام	رفعت يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب يلغن فيه

بناء.. في سكون

الدرجة الثانية: اغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت، وحسم الجأش.

إذ لما كان الزهد لأهل الدرجة الأولى خوفًا من المعتبة، وحذرًا من المنقصة، كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع. وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله. لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا، فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت. فالوقت سيف إن لم تقطعه وإلا قطعك.

وعمارة الوقت: الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب، أو منكح، أو منام، أو راحة. فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه. كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات.

بل لا تحسب أن عمارة الوقت بالصلاة ونحوها فحسب. فإن عمارة الوقت بالعمل الصالح شكراً لله، بالزراعة والصناعة، والعمل في عمارة الأرض واستخراج كنوزها وإصلاحها، وتنمية الثروات وإعداد القوة والعَدد والعُدد، لتكون الأمة قادرة على تمكين دينها، وإقامة شرائع الإسلام، ومد ظل عدله ورحمته على الناس، وإخراجهم به من الظلمات إلى النور، وكذلك حسن العشرة مع الأهل والولد والجار بكل ما يجعل العشرة حسنة من مأكل ومشرب وملبس، وغير ذلك مما يهيئ الحية الرغيدة، والعيش السعيد للأسرة، لتكون في جو وبيئة صالحة كريمة، لإنشاء جيل جديد من أبناء صالحين نافعين، عاملين لقوة الأمة وعزتها، وكذلك التمهر في الصناعات والحرف التي تسبق بها الأمة غيرها في مضمار العمران، كل ذلك ونحوه من شكر الله على نعمه فيما أعطي ، وحسن الانتفاع به، ينبغي أن يعمر الوقت به.

فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه، وراحته، أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان.

ولا ريب أن النفس إذا نالت حظًّا صالحًا من الدنيا قويت به وسرت، واستجمعت قواها وجمعيتها، وزال تشتتها.

وأما «حسم الجأش» فهو قطع اضطراب القلب، المتعلق بأسباب الدنيا، رغبة ورهبة، وحبًّا وبغضًا، وسعيا. فلا يصح الزهد للعبد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه. بأن لا يلتفت إليها، ولا يتعلق بها في حالتي مباشرته لها وتركه. فإن الزهد زهد القلب، لا زهد الترك من اليد وسائر الأعضاء. فهو تخلي القلب عنها. لا خلو اليد منها.

زهد بماذا.. وما ثَمَّ شيء!!

الدرجة الثالثة: الزهد في الزهد. وهو بثلاثة أشياء: استحقار ما زهدت فيه. واستواء الحالات فيه عندك. والذهاب عن شهود الاكتساب.

فالزهد في الزهد يفسر بثلاثة أشياء:

أحدها: احتقاره ما زهد فيه. فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قربانًا. لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له، فيستحي من صح له الزهد أن يجعل ما تركه الله قدرًا يلاحظ زهده فيه، بل يفني عن زهده فيه كما فني عنه. ويستحي عن ذكره بلسانه، وشهوده بقلبه.

وأما استواء الحالات فيه عنده: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه متساويين عنده. إذ ليس له عنده قدر. وهذا من دقائق فقه الزهد. فيكون زاهدًا في حال أخذه، كما هو زاهد في حال تركه، إذ همته أعلى عن ملاحظته أخذًا وتركًا، لصغره في عينه.

وأما «الذهاب عن شهود الاكتساب» فمعناه:

أن يشاهد تفرد الله بالعطاء والمنع. فلا يرى أنه ترك شيئًا ولا أخذ شيئًا. بل الله وحده هو المعطي المانع. فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه، كمجرى الماء في النهر. وما تركه لله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي منعه منه. فيذهب بمشاهدة الفعّال وحده عن شهود كسبه وتركه.

* * *

(١٧) منزلة الورع

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الورع»

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)﴾ [المدّثر].

قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب. فكني عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين ن أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها عن معصية ولا غدر، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني - بحمد الله - لا ثوب غادر لبست. ولا من غدرة أتقنع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب.وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب. وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على الغدر، والظلم والإثم، ولكن البسها وأنت بر طاهر.

وقال الضحاك: عملك فأصلح. قال السدي: يقال للرجل. إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب. وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك وبيتك فطهر. وقال الحسن والقرظي: وخلقك فحسن.

وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها. لأن المشركين كانوا لا يتطهرون، ولا يطهرون ثيابهم.

وقال طاوس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهرة لها.

والقول الأول: أصح الأقوال.

ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق. لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن. ولذلك أمر القائم بين يدي الله عز وجل بإزالتها والبعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته. كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل منهما في الآخر. ولهذا نهي عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي.

يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها. حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر وليسا عليهما.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة. فقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» فهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام، والنظر والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال إسحاق بن خلف: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة، لأنهما يبذلان في طلب الرياسة.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل، وقال: الورع على وجهين، ورع في الظاهر، وورع في الباطن. فورع الظاهر: أن لا يتحرك إلا لله، وورع الباطن: هو أن لا تدخل قلبك سواه. وقال: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقيل: الورع الخروج من الشهوات، وترك السيئات.

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين.

وقال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه.

وقال سهل: الحلال هو الذي لا يعصى الله فيه، والصافي منه الذي لا ينسي الله فيه. وسأل الحسن غلامًا . فقال له: ما ملاك الدين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فعجب الحسن منه.

وقال أبو هريرة: جلساء الله غدا أهل الورع والزهد.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس.

انتباه القلب يصون الجوارح

قال صاحب المنازل شيخ الإسلام الهروي:

«الورع: توقٍّ مستقصى على حذر. وتحرّج على تعظيم».

يعني أن يتوقى الحرام والشبه،وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي. لأن التوقي والحذر متقاربان. إلا أن «التوقي» فعل الجوارح. و«الحذر» فعل القلب. فقد يتوقى العبد الشيء لا على وجه الحذر والخوف، ولكن لأمور أخرى: من إظهار نزاهة، وعزة وتصوف، أو اعتراض آخر، كتوقي الذين لا يؤمنون بمعاد، ولا جنة ولا نار ما يتوقونه من الفواحش والدناءة، تصونًا عنها. ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها. وطلبًا للمحمدة، ونحو ذلك.

وقوله «وتحرج على تعظيم» يعني أن الباعث على الورع من المحارم والشبه إما حذر حلول الوعيد. وإما تعظيم الرب جل جلاله، وإجلالاً له أن يتعرض لما نهي عنه.

فالورع عن المعصية: إما تخوفًا، أو تعظيما. واكتفى بذكر التعظيم عن ذكر الحب الباعث على ترك معصية المحبوب. لأنه لا يكون إلا مع تعظيمه. وإلا فلو خلا القلب من تعظيمه لم تستلزم محبته ترك مخالفته، كمحبة الإنسان ولده، فإذا قارنه التعظيم أوجب ترك المخالفة.

والورع عمومًا يبعث على تجنب القبائح، لصون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان. فهذه ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح.

إحداها: صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويزري بها عند الله ﷻ وملائكته، وعبادة المؤمنين وسائر خلقه. فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى المحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ألقاها في الرذائل. وحل زمامها وأرخاه. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأقل ما في تجنب القبائح: صون النفس.

وأما «توفير الحسنات» فمن وجهين:

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعدًا لتحصيلها.

والثاني: توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها، بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أوتنقصها. فلابد أن تضعفها قطعًا، فتجنبها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فإذا استدان عليه، فإما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

وأما «صيانة الإيمان» فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وقد حكاه الشافعي وغيره عن الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فإن العبد كما جاء في الحديث : «إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء. فإن تاب واستغفر صقل قلبه. وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى، حتى تعلو قلبه». وذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] فالقبائح تسود القلب. وتطفئ نوره. والإيمان هو نور القلب. والقبائح تذهب به أو تقلله قطعًا. فالحسنات تزيد نور القلب. والسيئات تطفئ نور القلب. وقد أخبر الله ﷻ أن كسب القلوب سبب للران الذي يعلوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا. فقال: ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ ﴾ [النساء:٨٨] وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه على عباده سبب لتقسية القلب. فقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم

مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ ﴾ [المائدة:١٣] فجعل ذنب النقض موجبًا لهذه الآثار: من تقسية القلب ، اللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.

وهذه الأمور الثلاثة وهي صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان هي أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو يصونها عما يشينها عنده. ويحجبها عنه. ويصون حسناته عما يسقطها ويضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. ويطلب بها رضاه. ويصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به.

رجال المراتب العالية

ويرتقي الورع بصاحبه حتى يؤدي به إلى حفظ الحدود عندما لا بأس به، إبقاء على الصيانة والتقوى، وتخلصًا عن اقتحام الحدود.

فمن صعد إلى هذه الدرجة من الورع: يترك كثيرًا مما لا بأس به من المباح، إبقاء على صيانته، وخوفًا عليها أن يتكدر صفوها. ويطفأ نورها. فإن كثيرًا من المباح يكدر صفو الصيانة، ويذهب بهجتها، ويطفئ نورها. ويخلق حسنها وبهجتها.

وقال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطًا في النجاة. أو نحو هذا من الكلام.

فالعارف يترك كثيرًا من المباح إبقاء على صيانته. ولاسيما إذا كان ذلك المباح برزخًا بين الحلال والحرام.

والفرق بين صاحب الورع العام وصاحب هذا: أن ذلك يسعي في تحصيل الصيانة. وهذا يسعي في حفظ صفوها أن يتكدر، ونورها أن يطفأ ويذهب.

وأما التخلص عن اقتحام الحدود، فالحدود: هي النهايات. وهي مقاطع الحلال والحرام. فحيث ينقطع وينتهي، فذلك حده. فمن اقتحمه وقع في المعصية. وقد نهى الله تعالى عن تعدي حدوده وقربانه. فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة:١٨٧] . وقال : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٢٩] فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال. حيث نهى عن القربان فالحدود هناك: أوائل الحرام.

يقول سبحانه: « لا تتعدوا ما أبحت لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم».

فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدي هذه. وهو اقتحام الحدود.

الثمرات الطيبة

واعلم أن الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل. وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد. والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء. والقناعة تثمر الرضاء. والذكر يثمر حياة القلب. والإيمان بالقدر يثمر التوكل. ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة. الورع يثمر الزهد أيضًا. والتوبة تثمر المحبة أيضًا، ودوام الذكر يثمرها. والرضا يثمر الشكر. والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات. والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه. والعفة تثمر الخلق. والفكر يثمر العزيمة. والمراقبة تثمر عمارة الوقت، وحفظ الأيام والحياء، والخشية والإنابة، وإماتة النفس وإذلالها وكسرها: يوجب حياة القلب وعزه وجبره. ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله ﷻ. واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات. ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة تثمر اليقين. وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله: أمران. أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة. ثم تقبل به كل على معاني القرآن واستجلائها وتدبرها. وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله. وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق ألبتة. وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم. ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها. والله المستعان.

* * *

(١٨) منزلة التبتل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «التبتل»

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزَّمل].

و«التبتل»: الانقطاع. وهو تَفَعَّل من البتل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلاً. وقطعت منهن. ومصدر «بتل» «تبتلاً» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل مصدر تفعل لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدرج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة. فأتى الفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

فالتبتل: الانقطاع إلى الله بالكلية. وقوله ﷻ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤] أي التجريد المحض، أي التبتل عن ملاحظة الأعواض، بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر.

والاستشهاد بقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ في هذا الموضع، فيه إرادة هذا المعنى، وإنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، وإن لم يوجب لداعية بها ثوابًا. فإنه يستحقها لذاته. فهو أهل أن يعبد وحده. ويدعي وحده، ويقصد ويشكر ويحمد، ويحب ويرجي ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويلجأ إليه، ويصمد إليه. فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا معرفة وذوقا وحالاً صح له مقام التبتل، والتجريد المحض. وقد فسر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق ومرادهم: هذا المعنى.

فقال علي رضي الله عنه دعوة الحق: «التوحيد». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «شهادة أن لا إله إلا الله» وقيل: الدعاء بالإخلاص. والدعاء الخالص لا يكون إلا لله. ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

اتصال.. وانفصال

و«التبتل» يجمع أمرين: اتصالاً وانفصالاً. لا يصح إلا بهما.

فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه. وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكرًا فيه.

والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال. وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حبا وخوفًا ورجاء، وإنابة وتوكلاً.

والذي يحسم مادة رجاء المخلوقين من قلبك: هو الرضا بحكم الله ﷻ وقسمه لك، فمتى رضي بحكم الله وقسمه، لم يبق لرجاء الخلق في قلبه موضع.

والذي يحسم مادة الخوف: هو التسليم لله. فإن من سلم لله واستسلم به، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضًا. فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها. وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها. وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها. فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

وفي التسليم أيضًا فائدة لطيفة. وهي أنه إذا سلمها الله فقد أودعها عنده. وأحرزها في حرزه. وجعلها تحت كنفه. حيث لا تنالها يدُ عدو عادٍ ولا بغي باغٍ عاتٍ.

فهذا هو الانقطاع عن الخلق، ولكن التبتل لا يكتمل حتى يكون انقطاع المتبتل عن النفس، بمجانبة الهوى، وتنسم روح الأنس، فإن في مجانبة الهوى ومخالفته ونهي نفسه عنه: تنسم روح الأنس بالله، والرَّوح للرُّوح كالروح للبدن، فهو روحها وراحتها، وإنما حصل له هذا الروَّح لما أعرض عن هواه، فحينئذ يتنسم روح الأنس بالله، ويجد رائحته إذ النفس لابد لها من التعلق، فلما انقطع تعلقها من هواها، وجدت روح الأنس بالله، وهبت عليها نسماته، فريحتها وأحيتها، وجعلت صاحبها حبسًا على مراد الله الديني الأمري النبوي منه، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي، فينغمس فيهم، يمزقون أديمه، ويرمونه بالعظائم، ويخيفونه بأنواع المخاوف، ويتطلبون دمه بجهدهم، لا تأخذه في جهادهم في الله لومة لائم. يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه، قد زهد في مدحهم وثنائهم، يصيح فيهم بالنصائح جهارًا. ويعلن لهم بها، ويسر لهم إسرارًا.

* * *

(١٩) منزلة الرجاء

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الرجاء»

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧] فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب والخوف، والرجاء. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ [العنكبوت:٥] وقال : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة] .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث :« لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» وفي الصحيح عنه ﷺ : «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء ».

«الرجاء» حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب. وهو الله والدار الآخرة. ويطيب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل. ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل.

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله. فهو راج لثوابه. ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها. فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متمادٍ في التفريط والخطايا. يرجو رحمة الله بلا عمل. فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره. ونظر يفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل في حد «الرجاء» : هو النظر إلى سعة رحمة الله.

وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجيا لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة.

واختلفوا؛ أي الرجاءين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه. أو رجاء المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟

فطائفة رجحت رجاء المحسن لقوة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه مجرد من علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.

قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحرزها؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟

وقال أيضًا: إلهي، أحلي العطايا في قلبي رجاؤك. وأعذب الكلام على لساني ثناؤك. وأحب الساعات إلى ساعة يكون فيها لقاؤك.

مبنى المحبة على الرجاء

والرجاء من أجلّ المنازل، وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله. وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي » وروي الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه. إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم. وإن اقترب إليّ شبرًا ، اقتربت إليه ذراعًا. وإن اقترب إلي ذراعًا. اقتربت إليه باعًا. وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» رواه مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه. فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء].

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي، يتقربون إلي بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟ فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب، والخوف والرجاء.

وهو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه «المحسن البر» فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجب للعبد الرجاء، من حيث يدري ومن حيث لا يدري. فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه. ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح. وهدمت صوامع، وبيع وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا. بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة. ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات ولي من أبيات:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت ... نفس المحب تحسرًا وتمزقًا

وكذلك لولا برده بحرارة ال ... أكباد ذابت بالحجاب تحرقًا

أيكون قط حليف حب لا يرى ... برجائه بحبيبه متعلقًا؟!

أم كلما قويت محبته له ... قوي الرجاء فزاد فيه تشوقًا

لولا الرجا يحدو المطي لما سرت ... بحمولها لديارهم ترجو اللقا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء. فكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجي ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه. وكذلك خوفه. فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه. فخوفه أشد خوف. ورجاؤه ذاتي للمحبة. فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه. فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له، لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة. فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء. وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه. لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة. بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير، وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بينًا حاليهما.

وبالجملة: فالرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد. فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها. ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها.

ويكون الرجي دائمًا راغبًا راهبًا، مؤملاً لفضل ربه، حسن الظن به، متعلق الأمل ببره وجوده. عابدًا له بأسمائه «المحسن، البر، المعطي، الغفور، الجواد، الوهاب، الرزاق» والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه. ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به.

رب غفور يحب أن نرجوه

وليس في «الرجاء» ولا في «الدعاء» معارضة لتصرف الله في ملكه، كما يظن بعض الجهلة، فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضًا بما هو أولى وأحب الأمرين إليه، فإن الفضل أحب إليه من العدل، والعفو أحب إليه من الانتقام، والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء. والترك أحب إليه من الاستيفاء. ورحمته غلبت غضبه.

فالراجي علق رجاءه بتصرف المحبوب له المرضي له. فلم يوجب رجاؤه خروجه عن تصرفه في ملكه. بل اقتضى عبوديته، وحصول أحب التصرفين إليه. وهو سبحانه وتعالى لا ينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده، حتى يكون رجاؤه مبطلاً لذلك، وإنما العبد استدعي العقوبة، وأخذ الحق منه لشركه بالله وكفره به. واجتهاده في غضبه. ولغضبه موجبات وآثار ومقتضيات والعبد مؤثر لها ساع في تحصيلها، عامل عليها بإيثاره إياها وسعيه في أسبابها. فهو المهلك لنفسه، وربه يحذره ويبصره ويناديه: هلم إليّ أرحمك وأصنك، وأنجك مما تحذر، وأؤمنك من كل ما تخاف. وهو يأبي إلا شرودًا عليه ونفارًا عنه، ومصالحة لعدوه، ومظاهرة له على ربه، ومتطلبًا لمرضاة خلقه بمساخطه رضا المخلوق آثر عنده من رضا خالقه. وحقه آكد عنده من حقه. وخوفه ورجاؤه وحبه في قلبه أعظم من خوفه من الله ورجائه وحبه. فلم يدع لفضل ربه وكرامته وثوابه إليه طريقًا، بل سد دونه مجاريها بجهده. وأعطى بيده لعدوه، فصالحه وسمع له وأطاع. وانقاد إلى مرضاته. فجاء من الظلم بأقبحه وأشده.

فهو الذي عارض مراده به منه بمراده وهواه وشهوته. واعترض لمحابه ومراضيه بالدفع. ولم يأذن لها في الدخول عليه. فأضاع حظه وبخس حقه، وظلم نفسه، وعادى حبيبه، ووالى عدوه. وأسخط مَنْ حياته في رضاه. وأرضى مَنْ حياته في سخطه. وجاد بنفسه لعدوه. وبخل بها عن حبيبه ووليه.

والرب تبارك وتعالى ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته. ولا يتشفي بعقابه. ولا يزيد ذلك في ملكه مثقال ذرة. ولا ينقص مغفرته. ولو غفر لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال ذرة من ملكه. كيف، والرحمة أوسع من العقوبة وأسبق من الغضب وأغلب له؟ وهو قد كتب على نفسه الرحمة. فرجاء العبد لا ينقص شيئًا من حكمته. ولا ينقص ذرة من ملكه. ولا يخرجه عن كمال تصرفه. ولا يوجب خلاف كماله. ولا تعطيل أوصافه وأسمائه. ولولا أن العبد هو الذي سد على نفسه طرق الخيرات، وأغلق دونها أبواب الرحمة بسوء اختياره لنفسه، لكان ربه له فوق رجائه وفوق أمله.

وأما استسلام العبد لربه، واستسلامه بانطراحه بين يديه، ورضاه بمواقع حكمه فيه: فيما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه، ويقيله عثرته ويعفو عنه، ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ويتجاوز عن سيئاته. فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد. والانطراح بالباب. ولا يتصور هذا بدون الرجاء ألبتة. فالرجاء حياة الطلب. والإرادة روحها.

شبهات اليائسين

وظنت طائفة أن في الرجاء وقوفًا مع الحظ، والسالكون قد خرجوا عن نفوسهم، فكيف حظوظهم؟

فيا لله العجب!... أي غلط في رجاء العبد ربه ، وطمعه في بره وإحسانه وفضله، وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه؟ فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل ما يرجوه. فإذا كان العبد دائمًا مستشرفًا بقلبه، سائلاً بلسانه، طالبا لفضل ربه. فأي خطأ في ذلك؟ أو لم يبلغهم دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» وقوله لعمه العباس رضي الله عنه : «يا عباس، يا عمَ رسول الله. سل الله العافية» وقوله للصدِّيق الأكبر رضي الله عنه وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته : «قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا. ولا يغفر الذنوب إلا أنت. فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم». وقوله لصدِّيقة النساء وقد سألته دعاء تدعو به، إن وافقت ليلة القدر فقال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»وقوله في دعائه الذي كان لا يدعه، وإن دعا بدعاء أردفه إياه: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وقنا عذاب النار».

وقد أثنى الله تعالى خاصته. وهم أولو الألباب، بأنهم سألوه: أن يقيهم عذاب النار، فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران] وقال ﷺ لأم حبيبة: «لو سألت الله أن يجيرك من عذاب النار لكان خيرًا لك» وكان يستعيذ كثيرًا من عذاب النار،وعذاب القبر وأمر المسلمين أن يستعيذوا في تشهدهم من عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيخ الدجال. حتى قيل: إن هذا الدعاء واجب في الصلاة، لا تصح إلا به. قاله ابن حزم وغيره. وهذا أعظم من أن نستقصيه.

وفي المسند عنه ﷺ قال: «ما سئل الله شيئا أحبَ إليه من سؤال العفو والعافية» وقال لبعض أصحابه: «ما تقول إذا صليت؟» فقال: أسأل الله الجنة. وأعوذ به من النار، أما إني لا أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ. فقال رسول الله ﷺ : «إنَّا حولها ندندن».

الرجاء الولود

وكما أن الرجاء يبرد حرارة الخوف، فإن له فوائد كثيرة أُخر مشاهدة.

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه. ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه. ويسألوه من فضله. لأنه الملك الحق الجَواد أجود من سئل، وأوسع من أعطى. وأحب ما إلى الجواد، أن يرجي، ويؤمل ويسأل. وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه» والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

فهذه فائدة من فوائد الرجاء. وهي التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله. ويطيب له المسير. ويحثه عليه. ويبعثه على ملازمته. فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لا يحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دهليزها. فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجو ازداد حبًا لله تعالى، وشكرًا له، ورضا به وعنه.

ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية. فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها داع بها. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، وتعطيل للدعاء بها.

ومنها: أن المحبة لا تنفك عن الرجاء كما تقدم فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء. والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف. وكل خائف راج. ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح] قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه، كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلي عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذه أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذا الدار. فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قدّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة كما تقدم بيانه فإذا فني عن ذلك وغاب عنه، فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات.

ومنها: أن المحب الصادق في رجائه لابد أن يقارنه أحيانًا فرح بمحبوبه. ويشتد فرحه به. ويرى مواقع لطفه به، وبره به، وإحسانه إليه، وحسن دفاعه عنه، والتلطف في إيصاله المنافع والمسار والمبارَّ إليه بكل طريق، ودفع المضار والمكاره عنه بكل طريق. وكلما فتش عن ذلك اطلع منه على أمور عجيبة. لا يقف وهمه ومقتبسه لها على غاية. بل ما خفي عنه منها أعظم، فيداخله من شهود هذه الحالة نوع انبساط.

ولا ينكر فرح القلب بالرب تعالى وسروره به، وابتهاجه وقرة عينه، ونعيمه بحبه، والشوق إلى لقائه إلا كثيف الحجاب، حجري الطباع.

ومنها: سرعة السير، وهذا كمن هو سائر إلى مدينة، فإذا شرفها ورآها، رأى الطريق حينئذ واضحة إليها، واستنار له ضياؤها واتصالها بالمدينة، وكان قبل مشاهدة المدينة على علم أو ظن يجوز معه أن يضيع عن باب المدينة. وأما الآن: فقد أمن من أن يضيع عن الباب. وكذلك الراجي: إذا انقطعت عنه الموانع، واستبان له الطريق. طمع بالوصول، وصار حاله حال معاين باب المدينة من حين يقع بصره عليه. وكحال معاين الشفق الأحمر قرب الشمس، حيث تيقن أن الشمس بعده.

فتستجمع له قوى الظاهر والباطن على قصد الوصول والعزم عليه، لمشاهدته ما هو سائر إليه. وهكذا عادة المسافر: أنه إذا عاين القرية التي يريد دخولها أسرع السير، وبذل الجهد. وكذلك المسابق إذا عاين الغاية، استفرغ قوى جريه وسوقه. وكذلك الصادق في آخر عمره، أقوى عزما وقصدًا من أوله، لقربه من الغاية التي يجري إليها. وكذلك الراجي يتخلص من

تخذيل اليأس، فيعاين نعيم الآخرة فيسرع السير إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعها من أحسن تأمله وتفكره في استخراجها. وبالله التوفيق.

قبل الاقتحام.. شوق

واعلم أن أول الرجاء: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد. ويولد التلذذ بالخدمة. ويوقظ الطباع للسماحة بترك المناهي، فينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه. فإنه من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه.

وأما توليده للتلذذ بالخدمة: فإنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها التذ بها. وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره، ويقاسي مشاق السفر لأجلها. فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والتذ بها. وكذلك المحب الصادق الساعي في مراضي محبوبه الشاقة عليه، كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله سعيه، وقربه منه، تلذذ بتلك المساعي. وكلما قوى علم العبد بإفضاء ذلك السبب إلى المسبب المطلوب ، وقوي علمه بقدر المسبب وقرب السبب منه، ازداد التذاذًا بتعاطيه.

وأما إيقاظ الطباع للسماحة بترك المناهي: فإن الطباع لها معلوم ورسوم تتقاضاها من العبد. ولا تسمح له بتركها إلا بعوض هو أحب إليها من معلومها ورسومها، وأجلَّ عندها منه وأنفع لها. فإذا قوى تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف، سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك المعلوم. فإن النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب هو أحب إليها منه. أو حذرًا من مخوف وهو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب. وفي الحقيقة ففرارها من ذلك المخوف إيثار لضده المحبوب لها. فما تركت محبوبًا إلا لما هو أحب إليها منه. فإن من قُدم إليه طعام لذيذ يضره ويوجب له السقم. فإنما يتركه محبة للعافية التي هي أحب إليه من ذلك الطعام. وأعلى من هذا الرجاء: رجاء أرباب القلوب. وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق المبغض المنغص للعيش، المزهد في الخلق.

هذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين. ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه. وضرب لهم أجلاً يسكن نفوسهم ويطمئنها.

و«الاشتياق» هو سفر القلب في طلب محبوبه.

ولا ريب أن عيش المشتاق منغص حتى يلقي محبوبه. فهناك تقر عينه، ويزول عن عيشه تنغيصه.وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهيد. لأن صاحبه طالب للأنس بالله والقرب منه. فهو أزهد شيء في الخلق، إلا من أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه. فهو أحب خلق الله إليه. ولا يأنس من الخلق بغيره. ولا يسكن إلى سواه. فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك. فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحبا. ودع الناس كلهم جانبًا.

لا تخــف وحــشة الطريــق إذا جــئ ... ت . وكــن في خفــارة الحــب ســائر

واصــبر الــنفس ســاعة عــن ســواهم ... فــإذا لم تجــب لــصبر فــصابر

وافطــم الــنفس عــن ســواه. فكــل ال ... عــيش بعــد الفطــام نحــوك صــائر

يــا أخــا اللــب، إنــما الــسير عــزم ... ثــم صــبر مؤيــد بالبــصائر

يــا لهــا مــن ثلاثــة مــن ينلهــا ... يــرقّ يــوم المزيــد فــوق المنــابر

* * *

(٢٠) منزلة الرغبة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الرغبة»

قال الله ﷻ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠] والفرق بين و «الرجاء» أن الرجاء طمع. والرغبة طلب. فهي ثمرة الرجاء. فإنه إذا رجا الشيء طلبه. والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف. فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه. ومن خاف شيئًا هرب منه.

والمقصود: أن الراجي طالب، والخائف هارب، وأن الرغبة: هي الرجاء بالحقيقة، لأن الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق، أي: طمع في مغيب عن الراجي مشكوك في حصوله، وإن كان متحققًا في نفسه، كرجاء العبد دخوله الجنة، فإن الجنة متحققة لا شك فيها، وإنما الشك في دخوله إليها، بخلاف الرغبة، فإنها طلب، فإذا قوى الطمع صار طلبا.

وأوائلها: رغبة تتولد من العلم، فتبعث على الاجتهاد المنوط بالشهود، وتصون السالك عن وهن الفترة والكسل.

فهذا الإيمان متصل بمنزلة «الإحسان»، منه يشرف عليه ويصل إليه. ولهذا كان مقترنًا بالشهود، وذلك الشهود هو مشهد مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، ولا مشهد للعبد في الدنيا أعلى من هذا.

ولو كان فوق مقام «الإحسان» مقام آخر لذكره النبي ﷺ لجبريل. ولسأله جبريل عنه. فإنه جمع مقامات الدين كلها في الإسلام والإيمان والإحسان.

وتحقيق مقام الإحسان: أن يفني بحبه وخوفه ورجائه، والتوكل عليه وعبادته، والتبتل إليه عن غيره. وليس فوق ذلك مقام يطلب إلا ما هو من عوارض الطريق.

وتتصاعد الرغبة حتى تكون رغبة لا تبقي من المجهود مبذولاً، ولا تدع للهمة ذبولاً، ولا تترك غير القصد مأمولاً.

فرغبته لا تدع من مجهوده مقدوراً له إلا بذله، ولا تدع لهمته وعزيمته فتورًا ولا خمودًا، وعزميته في مزيد، ولا تترك في قلبه نصيبًا لغير مقصوده.

فإذا اكتملت رغبته: اكتمل معها خلق «الرعاية» الإيمانية، وهي: مراعاة العلم وحفظه بالعمل، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص، وحفظه من المفسدات، وصيانته.

ومراتب العلم والعمل ثلاثة: «رواية» وهي مجرد النقل وحمل المروي. و«دراية» وهي فهمه وتعقل معناه. و«رعاية» وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه.

فالنقلة همتهم الرواية. والعلماء همتهم الدراية. والعارفون همتهم الرعاية. وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته. فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧] ،أي لم يفعلوها إلا لطلب رضوان الله. ودل على هذا قوله ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنه هو طلب رضوان الله. ثم ذمهم بترك رعايتها إذ من التزم لله شيئًا لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها،وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر. كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقد ابتدع النصارى الرهبانية، زاعمين أنها من سنن عيسى بن مريم وهداه عليه السلام ، وكذَّبهم الله. وبين أنهم هم الذين ابتدعوها من عند أنفسهم. وعيسى عليه السلام بريء منها. فإنها على خلاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها والله لا يشرع ما يضاد الفطرة، ولا يحبه. ولذلك، فإنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يرعوها حق رعايتها. لأن سنن الله لا يقدر أحد على تبديلها.

والقصد: أن الله سبحانه وتعالى ذمّ من لم يرع قُربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها. فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده. وأذن بها وحث عليها؟

ومن أهم أركان الرعاية: رعاية الأعمال وفق النمط الأوسط، مع استصغارها والقيام بها من غير نظر إليها.

فأول رعاية الأعمال: العدول بها عن طرفي التفريط بالنقص، والإفراط بالزيادة، على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها. ثم استصغارها في عينه، واستقلالها، وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمر آخر. وأنه لم يوفه حقه، وأنه لا يرضى لربه بعمله، ولا بشيء منه.

وقد قيل: علامة رضا الله عنك: إعراضك عن نفسك. وعلامة قبول عملك احتقاره واستقلاله، وصغره في قلبك. حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته، وقد كان رسول الله ﷺ . إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا. وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج. ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل. وشرع النبي ﷺ عقيب الطهور التوبة والاستغفار.

فمن شهد واجب ربه ومقدار عمله، وعيب نفسه، لم يجد بدًّا من استغفار ربه منه، واحتقاره إياه واستصغاره.

ثم القيام بها بتوفيتها حقها، وجعلها قائمة كالشهادة القائمة، والصلاة القائمة، والشجرة

القائمة على ساقها التي ليست بساقطة، من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها، مخافة العجب والمنة بها، فيسقط من عين الله، ويحبط علمه، بل اللائق أن يتهم يقينه، وأنه لم يحصل له اليقين على الوجه الذي ينبغي، بل ما حصل له منه هو كالعارية لا الملك المستقر، ويزداد اتهاما لنفسه وتطهيرًا لها من رعونة الإدعاء، وتخليصًا للقلب من نصيب الشيطان، بأن يقف مع كل خطوة بمقدار تصحيحها، نية وقصدًا وإخلاصًا ومتابعة، فلا يخطو هجمًا وهمجا، بل يقف قبل الخطو حتى يصحح الخطوة، في سمت من الاستعداد ولطف الإدراك، ثم ينقل قدم عزمه، فإذا صحت له ونقل قدمه، انفصل عن نفسه. ولما كانت النفس محل الأكدار، كان انفصاله عنها محض الصفاء ونهاية الرعاية.

* * *

(٢١) منزلة المراقبة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «المراقبة»

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨] وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل عليه السلام: «أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ومن هذا الحديث يتضح أن «المراقبة» هي دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين، هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نَفَس وكل طرفة عين.

وقد قيل: من راقب الله في خواطره، عصمة في حركاته جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله ﷻ.

وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر، سبب لحفظها في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.

و«المراقبة» هي التعبد بأسمائه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها، حصلت له المراقبة.

ومن ألطف ما وصفت به المراقبة إنها:

مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الدوام، بين تعظيم مذهل ومداناة حاملة، وسرور باعث.

فأما التعظيم المذهل فهو: امتلاء القلب من عظمة الله ﷻ، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلا ينسي هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله. بل يستصحبه دائـمًا. فإن الحضور مع الله يوجب أنسًا ومحبة، إن لم يقارنهما تعظيم، أورثاه خروجًا عن حدود العبودية ورعونة. فكل حب لا يقارنه تعظيم المحبوب فهو سبب للبعد عنه، والسقوط من عينه.

وبذلك تضمّن الوصف خمسة أمور: سيرًا إلى الله، واستدامة هذا السير، وحضور القلب معه، وتعظيمه، والذهول بعظمته من غيره.

أما المداناة الحاملة فهي: الدنو الحامل له على هذه الأمور الخمسة، وهذا الدنو يحمله على التعظيم الذي يذهله عن نفسه، وعن غيره، فإنه كلما ازداد قربا من الحق ازداد له تعظيمًا، وذهولاً عن سواه، وبُعْدًا عن الخلق.

وأما السرور الباعث فهو الفرحة والتعظيم، واللذة التي يجدها في تلك المداناة فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به، لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة. وليس له نظير يقاس به. وهو حال من أحوال أهل الجنة. حتى قال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا. إنهم لفي عيش طيب.

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله ﷻ، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته. ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئًا منه، فليتهم إيمانه وأعماله. فإن للإيمان حلاوة،ومن لم يذقها فليرجع، وليقتبس نورًا يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته. فذكر الذوق والوجد، وتعلقه بالإيمان. فقال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولاً» وقال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول:

إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا، فاتهمه. فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه. وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.

ذلك أن «الثواب» هو الراجع للعامل على عمله. فللأعمال عاقبة تعود على صاحبها وتتصل بحياته وجميع شئونه. فالصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر. وتهذب الأخلاق وتربي أعلى تربية يحبها الرب سبحانه.وهكذا الصيام يقوي العزيمة، ويمكن للنفس اللوامة، وللبصيرة أن تشرق فيرى الصراط السوي فيكون من المتقين. وهكذا كل الأعمال الصالحة فإن لها ثوابا يصلح

الشئون كلها هنا، فتسعد به الحياة في الأسرة والمجتمع، كما أن أعمال السوء لها كذلك ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦] و ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم:١٠].

والقصد: أن السرور بالله وقربه، وقرة العين به، تبعث على الازدياد من طاعته، وتحث على الجد في السير إليه، والانتقال إلى مراقبة أخرى تحملك على الإعراض عن الاعتراض، بصيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر: بحفظ الحركات الظاهرة. وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التي منها رفض معارضة أمره وخبره.

فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته. ومن كل شبهة تعارض خبره. ومن كل محبة تزاحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين. وكل تجريد سوى هذا فناقص. وهذا تجريد أرباب العزائم.

و«الاعتراض» ثلاثة أنواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها.

النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشُّبه الباطلة، التي نفوا لأجلها ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ . وأثبتوا ما نفاه، ووالوا بها أعداءه. وعادوا بها أولياءه. وحرفوا بها الكلم عن مواضعه. ونسوا بها نصيبًا كثيرًا مما ذكروا به وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبرًا، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي. فإذا سلم القلب له، رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة. فاجتمع له السمع والعقل والفطرة. وهذا أكمل الإيمان. ليس كمن الحرب قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره.وأهل هذا الاعتراض أنواع:

منهم: المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها، والتحذير منه، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض. وحذروا منهم، ونفروا عنهم.

ومنهم : المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق، والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان.

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها دينًا، وقدموها على شرع الله ودينه. واغتالوا بها القلوب.

واقتطعوها عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء: خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد. لولا أن الله ضمن أنه لايزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالمه، ويحميه من كيد من يكيد.

ومنهم: أهل الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله. وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل، قدمنا العقل.

وقال الآخرون : إذا تعارض الأثر والقياس، قدمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع، قدمنا الذوق والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة. فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتًا يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل، ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع، ولنا السياسة. فيالها من بلية، عَمَّت فأعْمت، ورزية رمت فأصمت، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت. فَصُمت منها الآذان، وعميت منها العيون. عطلت لها والله معالم الأحكام. كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام. واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم. وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفًا على كل إفساد وتبديل.

النوع الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره. وهذا اعتراض الجهال. وهو ما بين جلي وخفي، وهو أنواع لا تحصى.

وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم. ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله، لرأى ذلك في قلبه عيانًا. فكل نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله، إلا نفسًا قد اطمأنت إليه وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها. فتلك حظها التسليم والانقياد والرضا كل الرضاء.

* * *

(٢٢) منزلة تعظيم الحرمات

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «تعظيم حرمات الله ﷻ»

قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠] قال جماعة من المفسرين: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هاهنا مغاضبه، وما نهي عنه، و«تعظيمها» ترك ملابستها. قال الليث: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها. وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك، ومشاعر الحج زمانًا ومكانًا.

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله. وهي جمع «حرمة» وهي ما يجب احترامه، وحفظه، من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن. فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة، والخروج من حرج المخالفة، وجسارة الإقدام عليها، بتعظيم الأمر والنهي، خوفًا من العقوبة، وطلبًا للمثوبة.

ونحتج في ذلك بأحوال الأنبياء والرسل والصديقين، ودعائهم وسؤالهم، والثناء عليهم بخوفهم من النار، ورجائهم للجنة. كما قال تعالى في حق خواص عباده الذين عبدهم المشركون: إنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه كما تقدم وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [الأنبياء:٨٩] إلى أن قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء] أي رغباً فيما عندنا، ورهبًا من عذابنا، والضمير في قوله «إنهم» عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

وكذلك ما في أول قصة إبراهيم : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ الآيات [الأنبياء:٥١-٩٠]. فإنها في ذكر بلاء الأنبياء وما أحاط بهم من شدائد نجاهم الله بها بدعائهم ولجوئهم إليه وحده رغبًا ورهبًا.

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار عندهم أجمعين.

وذكر سبحانه عباده، الذين هم خواص خلقه. وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم.وجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان] وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار. فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ

ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران] فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار. وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنته، ويتعوذون به من ناره. فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ الآيات إلى آخرها [آل عمران:١٩٠-١٩٥] ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله هو الجنة التي سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء] فسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار. وهو الخزي يوم البعث.

وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أنها كانت وعدًا عليه مسئولاً: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان] أي يسأله إياها عباده وأولياؤه.

وأمر النبي ﷺ أمته أن يسألوا له في وقت الإجابة عقيب الأذان أعلى منزلة في الجنة. وأخبر أن من سألها له «حلت عليه شفاعته».

وقال له سليم الأنصاري: «أما إني أسأل الله الجنة، وأستعيذ به من النار، لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال: «أنا ومعاذ حولها ندندن».

وفي الصحيح في حديث الملائكة السيارة الفُضّل عن كتاب الناس «إن الله تعالى يسألهم عن عباد وهو أعلم تبارك وتعالى فيقولون: أتيناك من عند عباد لك يهللونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك. فيقول ﷻ: وهل رأوني؟ فيقولون: لا. يا رب ما رأوك. فيقول ﷻ: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك لكانوا لك أشد تمجيدًا. قالوا: يا رب. ويسألونك جنتك. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا. وعزتك ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا لها أشد طلبًا. قالوا: ويستعيذون بك من النار، فيقول ﷻ: وهل رأوها؟ فيقولون: لا وعزتكم ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد منها هربًا. فيقول: إني أشهدكم أني قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأعذتهم مما استعاذوا».

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار، والخوف منها.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه: «استعيذوا بالله من النار» وقال لمن سأله مرافقته في الجنة «أعني على نفسك بكثرة السجود».

والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود الشارع من أمته ليكونا دائمًا على ذكر منهم فلا ينسونهما. ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة. والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار هو محض الإيمان.

وقد حض النبي ﷺ عليها أصحابه وأمته. فوصفها وجلاَّها لهم ليخطبوها، وقال: «ألا مشمر للجنة؟ فإنها ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة، وقصر مشيد، ونهر مطرد الحديث» فقال الصحابة: يا رسول الله، نحن المشمرون لها. فقال: «قولوا: إن شاء الله».

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله: «من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة» تحريضًا على عمله لها، وأن تكون هي الباعثة على العمل، لطال ذلك جدًّا. وذلك في جميع الأعمال.

ورسول الله ﷺ يحرض، ويقول: «من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية» و «من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة» و «من كسا مسلمًا على عري كساه الله من حلل الجنة» و «عائد المريض في خرفة الجنة» والحديث مملوء من ذلك.

وأيضا فالله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته. ويستعيذوا به من ناره. فإنه يحب أن يُسئل. ومن لم يسأله يغضب عليه. وأعظم ما سئل «الجنة» وأعظم ما استعيذ به «من النار».

فالعمل لطلب الجنة محبوب للرب، مرضي له، وطلبها عبودية للرب. والقيام بعبوديته كلها أولى من تعطيل بعضها.

وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهرب من هذه: فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهي باعثه، وكلما كان أشد طلبا للجنة، وعملاً لها، كان الباعث له أقوى، والهمة أشد، والسعي أتم. وهذا أمر معلوم بالذوق ولو لم يكن هذا مطلوبًا للشارع لما وصف الجنة للعباد، وزينها لهم، وعرضها عليهم. وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه أخبرهم به مجملاً. كل هذا تشويقًا لهم إليها. وحثًا لهم على السعي لها سعيها.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥] وهذا حث على إجابة هذه الدعوة، والمبادرة إليها، والمسارعة في الإجابة.

ثم لا يخفى أن الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة. فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه. فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدًا. فأيسر يسير من رضوانه، أكبر من الجنان وما فيها من ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٌ

﴿مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] وأتى به مُنكَّرًا في سياق الإثبات. أي: أي شيء كان من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة.

قليـــل منـــك يقنعنـــي. ولكـــن قليلـــك لا يقـــال لـــه قليـــل

وفي الحديث الصحيح حديث الرؤية «فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه».

ولا ريب أن الأمر هكذا. وهو أجل مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال. ولاسيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة. فإن المرء مع من أحب. ولا تخصيص في هذا الحكم. بل هو ثابت شاهدًا وغائبًا.

فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها، وقرة العين بها؟

وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب، الذي لا شيء أجل منه، ولا أكمل ولا أجمل: قرة عين ألبتة؟

وهذا والله هو العلم الذي شمَّر إليه المحبون، واللواء الذي أمّه العارفون، وهو روح مسمى «الجنة» وحياتها، وبه طابت الجنة. وعليه قامت.

وكذلك «النار» أعاذنا الله منها. فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته، وغضبه وسخطه، البعد عنه: أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم، بل التهاب هذه النار في قلوبهم هو الذي أوجب التهابا في أبدانهم. ومنها سرت إليها.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين، والشهداء والصالحين: هو الجنة. ومهربهم: من النار.

وخير العباد من يريد الله ويريد ثوابه، وهؤلاء خواص خلقه. قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٢٩﴾ [الأحزاب] فهذا خطابه لخير نساء العالمين، أزواج نبيه ﷺ. وقال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ۝١٩﴾ [الإسراء] فأخبر أن السعي المشكور سعي من أراد الآخرة. وأصرح منها: قوله لخواص أوليائه وهم أصحاب نبيه ﷺ في يوم أحد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢] فقسمهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

وقد غلط من قال: فأين من يريد الله؟ فإن إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وثوابه فإرادة الثواب لا تنافي إرادة الله.

على معالم السنة .. بلا تأويل

وذروة تعظيمنا لحرمات الله تعالى: إجراء الخبر على ظاهره. وهو أن تبقى أعلام التوحيد الخبرية على ظواهرها، لا نتكلف لها تأويلاً، ولا نتجاوز ظواهرها تمثيلاً.

فحفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات: بإجراء أخبارها على ظواهرها، كما قال مالك رحمه الله وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كيف استوى؟ فأطرق مالك. حتى علاه الرحضاء. ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ففرق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة. وبين «الكيف» الذي لا يعقله البشر. وهذا الجواب من مالك رضي الله عنه شاف، عام في جميع مسائل الصفات.

فمن سأل عن قوله : ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه] كيف يسمع ويرى؟ أجيب بهذا الجواب بعينه. فقيل له: السمع والبصر معلوم. والكيف غير معقول.

وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضا، والرحمة، والضحك، وغير ذلك. فمعانيها كلها مفهومه. وأما كيفيتها فغير معقولة، إذ تعقل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها. فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه. وبما وصفه به رسول ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. بل تثبت له الأسماء والصفات. وتنفي عنه مشابهة المخلوقات. فيكون إثباتك منزها عن التشبيه. ونفيك منزها عن التعطيل. فمن نفى حقيقة «الاستواء» فهو معطل. ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل. ومن قال: استواء ليس كمثله شيء. فهو الموحد المنزه.

وهكذا الكلام في السمع، والبصر، والحياة، والإرادة، والقدرة، واليد ، والوجه، والرضا، والغضب، والنزول ، والضحك، وسائر ما وصف الله به نفسه.

والمراد بالتأويل المنهي عنه ها هنا: التأويل الاصطلاحي، وهو صرف اللفظ عن ظاهره وعن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح.

وقد حكى غير واحد من العلماء إجماع السلف على تركه. وممن حكاه البغوي، وأبو المعالي الجويني في رسالته النظامية، بخلاف ما سلكه في «شامله» و «إرشاده» وممن حكاه سعد بن علي الزنجاني.

وقبل هؤلاء خلائق من العلماء لا يحصيهم إلا الله.

وفي ذكر عدم تجاوز ظاهرها تمثيلاً إشارة لطيفة . وهي أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل. كما تظنه المعطلة النفاة. وأن التمثيل تجاوز لظواهرها إلى ما لا تقتضيه. كما أن تأويلها تكلف وحمل لها على ما لا تقتضيه. فهي لا تقتضي ظواهرها تمثيلاً. ولا تحتمل تأويلاً. بل إجراء على ظواهرها بلا تأويل ولا تمثيل. فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل.

❊ ❊ ❊

(٢٣) منزلة الإخلاص

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الإخلاص»

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة:٥] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر] وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزُّمَر] وقال له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام] وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك:٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا. لم يقبل. وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا: لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥].

فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته. وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] وهي الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله. قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «إنك لن تخَلَّف، فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله تعالى، إلا ازددت به خيراً، ودرجة ورفعة» وفي الصحيح من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يغلِ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» أي لا يبقي فيه غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غلَّه، وتنقيه منه، وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودَغَلا. ودواء هذا الغل، واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

«سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»».

وأخبر عن أول ثلاثة تسعَّر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا

ذلك ليقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى: «أنا أغني الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به. وأنا منه بريء».

وفي الصحيح عنه ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم. ولكن ينظر إلى قلوبكم» وقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧].

وقد تنوعت عباراتهم في «الإخلاص» و«الصدق» والقصد واحد.

فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل:التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك. و«الصدق» التنقي من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص. ولا يتمان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: ترك العمل من أجل الناس: رياء. والعمل من أجل الناس: شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد. لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص. لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيا سواه.

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

مغزى الإخلاص : تنقية العمل من الشوائب

أما الهروي فجعل الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب.

أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم

ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عقد متفرقاتها هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائنا ما كان.

وأولى درجاته عنده: إخراج رؤية العلم عن العمل. والخلاص من طلب العوض على العمل. والنزول عن الرضا بالعمل. يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: رؤيته، وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به، وسكونه إليه.

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية. فالذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه، وفضله وتوفيقه له. وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

فهنا ينفعه شهود الجبر، وأنه آلة محضة، وأن فعله كحركات الأشجار، وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، والفاعل فيه سواه، وأنه ميت والميت لا يفعل شيئا وأنه لو خلي ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء ألبتة. فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل، وإيثار الشهوات، والبطالة. وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء. وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه.

فالخير الذي يصدر منها.. إنما هو من الله، وبه،لا من العبد، ولا به. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٢١] وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣] وقال تبارك وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجُرات:٧].

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته. وهو المحمود عليه.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان. فقلّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب، وإن قل. وللنفس فيه حظ. سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته؟ فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد».

فإذا كان هذا التفات طرفة أو لحظة. فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

وقال ابن مسعود: «لا يجعل أحدكم للشيطان حظًّا من صلاته، يرى أن حقًّا عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه» فجعل هذا القدر اليسيرالنزر حظًّا ونصيبًا للشيطان من صلاة العبد. فما الظن بما فوقه؟

وأما حظ النفس من العمل: فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقًّا، وأن يرضى بها لربه. فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين. ويستحيي من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله، يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه.

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

عمل لا ينفي الخجل

وقيل: لابد من الخجل من العمل، مع بذل المجهود.

فمن إخلاص العابد: «خجله» من عمله. وهو شدة حيائه من الله. إذ لم ير ذلك العمل صالحًا له، مع بذل مجهوده فيه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون]. قال النبي ﷺ: «هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه».

فالمؤمن: جمع إحسانًا في مخافة، وسوء ظن بنفسه، والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته.

وخلال كل ذلك: تجعل عملك تابعًا للعلم، موافقًا له مؤتمًا به. تسير بسيره وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته. نازلاً منازله، مرتويا من موارده. ناظرًا إلى الحكم الديني الأمري متقيدًا به، فعلاً وتركًا وطلبًا وهربًا. وناظرًا إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سببًا وكسبًا. ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهدًا للحكم الكوني القضائي، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات ولا يبقي هناك غير محض المشيئة، وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته. فيكون قائمًا بالأمر والنهي: فعلاً وتركًا، سائرًا بسيره، وبالقضاء والقدر: إيمانًا وشهودًا وحقيقة. فهو ناظر إلى الحقيقة، قائم بالشريعة.

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان].

فترك العمل يسير سير العلم: مشهد « لمن شاء منكم أن يستقيم» وسير صاحبه مشاهدًا للحكم: مشهد ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وهذا هو تهذيب العمل، بأن يجنح العامل فيه إلى العلم، وهو التفاته إليه، وإصغاؤه إلى ما يأمر به، وتحكيمه عليه، فمتى لم يجنح إليه هذا الجنوح كان سيره مذمومًا، ناقصًا، مبعدًا عن الله ،

فإن كل سير لا يصحبه علم يخاف عليه أن يكون من خدع الشيطان، وهذا القدر هو الذي أفسد على أهل الثغور ثغورهم، وشردهم عن الله كل مشرد، وطردهم عنه كل مطرد. حيث لم يحكموا العلم، وأعرضوا عنه صفحا، حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام.

وهم الذين قال فيهم سيد الطائفة الجنيد بن محمد لما قيل له: أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله فقال الجنيد: إن هذا كلام قوم تكلموا بإسقاط الأعمال من الجوارح. وهو عندي عظيمة. والذي يزني ويسرق أحسن حالاً من الذي يقول هذا. فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. وإليه رجعوا فيها. ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها.

وقال: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ .

وقال: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث لا يقتدي به في طريقنا هذا. لأن طريقنا وعلمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ.

واعلم أن المعرفة الصحيحة هي روح العلم، وأن العلم الصحيح والعمل المستقيم هما ميزان المعرفة الصحيحة.

فهذه الأركان: هي أركان السير، وأصول الطريق التي من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع. وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعد والمقيد، وإما سير صاحب الدابة الجموح. كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف.

فإن عدم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلى خلف. وإن لم يبذل جهده ويوحّد طلبه سار سير المقيد.

وإن اجتمعت له، فذلك الذي لا يجارى في مضمار سيره. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

(٢٤) منزلة التهذيب

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «التهذيب والتصفية»

وهو سبك العبودية في كِير الامتحان، طلبا لإخراج ما فيها من الخبث والغش.

وأولها: تهذيب الخدمة، أن لا يخالجها جهالة، ولا يشوبها عادة، ولا يقف عندها همة.

أي: تخليص العبودية، وتصفيتها من هذه الأنواع الثلاثة. وهي: مخالجة الجهالة، وشوب العادة، ووقوف همة الطالب عندها.

النوع الأول: مخالطة الجهال. فإن الجهالة متى خالطت العبودية، أوردها العبد غير موردها ووضعها في غير موضعها، وفعلها في غير مُستحقها، وفعل أفعالاً يعتقد أنها صلاح. وهي إفساد لخدمته وعبوديته، بأن يتحرك في موضع السكون، أو يسكن في موضع التحرك، أو يقدم في موضع إحجام، أو يحجم في موضع إقدام، أو يتقدم في موضع وقوف، أو يقف في موضع تقدم. ونحو ذلك من الحركات، التي هي في حق الخدمة كحركات الثقيل البغيض في حقوق الناس.

فالخدمة ما لم يصحبها علم ثان بآدابها وحقوقها، غير العلم بها نفسها، كانت في مظنة أن تبعد صاحبها، وإن كان مراده بها التقرب. ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب أبعدته عن المنزلة والقربة. ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلا بمعرفة خاصة بالله وأمره، ومحبة تامة له. ومعرفة بالنفس وما منها.

النوع الثاني: شوب العادة. وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفذة لها، معينة عليها. وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم مثلاً وتمرن عليه فألِفَتْه النفس، وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية، وإنما هو تقاضي العادة.

وعلامة هذا: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك، وأيسر منه، وأتم مصلحة، لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته.

فاعبد الله على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك. ولا يكون الباعث لك داعي العادة كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمرًا فجرى عليه. ولو اعتاد ضده لكان كذلك.

وحاصله: أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرد رأي، وموافقة هوى ومحبة وعادة. بل الباعث مجرد الأمر. والرأي والمحبة والهوى والعوائد منفذة تابعة. لا أنها مطاعة باعثة. وهذه نكتة لا ينتبه لها إلا أهل البصائر.

النوع الثالث: وقوف همته عند الخدمة. وذلك علامة ضعفها وقصورها. فإن العبد المحض لا تقف همته عند خدمة. بل همته أعلى من ذلك. إذ هي طالبة لرضا مخدومه. فهو دائمًا مستصغر خدمته له. ليس واقفًا عندها. والقناعة تحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع. فإنها عين الحرمان، فالمحب لا يقنع بشيء دون محبوبه. فوقوف همة العبد مع خدمته وأجرتها سقوط فيها وحرمان.

تهذيب القصد

يكمل تهذيب الخدمة بتهذيب القصد، وهو تصفيته من ذل الإكراه، وحفظه من مرض الفتور، ونصرته على فضول العلم.

وهذه ثلاثة أشياء تهذب قصد العامل وتصفيه:

أحدها: تصفيته من ذل الإكراه. أي لا يسوق نفسه إلى الله كرهًا. كالأجير المسخر المكلف. بل تكون دواعي قلبه جواذبه منساقة إلى الله طوعًا ومحبة وإيثارًا. كجريان الماء في منحدره. وهذه حال المحبين الصادقين. فإن عبادتهم طوعًا ومحبة ورضا. ففيها قرة عيونهم، وسرور قلوبهم، ولذة أرواحهم. كما قال النبي ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» وكان يقول: «يا بلال أرحنا بالصلاة».

فقرة عين المحب ولذته ونعيم روحه: في طاعة محبوبه. بخلاف المطيع كرها، المتحمل للخدمة ثقلاً، الذي يرى أنه لولا قهره لما أطاع، فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي أذله مكرهه وقاهره. بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتا ونعيما، ولذة وسرورًا فهذا ليس الحامل له ذل الإكراه.

والثاني: تحفظه من مرض الفتور، أي توقيه من مرض فتور قصده، وخمود نار طلبه. فإن العزم هو روح القصد، ونشاطه كالصحة له. وفتوره مرض من أمراضه. فتهذيب قصده وتصفيته بحمايته من أسباب هذا المرض الذي هو فتوره. وإنما يتحفظ منه بالحمية من أسبابه. وهو أن يلهو عن الفضول من كل شيء. ويحرص على ترك ما لا يعنيه. ولا يتكلم إلا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله ولا يصحب إلا من يعينه على ذلك. فإن بلي بمن لا يعينه فليدرأه عنه ما استطاع، ويدفعه دفع الصائل.

الثالث: نصرة قصده على منازعات فضول العلم. ومعنى ذلك: نصرة خاطر العبودية المحضة، والإقبال على الله بكلية القلب، وإبعاد القلب من مجاذبات تفاريع مسائل العلم الخلافية وفضلاته التي تشوش عليه وتضعف انتباهه إلى قواعد العلم الشرعي الجامعة التي بها حياة القلب واستقامة السير.

* * *

(٢٥) منزلة الاستقامة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ منزلة الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فُصِّلَت] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾﴾ [هود].

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فُصِّلَت:٦] . وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ [الجن:١٦].

سُئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة فقال: «أن لا تشرك بالله شيئا» يريد الاستقامة على محض التوحيد، فإن من استقام على محض التوحيد الصادق الذي يدين به الصدِّيق. واستقام له توحيده على العلم الصادق بأسماء الله وصفاته، وآثارها في الأنفس والآفاق، استقام في كل شأنه على الصراط المستقيم. فاستقام له كل عمل وكل حال.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي. ولا تروغ روغان الثعلب».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «استقاموا: أخلصوا العمل لله».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما: «استقاموا: أدوا الفرائض».

وقال الحسن: «استقاموا على أمر الله. فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته».

وقال مجاهد: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة.

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: «يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك؟ قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

وفيه عن ثوبان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «استقيموا. ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة. ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

والمطلوب من العبد الاستقامة. وهي السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها، فالتفريط والإضاعة. كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا. واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها. فأمر بالاستقامة، وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها. فنقلهم إلى المقاربة. وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم. كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة. فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يعجب به، ولا يرى أن نجاته به. بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله ، وعلى أمر الله.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

اجتهاد على درب السنة.. في اقتصاد

وهي عند شيخ الإسلام الهروي: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد، لا عاديا رسم العلم، ولا متجاوزًا حد الإخلاص، ولا مخالفًا نهج السنة.

هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملاً واجتهادًا فيه، وهو بذل المجهود. واقتصادًا. وهو السلوك بين طرفي الإفراط، وهو الجور على النفوس. والتفريط بالإضاعة. ووقوفًا مع ما يرسمه العلم. وإفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص. ووقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السنة.
فبهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم. وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجًا كليا، وإما خروجًا جزئيًّا.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا، وهما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنة، فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره. فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسنة،

أخرجه عن الاعتصام بها. وإن رأى فيه حرصًا على السنة، وشدة طلب لها ولم يظفر به منقطعًا عنها، أمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها. قائلاً له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل. فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه، حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدها. كما أن الأول خارج عن هذا الحد. فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر. وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة. لكن هذا إلى بدعة التفريط، والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان.

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو العاص رضي الله عنهما : «يا عبد الله بن عمرو، إن لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة. فمن كانت فترته إلى سنة أفلح. ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر» قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع. كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم.

وكذلك الرياء في الأعمال يخرجه عن الاستقامة. والفتور والتواني يخرجه عنها أيضًا.

والذي يعين العابد على هذا التمييز أن يقف في مقام الفرق، فيشهد الفرق بين الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والموالاة والمعاداة، والفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يبغضه ويسخطه، فهو في مقام الفرق الذي لا يحصل للعبد درجة الإسلام فضلاً عن مقام الإحسان إلا به.

ولا يحصل هذا إلا بالبقاء مع نور اليقظة، فهو الدوام في اليقظة. لا يطفئ نورها بظلمة الغفلة، بل يستديم يقظته، ويرى أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه، حفظًا من الله له، لا أن هذه المواهب تحصل بتحفظه واحترازه، وليشهد أن الله هو المقيم له والمقوم، وإن استقامته وقيامه بالله، لا بنفسه ولا بطلبه.

وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسم «القيوم» وهو الذي قام بنفسه، فلم يحتج إلى أحد، وقام كل شيء به، فكل ما سواه محتاج إليه.

* * *

(٢٦) منزلة التوكل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «التوكل»

قال الله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]. وقال عن أوليائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة]. وقال لرسوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل] وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء] وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان] وقال له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران] وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾ [إبراهيم:١٢]. وقال عن أصحاب نبيه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

والقرآن مملوء من ذلك.

ومن أسمائه ﷺ «المتوكل» وتوكله أعظم توكل. وقد قال الله له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل] وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقًا به. فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياؤه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾ [إبراهيم:١٢] فالعبد آفته: إما عن عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله.

وفي الصحيحين في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب :«هم الذين لا يسرفون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون».

وفي صحيح البخاري : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم ﷺ ، حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيمانًا. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل».

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت. وعليك توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك.، لا إله إلا أنت: أن تظلني، أنت الحي الذي لا يموت. والجن والإنس يموتون».

وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعا: « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله يرزقكم كما لرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانا».

وفي السنن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال يعني إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت ووقيت وكفيت. فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي».

«التوكل» النصف الدين. والصنف الثاني «الإنابة» فإن الدين استعانة وعبادة. فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة. بل هو محض العبودية وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة.

ولله در سيد القوم، وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التستري. إذ يقول: العلم كله باب من التعبد. والتعبد كله باب من الورع. والورع كله باب من الزهد والزهد كله باب من التوكل.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها. ولاتزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، فأهل السماوات والأرض المكلفون وغيرهم في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم. فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان،ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغًا عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه. من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

فأفضل التوكل: التوكل في الواجب ـ أعني واجب الحق ـ وواجب الخلق، وواجب النفس وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية. أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم. ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف.

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله. فإن كان محبوبًا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطًا مبغوضًا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحًا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه. إن لم يستعن به على طاعته. والله أعلم.

معاني التوكل ودرجاته

فلنذكر معنى «التوكل» ودرجاته وما قيل فيه.

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي. ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح. ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس: من يجعله من باب المعارف. والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

ومنهم: من يفسره بالسكون. وخمود حركة القلب. فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، وهو ترك الاختيار، والاسترسال مع مجاري الأقدار.

قال سهل: التوكل: الاسترسال مع الله مع ما يريد.

ومنهم: من يفسره بالرضا. فيقول: هو الرضا بالمقدور.

وقيل: التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور. لا تتم حقيقة التوكل إلا بها. وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر.

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته؛ من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال شيخنا ﷺ: ولذا لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف. ولا من القدرية النفاة القائلين: بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء. ولا يستقيم أيضًا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله. ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفلية وعلوية؟ ولا هو فاعل باختياره؟ ولا له إرادة ومشيئة. ولا يقوم به صفة؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف، كان توكله أصح وأقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

لا ننفي الأسباب

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات.

فإن من نفاها فتوكله مدخول. وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي: إن إثبات الأسباب يقدح في التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة. لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعو به. فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سببًا. ولا جعل دعاءه سببًا لنيل شيء، فقد وقع في الوهم الباطل، فإن الله سبحانه وتعالى قضى بحصول الشبع إذا أكل المرء، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو.

وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة.

وقضى بدخول الجنة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة، فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات لم يدخلها أبدًا.

وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، وإلقاء البذر فيها. فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة.

فوازن ما قاله منكرو الأسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل. ويقول: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الشبع، والري. والحج ونحوها. فلابد أن يصل إلي، تحركت أو سكنْت، سافرت أو قعدت، وإن لم يكن قد قضي لي لم يحصل لي أيضا، فعلت أو تركت.

فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعي في السبب بالهداية العامة.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها. فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها. وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية.

بل التجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعًا وحسًّا، وما أخل رسول الله ﷺ بشيء من الأسباب، وقد ظاهر بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عريانا، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة. واستأجر دليلاً مشركًا على دين قومه، يدله على طريق الهجرة.

وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين. وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين. وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد.وجميع أصحابه. وهم أولو التوكل حقًّا. وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثرًا من غبارهم.

التجريد أساس التوكل

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل.

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شُعَب قلبه. فنقص من توكله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن هاهنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب. وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح. فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعًا منها متصلاً بها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

اللجوء إلى الله يمنحنا السكينة

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه.

بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها. بل يخلع السكون إليها من قلبه. ويلبسه السكون إلى مسببها.

وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها. ولا يضطرب قلبه، ويخفق عن إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره. لأن اعتماده على الله، وسكونه إليه، واستناده إليه، قد حصنه من خوفها ورجائها. فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به. فرأى حصنًا مفتوحًا، فأدخله ربه إليه. وأغلق عليه باب الحصن. فهو يشاهد عدوه خارج الحصن. فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه. وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره. وليس في قلبه التفات إلى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل. لا يعرف شيئًا يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

سبحانه أهل المنّ والتفضّل

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله ﷻ.

فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له. يكون توكلك عليه. ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه. إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم.

استسلام

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته.

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير، يعني الاستسلام لتدبير الرب لك. وهذا في غير باب الأمر والنهي. بل فيما يفعله بك. لا فيما أمرك بفعله.

فإن توكل العبد هذا التوكل أورثه علمًا بأنه لا يملك قبل عمله استطاعة، ويعود لا يأمن مكر الله.

فاستطاعته بيد الله، لا بيده. فهو مالكها دونه. فإنه إن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجز. فهو لا يتحرك إلا بالله، لا بنفسه. فكيف يأمن المكر. وهو محرَّك لا محرِّك؟ يحركه مَنْ حركته بيده، فإن شاء ثبطه وأقعده مع القاعدين. كما قال فيمن منعه هذا التوفيق: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ [التوبة].

فهذا مكر الله بالعبد: أن يقطع عنه مواد توفيقه. ويخلي بينه وبين نفسه. ولا يبعث دواعيه ولا يحركه إلى مراضيه ومحابه. وليس هذا حقًّا على الله. فيكون ظالمًا يمنعه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. بل هو مجرد فضله الذي يحمده على بذله لمن بذله. وعلى منعه لمن منعه إياه. فله الحمد على هذا وهذا.

ومن فهم هذا فهم بابًا عظيمًا من سر القدر، وانجلت له إشكالات كثيرة. فهو سبحانه لا يريد من نفسه فعلاً يفعله بعبده يقع منه ما يحبه ويرضاه. فيمنعه فعل نفسه به، وهو توفيقه. لأنه يكرهه. ويقهره على فعل مساخطه. بل يكله إلى نفسه وحوله وقوته، ويتخلي عنه. فهذا هو المكر.

نفوّض أمرنا إلى الله

الدرجة السابعة: التفويض، وهو روح التوكل ولُبُّه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره، كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلفها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه، وقدرته وشفقته.

وقد جاء التفويض في القرآن، فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون وقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر:٤٤].

والمفوض لا يفوض أمره إلى الله إلا لإرادته أن يقضي له ما هو خير له في معاشه ومعاده. وإن كان المقضي له خلاف ما يظنه خيرًا. فهو راض به، لأنه يعلم أنه خير له. وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه. وهكذا حال المتوكل سواء. بل هو أرفع من المفوض . لأن معه من عمل القلب ما ليس مع المفوض. فإن المتوكل مفوض وزيادة. فلا يستقيم مقام «التوكل» إلا بالتفويض. فإنه إذا فوض أمره إليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه.

ونظير هذا: أن من فوض أمره إلى رجل، وجعله إليه، فإنه يجد من نفسه بعد تفويضه اعتمادًا خاصًّا، وسكونًا وطمأنينة إلى المفوض إليه أكثر مما كان قبل التفويض. وهذا هو حقيقة التوكل.

الرضا ثمرة التوكل

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة. انتقل منها إلى درجة «الرضا»

وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل بها. فإنما فسره بأجلِّ ثمراته. وأعظم فوائده. فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا ﷺ يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل. فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك. واستقدرك بقدرتك. وأسألك من فضلك العظيم» فهذا توكل وتفويض. ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم. وتقدر ولا أقدر. وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً، أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً، فهذا هو حاجته التي سألها. فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له. فقال: «واقدر لي الخير حيث كان. ثم رضِّني به».

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها التوكل والتفويض، قبل وقوع المقدور. والرضا بعده، وهو ثمرة التوكل. والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له. فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات الثماني يستكمل العبد مقام التوكل. وتثبت قدمه فيه. وهذا معنى قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به.

أوهام بعض المتوكلين

وكثيرًا ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشتبه التفويض بالإضاعة. فيضيع العبد حظه، ظنًّا منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هو تضييع لا تفويض، فالتضييع في حق الله. والتفويض في حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكَلِّ. فيظن صاحبه أنه متوكل.

ومنه: اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة، فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته، وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض، والمغتر لعاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه: اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه، لا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة، كما يذكر عن أبي سليمان الداراني: أنه رأى رجلاً بمكة لا يتناول شيئًا إلا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام. فقال أبو سليمان يومًا: أرأيت لو غارت زمزم، أي

شيء كنت تشرب؟ فقام وقبَّل رأسه، وقال: جزاك الله خيرًا، حيث أرشدتني. فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام، ثم تركه ومضى.

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم، وهم يظنون أنه إلى الله. وعلامة ذلك: أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره همه وبثه وخوفه، فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله.

ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل. فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله، فيظن أنه متوكل، وليس من أهل التوكل. فحال التوكل: أمر آخر من وراء العلم به. وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها، وحال المحب العاشق وراء ذلك. وكمعرفة علم الخوف، وحال الخائف وراء ذلك. وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوي فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

أسماء حسنى يتعبد بها المتوكلون

«التوكل» من أعظم المقامات تعلقًا بالأسماء الحسنى.

فإن له تعلقًا خاصًّا بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار، والتواب، والعفو، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن» وتعلق باسم «المعز، المذل، الحافظ، الرافع، المانع» من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلق بأسماء «القدرة، والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل. وكلما كان بالله أعرف، كان توكله عليه أقوى.

الهمة الواطئة توقع المتوكل في الخلابة

وكثير من المتوكلين يكون مغبونًا في توكله. وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون. كمن صرف توله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله. ويمكنه نيلها بأيسر شيء. وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيرًا. فهذا توكل العاجز القاصر الهمة. كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاء إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين.

وحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها. بها يعلم صحيحها من سقيمها. فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم. فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب. وأن يعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملئوا بذلك التوكل القلوب هدي وإيمانًا. وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان. وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقينًا وإيمانًا. فكانت همم الصحابة رضي الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي. فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوى توكله.

لا إيمان لمن لا توكل له

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين، وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين. وكما يحب التوابين.

وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلومًا.

وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾ [الطلاق] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ [الطلاق:٥] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق] ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء:٦٩] ثم قال في التوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره.وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه. وليس كونه وكَّل الأمور إلى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه. بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه. لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة صارت حالة التوكل قطعًا على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئًا منها. فهو لا يجد بدًّا من اعتماده عليه. وتفويضه إليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئًا ألبتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه. والتوكل ينشأ من هذين العلمين.

ولما كان الأمر كله لله عز وجل، وليس للعبد فيه شيء ألبتة، كان توكله على الله تسليم الأمر من هو له، وعزل نفسه من منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، وإلى تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل، فإذا عزل العبد نفسه عن مقام التوكل عزلها عن حقيقة العبودية. وقد خاطب الله بالتوكل في كتابه خواص خلقه، وأقربهم إليه، وأكرمهم عليه، وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه.

وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل. فمن لا توكل له. لا إيمان له. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال] وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة.

وأخبر تعالى عن رسله بأن التوكل ملجؤهم ومعاذهم. وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه. وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس] .

* * *

(٢٧) منزلة الثقة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الثقة بالله تعالى»

وهي التي لقنها الله تعالى لأم موسى بقوله لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص:٧] فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء. تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف.

ومدار التفويض عليها، وهي في وسطه كحال النقطة من الدائرة. فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط. ونسبة جهات المحيط إليها نسبة واحدة. وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها. كذلك «الثقة» هي النقطة التي يدور عليها التفويض.

كما أنها سويداء قلب التسليم. فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه، وهي المهجة التي تكون بها الحياة، وهي في وسطه. فلو كان «التفويض» قلبًا لكانت «الثقة» سويداؤه. ولو كان عينًا لكانت سوادها. ولو كان دائرة لكانت نقطتها. وقد تقدم أن كثيرًا من الناس يفسر «التوكل» بالثقة. ويجعله حقيقتها. ومنهم من يفسره بالتفويض. ومنهم من يفسره بالتسليم.

فعلمت: أن مقام التوكل يجمع ذلك كله.

فكأن «الثقة» هي روح. و«التوكل» كالبدن الحامل لها. ونسبتها إلى التوكل كنسبة الإحسان إلى الإيمان.

وعنوانها: أمن العبد من فوت المقدور. وانتقاض المسطور. فيظفر بروح الرضا، وإلا فبعين اليقين. وإلا فبلطف الصبر.

وذلك: أن من تحقق بمعرفة الله، وأن ما قضاه الله فلا مرد له ألبتة: أمن من فوت نصيبه الذي قسمه الله له. وأمن أيضًا من نقصان ما كتبه الله له، وسطره في الكتاب المسطور. فيظفر بروح الرضا أي براحته ولذته ونعيمه، لأن صاحب الرضا في راحة ولذة وسرور. كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا. وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

فإن لم يقدر العبد على «روح الرضا» ظفر «بعين اليقين» وهو قوة الإيمان، ومباشرته للقلب، فيكون التسليم.

وهو نوعان: تسليم لحكمه الديني الأمري.

وتسليم لحكمه الكوني القدري.

فأما الأول: فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج. والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني: فمزلة أقدام. ومضلة أفهام. حير الأمام، وأوقع الخصام،وهي مسألة الرضا بالقضاء. وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية. وبينا أن التسليم للقضاء يحمد إذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه. ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لا قدرة له على دفعها.

وأما الأحكام التي أمر بدفعها فلا يجوز له التسليم إليها، بل العبودية: مدافعتها بأحكام أخر، أحب إلى الله منها.

فطرة تلهمنا.. تغنينا عن طلب الأدلة

وأول التسليم: أن لا تطلب على التوحيد دليلاً.

فكيف تحوج وليك وحبيبك إلى أن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعرفة بحيث لا تسير إليه حتى يقيم لك دليلاً على وجوده ووحدانيته، وقدرته ومشيئته؟

ولو أن رجلاً دعاك إلى داره. فقلت للرسول: لا آتي معك حتى تقيم لي الدليل على وجود من أرسلك، وأنه مطاع، وأنه أهل أن يغشي بابه. لكنت في دعوى الفتوة زنيما. فكيف بمن وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وربوبيته وإلهيته: أظهر من كل دليل تطلبه؟ فما من دليل يستدل به، إلا ووحدانية الله وكماله أظهر منه. فإقرار الفطر بالرب سبحانه خالق العالم لم يوقفها عليه موقف. ولم تحتج فيه إلى نظر واستدلال، ولهذا لم تدع الرسل قط الأمم إلى الإقرار بالصانع سبحانه وتعالى، وإنما دعوهم إلى عبادته وتوحيده، وخاطبوهم خطاب من لا شبهة عنده قط في الإقرار بالله تعالى. ولا هو محتاج إلى الاستدلال عليه. ولهذا ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم:١٠] وكيف يصح الاستدلال على مدلول هو أظهر من دليله؟ حتى قال بعضهم: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ فتقيد السائر بالدليل وتوقفه عليه، دليل على عدم يقينه. بل إنما يتقيد بالدليل الموصل له إلى المطلوب بعد معرفته به. فإنه يحتاج بعد معرفته إلى دليل يوصله إليه، ويدله على طريق الوصول إليه. وهذا الدليل : هو الرسول ﷺ. فهو موقوف عليه يتقيد به. لا يخطو خطوة إلا وراءه. فيكون علمه ويقينه ونور بصيرته مغنيا له عن كثير من الأدلة التي يتكلفها المتكلفون وأرباب القال. فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها. وهو الغاية المطلوبة.

مثاله: أن المتكلم يفني زمانه في تقرير حدوث العالم،وإثبات وجود الصانع، وذلك أمر مفروغ منه عند السالك الصادق صاحب اليقين. فالذي يطلبه هذا بالاستدلال الذي هو عرضة

الشبه، والأسئلة، والإيرادات التي لا نهاية لها هو كشف ويقين للسالك. فتقيده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاع، وخروج عن الفتوة.

وهذا حق لا ينازع فيه عارف، فترى المتكلم يبحث في الزمان والمكان، والجواهر والأعراض، والأكوان. وهمته مقصورة عليها لا يعدوها ليصل منها إلى المكون وعبوديته. والسالك قد جاوزها إلى جمع القلب على المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته. لا يلتفت إلى غيره ولا يشتغل قلبه بسواه.

فالمتكلم متفرق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان. والعارف قد شح بالزمان أن يذهب ضائعا في غير السير إلى رب الزمان والمكان.

فصاحب التسليم لا يتعلق في سيره بدليل.

الشبهات والشهوات سبب الانقطاع

وتمام «التسليم» بالخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع. وصاحب هذا التخلص: هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، فإن التسليم ضد المنازعة.

والمنازعة: إما بشبهة فاسدة، تعارض الإيمان بالخبر عما وصف الله به نفسه من صفاته وأفعاله، وما أخبر به عن اليوم الآخر، وغير ذلك. فالتسليم له: ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة.

وإما بشهوة تعارض أمر الله ﷻ. فالتسليم للأمر بالتخلص منها.

أو إرادة تعارض مراد الله من عبده، فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب، فالتسليم بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره، بأن يظن أن مقتضى الحكمة خلاف ما شرع، وخلاف ما قضى وقدر. فالتسليم: التخلص من هذه المنازعات كلها.

وبهذا يتبين أنه من أجل مقامات الإيمان، وأعلى طرق الخاصة: وأن «التسليم» هو محض الصدِّيقية، التي هي بعد درجة النبوة، وأن أكمل الناس تسليما: أكملهم صدِّيقية.

* * *

(٢٨) منزلة الصبر

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الصبر»

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا.

وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعًا.

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥] وقوله: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران:٢٠٠] وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[النحل:١٢٧].

الثاني: النهي عن ضده كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥] وقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال] فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة. وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [آل عمران:١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٧] وقوله: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة] وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران].

الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة. وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل] وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمَر].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر. كقوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران] ومنه قول النبي ﷺ : «واعلم أن النصر مع الصبر».

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقي الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص] وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصِّلَت].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم] وقوله في أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ] وقوله في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان. وبالتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له. كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «خير عيش أدركناه بالصبر» وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح «أنه ضياء» وقال: «من يتصبر يصبّره الله».

وفي الحديث الصحيح: «عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر. فكان خيرًا له. وإن أصابته ضرَّاء صبر. فكان خيرًا له».

وأمر الأنصار رضي الله تعالى عنهم بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلْقوه على الحوض.

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر. وأمر بالصبر عند المصيبة. وأخبر: «أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى».

وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب. فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفر أجره. والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر.

وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله، فقال: «ما أعطي أحد عطاء خيرًا له وأوسع من الصبر».

أرفع الصبر ما كان اختيارًا

و«الصبر» في اللغة: الحبس والكف. ومنه: قُتل فلان صبرًا. إذا أمسك وحبس.ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨].

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضا، ومحاربة للنفس. ولاسيما مع الأسباب التي تقوي معها دواعي الموافقة. فإنه كان شابا، وداعية الشباب إليها قوية. وعزبا ليس له ما يعوضه ويبرد شهوته. وغريبًا، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكًا، والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر.والمرأة جميلة، وذات منصب وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له إلى نفسها. والحريصة على ذلك أشد حرص. ومع

ذلك توعدته إن لم يفعل : بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعي كلها، صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟

وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات: أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل فإن مصلحة فعل الطاعة: أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة:أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

وله رحمه الله في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجها. وليس هذا موضع ذكرها.

والمقصود: الكلام على «الصبر» وحقيقته ودرجاته ومرتبته. والله الموفق.

مراتب الصبر

وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله. وصبر لله. وصبر مع الله.

فالأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه. كما قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النحل:١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله.وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه.. لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأغراض.

والثالث: الصبر مع الله. وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابرًا نفسه معها، سائرًا بسيرها. مقيمًا بإقامتها. يتوجه معها أين توجهت ركائبها. وينزل معها أين استقلت مضاربها.

فهذا معنى كونه صابرًا مع الله، أي قد جعل نفسه وقفًا على أوامره ومحابه.وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها. وهو صبر الصديقين.

قال الجنيد: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن. وهجران الخلق في جنب الله شديد. والمسير من النفس إلى الله صعب شديد. والصبر مع الله أشد.

وسئل عن الصبر؟ فقال: تجرع المرارة من غير تعبس.

وقيل: تعويد النفس الهجوم على المكاره.

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة، كالمقام مع العافية.

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرحب والدعة.

وقال الخواص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبّار.

فالصابر:أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه.

والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصبار: الكثير الصبر. فهذا في القدر والكم والذي قبله في الوصف والكيف.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران:٢٠٠] إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى. فـ «الصبر» دون المصابرة. و«المصابرة» دون «المرابطة». و«المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد. وسمي المرابط مرابطًا: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط. ومنه قول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره. وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط»وقال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله. وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله. ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله.

وقيل: اصبروا في الله. وصابروا بالله. ورابطوا مع الله.

وقيل: اصبروا على النعماء. وصابروا على البأساء والضراء. ورابطوا في دار الأعداء. واتقوا إله الأرض والسماء. لعلكم تفلحون في دار البقاء.

«فالصبر» مع نفسك، و«المصابرة» بينك وبين عدوك. و«المرابطة» الثبات وإعداد العدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضًا لزوم ثغر القلب. لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يخربه أو يشعثه.

وقيل: تجرّع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيدًا. وإن أحياك أحياك عزيزاً.

وقيل: الصبر لله غناء وبالله تعالى بقاء. وفي الله بلاء. ومع الله وفاء. وعن الله جفاء، والصبر على الطلب عنوان الظفر وفي المحن عنوان الفرج.

وقيل: حال العبد مع الله رباطه. وما دون الله أعداؤه.

وفي كتاب الأدب للبخاري «سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: «الصبر، والسماحة» ذكره عن موسى بن إسماعيل. قال: حدثنا سويد قال: حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده – فذكره.

وهذا من أجمع الكلام. وأعظمه برهانًا وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها.

فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به وإعطاؤه. فالحامل عليه: السماحة. وترك ما نهيت عنه، والبُعد منه. فالحامل عليه: الصبر.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل،

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «الصبر الجميل» هو الذي لا شكوى فيه ولا معه. و«الصفح الجميل» هو الذي لا عتاب معه. و«الهجر الجميل» هو الذي لا أذى معه.

وقال ابن عيينة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة:٢٤] قال: «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء.

والشكوى إلى الله ﷻ لا تنافي الصبر. فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل. والنبي إذا وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف:٨٦] وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابراً مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء].

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله. كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ ثم أنشد :

وإذا عرتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم. فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

الصعب .. اللذيذ

ولكن مهما تنوعت العبارات فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن أظهر معاني الصبر: حبس النفس على المكروه، وإنه من أصعب المنازل على العامة،وأوحشها طريق المحبة.

وإنما كان صعبا على العامة: لأن العامي مبتدئ في الطريق وليس له دربة في السلوك، ولا تهذيب المرتاض بقطع المنازل. فإذا أصابته المحن أدركه الجزع وصعب عليه احتمال البلاء. وعز عليه وجدان الصبر. لأنه ليس من أهل الرياضة. فيكون مستوطنًا للصبر. ولا من أهل المحبة، فيلتذ بالبلاء في رضا محبوبه.

وأما كونه وحشة في طريق المحبة: فلأنها تقتضي التذاذ المحب بامتحان محبوبه له. والصبر يقتضي كراهيته لذلك. وحبس نفسه عليه كرهًا. فهو وحشة في طريق المحبة.

وفي الوحشة نكتة لطيفة: لأن الالتذاذ بالمحنة في المحبة هو من موجبات أنس القلب بالمحبوب. فإذا أحس بالألم بحيث يحتاج إلى الصبر انتقل من الأنس إلى الوحشة. ولولا الوحشة لما أحس بالألم المستدعي للصبر.

والصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين. وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة. وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها.

وحاجة المحب إليه ضرورية.

فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية، مع منافاته لكمال المحبة. فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟

قيل: هذه هي النكتة التي لأجلها كان من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها. وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها، وصادقها من كاذبها. فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته.

ومن هاهنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة. لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى. فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة. ولم يثبت معه إلا الصابرون. فلولا تحمل المشاق، وتجشم المكاره بالصبر: لما ثبتت صحة محبتهم. وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبرًا.

ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه. فقال عن حبيبه أيوب : ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [سورة ص:٤٤] ثم أثنى عليه فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة ص].

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به. وأثنى على الصابرين أحسن الثناء. وضمن لهم أعظم الجزاء. وجعل أجر غيرهم محسوبًا، وأجرهم بغير حساب. وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان كما تقدم فجعله قرين اليقين، والتوكل، والإيمان، والأعمال، والتقوى.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر. وأخبر أن الصبر خير لأهله. وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كما تقدم ذلك.

وليس في استكراه النفوس لألم ما تصبر عليه، وإحساسها به، ما يقدح في محبتها ولا توحيدها. فإن إحساسها بالألم، ونفرتها منه: أمر طبعي لها، كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب. وتألمها بفقده. فلوازم النفس لا سبيل إلى إعدامها أو تعطيلها بالكلية. وإلا لم تكن نفسًا إنسانية. ولارتفعت المحنة. وكانت عالما آخر.

و«الصبر» و«المحبة» لا يتناقضان. بل يتواخيان ويتصاحبان..

بلى، علة الصبر في الحقيقة: المناقضة للمحبة، المزاحمة للتوحيد أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضا المحبوب. بل إرادة غيره. أو مزاحمته غيره، أو المراد منه. لا مراده. هذه هي وحشة الصبر ونكارته.

وأما من رأى صبره بالله، وصبره لله، وصبره مع الله، مشاهدًا أن صبره به تعالى لا بنفسه، فهذا لا تلحق محبته وحشة. ولا توحيده نكارة.

الورع حياء.. أنبل من الورع خشية

والخوف من الوعيد جد مفيد في حمل المرء على الصبر عن المعاصي والبعد عنها، والبعد عنها جد مفيد بدوره في حفظ الإيمان والإبقاء عليه، فإن المعصية تنقصه، أو تذهب به، أو تذهب رونقه وبهجته، أو تطفئ نوره، أو تضعف قوته، أو تنقص ثمرته، هذا أمر ضروري بين المعصية وبين الإيمان. يعلم بالوجود والخبر والعقل، كما صح عنه ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن. ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن. ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن. فإياكم إياكم. والتوبة معروضة بعد».

ولكن لما كان «الحياء» من شيم الأشراف، وأهل الكرم والنفوس الزكية: كان صاحبه أحسن حالاً من أهل الخوف ومطالعة الوعيد.

لأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه.

ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف.

فمن وازعه الخوف: قلبه حاضر مع العقوبة. ومن وازعه الحياء: قلبه حاضر مع الله. والخائف مراع جانب نفسه وحمايتها. والمستحي مراع جانب ربه وملاحظ عظمته. وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان.

غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان، وألصق به، إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

وأيضا: فإن فعل الطاعة أكد من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدرجة، إذ ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة، وأما المنهي عنه فإنه لما كان يضعف المأمور به وينقصه: نهي عنه حماية، وصيانة لجانب الأمر. فجانب الأمر أقوى وآكد. وهو بمنزلة الصحة والحياة والنهي بمنزلة الحمية التي تراد لحفظ الصحة وأسباب الحياة.

والصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء: دوام الطاعة. والإخلاص فيها. ووقوعها على مقتضى العلم. وهو تحسينها علمًا.

أما ترك الإخلاص فيها، بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله، وإراداته والتقرب إليه. فحفظًا من هذه الآفة: برعاية الإخلاص.

وأما أن لا تكون مطابقة للعلم. بحيث لا تكون على اتباع السنة. فحفظها من هذه الآفة: بتجريد المتابعة. كما أن حفظها من تلك الآفة بتجريد القصد والإرادة.

حلاوة أجر المحنة.. تنسينا شدتها

أما الصبر في المحن على أذى الظالمين، وعند النوازل والبلاء، فإن العبد يستجلبه ويستعين عليه بثلاثة أشياء:

إحداها: «ملاحظة حسن الجزاء» وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء، لشهود العوض. وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها. ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة. وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل. وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب، ومطالعة الغايات.

وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم. وأن من رافق الراحة: حصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فإن على قدر التعب تكون الراحة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكريم الكرائم

ويكبر في عين الصغير صغيرها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك.

والثاني: «انتظار الفرج»

أي راحته ونسيمه ولذته. فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة. ولاسيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج. فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته: ما هو من خفي الألطاف، وما هو فرج معجل. وبه وبغيره يفهم معنى اسمه «اللطيف».

والثالث: «تهوين البلية» بأمرين:

أحدهما: أن يعد نعم الله وأياديه عنده. فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلق بالماضي. وتعداد أيادي المنن: يتعلق بالحال. وملاحظة حسن الجزاء، وانتظار الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل. وأحدهما في الدنيا. والثاني يوم الجزاء.

ويحكى عن امرأة من العابدات أنها عثرت، فانقطعت إصبعها، فضحكت. فقال لها بعض من معها: أتضحكين، وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت: أخاطبك على قدر عقلك. حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها. إشارة إلى أن عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام. من ملاحظة المبتلي. ومشاهدة حسن اختياره لها في ذلك البلاء،وتلذذها بالشكر له، والرضا عنه، ومقابلة ما جاء من قبله بالحمد والشكر.

صبر لله.. وبالله

والصبر ثلاثة أنواع:

صبر لله. أي رجاء ثوابه، وخوف عقابه. وصبر المريدين: إنما هو بالله. فهم لا يرون لأنفسهم صبرًا، ولا قوة لهم عليه. بل حالهم التحقق ب «لا حول ولا قوة إلا بالله» علما ومعرفة وحالاً .

فالصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة منه وأجل. فإن الصبر لله متعلق بإلهيته. والصبر به: متعلق بربوبيته. وما تعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته.

ولأن الصبر له: عبادة والصبر به استعانة. والعبادة غاية. والاستعانة وسيلة. والغاية مرادة لنفسها. والوسيلة مراده لغيرها.

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به.

وأما الصبر له: فمنزلة الرسل والأنبياء والصدِّيقين، وأصحاب مشهد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولأن الصبر له: صبر فيما هو حق له، محبوب له مرضي له. والصبر به: قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له. وقد يكون في مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟

والثالث: الصبر على أحكامه.

فهذا هو الصبر على أقداره، وقد عرفت بما تقدم: أن الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره كما ذكرنا في صبر يوسف عليه السلام فإن الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة. والصبر على أحكامه الكونية: صبر ضرورة، وبينهما من البون ما قد عرفت.

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسببا عن فعله.

وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح. وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف.

فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

(٢٩) منزلة الرضا

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الرضا»

وقد أجمع العلماء على أنه مستحب، مؤكد استحبابه. واختلفوا في وجوبه. على قولين وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يذهب إلى القول باستحبابه.

قال: ولم يجئ الأمر به، كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.

قال: وأما ما يروى من الأثر «من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ ربًّا سواي» فهذا أثر إسرائيلي، ليس يصح عن النبي ﷺ.

قلت: ولاسيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسبة، بل هو موهبة محضة، فكيف يؤمر به. وليس مقدورًا عليه؟

وقال الخراسانيون: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل. فعلى هذا: يمكن أن يتوصل العبد إليه باكتسابه. لأن الله مدح أهله، وأثنى عليهم، فدل ذلك على أنه مقدور لهم.

والعراقيون قالوا: هو من جملة الأحوال، وليس كسبيا للعبد، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال.

والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب، والأحوال مجرد المواهب.

وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين. منهم القشيري صاحب الرسالة وغيره فقالوا: يمكن الجمع بينهما، بزن يقال: بداية «الرضا» مكتسبة للعبد،وهي من جملة المقامات، وأما نهايته: فهي حال من الأحوال. والله أعلم.

وقال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً».

وقال: «من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً، غفرت له ذنوبه».

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي. وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة: فهو الصديق حقًّا. وهي سهلة بالدعوى واللسان. وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان. ولاسيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها. من ذلك: تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا. فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة والتبتل إليه،

وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه. فعل الراضي بمحبوبه كل الرضا. وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه. وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به.

والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له. والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه. فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته. ولا يحاكم إلا إليه. ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة. لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله. ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته. ولا في شيء من أحكام ظاهرة وباطنة لا يرضى في ذلك بحكم غيره. ولا يرضى إلا بحكمه.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهي: رضي كل الرضا. ولم يبق في قلبه حرج من حكمه. وسلم له تسليما. ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقلَّدة هو وشيخه وطائفته.

وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم فإياك أن تستوحش من التفرد. فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به، والرضا به ربًّا، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً وبالإسلام دينًا.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب وذاق حلاوته، وتنسم روحه. قال: اللهم زدني اغترابًا، ووحشة من العالم، وأنسًا بك.. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب، وهذا التفرد: رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذل عين العز بهم. والجهل عين الوقوف مع آرائهم. وزبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم. فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق. ولم يبغ حظه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان. وغايته: مودة بينهم في الحياة الدنيا. فإذا انقطعت الأسباب. وحقت الحقائق، وبعثر ما في القبور. وحصل ما في الصدور، وبليت السرائر، ولم يجد من دون موالاة الحق من قوة ولا ناصر: تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران. وما الذي يخف أو يرجح به الميزان. والله المستعان، وعليه التكلان.

والتحقيق في المسألة: أن «الرضا» كسبي باعتبار سببه، موهبي باعتبار حقيقته، فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه. فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته: اجتني منها ثمرة الرضا. فإن الرضا آخر التوكل. فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض: حصل له الرضا ولابد. ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خلقه، رحمة بهم، وتخفيفًا

عنهم. لكن ندبهم إليه. أثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها. فمن رضي عن ربه رضي الله عنه. بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه. فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده. رضا قبله، أوجب له أن يرضى عنه. ورضا بعده. هو ثمرة رضاه عنه. ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين.

ومن أعظم أسباب حصول الرضا: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه. فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولابد.

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت. وإن منعتني رضيت. وإن تركتني عبدت. وإن دعوتني أجبت.

وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب. فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا.

وليس «الرضا والمحبة» كالرجاء والخوف. فإن الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة. لا يفارقان المتلبس بهما في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة. بخلاف الخوف والرجاء . فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأمنهم مما كانوا يخافونه، وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائمًا، لكنه ليس رجاء مشوبًا بشك، بل هو رجاء واثق بوعد صادق، من حبيب قادر. فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون.

الهمة العالية.. شيمتها الرضا

وليس من شرط «الرضا» ألا يحس بالألم والمكاره. بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه. ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه، وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة. وإنما هو الصبر. ألا فكيف يجتمع الرضا والكراهية؟ وهما ضدان.

والصواب: أنه لا تناقض، وإن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضا، كرضا المريض بشرب الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم بالجراح، وغيرها.

وطريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جدًّا، موصلة إلى أجل غاية. ولكن فيها مشقة.ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتها همة عالية، ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله.

ويسهل ذلك على العبد: علمه بضعفه وعجزه ورحمته به، وشفقته عليه، وبره به. فإذا شهد

هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه، ويرضى به وعنه. وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها إليه، فنفسه نفس مطرودة عن الله. بعيدة عنه. ليست مؤهلة لقربه وموالاته، أو نفس ممتحنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرضا والمحبة: تسير العبد وهو مستلق على فراشه. فيصبح أمام الركب بمراحل. وثمرة الرضا:الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى.

ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في المنام: فذكرت فيه شيئًا من أعمال القلب. وأخذت في تعظيمه ومنفعته لا أذكره الآن فقال: أما أنا فطريقتي: الفرح بالله والسرور به، أو نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حاله في الحياة يبدو ذلك على ظاهره. وينادي به عليه حاله.

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: أن أبا ذر رضي الله عنه يقول: الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر. أما أنا، فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختار الله له.

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

وسئل أبو عثمان عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أسألك الرضا بعد القضاء» فقال: لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا. والرضا بعد القضاء هو الرضا.

وقيل: الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان.

وقيل: رفع الاختيار. وقيل: استقبال الأحكام بالفرح.

وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما: «أما بعد، فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر».

والرضا ثلاثة أقسام: رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه. ورضا الخواص بما قدره وقضاه. ورضا خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه.

الرضا وليد الطمأنينة

والنفس إنما تنال الرضا بالطمأنينة والسكينة، فمن درب نفسه على الطمأنينة حصل له الرضا عن الله تعالى، ورضي الله عنه، وذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل] فإنما أوجب لهم هذا السلام من الملائكة والبشارة بقيد، وهو وفاتهم طيبين، فلم تبق الآية لغير الطيب سبيلاً إلى هذه البشارة.

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف:

أحدها: إنه عند الموت، وهو الأشهر، قال الحسن: إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها. ورضيت عن الله، في رضي الله عنها.

وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث، هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة.

وقال آخرون: الكلمة الأولى ، وهي: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر] تقال لها عند الموت. والكلمة الثانية وهي : ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر] تقال لها يوم القيامة. والصواب أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا، ويوم القيامة. فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا. وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى، إن كانت مطمئنة إلى الله.

فأول ذلك عند الموت وتمامه ونهايته: يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة.

الرضا بالله ربًّا .. أساس الإيمان

وأرفع الرضا: الرضا بالله ربًّا، وتسخط عبادة ما دونه. وهذا قطب رحى الإسلام.

الرضا بالله ربا: أن لا يتخذ ربا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه. قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:١٦٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما «سيدًا وإلها» يعني فكيف أطلب ربا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:١٤] يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤] أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام. فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ أنزله مفصلاً، مبينًا كافيا شافيا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقًا منها. فكثير من الناس يرضى بالله ربا، ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصرًا بل يوالي من دونه أولياء. ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك. بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين به. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلها، ولا غيره حكما.

وتفسير الرضا بالله ربا: أن يسخط عبادة ما دونه. هذا هو الرضا بالله إلها. وهو من تمام الرضا بالله ربا. فمن أعطي الرضا به ربا حقه سخط عبادة ما دونه قطعًا. لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

فمدار رحى الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة ربه وحده، وأن يسخط عبادة غيره، وقد تقدم أن العبادة هي الحب مع الذل. فكل من ذللت له وأطعته وأحببته دون الله، فأنت عابد له.

الرضا بالقضاء من مكملات الإيمان

ثم يتلوه: الرضا عن الله، وبه أيضًا نطقت آيات التنزيل، وهو الرضا عنه في كل ما قضى وقدر.

وإنما كان هذا الرضا تاليا لأن الرضا بالله ربا أعلى شأنا وأرفع قدرًا، ودرجته مختصة بالمؤمنين، بينما درجة الرضا عن الله مشتركة. فإن الرضا بالقضاء يصح من المؤمن والكافر. وغايته التسليم لقضاء الله وقدره. فأين هذا من الرضا به ربًّا وإلها ومعبودًا؟

وأيضًا فالرضا به ربًّا فرض. بل هو من آكد الفروض باتفاق الأمة. فمن لم يرض به ربًّا، لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال.

وأما الرضا بقضائه: فأكثر الناس على أنه مستحب. وليس بواجب. وقيل بل هو واجب، وهما قولان في مذهب أحمد.

فالفرق بين الدرجتين فرق ما بين الفرض والندب. وفي الحديث الإلهي الصحيح :«يقول الله ﷻ: «ما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه» فدل على أن التقرب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلى من التقرب إليه بالنوافل.

وأيضا: فإن الرضا به ربا يتضمن الرضا عنه، ويستلزمه، فإن الرضا بربوبيته هو رضا العبد بما يأمره به، وينهاه عنه، ويقسمه له ويقدره عليه، ويعطيه إياه. ويمنعه منه. فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضي به ربًّا من جميع الوجوه. وإن كان راضيا به ربًّا من بعضها. فالرضا به ربًّا من كل وجه: يستلزم الرضا عنه، ويتضمنه بلا ريب.

وأيضًا: فالرضا به ربًّا متعلق بذاته، وصفاته وأسمائه، وربوبيته العامة والخاصة. فهو الرضا به

خالقًا ومدبرًا، وآمرًا وناهيا، وملكا ومعطيا ومانعًا، وحكمًا، ووكيلاً ووليا، وناصرًا ومعينًا، وكافيا وحسيبًا ورقيبًا،ومبتليا ومعافيا، وقابضًا ، وباسطًا، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه، ولهذا لم يجئ إلا في الثواب والجزاء. كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر] فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته. كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البيِّنة].

والرضا به: أصل الرضا عنه، والرضا عنه: ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضا عنه: متعلق بثوابه وجزائه.

وأيضا: فإن النبي ﷺ علق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربًّا. ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا. وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً» فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيه. وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها. وأيضا: فالرضا به ربًّا يتضمن توحيده، وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاءه ومحبته، والصبر له وبه، والشكر على نعمه، يتضمن رؤية كل ما منه نعمة وإحسانًا، وإن ساء عبده. فالرضا به يتضمن «شهادة أن لا إله إلا الله» والرضا بمحمد رسولاً. يتضمن «شهادة أن محمدًا رسول الله» والرضا بالإسلام دينًا: يتضمن التزام عبوديته، وطاعته، وطاعة رسوله، فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضا: فالرضا به ربًّا يتضمن اتخاذه معبودًا دون ما سواه. واتخاذه وليا ومعبودًا، وإبطال عبادة كل ما سواه. وقد قال تعالى لرسوله ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤] وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤] وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤] فهذا هو عين الرضا به ربًّا وأيضًا: فإنه جعل حقيقة الرضا به ربًّا: أن يسخط عبادة ما دونه. فمتى سخط العبد عبادة ما سوى الله من الآلهة الباطلة، حبا وخوفًا، ورجاء وتعظيمًا، وإجلالاً فقد تحقق بالرضا به ربًّا، الذي هو قطب رحى الإسلام.

وإنما كان قطب رحى الدين: لأن جميع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تنبني على توحيد الله ﷻ في العبادة، وسخط عبادة ما سواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحى تدور عليه. ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرحى. ودارت على ذلك القطب. فيخرج حينئذ من دائرة الشرك إلى دائرة الإسلام. فتدور رحى إسلامه وإيمانه على قطبها الثابت اللازم.

وأيضا: فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضا موقوفًا على كون المرضي به ربًّا سبحانه أحب إلى العبد من كل شيء، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة. ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية، وينتظم فروعها وشعبها.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلى المحبوب:كان ذلك الميل حاملاً على طاعته وتعظيمه. وكلما كان الميل أقوى: كانت الطاعة أتم، والتعظيم أوفر. وهذا الميل يلازم الإيمان، بل هو روح الإيمان ولبه. فأي شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة؟

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان. كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار».

فعلق ذوق الإيمان بالرضا بالله ربًّا. وعلق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه. ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله.

ولما كان هذا الحب التام، والإخلاص الذي هو ثمرته أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه: كانت ثمرته أعلى. وهي وجد حلاوة الإيمان. وثمرة الرضا: ذوق طعم الإيمان. فهذا وجد حلاوة، وذلك طعم. والله المستعان.

وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده ربًّا، والبراءة من عبودية ما سواه، وميل القلب بكليته إليه. وانجذاب قوى المحب كلها إليه. ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به. فمن رضي بالله ربًّا رضيه الله له عبدًا. ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته: لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه، إن لم يرض به ربًّا، وبنبيه رسولاً، وبالإسلام دينًا. فإن العبد قد يرضى عن الله ربه فيما أعطاه وفيما منعه، ولكن لا يرضى به وحده معبودًا وإلها.. ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضي به ربًّا. كما قال النبي ص: «من قال كل يوم: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيا: إلا كان حقًّا على الله أن يرضيه يوم القيامة» وقد نطق التنزيل بهذا الرضا أيضًا كقوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة] وقال تعالى في آخر سورة المجادلة: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة] ، وقال في آخر سورة «لم يكن» ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البيّنة].

فتضمنت هذه الآيات: جزاءهم على صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه، وعده ولايتهم، بأن رضي الله عنهم. فأرضاهم. فرضوا عنه. وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به ربًّا، وبمحمد نبيا، وبالإسلام دينًا.

وجوب التفريق بين مشيئة الله ومحبته

واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أنكر على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمان لمحبته ورضاه، فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل:٣٥] : وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزُّخرُف:٢٠] فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه. وفيه أبين الرد لقول من جعل مشيئته غير محبته ورضاه فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة. فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالى راضيا محبًا لذلك. والتزام رضاهم به.

والذي يكشف هذه الغمة، ويبصر من هذه العماية، ويوضح المعنى الصحيح للرضا بالقضاء: إنما هو التفريق بين ما فرق الله بينه، وهو المشيئة والمحبة. فإنهما ليسا واحدًا. ولا هما متلازمين. بل قد يشاء ما لا يحبه، ويحب ما لا يشاء كونه.

فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده. ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه.

والثاني: كمحبته إيمان الكفار، وطاعات الفجار، وعدل الظالمين، وتوبة الفاسقين، ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه. فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فإذا تقرر هذا الأصل، وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضي، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه: زلت الشبهات، وانحلت الإشكالات، ولله الحمد. ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض. بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر، بل القدر ينصر الشرع. والشرع يصدق القدر. وكل منهما يحقق للآخر.

إذا عرف هذا، فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب. وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان. فيجب على العبد أن يكون راضيا به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض. قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

فأقسم : أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليما. وهذا حقيقة الرضا بحكمه.

فالتحكيم: في مقام الإسلام. وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان. والتسليم: في مقام الإحسان.

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقي أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشر مسلم: فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله.

والرضا بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة، والغنى، والعافية، واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة، لأنه ملائم للعبد، محبوب له. فليس في الرضا به عبودية. بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن وضع فيها، وأن لا يعصي المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه. ولا يدخل تحت اختياره مستحب. وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان. وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه، وينهي عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان: حرام يعاقب عليه. وهو مخالفة لربه تعالى. فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه. فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء.

فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمرًا لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاءه ويكونه؟ وكيف تجتمع إرادة الله وبغضه وكراهيته؟

فاعلم أن «المراد» نوعان: مراد لنفسه. ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب لذاته ولما فيه من الخير. فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصودًا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته. وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده. فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان. لاختلاف متعلقهما. وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جدًّا إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفي عليه العواقب؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته. ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سببًا إلى ما هو أحب إليه من قوته.

مثال ذلك: أنه سبحانه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والإرادات. وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى.وهو الساعي في

وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة. فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى، مسخوط له. لعنه الله ومقته. وغضب عليه. ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه.وجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرها. وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل، التي هي أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها. وهي مادة كل خير. فتبارك الله خالق هذا وهذا. كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام. والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى، والماء والنار، والخير والشر.

وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض. وجعلها محال تصرفه وتدبيره حكمته . فخلوا الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل «القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، وشديد العقاب، وسريع الحساب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل» فإن هذه الأسماء والأفعال كمال. فلابد من وجود متعلقها، ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده. فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله. فيغفر لهم».

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت. ولكان الحاصل بعضها، لا كلها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه. ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه. وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة والرجوع إليه واستغفاره. فإنه سبحانه يحب التوابين. ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه. وهي من أحب أنواع العبودية إليه. فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه. وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته.

ومنها: أن نفس اتخاذه عدوًّا من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦] فاتخاذه عدوًّا أنفع شيء للعبد. وهو محبوب للرب.

ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فخلق الشيطان مستخرجًا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل. وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه آثاره، س وتظهر حكمته في الفريقين. وينفذ حكمه فيهما. ويظهر ما كان معلومًا له مطابقًا لعلمه السابق.

وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة] فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه. فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم بردًا وسلامًا، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء] فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضًا، ويكسر بعضها بعضا : هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب لكن خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته. فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته. فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته: أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها، وتعطيلها بتعطيل أسبابها.

فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

قلت: هذا سؤال باطل. إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه. كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قلت: كيف يرضى لعبده شيئًا، ولا يعينه عليه؟

قلت: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له. وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة، ومفوتًا لمصلحة راجحة. وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة] فأخبر سبحانه: أنه كره انبعاثهم مع رسوله ﷺ للغزو. وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به. فلما كرهه منهم ثبطهم عنه. ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فسادًا وشرا ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي قابلون منهم مستجيبون لهم. فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم. فاقتضت الحكمة والرحمة: أن منعهم من الخروج. وأقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلاً لهذا الباب وقس عليه.

ثمرات الرضا اليانعة

وللرضا ثمرات إيمانية كثيرة وافرة تنتج عنه، يرتفع بها الراضي إلى أعلى المنازل.

منها: أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه. ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه. فلا تتم له عبوديته من الصبر، والتوكل، والرضا، والتضرع، والافتقار، والذل، والخضوع، وغيرها إلا بجريان القدر له بما يكرهه. وليس الشأن في الرضا بالقضاء الملائم للطبيعة. إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع.

الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه. فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق: رضي ربه عنه بالقليل من العمل. وإذا رضي عنه في جميع الحالات، واستوت عنده، وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترضاه وتملقه.

ومنها: أن السخط باب الهمِّ والغمِّ والحزن. وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال،

والظن بالله خلاف ما هو أهله. والرضا يخلّصه من ذلك كله ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

فالرضا يوجب له الطمأنينة. وبرد القلب، وسكونه وقراره، والسخط يوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه وعدم قراره.

كما أن الرضا ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها. ومتى نزلت عليه السكينة: استقام وصلحت أحواله، وصلح باله. والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته. وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة، وطيب العيش. فمن أعظم نعم الله على عبده: تنزل السكينة عليه. ومن أعظم أسبابها: الرضا عنه في جميع الحالات.

ومنها: أن الرضا يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته. فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية.

ومنها: أن حكم الرب تعالى ماض في عبده، وقضاءه عدل فيه، كما في الحديث : «ماضُ في حُكمك، عدل في قضاؤك» ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

وقوله: «عدل في قضاؤك» يعم قضاء الذنب، وقضاء أثره وعقوبته، فإن الأمرين من قضائه ﷻ. وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة: فظاهر. وأما عدله في قضاءه بالذنب: فلأن الذنب عقوبة على غفلته عن ربه. وإعراض قلبه عنه. فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليه، ونقص إخلاصه: استحق أن يضرب بهذه العقوبة. لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب. والعقوبات واردة عليها من كل جهة وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى وذكره، يستحيل صدور الذنب. كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف].

فإن قلت: قضاؤه على عبده بإعراضه عنه، ونسيانه إياه، وعدم إخلاصه: عقوبة على ماذا؟

قلت: هذا طبع النفس وشأنها، فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلي بينه وبين نفسه وطبعه وهواه. وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان، وعدم الإخلاص واتباع الهوى. وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام، وفوات الخيرات واللذات، كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها.

فإن قلت: فهلا خلقه على غير تلك الصفة؟

قلت: هذا سؤال فاسد، ومضمونه: هلا خلقه ملكا لا إنسانًا؟

فإن قلت: فهلا أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه، وظلمة طبعه؟

قلت: مضمون هذا السؤال: هلا سوى بين جميع خلقه؟ ولِمَ خلق المتضادات والمختلفات ؟ وهذا من أفسد الأسئلة، وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكه لخلق ذلك.

ومنها أن عدم الرضا إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده. وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه. فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وما أصابه لم يكن ليخطئه: فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضره.

ومنها: أن الرضا يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليما نقيا من الغش والدغل والغل. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا. وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم. فالخبث والدغل والغش: قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضا. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط. وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا.

ومنها: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه. فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به، فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً. فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان. والشك والسخط قرينان. وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي أو غيره : «إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيرًا كثيرًا».

ومنها: أن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر: ملأ الله صدره غني وأمنًا وقناعة، وفرغ قلبه لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. ومن فاته حظه من الرضا: امتلأ قلبه بضد ذلك. واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.

فالرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله.

ومنها: أن الرضا يثمر الشكر، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يثمر ضده. وهو كفر النعم، وربما أثمر له كفر المنعم. فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات: أوجب له ذلك شكره. فيكون من الراضين الشاكرين وإذا فاته الرضا: كان من الساخطين، وسلك سبيل الكافرين.

ومنها: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبًا عند السخط والشهوة. فهناك يصطاده. ولاسيما إذا استحكم سخطه. فإنه يقول ما لا يرضي الرب، ويفعل ما لا يرضيه، وينوي ما لا يرضيه. ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم : «يحزن القلب، وتدمع العين، ولا نقول إلا ما يرضي الرب» فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر. فأخبر النبي ﷺ : أنه لا يقول في مثل هذا المقام الذي يسخطه أكثر الناس، فيتكلمون بما لا يرضي الله. ويفعلون ما لا يرضيه إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى.

ومنها: أن الرضا يخرج الهوى من القلب، فالراضي هواه تبع لمراد ربه منه. أعني المراد الذي يحبه ربه ويرضاه. فلا يجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب أبدًا، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا، فهو للغالب عليه منهما.

ندوة لطيفة في الرضا

ومنها: أن الراضي واقف مع اختيار الله له. معرض عن اختياره لنفسه.وهذا من قوة معرفته بربه تعالى، ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد، وسفيان الثوري، ويوسف بن أسباط. فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم. وأما اليوم: فوددت أني ميت.

فقال له يوسف بن أسباط: ولِمَ؟

فقال: لما أتخوف من الفتنة.

فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء.

فقال الثوري: ولِمَ تكره الموت؟

قال: لعلي أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا.

فقيل لوهيب: أي شيء تقول أنت؟

فقَّال: أنا لا أختار شيئًا، أحب ذلك إلى أحبه إلى الله.

فقبل الثوري بين عينيه. وقال: روحانية ورب الكعبة.

فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت. وقف مع اختيار الله له منهما. وقد كان وهيب رحمه الله له المقام العالي من الرضا وغيره.

رضا الله عن العبد.. أكبر الثواب

ومنها:أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ بعد قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة] وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا. ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

ومنها: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات: لم يتخير عليه المسائل. وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله عن ذلك.وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يعطي أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء في الحديث: «من شغله

ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» فإن السائلين سألوه. فأعطاهم الفضل الذي سألوه. والرضوان رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم،ولا يمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا، بل أصحابه ملحون في سؤاله ذلك.

ومنها: أن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا. واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته. ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته. ولهذا سمى بعض العارفين الرضا: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل».

ومنها: أن الرضا بالقدر يخلص العبد من أن يرضي الناس بسخط الله. وأن يذمهم على ما لم يؤته الله. وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله. فيكون ظالمًا لهم في الأول وهو رضاهم وذمهم مشركًا بهم في الثاني وهو حمدهم فإذا رضي بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم فخلصه الرضا من ذلك كله.

قلب الراضي بارد

ومنها: أن الرضا يفرغ قلب العبد. ويقلل همه وغمه. فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعي وكان من العلماء قال: قلت لعابد: أوصني. قال: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك. فهو أحرى أن يفرغ قلبك. ويقلل همك. وإياك أن تسخط ذلك، فيحل بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «لقد تركتني هؤلاء الدعوات، ومالي في شيء من الأمور كلها أرب، إلا في مواقع قدر الله، وكان كثيرًا ما يدعو: اللهم ارضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته. ولا تأخير شيء عجلته».

وقال: ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل.

ومنها: أن الله تعالى نهى عن التقدم بين يديه ويدي رسوله في حكمه الديني الشرعي. وذلك عبودية هذا الأمر. فعبودية أمره الكوني القدري: أن لا يتقدم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة

الراجحة في ذلك. فيكون التقدم أيضًا بأمره الكوني والديني، فإذا كان فرضه الصبر أو ندبه، أو فرضه الرضا حتى ترك ذلك: فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره.

ليس لأعمال القلوب نهاية

ومنها: أن أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب. وأما أعمال القلوب: فلا ينتهي تضعيفها. وذلك لأن أعمال الجوارح: لها حد تنتهي إليه. وتقف عنده. فيكون جزاؤها بحسب حدها. وأما أعمال القلوب: فهي: دائمة متصلة، وإن توارى شهود العبد لها.

مثاله: أن المحبة والرضا حال المحب الراضي، لا تفارقه أصلاً. وإن توارى حكمها فصاحبها في مزيد متصل. فمزيد المحب الراضي: متصل بدوام هذه الحال له. فهو في مزيد، ولو فترت جوارحه. بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما.

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله. وقيام غافل عن الله. فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب، والهمم والعزائم لا إلى صور الأعمال. وقيمة العبد: همته وإرادته. فمن لا يرضيه غير الله ولو أعطي الدنيا بحذافيرها له شأن. ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن. وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة. وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحظوظ أكثر وأشق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

الإلحاح في الدعاء عين العبودية

والدعاء لا ينافي الرضا. بل إذا ألح العبد على الله في سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه: فإن ذلك لا يقدح في مقام الرضا. وفي الأثر «إن الله يحب الملحين في الدعاء» وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم بدر للنبي ﷺ: «يا رسول الله قد ألححت على ربك كفاك بعض مناشدتك لربك» فهذا الإلحاح عين العبودية.

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافيا لرضاه.

وحقيقة الرضا: موافقته سبحانه في رضاه، بل الذي ينافي الرضا: أن يلح عليه متحكمًا عليه متخيرًا عليه ما لم يعلم: هل يرضيه أم لا؟ كمن يلح على ربه في ولاية شخص. أو إغنائه. أو قضاء حاجته. فهذا ينافي الرضا، لأنه ليس على يقين أن مرضاة الرب في ذلك.

وربما يفتح على قلبه حال السؤال من معرفة الله ومحبته. والذل له، والخضوع والتملق: ما ينسيه حاجته. ويكون ما فتح له من ذلك أحب إليه من حاجته، بحيث يحب أن تدوم له تلك

الحال. وتكون آثر عنده من حاجته. وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك.

وقال بعض العارفين: إنه لتكون لي حاجة إلى الله. فأسأله إياها. فيفتح على من مناجاته ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه: ما أحب معه أن يؤخر عني قضاءها. وتدوم لي تلك الحال.

* * *

(٣٠) منزلة الشكر

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الشكر»

وهي من أعلى المنازل. وهي فوق منزلة «الرضا» وزيادة. فالرضا مندرج في الشكر. إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان كما تقدم والإيمان نصفان: نصف شكر. ونصف صبر.

وقد أمر الله به. ونهى عن ضده، وأثنى على أهله. ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعده أهله بأحسن جزائه. وجعله سببًا للمزيد من فضله. وحارسًا وحافظًا لنعمته. وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته. وأشتق لهم اسمًا من أسمائه. فإنه سبحانه هو «الشكور» وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً. وهو غاية الرب من عبده. وأهله هم القليل من عباده. قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة] وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة] وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل] وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت] وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان].

وسمى نفسه «شاكرا» و «شكورا» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه. وسماهم باسمه. وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً.

وإعادته للشاكر مشكورًا. كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان] ورضا الرب عن عبده به. كقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُّمَر:٧] وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه. كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «أنه قام حتى تورمت قدماه. فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟»». وقال لمعاذ: «والله يا معاذ، إني لأحبك. فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهم أعني ولا تعن علي. وانصرني ولا تنصر علي.وامكر لي ولا تمكر بي. واهدني ويسر الهدى لي. وانصرني على من بغى علي. رب اجعلني لك شكارًا لك، ذكارًا، لك رهابًا، لك مطاوعًا لك، مخبتا إليك أوَّاها منيبًا. رب تقبل توبتي. واغسل حوبتي. وأجب دعوتي. وثبت حجتي. واهد قلبي. وسدد لساني. واسلل سخيمة صدري».

قواعد الشكر

وأصل «الشكر» في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بينًا. يقال: شكَرت الدابة تَشْكر شكرا على وزن سمنت تَسمن سمنًا. إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور:إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف.

وفي صحيح مسلم «حتى إن الدواب لتَشْكر من لحومهم» أي لتسمن من كثرة ما تأكل منها.

وكذلك حقيقته في العبودية. وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافًا. وعلى قلبه: شهودًا ومحبة. وعلى جوارحه: انقيادًا وطاعة. و«الشكر» مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له. واعترافه بنعمته. وثناؤه عليه بها. وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس: هي أساس الشكر. وبناؤه عليها. فمتى عدم منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحده، فكلامه إليها يرجع. وعليها يدور.

فقيل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم. والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه.

وقيل: هو مشاهدة المنة. وحفظ الحرمة.

وما ألطف ما قال حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا.

وقال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر.

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

هذا معنى قول حمدون «أن يرى نفسه فيها طفيليا».

وقال رويم: الشكر استفراغ الطاقة.

وشكر العامة: على المطعم والمشرب والملبس. وقوت الأبدان.

وشكر الخاصة: على التوحيد والإيمان وقوت القلوب.

وقال الجنيد وقد سأله سري عن الشكر: وهو صبي؟ الشكر: أن لا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ قال: من مجالستك.

وقيل: من قصرت يداه عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر.

والشكر معه المزيد أبدًا. لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] فمتى لم تر حالك في مزيد. فاستقبل الشكر.

وفي أثر إلهي: يقول الله ﷻ: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب».

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها. ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وفي هذا قيل:

ومن الرزية: أن شكري صامت ... عما فعلت، وأن برك ناطق

وأرى الصنيعة منك ثم أسرها ... إني إذًا لندي الكريم لسارق

نعرف نعمة الرب، ونقبلها، ونتحدث بها

أما معرفتها: فهو إحضارها في الذهن، ومشاهدتها وتمييزها.

فمعرفتها: تحصيلها ذهنًا، كما حصلت له خارجًا. إذ كثير من الناس تحسن إليه وهو لا يدري. فلا يصح من هذا الشكر.

وقبولها: هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها. وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه، ولا بذل ثمن. بل يرى نفسه فيها كالطفيلي. فإن هذا شاهد بقبولها حقيقة.

أما الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة فنوعان: عام ، وخاص. فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء. ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمه، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضُّحى].

وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله على بكذا وكذا. قال مقاتل: يعني: اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعًا: «من صنع إليه معروف فليجز به. فإن لم يجد ما يجزي به فَلْيُثْنِ. فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زورا».

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثنى بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحل بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب».

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله. وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة. قال الزجاج: أي بلِّغ ما أرسلت به، وحدِّث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين. إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها. وإظهارها من شكرها.

و«الشكر» سبيل رسل الله وأنبيائه صلى الله عليهم وسلم أجمعين أخص خلقه، وأقربهم إليه.

وليس من مقام أرفع من «الشكر» الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة والرضا، والتوكل وغيرها فإن «الشكر» لا يصح إلا بعد حصولها وتالله ليس لخواص أولياء الله، وأهل القرب منه سبيل أرفع من «الشكر» ولا أعلى.

وإنعام الرب تعالى على عبده: إحسان إليه، وتفضل عليه، ومجرد امتنان. لا لحاجة منه إليه، ولا لمعاوضة، ولا لاستعانة به، ولا ليتكثر به من قلة، ولا ليتعزز به من ذلة، ولا ليقوي به من ضعف. سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضًا: إنعام آخر عليه. وإحسان منه إليه. إذ منفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة. لا إلى الله. والعبد هو الذي ينتفع بشكره. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [لقمان:١٢] فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى. فإنه إنما هو محسن إلى نفسه بالشكر. لا أنه مكافئ به لنعم الرب. فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافئ نعمه أبدًا، ولا أقلها، ولا أدنى نعمة من نعمه. فإنه تعالى هو المنعم المتفضل، الخالق للشكر والشاكر، وما يشكر

عليه. فلا يستطيع أحد أن يحصي ثناء عليه. فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها. فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه. تحتاج إلى شكر آخر. وهلم جرا.

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم بره وكرمه جوده ومحبته له على هذا الشكر ورضاه منه به، وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد لا تعود منفعته على الله. وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه. ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك، ثم يعيد إليك منفعة شكرك

ويجعله سببًا لتوالي نعمه واتصالها إليك، والزيادة على ذلك منها.

وهذا الوجه وحده يكفي اللبيب ليتنبه به على ما بعده.

شكراً على من شكر

والشكر على المكاره: أشد وأصعب من الشكر على المحاب. ولهذا فهو فوقه في الدرجة. ولا يكون إلا من أحد رجلين:

إما رجل لا يميز بين الحالات. بل يستوي عنده المكروه والمحبوب. فشكر هذا: إظهار منه للرضا بما نزل به. وهذا مقام الرضا.

الرجل الثاني: من يميز بين الأحوال. فهو لا يحب المكروه. ولا يرضى بنزوله به،فإذا نزل به مكروه شكر الله تعالى عليه، فكان شكره كظما للغيظ الذي أصابه، وسترًا للشكوى، ورعاية للأدب. وسوكا لمسلك العلم. فإن العلم والأدب يأمران بشكر الله على السراء والضراء فهو يسلك بهذا الشكر مسلك العلم لأنه شاكر لله شكر من رضي بقضائه، كحال الذي قبله . فالذي قبله: أرفع منه.

* * *

(٣١) منزلة الحياء

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الحياء»

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤)﴾ [العلق] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (١٩)﴾ [غافر].

وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «مر برجل وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: «دعه، فإن الحياء من الإيمان».

وفيهما عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير».

وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة فأفضلها: قول لا إله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان».

وفيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها. فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه».

وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» وفي هذا قولان.

أحدهما: أنه أمر تهديد. ومعناه الخبر، أي من لم يستح صنع ما شاء.

والثاني: أنه أمر إباحة. أي انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله. فإن كان مما لا يستحي منه فافعله. والأول أصح. وهو قول الأكثرين.

وفي الترمذي مرفوعا: «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: إنا نستحي يا رسول الله. قال: «ليس ذلكم. ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعي. وليحفظ البطن وما حوي، وليذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا. فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء».

حياة القلب في الحياء

و«الحياء» من الحياة. ومنه «الحيا» للمطر،لكن هو مقصور. وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء. وقلة الحياء من موت القلب والروح. فكلما كان القلب أحيا كان الحياء أتم. قال الجنيد رحمه الله الحياء رؤية الآلاء. ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح. ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق.

وقال السري: إن الحياء والأنس يطرقان القلب. فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحلا.

وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب. وجمود العين. وقلة الحياء. والرغبة في الدنيا. وطول الأمل.

وقال يحيى بن معاذ: من استحيى من الله مطيعا استحيى الله منه وهو مذنب.

ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته. فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل: فإنه إذا واقع ذنبًا استحيى الله ﷻ من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه. فيستحي أن يرى من وليه من يكرم عليه: ما يشينه عنده.

كما أنه حياء كرم وبر وجود وجلال. فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا. ويستحي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام.

أنواع الحياء

وقد قسم «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جناية وحياء تقصير. وحياء إجلال. وحياء كرم. وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها. وحياء محبة. وحياء عبودية. وحياء شرف وعزة. وحياء المستحي من نفسه.

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فر هاربًا في الجنة. قال الله تعالى: « أفرارًا مني يا آدم؟ قال: لا يا رب. بل حياء منك ».

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: «سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك ».

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطوَّلوا الجلوس عنده. فقام واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه.

وحياء الاستحقار، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه ﷻ يسأله حوائجه، احتقارًا لشأن نفسه، واستصغارًا لها.

وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثاني: استعظام مسئوله.

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه. ولا يدري ما سببه. كذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجآته له روعة شديدة. ومنه قولهم «جمال رائع» وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها. فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان. فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة. وهذا له سببان:

أحدهما: هذا.

والثاني: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل. حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه. وهذا يدخل في حياء حياء التلوم. لأنه يستحي من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء في نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون. فيجد نفسه مستحي من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه. فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

حياء الرقابة

وأول الحياء: حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه. فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية. ويسكته عن الشكوى.

فإن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه. يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة.

وأرفع منه درجة: الاستقباح الحاصل عن المحبة. فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف. ولذلك فإن هذا الحياء يكف العبد أن يشتكي لغير الله. فيكون قد شكا الله إلى خلقه. ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه. فإن الشكوى إليه سبحانه فقر، وذلة، وفاقة، وعبودية، فالحياء منه في مثل ذلك لا ينافيها.

الحياء من الإبطاء في التشمير

ثم أرفع منه: حياء يتولد من النظر في علم القرب فيدعوه إلى ركوب المحبة. ويربطه بروح الأنس. ويكره إليه ملابسة الخلق.

والنظر في علم القرب هو تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله. فإن المعية نوعان:

عامة: وهي: معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧].

وخاصة: وهي معية القرب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة] وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة، والنصر والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. فـ «مع» في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة، ولا مجانبة. فمن ظن منها شيئًا من هذا فمن سوء فهمه أتي.

وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصا. وهو نوعان: قربه من داعية بالإجابة. وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] ولهذا نزلت جوابًا للصحابة رضي الله عنهم . وقد سألوا رسول الله ﷺ: ربنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والثاني: قوله ﷺ : «أقرب ما يكون العبد من ربه: وهو ساجد. وأقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل» فهذا قربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح: عن أبي موسى رضي الله عنه . قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير. فقال: «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»».

فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد. وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه، واستواءه على عرشه. بل يجامعه ويلازمه. فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. ولكنه نوع آخر. والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي. ويجده أقرب إليه من جليسه.

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه، الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم. وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه. وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في

المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأتي القرب منها. فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء، وهو مستو على عرشه. وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله، خلي من محبته ومعرفته.

والقصد: أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبة. وكلما ازداد حبًّا ازداد قربًا فالمحبة بين قربين: قرب قبلها، وقرب بعدها. وبين معرفتين: معرفة قبلها حملت عليها، ودعت إليها، ودلت عليها، ومعرفة بعدها. هي من نتائجها وآثارها.

وأما ربطه بروح الأنس: فهو تعلق قلبه بروح الأنس بالله، تعلقًا لازمًا لا يفارقه. بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة. ولا ريب أن هذا يكرِّه إليه ملابسة الخلق. بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدر أنسه بربه، وقرة عينه بحبه وقربه منه. فإنه ليس مع الله غيره. فإن لابسهم لابسهم برسمه دون سِرِّه وروحه وقلبه. فقلبه وروحه في ملأ، وبدنه ورسمه في ملأ.

* * *

(٣٢) منزلة الصدق

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الصدق»

وهو منزل القوم الأعظم. الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه. ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه. من صال به لم ترد صولته. ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تالية لدرجة «النبوة» التي هي أرفع درجات العالمين. ومن مساكنهم في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين. كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين. وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩] فهم إلى الرفيق الأعلى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء] ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحسانًا منه وتوفيقًا.. ولهم مرتبة المعية مع الله فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه. إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له. فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد].

وأخبر تعالى عن أهل البر. وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان والإسلام، والصدقة، والصبر. بأنهم أهل الصدق فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة. وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق. فقال: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٤].

والإيمان أساسه الصدق. والنفاق أساسه الكذب. فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه. قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزُّمَر] فالذي جاء بالصدق: هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله. فالصدق في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها. والصدق في الأعمال استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد والصدق في الأحوال: إستواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص. واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته. ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه: ذروة سنام الصديقية، سمي «الصديق» على الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية. وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ. مع كمال الإخلاص للمرسل.

وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق. فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء] وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء] وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق. فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق. ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله، وفي مرضاته بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها. ولا له ساق ثابتة يقوم عليها. كمخرج أعدائه يوم بدر. ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله ﷺ المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب. فإنه لم يكن بالله، ولا لله. بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة. فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله. فصاحبه ضامن على الله. فهو مدخل صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك.

يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدق. ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة، ودخوله المدينة. ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ. وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق. إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب. والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم] والمراد باللسان هاهنا: الثناء الحسن. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله. أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاءً وفاقا. وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة. كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم] وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم:٢٢] وقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل] ويراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ [القيامة].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة. وفسر بمحمد ﷺ. وفسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة «القدم» ما قدموه وما يقدمون عليه يوم القيامة. وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه. ومن فسره بالأعمال وبالنبي ﷺ: فلأنهم قدموها. وقدموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قدم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله. فهو صدق غير كذب. وحق غير باطل. ودائم غير زائل. ونافع غير ضار. وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي مرفوعًا من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الصدق طمأنينة. والكذب ريبة».

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور. وإن الفجور يهدي إلى النار. وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها. وهي غايته. فلا ينال درجتها كاذب ألبتة. لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله. ولاسيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته، ونفي ما أثبته، أو إثبات ما نفاه عن نفسه. فليس في هؤلاء صدِّيق أبدًا.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه. بتحليل ما حرمه. وتحريم ما لم يحرمه. وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما لم يوجبه، وكراهة ما أحبه، واستحباب ما لم يحبه. كل ذلك مناف للصدِّيقية.

وكذلك الكذب معه في الأعمال: بالتحلي بحلية الصادقين المخلصين، والزاهدين المتوكلين وليس في الحقيقة منهم.

فلذلك كانت الصديقية: كمال الإخلاص والانقياد، والمتابعة للخبر والأمر، ظاهرًا وباطنًا، حتى إن صدق المتبايعين يحل البركة في بيعهما. وكذبهما يمحق بركة بيعهما كما في الصحيحين عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما: محقت بركة بيعهما».

كلمات في حقيقة الصدق

قال عبد الواحد بن زيد: الصدق الوفاء لله بالعمل..

وقيل: موافقة السر النطق.

وقيل: استواء السر والعلانية. يعني أن الكاذب علانيته خير من سريرته. كالمنافق الذي ظاهره خير من باطنه.

وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

وقال الجنيد: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة. والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح. وقد يسبق إلى الذهن خلافه. وأن الكاذب متلون. لأن الكذب ألوان، فهو يتلون بتلونه، والصادق مستمر على حالة واحدة. فإن الصدق واحد في نفسه، وصاحبه لا يتلون ولا يتغير.

لكن مراد الشيخ أبي القاسم صحيح غير هذا. فإن المعارضات والواردات التي ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرائي. بل هو فارغ منها. فإنه يرد عليه من قبل الحق موارد الصادقين على الكاذبين المرائين. ولا يعارضهم الشيطان. كما يعارض الصادقين. فإنه لا أرب له في خربة لا شيء فيها. وهذه الواردات توجب تقلب الصادق بحسب اختلافها وتنوعها. فلا تراه إلا هاربًا من مكان إلى مكان ومن عمل إلى عمل. ومن حال إلى حال ومن سبب إلى سبب. لأنه يخاف في كل حال يطمئن إليها. ومكان وسبب: أن يقطعه عن مطلوبه. فهو لا يساكن حالة ولا شيئًا دون مطلوبه. فهو كالجوَّال في الآفاق في طلب الغنى الذي يفوق به الأغنياء. والأحوال والأسباب تتقلب به، وتقيمه وتقعده، وتحركه وتسكنه، حتى يجد فيها ما يعينه على مطلوبه، وهذا عزيز فيها. فقلبه في تقلب وحركة شديدة بحسب سعة مطلوبه، وعظمته وهمته أعلى من أن يقف دون مطلبه على رسم أو حال، أو يساكن شيئًا غيره. فهو كالمحب الصادق، الذي همته التفتيش على محبوبه. وكذا حال الصادق في طلب العلم، وحال الصادق في طلب الدنيا. فكل صادق في طلب شيء لا يستقر له قرار. ولا يدوم على حالة واحدة.

وأيضا: فإن الصادق مطلوبه رضا ربه، وتنفيذ أوامره، وتتبع محابه. فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها. ويستقل معها أين استقلت مضاربها فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر، ثم في غزو، ثم في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا، ثم في عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو نصر مظلوم إن أمكن إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع.

فهو في تفرق دائم لله، وجميعه على الله. لا يملكه رسم ولا عادة ولا وضع. ولا يتقيد بقيد ولا إشارة. ولا بمكان معين يصلي فيه لا يصلي في غيره. وزي معين لا يلبس سواه. وعبادة معينة لا

يلتفت إلى غيرها، مع فضل غيرها عليها، أو هي أعلى من غيرها في الدرجة. وبعد ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض.

فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع، وعبادة النفس، وإيثار مرادها، والإشارة إليها: كلها في هذه الأوضاع، والرسوم والقيود، التي حبست أربابها عن السير إلى قلوبهم. فضلاً عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى. فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه وزيه وقيده وإشارته ولو إلى أفضل منه استهجن ذلك. ورآه نقصًا، وسقوطًا من أعين الناس، وانحطاطًا لرتبته عندهم، وهو قد انحط وسقط من عين الله.

وقد يحس أحدهم ذلك من نفسه وحاله. ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيه وقيوده: أن يسعي في ترميم ذلك وإصلاحه. وهذا شأن الكذاب المرائي الذي يبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه، العامل على عمارة نفسه ومرتبته. وهذا هو النفاق بعينه. ولو كان عاملاً على مراد الله منه، وعلى الصدق مع الله: لأثقلته تلك القيود، وحبسته تلك الرسوم، ولرأى الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه. ولما يبالي أي ثوب لبس، ولا أي عمل عمل، إذا كان على مراد الله من العبد.

فكلام أبي القاسم الجنيد حق، كلام راسخ في الصدق، عالم بتفاصيله وآفاته، ومواضع اشتباهه بالكذب.

وأيضًا فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي. لا يطيقه إلا أصحاب العزائم. فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل. والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً ألبتة. فهو حامل له في أي موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة. فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله.

قال بعضهم: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.

وقال إبراهيم الخواص: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه.

وقال الجنيد: حقيقة الصدق.. أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب.

وقيل: ثلاث لا تخطئ الصادق: الحلاوة، والملاحة، والهبة.

صدق الاستدراك

وأول الصدق: صدق القصد وبه يتلافى كل تفريط، ويتدارك كل فائت، ويعمر كل خراب، وعلامة هذا الصادق: أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقض عهد، ولا يصبر على صحبة ضد، ولا يقعد عن الجد بحال.

وذلك: كمال العزم، وقوة الإرادة، بأن يكون في القلب داعية صادقة إلى السلوك، وميل شديد

يقهر السر على صحة التوجه، فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور. ولا يكون فيه قسمة بحال، ولا يصح الدخول في شأن السفر إلى الله، والاستعداد للقائه إلا به.

وهو حامل على كل سبب ينال به الوصول، وقطع كل سبب يحول بينه وبينه. فلا يترك فرصة تفوته. وما فاته من الفرص السابقة تداركها بحسب الإمكان. فيصلح من قلبه ما مزقته يد الغفلة والشهوة. ويعمر منه ما خربته يد البطالة. ويوقد فيه ما أطفأته أهوية النفس. ويلم منه ما شعثته يد التفريط والإضاعة. ويسترد منه ما نهبته أكف اللصوص والسراق. ويزرع منه ما وجده بورًا من أراضيه. ويقلع ما وجده شوكًا وشبرقًا في نواحيه. ويستفرغ منه ما ملأته مواد الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعطب. ويداوي منه الجراحات التي أصابته من عبرات الرياء. ويغسل منه الأوساخ والحوبات التي تراكمت عليه على تقادم الأوقات، حتى لو اطلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذي صار دباغًا له، فيطهره بالماء البارد من ينابيع الصدق الخالصة من جميع القاذورات، قبل أن يكون طهوره بالجحيم والحميم. فإنه لا يجاور الرحمن قلب دنس بأوساخ الشهوات والرياء أبدًا. ولابد من طهور. فاللبيب يؤثر أسهل الطهورين وأنفعهما. والله المستعان.

والصادق حقيقة: هو الذي قد انجذبت قوى روحه كلها إلى إرادة الله وطلبه، والسير إليه، والاستعداد للقائه. ومن تكون هذه حاله: لا يحتمل سببا يدعوه إلى نقض عهده مع الله بوجه.

وكذلك لا يصبر على صحبة الضد،وهم أهل الغفلة،وقطاع طريق القلب إلى الله. وأضر شيء على الصادق. صحبتهم، بل لا تصبر نفسه على ذلك أبدًا، إلا جمع ضرورة. وتكون صحبتهم، له في تلك الحال بقالبه وشبحه. دون قلبه وروحه. فإن هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدق في الصادق:أحست روحه بالأجنبية التي بينه وبينهم بالمضادة. فاشتدت النفرة. وقوي الهرب. وبحسب هذه الأجنبية وإحساس الصادق بها: تكون نفرته وهربه عن الأضداد. فإن هذا الضد إن نطق أحس قلب الصادق: أنه نطق بلسان الغفلة، والرياء والكبر، وطلب الجاه، ولو كان ذاكرًا أو قارئًا، أو مصليا أو حاجًّا، أو غير ذلك. فنفر قلبه منه. وإن صمت أحس قلبه: أنه صمت على غير حضور وجمعية على الله، وإقبال بالقلب عليه، وعكوف السر عليه، فينفر منه أيضًا. فإن قلب الصادق قوى الإحساس.

فيجد الغيرية والأجنبية من الضد. ويشم القلب القلب كما يشم الرائحة الخبيثة، فيزوي وجهه لذلك. ويعتريه عبوس. فلا يأنس به إلا تكلفًا. ولا يصاحبه إلا ضرورة. فيأخذ من صحبته قدر الحاجة. كصحبة من يشتري منه، أو يحتاج إليه في مصالحه، كالزوجة والخادم ونحوه.

كثيرك قليل

وهذه المنزلة تقوده إلى أن لا يتمنى الحياة إلا للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان، فهو لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضا محبوبه. ويقوم بعبوديته. ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه، وتدنيه منه. لا لعلة من علل الدنيا. ولا لشهوة من شهواتها، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما ينتقي أطايب التمر».

يريد ﷺ: الجهاد والصلاة، والعلم النافع. وهذه درجات الفضائل. وأهلها هم أهل الزلفى، والدرجات العليا.

وقال معاذ ﷺ عند موته: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر».

وهو في ذلك لا يرى نفسه إلا مقصرًا. والموجب له لهذه الرؤية: استعظام مطلوبه. واستصغار نفسه،ومعرفته بعيوبها، وقلة زاده في عينه، فمن عرف الله وعرف نفسه: لم ير نفسه إلا بعين النقصان.

وأيضا: فإن الصادق مضطر أشد ضرورة إلى متابعة الأمر، والتسليم للرسول ﷺ في ظاهره وباطنه، والاقتداء به، والتعبد بطاعته في كل حركة وسكون، مع إخلاص القصد لله ﷻ، فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلا ذلك. وما عدا هذا فقوت النفس، ومجرد حظها، واتباع أهوائها. وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلوات ما كان. فإن الله سبحانه وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملاً، أو يرضى به، حتى يكون على متابعة رسوله ﷺ، خالصًا لوجهه سبحانه.

ومن هاهنا يفارق الصادق أكثر السالكين: بل يستوحش في طريقه. وذلك لقلة سالكها. فإن أكثرهم سائرون على طرق أذواقهم. وتجريد أنفاسهم لنفوسهم، والصادق في وادٍ. وهؤلاء في وادٍ.

* * *

(٣٣) منزلة الإيثار

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الإيثار»

قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

فالإيثار ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شح عليه، وبخل بإخراجه. فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم. أمرهم بالبخل فبخلوا. وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

فالبخيل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود. كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

وسمي بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى مراتبه، فإن المراتب ثلاثة:

إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويبقي له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطى. فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأثرة» وهي استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه. وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار رضي الله عنهم: «إنكم ستلقون بعدي أثرة. فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفا.

وكان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين. حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة: فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر مناديا ينادي: من كان لقيس عليه ما لا فهو منه في حل. فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده.

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير سبحانه استئثار الناس على الأنصار بالدنيا

وهم أهل الإيثار ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك مع كونك من أهل الإيثار فاعلم أنه لخير يراد بك. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مصاعد الجود

و«الجود» عشر مراتب:

أحدها: الجود بالنفس، وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس، إذ ضنَ البخيل بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة. وهو ثاني مراتب الجود. فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه. فيجود بها تعبًا وكَدًا في مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره، كما قيل:

متيم بالندى، لو قال سائله   هب لي جميع كرى عينيك، لم ينم

الرابعة: الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال. لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلاً أبدًا.

ومن الجود به: أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحًا.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابًا شافيا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرًا عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في ذلك أمرًا عجيبًا:

كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته. فيكون فرحه بتلك المتعلقات، واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه رحمه الله بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر لـه نظائرهـا ومتعلقهـا ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة ﭫ النبي ﷺ عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته» فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكان إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عـن بيـع الرطـب بـالتمر؟ فقال: «أينقص الرطب إذا جف؟» قالوا: نعم. قال: «فلا. إذن» ولم يكن يخفي عليـه ﷺ نقـصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جـدًّا في أجوبتـه ﷺ. مثـل قولـه: «إن بعت من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ مـن مـال أخيـك شـيئا. بـم يأخـذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟» وفي لفظ: «أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحـدكم مـال أخيـه بغير حق؟» فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامـه بـالثمن. وهـي منـع الله الثمـرة التـي لـيس للمشتري فيها صنع.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه. كالشفاعة والمشي مع الرجـل إلى ذي سـلطان ونحـوه. وذلـك زكاة الجاه المطالب بها العبد. كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال ﷺ: «يصبح على كـل سـلامي مـن أحدكم صدقة. كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بـين اثنـين: صـدقة. ويعـين الرجـل في دابتـه، فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقة. والكلمة الطيبة: صدقة، وبكـل خطـوة يمـشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة، ويميط الأذى عن الطريق: صدقة» متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم مـن الـصحابة ﭬ. كـان إذا أصـبح قـال: «اللهم إنه لا مال لي، أتصدق به على الناس، وقـد تـصدقت علـيهم بعـرضي، فمـن شـتمني، أو قذفني: فهو في حل. فقال النبي ﷺ: «من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟»».

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء. وهذه مرتبة شريفـة مـن مراتبـه. وهـي أنفـع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنـصر، وأملـك لنفـسه، وأشرف لهـا. ولا يقـدر عليهـا إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود. فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الـدنيا قبـل الآخرة. وهذا جود الفتـوة. قـال تعـالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ﴾ [المائدة:٤٥] وفي هذا الجود. قال تعـالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [الشورى] فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقـام العـدل، وأذن فيـه، ومقام الفضل، وندب إليه. ومقام الظلم، وحرمه.

التاسعة: الجود بالخلق والبشر والبسطة. وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه» وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه. والعبد لا يمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يتلفت إليه.ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه، وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك: «إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل».

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فجد عليهم بزهدك في أموالهم. وما في أيديهم، تفضل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال. والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك، والله المستعان.

سعة الضيق

وبداية الارتقاء في مدارج الإيثار: أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يخرم عليك دينًا، ولا يقطع عليك طريقًا، ولا يفسد عليك وقتًا. وذلك بأن تقدمهم على نفسك في مصالحهم. مثل أن تطعمهم وتجوع. وتكسوهم وتعرى. وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين. ومثل أن تؤثرهم بمالك وتقعد كلًّا مضطرًّا، مستشرقًا للناس أو سائلاً.

وأما أن لا يقطع عليك طريقا: فذلك طريق الطلب والمسير إلى الله تعالى، مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك، وتوجهك وجمعيتك على الله. فتكون قد آثرته على الله. وآثرت بنصيبك من الله ما لا يستحق الإيثار. فيكون مثلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه، وأخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق.وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالى. فإيثارهم عليه عين الغبن، إلا أن تكون مجالسة ضيف أو نحوه، فإن ذلك من تمام الجود والإيثار، كما ذكرنا.

وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته: قبيح أيضًا. أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمه على الله، فيفرق قلبه عليه بعد جمعيته، ويشتت خاطره، فهذا أيضًا إيثار غير محمود.

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تتعين عليك، على الفكر النافع واشتغال القلب بالله، ما لم يكن نصر مظلوم وإغاثة لهفان أو شفاعة حسنة.

ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقرب. وقالوا: إنه مكروه أو حرام. كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة.

لا تخف في الله لومة لائم

ويظل السائر يرتقي حتى يؤثر رضا الله على رضا غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن، وضعف عنه الطول والبدن.

فهو يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق. وهي درجة الأنبياء. وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه. وأعلاها لأولي العزم منهم. وأعلاها لنبينا ﷺ فإنه قاوم العالم كله. وتجرد للدعوة إلى الله. واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى. وآثر رضا الله على رضا الخلق من كل وجه. ولم يأخذ في إيثار رضاه لومة لائم. بل كان همه وعزمه وسعيه كله مقصورًا على إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه. حتى ظهر دين الله على كل دين . وقامت حجته على العالمين. وتمت نعمته على المؤمنين. فبلغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه. فلم ينل أحد من درجة هذا الإيثار ما نال صلوات الله وسلامه عليه.

والمحنة تعظم على صاحب هذا الإيثار. ليتأخر من ليس من أهله. فإذا احتملها وتقدم: انقلبت تلك المحن منحًا. وصارت تلك المؤن عونًا وهذا معروفًا بالتجربة للخاصة والعامة. فإنه ما آثر عبد مرضاة الله ﷻ على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محنته: إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته. فانقلبت مخاوفه أمانًا. ومظان عطبه نجاة، وتعبه راحةٌ، ومؤنته معونة، وبليته نعمة، ومحنته منحة، وسخطه رضا، فيا خيبه المتخلفين، ويا ذلة المتهيبين.

هذا، وقد جرت سنة الله التي لا تبديل لها أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه. ويخذله من جهته. ويجعل محنته على يديه. فيعود حامد ذامًّا. ومن آثر مرضاته ساخطًا. فلا على مقصوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل. وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضا الخلق: لا مقدور، ولا مأمور، ولا مأثور، فهو مستحيل. بل لابد من سخطهم عليك. فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضا الله عنك أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض. فإذا كان سخطهم لابد منه على التقديرين فآثر سخطهم الذي ينال به رضا الله. فإن هم رضوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيء رضا من لا ينفعك رضاه، ولا يضرك سخطه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك، فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم. وخاصة العقل: احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما. وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما. فوازن بعقلك. ثم انظر أي الأمرين خير فآثره، وأيهما شر فابعد عنه. فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضا الله على رضا الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضا الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال الشافعي ﷺ: رضا الناس غاية لا تدرك. فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

ومن المعلوم: أن المؤثر لرضا الله متصدٍ لمعاداة الخلق وأذاهم، وسعيهم في إتلافه ولابد. هذه سنة الله في خلقه. وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل، والذين يأمرون بالقسط من الناس، والقائمين بدين الله، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم؟

فمن آثر رضا الله فلابد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم، وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه. فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله، عامل على سماع خطاب ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر] ومن إسلامه صلب كامل لا تزعزعه الرجال. ولا تقلقله الجبال، ومن عقد عزيمة صبره محكم لا تحله المحن والشدائد والمخاوف.

وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمهم له، فإذا زهد في هذين الشيئين، تأخرت عنه العوارض كلها، وانغمس حينئذ في العساكر.

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين، وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيئين أيضا: بصدق اللجأ والطلب،والتصدي للأسباب الموصلة إليهما.

فإلى هاهنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم، والتوفيق بعد بيد من أزمة الأمور كلها بيده: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان].

* * *

(٣٤) منزلة الخُلق

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الخُلق»

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

قال ابن عباس ومجاهد: لعلى دين عظيم، لا دين أحب إلى ولا أرضى عندي منه. وهو دين الإسلام.

وقال الحسن رضي الله عنه: هو آداب القرآن.

وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله. وينهى عنه من نهي الله. والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين: أن هشام بن حكيم سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئا».

وقد جمع الله من مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف] قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق. وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأل، فسأل. ثم رجع إليه. فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال:

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال،ومعاد له معارض، وعليه في كل واحد من هذه واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف. وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم. وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوعت له به أنفسهم، سماحة واختيارًا، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم. وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم

لنفسه. فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما خذ ما عفا لك من أموالهم. وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو كل معروف. وأعرفه: التوحيد. ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه. كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان] وعلى هذا فليست بمنسوخة. بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه. ولا ينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه ﷺ. قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا» وقال: «ما مسست ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ. ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ. ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين. فما قال لي قط: أف. ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟ متفق عليه.

وأخبر رسول الله ﷺ: «أن البر: هو حسن الخلق».

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: البر حسن الخلق. والإثم ما حاك في صدرك. وكرهت أن يطلع عليه الناس».

فقابل البر بالإثم.وأخبر: أن البر حسن الخلق. والإثم: حواز الصدور. وهذا يدل على أن حسن الخلق: هو الدين كله. وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام. ولهذا قابله بالإثم.

وفي حديث آخر: «البر: ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في الصدر» وقد فسر حسن الخلق بأنه البر. فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب. والإثم حواز الصدور، وما حاك فيها، واسترابت به. وهذا غير حسن الخلق وسوءه في عرف كثير من الناس. كما سيأتي في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «خياركم أحاسنكم أخلاقا».

وفي الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق. وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفيه أيضًا وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج».

وفيه أيضا عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ وصححه: «إن من أكمل المؤمنين إيمانًا: أحسنهم خلقًا. وخياركم: خياركم لنسائهم».

وفي الصحيح عن عائشة عنه ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عنه ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا. وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» رواه الطبراني وإسناده صحيح.

فجعل البيت العلوي جزءًا لأعلى المقامات الثلاثة: وهي حسن الخلق، والأوسط لأوسطها وهو ترك الكذب، والأدنى لأدناها. وهو ترك المماراة. وإن كان معه حق. ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

وفي الترمذي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا. وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون المتفيهقون» قالوا: يا رسول الله. قد علمنا الثرثارون والمتشدقون. فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون» الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية. والمتشدق: المتكلم بملء فيه تفاصحًا وتعاظمًا وتطاولاً، وإظهارًا لفضله على غيره. وأصله: من الفهق. وهو الامتلاء.

الأخلاق الأساسية

وحُسن الخلق يقوم على أربعة أركان. لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء. وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندي، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش. كما قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب» وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها طرفي الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن. والكمال نقصًا والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضي، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه.

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والحسنة واللؤم، والذل والحرص، والشح وسفاسف الأمر والأخلاق.

ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والطيش.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضًا، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضًا.

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين. وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير. والتواضع: الذي يكتفه خلقًا الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن «التوسط» انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولابد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع» انحرفت: إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة. وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت: إما إلى قحة وجرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة، بحيث يطمع في نفسه عدوه. ويفوته كثير من مصالحه. ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء. وإنما هو المهانة والعجز، وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق «الصبر المحمود» انحرفت: إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع.

وإذا انحرفت عن خلق «الحِلم» انحرفت: إما إلى الطيش والترف والحدة، والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة. ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف. كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللئام

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت: إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة. والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت: إما إلى كبر، وإما إلى ذل. والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت: إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغبطة» انحرفت: إما إلى حسد، وإما إلى مهانة، وعجز وذل ورضي بالدون.

وإذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: إما إلى حرص وكَلَبٍ، وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق «الرحمة» انحرفت: إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس، كمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد. ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك. وقد ذبح أرحم الخلق ﷺ بيده في موضع واحد ثلاثًا وستين بدنة. وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق. وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم. وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود. فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وطي البشر عن البشر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة، والنفرة في قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه. وفي صفة نبينا ﷺ :من رآه بديهة هابه. ومن خالطه عشرة أحبه، والله أعلم.

فضيلة المغالبة

اعلم أن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية: تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها. وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها.

لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها. فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز: كسر جيوش الرياضة وشتتها. واستولى على مملكة الطبع.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق. ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها. ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها.

ونقدم قبل هذا مثلاً نضربه. مطابقًا لما نريده. وهو: نهر جار في صببه ومنحدره ومُنتهٍ إلى تغريق أرض وعمران ودور. وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يخرب دورهم. ويتلف أراضيهم وأموالهم. فانقسموا ثلاث فرق.

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سكره وحبسه وإيقافه. فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر. فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحمل على السكر، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وفرقة رأت هذه الحالة. وعلمت أنه لا يغني عنها شيئًا. فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع. فرامت قطعة من أصله. فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشد الإباء، فهم دائمًا في قطع الينبوع، وكلما سدوه من موضع نبع من موضع فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

فجاءت فرقة ثالثة، خالفت رأي الفرقتين، وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم. فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه. ولا يتضررون به. فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات. وسقوها به. فأنبتت أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المثل، فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان بل وسائر الحيوان على طبيعة محمولة على قوتين: غضبية. وشهوانية. وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها. وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان. فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب المنافع إلى نفسه. وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها. فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص. وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة فإذا عجز عن ذلك الضار: أورثه قوة الحقد. وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه، ورأى غيره مستبدًّا به: أورثه الحسد. فإن ظفر به. أورثته شدة شهوته وإرادته: خلق البخل والشح. وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه: أورثه ذلك العدوان، والبغي والظلم، ومنه يتولد : الكبر والفخر والخيلاء. فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب.

فإذا تبين هذا: فالنهر مثال هاتين القوتين. وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراها إلى دور القلب وعمرانه وحواصله، يخربها ويتلفها ولابد. فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه فخرب

ديار الإيمان.. وقلع آثاره.وهدم عمرانه. وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة، من حنظل وضريع وشوك وزقوم. وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأما النفوس الزكية الفاضلة: فإنها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهر. فافترقوا ثلاث فرق.

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتمرينات: راموا قطعه من ينبوعه. فأبت عليهم ذلك حكمة الله تعالى، وما طبع عليه الجبلة البشرية. ولم تنقد له الطبيعة. فاشتد القتال. ودام الحرب وحمي الوطيس. وصارت الحرب دولاً وسجالاً. وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات.

وفرقة أعرضوا عنها. وشغلوا نفوسهم بالأعمال. ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخيلتهم إياها على مجراها، لكن لم يمكنوا نهرها من إفساد عمرانهم. بل اشتغلوا بتحصين العمران، وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لابد أن يصل إليه. فإذا وصل وصل إلى بناء محكم فلم يهدمه. بل أخذ عنه يمينًا وشمالاً. فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة، وإحكام البناء. وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها، خوفًا من هدم البناء.

وقد سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ؟ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر. فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها: انقطع. ولم يمكنه السفر قط. ولكن لتكن همتك المسير. والإعراض عنها. وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله. ثم امض على سيرك.

إذا تبين هذا. فهذه الفرقة الثالثة رأت أن هذه الصفات ما خلقت سدى ولا عبثًا. وأنها بمنزلة ماء يسقى به الورد. والشوك، والثمار، والحطب، وأنها صوان وأصداف لجواهر منطوية عليها. وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر. فرأوا أن الكبر نهر يسقى به العلو والفخر، والبطر والظلم والعدوان. ويسقى به علو الهمة، والأنفة، والحمية، والمراغمة لأعداء الله، وقهرهم والعلو عليهم. وهذه درة في صدفته. فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس. واستخرجوا هذه الدرة من صدفته. وأبقوه على حاله في نفوسهم. لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع. وقد رأى النبي ﷺ أبا دجانة يتبختر بين الصفين. فقال: «إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموضع».

فانظر كيف خلَّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه.

وفي الحديث الآخر وأظنه في المسند :«إن من الخيلاء ما يحبها الله. ومنها ما يبغضها الله. فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصدقة».

فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصولاً؟

فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات، والخلوات: هيهات هيهات، إنما يوقعه ذلك في الآفات، والشبهات، والضلالات. فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل. وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها. وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليمًا وبيانا، وإرشادًا ، لا خلقا ولا إلهاما. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة] وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة].

وتزكية النفوس : أصعب من علاج الأبدان وأشد. فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل: فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم. وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد. والتسليم لهم. والله المستعان.

من كل حسب قدرته

وأساس الأخلاق:أن تعرف مقام الخلق. وأنهم بأقدارهم مربوطون. وفي طاقتهم محبوسون وعلى الحكم موقوفون: فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك، ومحبة الخلق إياك، ونجاة الخلق بك.

فبهذه الدرجة: يكون تحسين الخلق مع الخلق في معاملتهم، وكيفية مصاحبتهم. فإنك إذا عرفت مقام الخلق، ومقاديرهم، وجريان الأحكام القدرية عليهم، وأنهم مقيدون بالقدر، لا خروج لهم عنه ألبتة، ومحبوسون في قدرتهم وطاقتهم، ولا يمكنهم تجاوزها إلى غيرها. وأنهم موقوفون على الحكم الكوني القدري لا يتعدونه، استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء:

أمن الخلق منك. وذلك: أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة. لم يطالبهم بما لا يقدرون عليه. وامتثل فيهم أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بأخذ العفو منهم. فأمنوا من تكليفه إياهم وإلزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرهم.

وأيضًا فإنهم يؤمنون لائمته. فإنه في هذه الحال عاذر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم. لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس. وعذرهم بما يعذر به المحبوس. وإذا بدا منهم في حقك تقصير أو إساءة، أو تفريط. فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم. بل اغفر لهم ذلك واعذرهم. نظرًا إلى جريان الأحكام عليهم، وأنهم آلة. وهاهنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جنايتهم عليك، كما قال بعض العارفين لرجل تعدى عليه وظلمه: إن كنت ظالما فالذي سلطك علي ليس بظالم.

وهاهنا للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه.

محن الدعاة.. سنة كونية قضاها الله

أحدها: هذا ، وهو مشهد «القدر» وأن ما جرى عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره. فيراه كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم،وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار. فإن الكل أوجبته مشيئة الله. فما شاء الله كان. ووجب وجوده. ولم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا: استراح. وعلم أنه كائن لا محالة. فما للجزع منه وجه. وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

للصبر في المحن لذة

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور. ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام. فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة. وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا على هذا وهو محمود صبر اضطرارًا على أكبر منه. وهو مذموم.

عز العفو

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشي في بصيرته. فإن« ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا» كما صح ذلك عن النبي ﷺ.وعلم بالتجربة والوجود. وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ.

هذا، وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

نرضى ليرضى

المشهد الرابع: مشهد «الرضا» وهو فوق مشهد «العفو والصفح» وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، لاسيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله. فإذا كان ما أصيب به في الله ، وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله. وهذا شأن كل محب صادق، يرضى بما يناله في رضا محبوبه من المكاره. ومتى تسخط به وتشكى منه، كان ذلك دليلاً على كذبه في محبته.

نحسن لمن أساء

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان» وهو أرفع مما قبله. وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان. فيحسن إليه كلما أساء هو إليه. ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته،ومحاها من صحيفته. وأثبتها في صحيفة من أساء إليه. فينبغي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك.

وهاهنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة الثواب. وهذا المسكين قد وهبك حسناته. فإن

كنت من أهل الكرم فأثبه عليها، لتثبت الهبة. وتأمن رجوع الواهب فيها.

وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم. وأهل العزائم.

ويهونه عليك أيضًا: علمك بأن الجزاء من جنس العمل. فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوت عنه. وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلِّك. فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك. يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك. فهذا لابد منه.

خواطر الثأر تستهلك القلب

المشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب» وهذا مشهد شريف جدًّا لمن عرفه، وذاق حلاوته. وهو أن لا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى، وطلب الوصول إلى درك ثأره، وشفاء نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك. ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له. وألذ وأطيب. وأعون على مصالحه. فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه. فيكون بذلك مغبونًا. والرشيد لا يرضى بذلك. ويرى أنه من تصرفات السفيه. فأين سلامة القلب من امتلاكه بالغل والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟

العفو يقطع إلحاح الجاهل في الظلم

المشهد السابع: مشهد «الأمن » فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك. وإذا انتقم: واقعه الخوف ولابد. فإن ذلك يزرع العداوة. والعاقل لا يأمن عدوه، ولا كان حقيرًا. فكم من حقير أردى عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم ، ولم يقابل: أمن من تولد العداوة، أو زيادتها.ولابد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه. ويكف من جزعه، بعكس الانتقام. والواقع شاهد بذلك أيضًا.

صفقة رابحة ثمنها .. عرض ودماء

المشهد الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله. وأمرهم بالمعروف. ونهيهم عن المنكر. وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته.

وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن. فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها. فلا حق له على من آذاه. ولا شيء له قبله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع. فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة

أعزها الله ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصدِّيق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم. قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله. وأجورها على الله. ولا دية لشهيد» فصفق الصحابة على قول عمر. ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذي في الله: حرم الله عليه الانتقام. كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان].

تكفير الخطايا بالمحن.. نعمة

المشهد التاسع: مشهد «النعمة» وذلك من وجوه:

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلومًا يترقب النصر. ولم يجعله ظالما يترقب المقت والأخذ. فلو خير العاقل بين الحالتين ولابد من إحداهما لاختار أن يكون مظلومًا.

ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه. فإنه ما أصاب المؤمن هَم ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياه فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب. ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء: فهو مغبون سفيه. فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك. فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه. وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك على يدي من نفعك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها. فإن ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر. فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده. وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة. وأنها في الحقيقة نعمة. والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

هذا. وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قبل الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض. فالعاقل يعد هذا ذخرًا ليوم الفقر والفاقة. ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئًا.

على الدرب.. نجدد المثال

المشهد العاشر: مشهد «الأسوة» وهو مشهد لطيف جدًّا. فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسل الله، وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه، فإنهم أشد الخلق امتحانًا بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور. ويكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله. وقد قال له ورقة بن نوفل: «لتكذبن،

ولتخرجن، ولتؤذين» وقال له: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي» وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ.

فلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله، وخواص عباده: الأمثل فالأمثل؟

ومن أحب معرفة ذلك فليقف على محن العلماء، وأذى الجهال لهم. وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتابًا سماه «محن العلماء».

السائر إلى الله.. لا توقفه الأشواك

المشهد الحادي عشر: مشهد «التوحيد» وهو أجل المشاهد وأرفعها. فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والأنس به، واطمأن إليه. وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتخذه وليا دون من سواه، بحيث فوّض إليه أموره كلها ورضي به وبأقضيته. وفني بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه، عن كل ما سواه فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له ألبتة. فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بطلب الانتقام والمقابلة.

فهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه. فهو قلب جائع غير شبعان. فإذا رأى أي طعام رآه هفت إليه نوازعه. وانبعثت إليه دواعيه. وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها. فإنه لا يلتفت إلى ما دونها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءه. والله ذو الفضل العظيم.

اطلب العذر.. واشكر

ولا تتم هذه المشاهد إلا بتحسين خلقك مع الحق تعالى، بأن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذرًا، وأن كل ما يأتي من الحق سبحانه يوجب شكرًا.

وهذه الدرجة مبنية على قاعدتين:

إحداهما: أن تعلم أنك ناقص. وكل ما يأتي من الناقص ناقص. فهو يوجب اعتذاره منه لا محالة. فعلى العبد أن يعتذر إلى ربه من كل ما يأتي به من خير وشر. أما الشر: فظاهر، وأما الخير. فيعتذر من نقصانه، ولا يراه صالحًا لربه.

فهو مع إحسانه معتذر في إحسانه. ولذلك مدح الله أولياءه بالوجل منه مع إحسانهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] وقال النبي ﷺ: «هو الرجل يصوم، ويتصدق. ويخاف أن لا يقبل منه» فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى.

والحامل له على هذا الاعتذار أمران:

أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه.

والثاني: صدق محبته. فإن المحب الصادق يتقرب إلى محبوبه بغاية إمكانه.

وهو معتذر إليه، مستحى منه: أن يواجهه بما واجهه به. وهو يرى أن قدره فوقه وأجل منه. وهذا مشاهد في محبة المخلوقين.

القاعدة الثانية: استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك، والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليك، وأنك عاجز عن شكره. ولا يتبين هذا إلا في المحبة الصادقة. فإن المحب يستكثر من محبوبه كل ما يناله. فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه: كان سروره بذكره له، وتأهيله لعطائه: أعظم عنده من سروره بذلك العطاء بل يغيب بسروره بذكره له عن سروره بالعطية.

التجريدان المتكاملان

ومدار حسن الخلق مع الحق، ومع الخلق: على حرفين. ذكرهما عبد القادر الكيلاني فقال: كن مع الحق بلا خلق. ومع الخلق بلا نفس.

فتأمل. ما أجمل هاتين الكلمتين، مع اختصارهما، وما أجمعهما لقواعد السلوك. ولكل خلق جميل؟ وفساد الخُلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله تعالى. وتوسط النفس بينك وبين خلقه. فمتى عزلت الخَلق حال كونك مع الله تعالى وعزلت النفس حال كونك مع الخلق فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم. وشمروا إليه. وحاموا حوله. والله المستعان.

* * *

(٣٥) منزلة التواضع

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة « التواضع »

قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان:٦٣] أي سكينة ووقار متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين ولا متكبرين. قال الحسن: علماء حلماء. وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سفه عليهم حلموا.

و«الهون» بالفتح في اللغة: الرفق واللين. و«الهون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤].

لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة «على» تضميناً لمعاني هذه الأفعال. فإنه لم يرد به ذلك الهوان الذي صاحبه ذليل. وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول. كما في الحديث : «المؤمن كالجمل الذلول. والمنافق والفاسق ذليل» وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب. والنمام. والبخيل، والجبار.

وقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة. قال عطاء رضي الله عنه : للمؤمنين كالوالد لولده. وعلى الكافرين كالسبع على فريسته. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩].

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله أوحى إلي: أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد من أحد. ولا يبغي أحد على أحد».

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

وفي الصحيحين مرفوعا: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جوَّاظ مستكبر».

وفي حديث احتجاج الجنة والنار: «أن النار قالت: مالي لا يدخلني إلا الجبارون، والمتكبرون؟ وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم» وهو في الصحيح.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ : «يقول الله عز وجل: العزة إزاري، والكبرياء ردائي. فمن نازعني عذبته».

وفي جامع الترمذي مرفوعًا عن سلمة بن الأكوع ﵁ : «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين. فيصيبه ما أصابهم».

وكان النبي ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ . فتنطلق به حيث شاءت.

وكان النبي ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط.

وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم. ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه. ولو إلى أيسر شيء.

وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق. كريم الطبع. جميل المعاشرة. طلق الوجه بسامًا، متواضعًا من غير ذلة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب رحيما بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم.

وقال ﷺ : «ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ أو تحرم عليه النار تحرم على كل قريب هين لين سهل» رواه الترمذي. وقال: حديث حسن.

وقال: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إلى ذراع أو كراع لقبلت» رواه البخاري.

وكان ﷺ يعود المريض. ويشهد الجنازة. ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف.

دوائر التواضع

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق، وينقاد له. ويقبله ممن قاله.

وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب، وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب.

وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان. والعز في التواضع. فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع. والعز في التقوى. والحرية في القناعة.

وقال عروة بن الزبير ﵄ : رأيت عمر بن الخطاب ﵁ على عاتقه قربة ماء، فقلت: «يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين. دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها».

وولي أبو هريرة ﵁ إمارة مرة. فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره. ويقول: طرّقوا للأمير.

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز: فاستضافوه. فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله. فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم. لأنهم لا يجدون شيئًا غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه.

ويذكر أن أبا ذر ﵁ عير بلالاً ﵁ بسواده، ثم ندم. فألقى بنفسه فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه. فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال.

وقال رجاء بن حيوة: قوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز ﵁ وهو يخطب باثني عشر درهما. وكانت قباء وعمامة وقميصًا وسروالاً ورداء وخفين وقلنسوة.

وبلغ عمر بن عبد العزيز ﵁ أن ابنًا له اشترى له خاتمًا بألف درهم. فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فصًّا بألف درهم. فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم. وأشبع به ألف بطن. واتخذ خاتمًا بدرهمين. واجعل فصه حديدًا صينيا. واكتب عليه: رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه. والله أعلم.

الانقياد للحق روح التواضع

وروح التواضع:أن يتواضع العبد لصولة الحق.

بأن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رقه. بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه. فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع. ولهذا فسر النبي ﷺ الكبر بضده. فقال: «الكبر بطر الحق، وغمص الناس» فبطر الحق: رده وجحده، والدفع في صدره. كدفع الصائل. و«غمص الناس» احتقارهم، وازدراؤهم. ومتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم. وجحدها، واستهان بها.

ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة: كانت النفوس المتكبرة لا تقر له بالصولة على تلك الصولة التي فيها، ولاسيما النفوس المبطلة. فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها. فكان حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها. فلا يقابلها بصولته عليها.

لا نعارض الدليل والمنقول برأي أو قياس

وركنه الأهم: التواضع للدين.وهو أن لا يعارض بمعقول منقولاً ولا يتهم للدين دليلاً. ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً.

و«التواضع للدين» هو الانقياد لما جاء به الرسولﷺ، والاستسلام له، والإذعان، وذلك بثلاثة أشياء :

الأول: أن لا يعارض شيئًا مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة:

بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة. وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل.وعزلنا النقل.

والثانية: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص: قدمنا القياس على النص. ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد. فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر. قدموا الذوق والحال. ولم يعبئوا بالأمر.

والرابعة: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين. إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة. قدموا السياسة. ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. والتواضع: التخلص من ذلك كله.

الثاني: أن لا يتهم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه. ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه، كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه ... على قدر القرائح والفهوم

وهكذا الواقع في الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحد دليلاً للدين إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن. المأفون في عقله، وذهنه، فالآفة من الذهن العليل. لا في نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزًا من كنوز العلم. ولم تؤت مفتاحه بعد هذا في حق نفسك.

لأنك لم تأخذ له السبيل السوي من صدق الإخلاص والضراعة إلى الله مقلِّب القلوب، ولأنك لم تأخذ الأسباب المصفية لذهنك المنظفة لقلبك، من صدق التوجه إلى هدي رسول الله ﷺ، لتستأهل هذا الكنز.

وأما بالنسبة إلى غيرك: فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي، وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست على شيء.

قال الشافعي، قدس الله روحه : أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد.

الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة. لا بباطنه، ولا بلسانه ولا بفعله. ولا بحاله.

بل إذا أحس بشيء من الخلاف: فهو كخلاف المقدم على الزنا. وشرب الخمر، وقتل النفس. بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك. وهو داع إلى النفاق. وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلم أن المخالف للنص لقول متبوعه وشيخه ومقلده، أو لرأيه ومعقوله، وذوقه، وسياسته إن كان عند الله معذورًا، ولا والله ما هو بمعذور فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعذر عند الله ورسوله، وملائكته. والمؤمنين من عباده.

فواعجبًا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليدًا، أو تأويلاً، أو لغير ذلك. فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم، وأقوال شيوخهم. لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصبوا له الحبائل. وبغوه الغوائل. ورموه بالعظائم. وجعلوه أسوأ حالاً من أرباب الجرائم؟ فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذًا. وقذفوه بمصابهم. وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا. والله أعلم.

ثقة .. على بصيرة

ولا يصح ذلك إلا بأن يعلم: أن النجاة في البصيرة، والاستقامة بعد الثقة. وأن البينة وراء الحجة.

فيعلم أولا أن النجاة من الشقاء والضلال: إنما هي في البصيرة. فمن لا بصيرة له: فهو من أهل الضلال في الدنيا. والشقاء في الآخرة.

والبصيرة نور يجعله الله في عين القلب، يفرق به العبد بين الحق والباطل، ونسبته إلى القلب: كنسبة ضوء العين إلى العين.

وهذه «البصيرة» وهبية وكسبية. فمن أدار النظر في أعلام الحق وأدلته، وتجرد لله من هواه: استنارت بصيرته. ورزق فرقانًا يفرق به بين الحق والباطل.

ثم أن يعلم أن الاستقامة إنما تكون بعد الثقة، أي لا يتصور حصول الاستقامة في القول والعمل والحال، إلا بعد الثقة بصحة ما معه من العلم، وأنه مقتبس من مشكاة النبوة، ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

ومبنى هذا على أن يعلم أن البينة وراء الحجة. و«البينة» هي: استبانة الحق وظهوره. وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامت استبان الحق وظهر واتضح.

وفيه معنى آخر. وهو: أن العبد إذا قبل حجة الله بمحض الإيمان والتسليم والانقياد: كان هذا القبول هو سبب تبينها وظهورها، وانكشافها لقلبه.

وفيه معنى آخر أيضا: أنه لا يتبين له عيب عمله من صحته إلا بعد العلم الذي هو حجة الله

على العبد. فإذا عرف الحجة اتضح له بها ما كان مشكلا عليه عن علومه، وما كان معيبًا من أعماله.

نؤاخي كل مسلم ونقبل عذره

وجمال التواضع إنما يكون بأن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا، وإن لا ترد على عدوك حقًّا، وإن تقبل من المعتذر معاذيره.

فإذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا، أفلا ترضى أنت به أخًا؟ فعدم رضاك به أخًا: عين الكبر. وأي قبيح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله، لا يرضى بإخوته، والله راض بعبوديته؟.

ولا تصح لك درجة «التواضع» حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك. وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حقًّا له قبلك؟ بل حقيقة «التواضع» أنه إذا جاءك قبلته منه. وإذا كان له عليك حق أديته إليه. فلا تمنعك عداوته من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه.

وكذلك من أساء إليك ثم جاء يعتذر عن إساءته فإن «التواضع» يوجب عليك قبول معذرته. حقًّا كانت أو باطلاً. وتكل سريرته إلى الله تعالى. كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو، فلم قدم جاءوا إليه يعتذرون إليه. فقبل أعذارهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وعلامة الكرم والتواضع :أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه. وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول. ولو قضى شيئًا لكان، والمقدور لا مدفع له، ونحو ذلك.

إنما تنجينا الرحمة

وتمام التواضع: أن لا يرى العابد لنفسه حقًّا على الله لأجل عمله، فإنه في عبودية وفقر محض، وذل وانكسار، فمتى رأى لنفسه على الله حقًّا: فسدت عبوديته، وصارت معلولة وخيف منها المقت. ولا ينافي هذا ما أحقه سبحانه على نفسه، من إثابة عابديه وإكرامهم. فإن ذلك حق أحقه على نفسه بمحض كرمه وبره وجودِه وإحسانه. لا باستحقاق العبيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم.

فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفترق الطرق.

ولتكن إجابتك لداعي الحق خالصة، إجابة محبة ورغبة، وطلب للمحبوب ذاته، غير مشوبة بطلب غيره من الحظوظ والأعواض، فإنه متى حصل لك حصل لك كل عوض وكل حظ به وكل قسم.

فمن أعرض عن طلب ما سوى الله، ولم يشب طلبه له بعوض، بل كان حبا له، وإرادة خالصة لوجهه. فهو في الحقيقة الذي يفوز بالأعواض والأقسام والحظوظ كلها. فإنه لما لم يجعلها غاية طلبه، توفرت عليه في حصولها. وهو محمود مشكور مقرب.

واعلم أنه لا يستوجب العبد على الله بسعيه نجاة ولا فلاحا. ولا يدخل أحدًا عملُه الجنة أبدًا، ولا ينجيه من النار. والله تعالى بفضله وكرمه، ومحض جوده وإحسانه أكد إحسانه وجوده وبره بأن أوجب لعبده عليه سبحانه حقًّا بمقتضى الوعد. فإن وعد الكريم إيجاب، ولو ب «عسى، ولعل».

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : «عسى من الله واجب».

ووعد اللئيم خلف. ولو اقترن به العهد والحلف.

والمقصود: أن عدم رؤية العبد لنفسه حقًّا على الله لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه. وجعله حقًّا لعبده. قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : «يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. يا معاذ ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقهم عليه: أن لا يعذبهم بالنار».

فالرب سبحانه ما لأحد عليه حق، ولا يضيع لديه سعي. كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا. ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، وهو الكريم الواسع

* * *

(٣٦) منزلة الفُتوة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الفتوة»

وهذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس. وكف الأذى عنهم. واحتمال أذاهم. فهي استعمال حسن الخلق معهم. فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله. والفرق بينهما وبين المروءة: أن المروءة أعم منها. فالفتوة نوع من أنواع المروءة. فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلى غيره. وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضًا به، أو متعلق بغيره.

و«الفتوة» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق.

فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق. ومنزلة الفتوة. ومنزلة المروءة. وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة» بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث يوسف بن محمد المنكدر عن أبيه عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال».

وأصل «الفتوة» من «الفتي» وهو الشاب الحديث السن. قال الله تعالى عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف].

قال الفضيل بن عياض: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه في رواية ابنه عبد الله عنه، وقد سئل عن الفتوة؟ فقال: ترك ما تهوى لما تخشى.

وقال عمر بن عثمان المكي: الفتوة حسن الخلق.

وقال الجنيد: الفتوة كف الأذى وبذل الندى.

وقال سهل: هي اتباع السنة.

وقيل: فضيلة تأتيها، ولا ترى نفسك فيها. وقيل: أن لا تحتجب ممن قصدك.

وقيل: أن لا تهرب إذا أقبل طالب المعروف، وقيل: إظهار النعمة وإسرار المحنة. وقيل: أن لا تدخر ولا تعتذر.

الفتي .. أرض خير

وأصلها: استرسال الناس في فضلك، فإنك إذا استرسلت معهم، ولم تجذب عنهم عنانك: نالوا من فضلك. فيكون استرسالك سببًا لنيلهم لفضلك، وقبض العنان سببًا للحرمان.

ثم تسعهم بخلقك، باحتمال ما يبدو منهم من سوء العشرة، فخذ منهم ما أمر الله نبيه أن يأخذه من أخلاق الناس. وهو العفو.

وتدعهم يطئونك، أي يدوسونك من لينك وتواضعك، وخفض جناحك، بحيث لا تترك لنفسك بينهم رتبة تتقاضاهم أن يحترموك لأجلها.

ولكن مع قيام العلم: بأن يكون هذا الاسترسال موافقًا للشرع. غير مخرج عن حدوده وآدابه، بحيث لا تحملهم على تعدي حدود الله، وتضييع حقه وحقوق عباده، حافظًا لقلبك مع الله، ودوام إقبالك عليه، فأنت معهم مسترسل بشبحك ورسمك وصورتك فقط، ومفارقهم بقلبك وسرك، منتبهًا لسيرك في مدارج ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن هذا الانتباه هو حياة القلب والروح. فإذا فات السائر وغفل عنه: علته الكآبة، وغمره الهم والغم والأحزان، وتاه قلبه في الأودية والشعاب.

نقص .. وإيثار

قال صاحب المنازل شيخ الإسلام الهروي رحمه الله:

«نكتة الفتوة: أن لا تشهد لك فضلاً. ولا ترى لك حقًّا».

يقول: قلب الفتوة، وإنسان عينها: أن تفني بشهادة نقصك، وعيبك عن فضلك، وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم.

والناس في هذا مراتب. فأشرفها: أهل هذه المرتبة. وأخسها: عكسهم. وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم. وشهود حقوقهم على الناس عن شهود حقوق الناس عليهم.

وأوسطهم: من شهد هذا وهذا. فيشهد ما في العيب والكمال. ويشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم.

ومن مظاهرها عنده «ترك الخصومة، والتغافل عن الزلة، ونسيان الأذية».

فلا يخاصم بلسانه. ولا ينوي الخصومة بقلبه. ولا يخطرها على باله. هذا في حق نفسه.

وأما في حق ربه: فالفتوة أن يخاصم بالله وفي الله. ويحاكم إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح «وبك خاصمت، وإليك حاكمت» وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة إلى الله تعالى.

وأما «التغافل عن الزلة» فهو أنه إذا رأى من أحد زَلَّة يوجب عليه الشرع أخذه بها أظهر أنه لم يرها، لئلا يعرض صاحبها للوحشة.

وفتوة التغافل: أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية.

وأما «نسيان الأذية» فهو بأن تنسى أذية من نالك بأذى، ليصفو قلبك له. ولا تستوحش منه.

وهنا نسيان آخر أيضًا. وهو من الفتوة. وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه، حتى كأنه لم يصدر منك. وهذا النسيان أكمل من الأول. وفيه قيل:

ينسى صنائعه والله يظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

المعاكسة البناءة

ثم من مظاهرها عنده: «أن تُقَرِّب من يقصيك، وتكرم من يؤذيك. وتعتذر إلى من يجني عليك، سماحة لا كظمًا، ومودة لا مصابرة» بأن يكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خطَّتين. فخطتك: الإحسان. وخطته: الإساءة.

ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي. فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها. ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه. ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة. وما رأيت أحدًا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له. فنهرني وتنكر لي واسترجع. ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام. فسروا به ودعوا له. وعظموا هذه الحال منه. فرحمه الله ورضي عنه.

معنى الاعتذار إلى من يجني عليك: إنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه، والجاني خليق بالعذر.

والذي يشهدك هذا المشهد : أنك تعلم أنه إنما سلط عليك بذنب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى].

إذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم الله منك على يده: كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار.

فالفتوة كل الفتوة: أن لا يظهر له منك عتب ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته ولا تطوي عنه بشرك ولا برك. وإذا لم تخجل أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر: لم يكن لك في الفتوة نصيب.

والذي يهون عليك هذا كله: مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة. فعليك بها. فإن فيها كنوز المعرفة والبر.

وقوله «سماحة لا كظما. ومودة لا مصابرة».

يعني: اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة، وطيبة نفس، وانشراح صدر، لا عن كظم، وضيق مصابرة. فإن ذلك دليل على أن هذا ليس في خلقك. وإنما هو تكلف يوشك أن يزول. ويظهر حكم الخلق صريحًا فتفتضح. وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب.

وهذا الذي قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور على جسر المصابرة والكظم. فإذا تمكن منه أفضي به إلى هذه المنزلة بعون الله. والله أعلم.

وفضيلة «المروءة» تتلازم مع فضائل الفتوة هذه.

سمو المروءة

و«المروءة» فعولة من لفظ المرء، كالفتوة من الفتي، والإنسانية من الإنسان ولهذا كان حقيقتها: إتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم والشيطان الرجيم.

فإن في النفس ثلاثة دواع متجاذبة: داع يدعوها إلى الإتصاف بأخلاق الشيطان: من الكبر، والحسد، والعلو، والبغي، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان. وهي داعي الشهوة.

وداع يدعوها إلى أخلاق الملك: إلى الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: بغض ذينك الداعيين، وإجابة الداعي الثالث، وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانية، والمروءة والفتوة: كلها في عصيان الداعيين، وإجابة الداعي الثالث. كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة. وخلق البهائم شهوة بلا عقول. وخلق ابن آدم، وركب فيه العقل والشهوة. فمن غلب عقله شهوته: التحق بالملائكة. ومن غلبت شهوته عقله: التحق بالبهائم.

ولهذا قيل في حد المروءة إنها غلبة العقل للشهوة.

وقال الفقهاء في حدها: هي استعمال ما يجمل العبد ويزينه. وترك ما يدنسه ويشينه.

وقيل: المروءة استعمال كل خلق حسن. واجتناب كل خلق قبيح.

وحقيقة «المروءة» تجنب للدنايا والرذائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر.

ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلاً وعرفًا وشرعًا.

ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة الترك فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة والمماراة، والإغضاء عن عيب ما يأخذه من حقك. وترك الاستقصاء في طلبه، والتغافل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عثرة، والتوقير للكبير، وحفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير. وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه. وهي أن يحملها قسرًا على ما يجمل ويزين. وترك ما يدنس ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية. فمن أراد شيئًا في سره وخلوته: ملكه في جهره وعلانيته. فلا يكشف عورته في الخلوة، ولا يتجشأ بصوت مزعج ما وجد إلى خلافه سبيلاً، ولا يجشع وينهم عند أكله وحده.

وبالجملة: فلا يفعل خاليا ما يستحي من فعله في الملأ، إلا ما لا يحظره الشرع والعقل. ولا يكون إلا في الخلوة، كالجماع والتخلي ونحو ذلك.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه. وليتخذ الناس مرآة لنفسه. فكل ما كرهه ونفر عنه، من قول أو فعل أو خلق، فليجتنبه، وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله.

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه من كامل وناقص، وسيئ الخلق وحسنه. وعديم المروءة وغزيرها.

وكثير من الناس: يتعلم المروءة، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها كما روي عن بعض الأكابر: أنه كان له مملوك سيئ الخلق، فظ غليظ. لا يناسبه فسئل عن ذلك؟ فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق.

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضد أخلاقه. ويكون بتمرين النفس على مصاحبته ومعاشرته، والصبر عليه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه، بالاستحياء من نظره إليك، واطلاعه عليك في كل لحظة ونفس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان، فإنه قد اشتراها منك. وأنت ساع في تسليم المبيع. وتقاضي الثمن وليس من المروءة تسليمه على ما فيه من العيوب وتقاضي الثمن كاملاً. أو

رؤية مِنَّته في هذا الإصلاح، وأنه هو المتولي له. لا أنت. فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة. والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك. وشهود الحقيقة عن رؤية فعالك وصلاحك.

وكل ما تقدم في منزلة «الخلق» و«الفتوة» فإنه بعينه في هذه المسألة.

* * *

(٣٧) منزلة الإرادة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الإرادة»

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل] وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب].

وقد تنوعت عبارات القوم عنها. وغالبهم يخبر عنها بأنها ترك العادة.

ومعنى هذا: أن عادة الناس غالبًا التعريج على أوطان الغفلة. وإجابة داعي الشهوة، والإخلاد إلى أرض الطبيعة، والمريد منسلخ عن ذلك. فصار خروجه عنه: أمارة ودلالة على صحة الإرادة. فسمى انسلاخه وتركه إرادة.

وقيل: نهوض القلب في طلب الحق.

ويقال: لوعة تهون كل روعة.

قال الدقاقي: الإرادة لوعة في الفؤاد، لذعة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تتأجج في القلوب.

وقيل: من صفات المريد: التحبب إلى الله بالنوافل، والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة، والإيثار لأمر الله تعالى، والحياء من نظره، وبذل المجهود، والتعرض لكل سبب يوصل إليه، والقناعة، وعدم قرار القلب حتى يصل إلى وليه ومعبوده.

وقيل: من حكم المريد أن يكون نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة.

وقال أبو عثمان الحيري: من لم تصح إرادته ابتداء، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارًا.

وقال: المريد إذا سمع شيئًا من علوم القوم فعمل به: صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به. وإذا تكلم انتفع به من سمعه. ومن سمع شيئًا من علومهم ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أيامًا ثم ينساها.

وقال يحيى بن معاذ: أشد شيء على المريد: معاشرة الأضداد.

وعلم السلوك مبني على الإرادة، فهي أساسه ومجمع بنائه، وهو مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة، وهي حركة القلب، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح.

فالفقيه: ينظر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع، ونهيه وإذنه، وكراهته، ومتعلقات ذلك.

والمريد: ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلة له إلى مراده. أو قاطعة عنه، ومفسدة لقلبه، أو مصححة له.

ولابد في ذلك من ثلاثة أشياء: نفس مستعدة قابلة. لا تعوز إلا الداعي. ودعوة مستمعة، وتخلية الطريق من المانع.

فما انقطع من انقطع إلا من جهة من هذه الجهات الثلاث.

ومن مقدماتها: الذهاب عن العادات بصحة العلم، مع صدق القصد، وخلع كل شاغل.

وهذا يوافق من حد «الإرادة» بأنها: مخالفة العادة، وهي ترك عوائد النفس، وشهواتها، ورعوناتها وبطالاتها. ولا يمكن ذلك إلا بهذه الأشياء وهي: صحبة العلم ومعانقته. فإنه النور الذي يعرِّف العبد مواقع ما ينبغي إيثار طلبه. وما ينبغي إيثار تركه. فمن لم يصحبه العلم: لم تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين. ولا عبرة بقطاع الطريق.

ومما يعين السالك على ترك العادة: ترك الموانع والقواطع العائقة عن السلوك، من صحبة الأغيار أهل البطالة. فليس على المريد أضر من عُشَرائه القاطعين له عن سيره إلى الله تعالى، فليغترب عنهم بجهده.

فإذا صحت له هذه المقدمات: أسلمته إلى ترويح الأنس، والسير بين القبض والبسط، فينتقل من مقام رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها وأذواقها وأحوالها، فيترقى من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإحسان، فإن السالك في أول الأمر يجد تعب التكاليف ومشقة العمل لعدم أنس قلبه بمعبوده فإذا حصل للقلب روح الأنس زالت عنه تلك التكاليف والمشاق فصارت قرة عين له. وقوة ولذة. فتصير الصلاة قرة عينه، بعد أن كانت عملاً عليه. ويستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها، فله ميراث من قوله ﷺ: «أرحنا بالصلاة يا بلال»، «وجعلت قرة عيني في الصلاة» بحسب إرادته، ومحبته، وأنسه بالله سبحانه وتعالى، ووحشته مما سواه.

وأما «السير بين القبض والبسط».

فـ«القبض» و«البسط» حالتان تعرضان لكل سالك. يتولدان من الخوف تارة، والرجاء تارة. فيقبضه الخوف. ويبسطه الرجاء.

ويتولدان من الوفاء تارة، والجفاء تارة. فوفاؤه يورثه البسط. وجفاؤه يورثه القبض.

وقد يهجم على قلب السالك قبض لا يدري ما سببه. وحكم صاحب هذا القبض أمران:

الأول: التوبة والاستغفار؛ لأن ذلك القبض نتيجة جناية. أو جفوة. ولا يشعر بها.

والثاني:الاستسلام حتى يمضي عنه ذلك الوقت، ولا يتكلف دفعه. ولا يستقبل وقته مغالبة وقهرًا. ولا يطلب طلوع الفجر في وسط الليل. وليرقد حتى يمضي عامة الليل. ويحين طلوع الفجر. وانقشاع ظلمة الليل. بل يصبر حتى يهجم عليه الملك. فالله يقبض ويبسط.

وكذلك إذا هجم عليه وارد البسط: فليحذر كل الحذر من الحركة والاهتزاز. وليحرزه بالسكون والانكماش. فالعاقل يقف على البساط، ويحذر من الانبساط، وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم: إذا ما ورد عليهم ما يسرهم ويبسطهم ويهيج أفراحهم، قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار، حتى كأنه لم يهجم عليهم وقال كعب بن زهير في مدح المهاجرين:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوما. وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

فلا يخرجه البسط عن استقامته، ولا عن الوقوف بأدب بين يدي ربه.

* * *

(٣٨) منزلة الأدب

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الأدب»

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] قال ابن عباس وغيره: أدبوهم وعلموهم.

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع. فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبة من الأدب العام. والله أعلم.

مسالك الأدب

و«الأدب» ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله ﷺ وشرعه. وأدب مع خلقه.

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة معاملته: أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه: أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته: أن تتعلق بما يمقتك عليه.

قال يحيى بن معاذ: من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله.

وقال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

وسئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب؟ فقال: التفقه في الدين. والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك.

وقال سهل: القوم استعانوا بالله على مراد الله. وصبروا لله على آداب الله.

وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون.

وقال: الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف.

وقال أبو حفص – لما قال له الجنيد: لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين – فقال: حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن. فالأدب مع الله حسن الصحبة معه، بإيقاع

الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء. كحال مجالس الملوك ومصاحبهم.

وقال سهل: من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص.

وقال عبد الله بن المبارك: قد أكثر الناس القول في «الأدب» ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها، وتجنب تلك الرعونات.

وقال أبو عثمان: إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

قال المسيح ﷺ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة:١١٦] ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب. ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره. فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ ثم أثنى على ربه. ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به – وهو محض التوحيد – فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم. فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم. فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام. أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك. فإذا عذبتهم – مع كونهم عبيدك – فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له: لم تعذبهم. لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحسانًا عبيده؟ لولا فرط عتوهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي هم عبادك. وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم. فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه.

فهو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] ولم يقل «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى. فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار. فليس

هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم. ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه. ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم. وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب.

وفي بعض الآثار: «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى، كقوله: «والله عليم حليم» وقوله: «وكان الله عفوًا قديرًا».

وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء] ولم يقل «وإذا أمرضني» حفظًا للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩] ولم يقل: «فأراد ربك أن أعيبها» وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجن:١٠] ولم يقولوا «أراده ربهم» ثم قالوا: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

وألطف من هذا قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَىَّ مِنۡ خَيۡرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص] ولم يقل أطعمني.

وقول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف] ولم يقل: «رب قدرت علي وقضيت علي».

وقول أيوب عليه السلام: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء] ولم يقل «فعافني واشفني».

وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰىَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِىٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف:١٠٠] ولم يقل: «أخرجني من الجب» حفظًا للأدب مع إخوته، أن لا يخجلهم بما جرى في الجب. وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ ولم يقل: «رفع عنكم جهد الجوع

والحاجة» أدبًا معهم. وأضاف ما جرى إلى السبب. ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه. فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه. ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله عليهم.

ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل: أن يستر عورته، وإن كان خاليا لا يراه أحد. أدبًا مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياء منه، ومعرفة وقاره.

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرًا وباطنًا . فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهرًا. وما أساء أحد الأدب باطنًا إلا عوقب باطنًا.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن. ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض. ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل.

وحقيقة «الأدب» استعمال الخلق الجميل. ولهذا كان الأدب: استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل.

فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد، فألهمه ومكنه، وعرفه وأرشده، وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهَّله بها لكماله إلى الفعل. قال الله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام. ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى. وأن ذلك نالها منه امتحانًا واختبارًا. ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها. ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه. وهي التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دساها: فأخفاها وحقرها. وصغرها وقمعها بالفجور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الأخلاق النبوية السامية

وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه ﷺ، حين أراه ما أراه: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم] وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية. وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام. إذ لم يلتفت جانبًا. ولا تجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب. والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور. فالالتفات زيغ. والتطلع إلى ما أمام المنظور. طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ولا يتجاوزه.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة. وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصره وبصيرته. توافقًا وتصادقًا فيما شاهده بصره. فالبصيرة مواطئة له. وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهود بالبصر. فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم] أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر «ما كذَّب الفؤاد» ما رأى – بتشديد الذال – أي لم يكذب الفؤاد البصر، بل صدقه وواطأه، لصحة الفؤاد والبصر. أو استقامة البصيرة والبصر وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقًّا. وقرأ الجمهور «ما كذّب الفؤاد» بالتخفيف. وهو متعدّ. و«ما رأى» مفعوله: أي ما كذّب قلبه ما رأته عيناه. بل واطأه ووافقه. فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر. ولم يتجاوز البصر حده فيطغي ولم يمل عن المرئي فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي ما جاوزه ولا مال عنه كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عما سواه. فإنه أقبل على الله بكليته. وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان. وكلاهما منتف عن قلبه وبصره. فلم يزغ قلبه التفاتًا عن الله إلى غيره. ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه. ألا ترى أن موسى ﷺ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام، وفَّاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة؟

ولأجل هذا ما عاقه عائق. ولا وقف به مراد، حتى جاوز السماوات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه، وبكى :«قيل ما يبكيك؟ قال: أبكي أن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي» ثم جاوزه علوًّا فلم تعقه إرادة. ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوة الطرف. فيضع قدمه عند منتهي طرفه، مشاكلاً لحال راكبه، وبعد شأوه، الذي سبق العالم أجمع في سدرة، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته له، حتى خرق حجب السماوات. وجاوز السبع الطباق، وجاور سدرة المنتهى. ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين. فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصبابًا. وانقشعت عنه سحائب الحجب

ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا. وأقيم مقامًا غبطه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان في المعاد أقيم مقامًا من القرب ثانيا، يغبطه به الأولون والآخرون. واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، ما زاغ البصر عنه وما طغى. فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى. وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [يس] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

الأدب يجمل العبادة

و«الأدب» هو الدين كله. فإن ستر العورة من الأدب. والوضوء وغسل الجنابة من الأدب. والتطهر من الخبث من الأدب. حتى يقف بين يدي الله طاهرًا.

ومن الأدب: نهي النبي ﷺ المصلي: «أن يرفع بصره إلى السماء».

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول:

هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقًا، خافضًا طرفه إلى الأرض. ولا يرفع بصره إلى فوق.

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة، وغيرهم ﷺ. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان. كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومنها: السكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج] قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ هم الذي يصلون دائمًا؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران. الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المعارج] وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي. ويعظم الله تعالى، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه، حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علمًا وعملاً وحالاً. والله المستعان.

نصف التوحيد والأدب.. متابعة النبي ﷺ

وأما الأدب مع الرسول ﷺ: فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره. وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولاً. أو يحمله شبهة أو شكـًا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد، والإذعان. كما وحد المرسل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان: لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما. توحيد المرسل. وتوحيد متابعة الرسول. فلا يحاكم إلى غيره. ولا يرضى بحكم غيره. ولا يقف تنفيذ أمره. وتصديق خبره، على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه. فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه: تأويلاً، وحملاً. فقال: نؤوله ونحمله.

فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولقد خاطبت يومًا بعض أكابر هؤلاء. فقلت له: سألتك بالله. لو قدر أن الرسول ﷺ حي بين أظهرنا. وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضًا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟

فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه.

فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شيء نسخ؟

فوضع إصبعه على فيه وبقي باهتًا متحيرًا. وما نطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه. لا مخالفة أمره والشرك به. ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم. وعزل كلامه عن اليقين وعن أن يستفاد منه معرفة الله، أو تلقي أحكامه منه وجعل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة. وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها. والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركا، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه. ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره، واستئصال شأفته. ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٤﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون].

والناصح لنفسه: العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها. ويتأملها حق تأملها، وينزلها على الواقع: فيرى العجب. ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا «فالحديث لك. واسمعي يا جارة» والله المستعان.

ومن الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف. حتى يأمر هو، وينهي ويأذن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١] وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ.

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب. أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه.

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر. ولا تنهوا حتى ينهى.

ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته. فإنه سبب حبوط الأعمال ، فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره. قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور : ٦٣] وفيه قولان للمفسرين.

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا رسول الله يا نبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا. إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع - من خطبة، أو جهاد، أو رباط- لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢] فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا بحاجة عارضة، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله،؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل].

ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله. بل تستشكل الآراء لقوله. ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه. ولا يحرف كلامه على حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد. فكل هذا من قلة الأدب معهﷺ . وهو عين الجرأة.

كل الحياة ينظمها الأدب

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم - على اختلاف مراتبهم - بما يليق بهم. فلكل مرتبة أدب.والمراتب فيها أدب خاص. فمع الوالدين: آداب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: وللبول آخر، ومع السلطان: أدب يليق به، وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه. ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب. وللشرب آداب. وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللبول آداب. وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره.

فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب. ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجي صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأم - تأويلاً وإقبالاً على الصلاة - كيف امتحن به جريج الراهب بهدم صومعته وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة؟

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟

وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي ﷺ في الصلاة: أن يتقدم بين يديه. فقال: «ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ» كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه - وقد أومأ إليه أن : اثبت مكانك - جمزًا، وسعيا إلى قدام؟ بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام. تنقطع فيها أعناق المطي. والله أعلم.

آداب النمط الأوسط

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء. ولم يوف الصلاة آدابها التي سنها رسول الله ﷺ وفعلها. وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب.

وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية. ورفع الصوت بها. والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سرًّا. وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه. كالتشهد الأول والسلام الذي حذفه سنة. وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله ﷺ. ولا على ما يظنه سراق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه. فإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه. وقد صانه الله من ذلك. وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات. ويأمرهم بالتخفيف. وتقام صلاة الظهر، فيذهب الذاهب إلى البقيع، فيقضي حاجته. ويأتي أهله ويتوضأ. ويدرك رسول الله ﷺ في الركعة الأولى. فهذا هو التخفيف الذي أمر به. لا نقر الصلاة وسرقها. فإن ذلك اختصار، بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم. ويسمى به مصليا، وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه. فليته شبع على القول الآخر، وهو كجائع قدم إليه طعام لذيذ جدًّا فأكل منه لقمة أو لقمتين. فماذا يغنيان عنه؟ ولكن لو أحس بجوعه لما قام من الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك. لكن القلب شبعان من شيء آخر.

نعم. والله. فإن الصلاة هي غذاء الروح والقلب. فإنه بحاجة إلى غذائه مما يتنزل من رحمات الله. كما أن الجسم بحاجة إلى الغذاء مما تخرج الأرض. ولما كان كل منهما يهضم غذاءه، فيحاج إلى غذاء جديد. تفضل الله ربنا سبحانه. فجعل الصلوات خمسًا مقسمة على أجزاء اليوم هذا التقسيم الحكيم ليأخذ الروح والقلب - الإنساني المعنوي الكريم - وجبة الغذاء بعد اضطرابه في شؤون الحياة وفتنها التي هضمت غداءه، كالجسم سواء بسواء. وهكذا العلم وبقية ما تفضل به علينا ربنا الكريم من العبادات. والأعمال الصالحات.

ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها، بحيث يشتغل بها عن حقوق الله، أو عن تكميلها، أو عن مصلحة دينه وقلبه، وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية. فإن الطرفين من العدوان الضار. وعلى هذا الحد، فحقيقة الأدب: هي العدل. والله أعلم.

وزن الأحوال والمقامات بالأدب

ومن الأدب: منع الخوف: أي يتعدى إلى اليأس ، وحبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن، وضبط السرور: أن يضاهئ الجرأة.

فالأديب لا يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقعه في القنوط. واليأس من رحمة الله. فإن هذا الخوف مذموم.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله، فما زاد على ذلك: فهو غير محتاج إليه.

وهذا الخوف الموقع في الإياس: إساءة أدب على رحمة الله تعالى، التي سبقت غضبه، وجهل بها وأما حبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن، فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حد يأمن معه العقوبة. فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. وهذا إغراق في الطرف الآخر.

بل حد الرجاء: ما طَيب لك العبادة وحملك على السير. فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة. فإذا انقطعت وقفت السفينة. وإذا زادت ألقتها إلى المهالك. وإذا كانت بقدر: أوصلتها إلى البغية.

وأما ضبط السرور فلا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العزائم. الذين لا تستفزهم السراء. فتغلب شكرهم. ولا تضعفهم الضراء. فتغلب صبرهم. كما قيل:

لا تغلب السراء منهم شكرهم كلا. ولا الضراء صبر الصابر

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته، وتشبه في صفاته. ومواهب الرب تبارك وتعالى تتنزل على القلب والروح. فالنفس تسترق السمع. فإذا نزلت على القلب تلك المواهب: وثبت لتأخذ قسطها منها، وتصيره من عدتها وحواصلها. فالمسترسل معها، الجاهل بها: يدعها تستوفي ذلك. فبينا هو في موهبة القلب والروح وعدة وقوة له، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها، وعددها. فصالت به وطغت. لأنها رأت غناها به. والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال. فكيف بما هو أعظم خطرًا، وأجل قدرًا من المال، بما لا نسبة بينهما: من علم، أو حال، أو معرفة؟ فإذا صار ذلك من حاصلها: انحرف العبد به - ولابد - إلى طرف مذموم من جرأة، أو شطح، أو إدلال. ونحو ذلك.

فوالله كمن هاهنا من قتيل. وسليب، وجريح يقول: من أين أتيت؟ ومن أين دهيت؟ ومن أين أصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يغلق عنه باب المزيد. ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر إذا نالوا شيئًا من ذلك انحرفوا إلى طرف الذل والانكسار، ومطالعة عيوب النفس. واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس. ونظروا إلى أقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وأدناهم منه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وقد دخل مكة يوم الفتح. وذقنه تمس قربوس سرجه: انخفاضًا وانكسارًا، وتواضعًا لربه تعالى في مثل تلك الحال، التي عادة النفوس البشرية فيها: أن يملكها سرورها، وفرحها بالنصر، والظفر، والتأييد، ويرفعها إلى عنان السماء.

فالرجل: من صان فتحه ونصيبه من الله. وواراه عن استراق نفسه. وبخل عليها به، والعاجز: من جاد لها به. فيا له من جود ما أقبحه، وسماحة ما أسفه صاحبها. والله المستعان.

* * *

(٣٩) منزلة اليقين

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «اليقين»

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد. وبه تفاضل العارفون. وفيه تنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون. وعمل القوم إنما كان عليه. وإشاراتهم كلها إليه.

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين. فقال، وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾ [الذاريات].

وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة].

وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)﴾ [الجاثية].

فـ«اليقين» روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح. وهي حقيقة الصديقية وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خيثمة عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا ترضين أحدًا بسخط الله. ولا تحمدن أحدًا على فضل الله ولا تذمن أحدًا على ما لم يؤتك الله. فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص. ولا يرده عنك كراهية كاره. وأن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته. ولهذا حسن اقتران الهدى به. قال الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩)﴾ [النمل] فالحق: هو اليقين وقالت رسل الله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢].

ومتى وصل «اليقين» إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا. وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغم. فامتلأ محبة الله، وخوفًا منه ورضي به، وشكرًا له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه. فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول، ولا يتغير في القلب.

وقال أبو بكر الوراق: اليقين ملاك القلب. وبه كمال الإيمان. وباليقين عرف الله. وبالعقل عقل عن الله.

وقال أبو بكر الوراق: اليقين على ثلاثة أوجه: يقين خبر. ويقين دلالة. ويقين مشاهدة.
يريد بيقين الخبر: سكون القلب إلى خبر المخبر وتوثقه به. وبيقين الدلالة: ما هو فوقه. وهو أن يقيم له - مع وثوقه بصدقه - الأدلة الدالة على ما أخبر به.

وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن. فإنه سبحانه- مع كونه أصدق الصادقين - يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره. فيحصل لهم اليقين من الوجهين: من جهة الخبر، ومن جهة الدليل.

فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة. وهي «يقين المكاشفة» بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم. فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب : كنسبة المرئي إلى العين.

قال بعضهم: رأيت الجنة والنار حقيقة. قيل له: وكيف؟ قال: رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ. ورؤيتي لهما بعينيه: آثر عندي من رؤيتي لهما بعيني. فإن بصري قد يطغى ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ.

وأركان علم اليقين: قبول ما ظهر من الحق، وقبول ما غاب ، والوقوف على ما قام بالحق.

فالأول: قبول ما ظهر من الحق تعالى، والذي ظهر منه سبحانه: أوامره ونواهيه وشرعه، ودينه الذي ظهر لنا منه على ألسنة رسله، فنتلقاه بالقبول والانقياد، والإذعان والتسليم للربوبية. والدخول تحت رق العبودية.

الثاني: «قبول ما غاب» وهو الإيمان بالغيب الذي أخبر به الحق سبحانه تعالى لسان رسله من أمور المعاد وتفصيله، والجنة والنار، وما قبل ذلك: من الصراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك: من تشقق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب، ونسف الجبال، وطي العالم. وما قبل ذلك: من أمور البرزخ. ونعيمه وعذابه.

فقبول هذا كله - إيمانًا وتصديقًا وإيقانًا- هو اليقين. بحيث لا يخالج القلب فيه شبهة. ولاشك ولا تناس، ولا غفلة. فإنه إن لم يهلك يقينه أفسده وأضعفه.

الثالث: «الوقوف على ما قام بالحق» سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله.

وهو علم التوحيد، الذي أساسه: إثبات الأسماء والصفات.

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته، ونعوت كماله، وتوحيده. وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق: علم الأمر والنهي، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد، وعلم المعاد واليوم الآخر. والله أعلم.

مقام الأنس بالقرآن

ومن قوي يقينه: حصل له من الأنس بالقرآن ما لا يحصل للضعيف.

كما أن الأنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش.

فالسالك إذا كان محبًّا صادقًا طالبًا لله، عاملاً على مرضاته: كان غذاؤه بالسماع القرآني، الذي كان غذاءه سادات العارفين من هذه الأمة، وأبرها قلوبًا وأصحها أحوالاً، وهم الصحابة ﷺ.

وهذا السماع القرآني سماع أهل المعرفة بالله، والاستقامة على صراطه المستقيم. ويحصل للأذهان الصافية منه معان وإشارات، ومعارف وعلوم. تتغذى بها القلوب المشرقة بنور الأنس. فيجد لها لذة روحانية. يصل نعيمها إلى القلوب والأرواح. وربما فاض حتى وصل إلى الأجسام. فيجد من اللذة ما لم يعهد مثله من اللذات الحسية.

فإذا تجردت الروح وكانت مستعدة. وباشر القلب روح المعنى. وأقبل بكليته على المسموع. فألقي السمع وهو شهيد. وساعده طيب صوت القارئ: كاد القلب يفارق هذا العالم. ويلج عالمًا آخر. ويجد له لذة وحالة لا يعهدها في شيء غيره ألبتة. وذلك رقيقة من حال أهل الجنة في الجنة.

فيا له من غذاء ما أصلحه وما أنفعه.

وحرام على قلب قد تربى على غذاء السماع الشيطاني: أن يجد شيئًا من ذلك في سماع القرآن.

وليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم سبحانه وتعالى عيانًا، وسماع كلامه منه.

والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة. فإذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوبه- أي بمصاحبته وحضوره في قلبه - فله من سماعه هذا شأن. ولغيره شأن آخر. والله أعلم.

القلب الحي آلة السمع

والناس في السماع على ثلاثة أقسام:

أحدها: من اتصف قلبه بصفات نفسه. بحيث صار قلبه نفسًا محضة. فغلبت عليه آفات الشهوات، ودعوات الهوى. فهذا حظه من السماع: كحظ البهائم. لا يسمع إلا دعاء ونداء. والفرق الذي بينها وبينه: غير طائل.

القسم الثاني: من اتصفت نفسه بصفات قلبه. فصارت نفسه قلبًا محضًا. فغلبت عليه المعرفة والمحبة. والعقل واللب. وعشق صفات الكمال. فاستنارت نفسه بنور القلب. واطمأنت إلى ربها. وقرت عينها بعبوديته. وصار نعيمها في حبه وقربه. فهذا حظه من السماع مثل - أو قريب - من حظ الملائكة. وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقرة عينه ونعيمه من الدنيا، ورياضه التي يسرح فيها. وحياته التي بها قوامه.

القسم الثالث: من له منزلة بين منزلتين. وقلبه باق على فطرته الأولى. ولكن ما تصرف في نفسه تصرفًا أحالها إليه. وأزال به رسومها. وجلا عنه ظلمتها. ولا قويت النفس على القلب بإحالتها إليها. وتصرفت فيه تصرفًا أزالت عنه نوره وصحته وفطرته.

فبين القلب والنفس منازلات ووقائع، والحرب بينهما دول وسجال، تدال النفس عليه تارة، ويدال عليها تارة.

فهذا حظه من السماع: حظ بين الحظين، ونصيبه منه بين النصيبين. فإن صادفه وقت دولة القلب: كان حظه منه قويا. وإن صادقه وقت دولة النفس: كان ضعيفًا.

ومن هاهنا يقع التفاوت في الفقه عن الله. والفهم عنه. والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

وصاحب هذه الحال – في حال سماعه – يشتغل القلب بالحرب بينه وبين النفس، فيفوته من روح المسموع ونعيمه ولذته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة. ولا سبيل له إلى حصول ذلك بتمامه، حتى تضع الحرب أوزارها. وربما صادفه في حال السماع وارد حق، أو الظفر بمعنى بديع لا يقدر فكره على صيده كل وقت. فيغيب به ويستغرق فيه عما يأتي بعده. فيعجز عن صيد تلك المعاني. ويدهشه ازدحامها. فيبقى قلبه باهتًا. كما يحكي أن بعض العرب : أرسل صائدًا له على صيد. فخرج الصيد عليه من أمامه وخلفه. وعن يمينه وعن شماله، فوقف باهتًا ينظر يمينًا وشمالاً. ولم يصطد شيئًا. فقال:

تكاثرت الظباء على خراش ... فما يدري خراش ما يصيد

فوظيفته في مثل هذا الحال: أن يعلق قلبه بالمتكلم، وكأنه يسمع كلامه منه. ويجعل قلبه نهرًا لجريانه معانيه ويفرغه من سوى فهم المراد. وينصب إليه انصبابًا يتلقى فيه معانيه، كتلقي الحب للأحباب القادمين عليه. لا يشغله حبيب منهم عن حبيب. بل يعطي كل قادم حقه. وكتلقي الضيوف والزوار. وهذا إنما يكون من سعة القلب، وقوة الاستعداد، وكمال الحضور.

فإذا سمع خطاب الترغيب والتشويق، واللطف والإحسان: لا يفنى به عما يجيء بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل. بل يسمع الخطاب الثاني مستصحبًا لحكم الخطاب الأول ويمزج هذا بهذا. ويسير بهما ومعهما جميعًا، عاكفًا بقلبه على المتكلم وصفاته سبحانه.

وهذا سير في الله. وهو نوع آخر أعلى وأرفع من مجرد المسير إليه. ولا ينقطع بذلك سيره إليه. من يدرج سيره. فإن سير القلب في معاني أسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته.

ومتى بقيت للقلب في ذلك ملكة، واشتد تعلقه به: لم تحجبه معاني المسموع، وصفات المتكلم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يعسر عليه ذلك. وفي التوسط يهون عليه، ولا انتهاء هاهنا ألبتة.

وذلك: لأن هذا الأنس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن أسماء الصفات التي يحصل عنها الأنس. ويتعلق بها. كاسم «الجميل ، والبر واللطيف، والودود، والحليم، والرحيم» ونحوها.

ثم يقوى التعلق بها حتى يكون معه طيب الحياة، وقرة العين، ولذة القلب، وبهجة الروح، مع كمال العافية بلا محنة، والهداية بلا فتنة، فتخف أعباء المسير، ويزول كل فتور، ويظل القلب في ازدياد من معاني الخير دائمًا.

* * *

(٤٠) منزلة الذكر

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الذكر»

وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون. وفيها يتجرون، وإليها دائمًا يترددون.

و«الذكر» منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل ، ومن منعه عزل. وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا. وعمارة ديارهم. التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق. وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق. ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب. والسبب الواصل ، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلهم البلاء. فإليه ملجؤهم. وإذا نزلت بهم النوازل. فإليه مفزعهم. فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون. ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون. يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا. ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورًا.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قيامًا، وعلى جنوبهم. فالقلوب بور خراب. وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها. ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا. وإذا واطأ قلبه للسانه في ذكره: نسي في جنب ذكره كل شيء.وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضًا من كل شيء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله به ألسنة الذاكرين. كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر وقراءة القرآن. فإن وجدتم.. وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه والله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقًا ومقيدًا.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والاختبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى خدمته كانت كالجسد بلا روح.

أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ [الأحزاب] وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ [الأعراف:٢٠٥] وفيه قولان. أحدهما: في سرك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك.

وأما النهي عن ضده: فكقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر:١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون].

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة].

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت] وفيها أربعة أقوال:

أحدها: ذكر الله أكبر من كل شيء. فهو أفضل الطاعات. لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره. فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم. فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر. بل إذا تم الذكر: محق كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين.

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له. ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

ولعل في الآية معنى آخر: أن الصلاة هي أكبر الذكر. فقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] وهي أكبر وأقوى وأشد ناهٍ عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة].

وختم الحج في قوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة:٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء:١٠٣].

وختم به الجمعة كقوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة] ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا. وإذا كان آخر كلام العبد: أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته. وهم أولوا الألباب والعقول. فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران].

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها: فإنه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه] وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه، بل هو روح الحج، ولبه ومقصوده. كما قال ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله».

وقرنه بالجهاد. وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال].

الذاكرون سابقون

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له جمدان فقال: «سيروا. هذا جمدان سبق المفردون ». قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: « الذاكرون الله كثيـرًا والذاكرات».

«والمفردون» إما الموحدون. وإما الآحاد الفرادى.

وفي المسند – مرفوعًا – من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل».

وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت الأغر قال أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة. ونزلت عليهم السكينة. وذكرهم الله فيمن عنده». وهو في صحيح مسلم.

ويكفي في شرف الذكر: أن الله يباهي ملائكته بأهله. كما في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه. فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله. ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن علينا. قال: «ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل. فأخبرني: أن الله يباهي بكم الملائكة».

وسأل أعرابي رسول الله ﷺ: «أي الأعمال أفضل؟» فقال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكره الله».

وقال له رجل: «إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فمرني بأمر أتشبث به. فقال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله».

وفي المسند وغيره من حديث جابر، قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس. ارتعوا في رياض الجنة» قلنا: يا رسول الله؛ وما رياض الجنة؟ فقال: «مجالس الذكر».

وقال: «اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله: فلينظر كيف منزلة الله عنده؟ فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه».

وروى النبي ﷺ عن أبيه إبراهيم ﷺ – ليلة الإسراء – أنه قال له: «أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء. وأنها قيعان، وأن غرسها: سبحان الله. والحمد لله، ولا إله إلا الله. والله أكبر» رواه الترمذي وأحمد وغيرهما.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره: مثل الحي والميت».

ولفظ مسلم: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه: مثل الحي والميت».

فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي. وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت، وهو القبر.

وفي اللفظ الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحي في بيوت الأحياء. والغافل كالميت في بيوت الأموات. ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم. وقلوبهم فيها كالأموات في القبور. كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

وفي الصحيح: في الأثر الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه تبارك وتعالى: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وقد ذكرنا في الذكر نحو مائة فائدة في كتابنا (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب) وذكرنا هناك أسرار الذكر، وعظم نفعه، وطيب ثمرته. وذكرنا فيه: أن الذكر ثلاثة أنواع:

ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها. وتوحيد الله بها.

وذكر الأمر والنهي، والحلال والحرام. وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي وأنه ثلاثة أنواع أيضًا: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان. وهو أعلاها. وذكر بالقلب وحده. وهو في الدرجة الثانية. وذكر باللسان المجرد. وهو في الدرجة الثالثة.

وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله. به صار العبد ذاكرًا له. وذكر بعده. به

صار العبد مذكورًا. كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢] وقال – فيما يروي عنه نبيه ﷺ – : «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

أنواع الذكر

وأنواع الذكر ثلاثة: ثناء، ودعاء، ورعاية.

فأما ذكر الثناء: فنحو «سبحان الله. والحمد لله. ولا إله إلا الله. والله أكبر».

وأما ذكر الدعاء فنحو: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف] و «يا حي قيوم برحمتك أستغيث» ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي. الله ناظر إلي. الله شاهدي ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله. وفيه رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة: فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء والسؤال، والتصريح به. كما في الحديث: «أفضل الدعاء الحمد لله» قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية بن الصلت لعبد الله بن جدعان يرجو نائلة:

أأذكر حاجتي، أم قد كفاني ... حباؤك؟ إن شيمتك الحباء

إذ أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء

فهذا مخلوق. واكتفي من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله. فكيف برب العالمين؟

والأذكار النبوية متضمنة أيضًا لكمال الرعاية، ومصلحة القلب، والتحرز من الغفلات، والاعتصام من الوسواس والشيطان، وفيها تعليم القلب مناجاة الرب، تملقًا تارة، وتضرعًا تارة، وثناء تارة، واستعظامًا تارة، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب.

* * *

(٤١) منزلة الفقر

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الفقر»

هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم، وأعلاها وأرفعها. بل هي روح كل منزلة؟ وغايتها.

وهذا إنما يعرف بمعرفة حقيقة «الفقر» والذي تريد به هذه الطائفة أخص من معناه الأصلي. أن لفظ «الفقر» وقع في القرآن في مواضع.

أحدها: قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣] أي الصدقات لهؤلاء.

كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة. لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله. فكانوا وقفا على كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ. وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله. وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله.

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش. فلا يستطيعون ضربًا في الأرض.

والصحيح أنهم - لفقرهم وعجزهم وضعفهم - لا يستطيعون ضربًا في الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة:٦٠].

ومنها : قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر:١٥].

فالصنف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين خاصهم وعامهم.

والثالث : الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم. مؤمنهم وكافرهم.

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى: يقابلهم أصحاب الجدة. ومن ليس محصرًا في سبيل الله. ومن لا يكتم فقره تعففـًا. فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة. ويدخل فيهم المتعفف وغيره. والمحصر في سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث: لا مقابل لهم. بل الله وحده الغني. وكل ما سواه فقير إليه.

ومراد القوم بالفقر: شيء أخص من هذا كله. وهو تحقيق العبودية. والافتقار إلى الله تعالى في كل حالة.

وهذا المعنى أجلَّ من أن يسمى فقرًا، بل هو حقيقة العبودية ولبها. وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وحقيقة «الفقر» وكماله كما قال بعضهم - وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم «الفقر»؟ فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه. فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: إذا كان له فليس له. وإذا لم يكن له فهو له.

وهذه من أحسن العبارات عن معنى «الفقر» الذي يشير إليه القوم. وهو أن يصير كله لله عز وجل. لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه. فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول.

ثم فسر ذلك بقوله: «إذا كان له فليس له» أي إذا كان لنفسه فليس لله. وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

فحقيقة «الفقر» أن لا تكون لنفسك. ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله. وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر.

وهذا «الفقر» الذي يشيرون إليه: لا تنافيه الجدة ولا الأملاك. فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جدتهم، وملكهم، كإبراهيم الخليل ﷺ كان أبا الضيفان. وكانت له الأموال والمواشي. وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام. وكذلك كان نبينا ﷺ، كان كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى] فكانوا أغنياء في فقرهم. فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد - في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة - فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد. وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالاً، وإلا فهو حقيقة. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه -:

والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها. كقول بعضهم: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

وسئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه.

وقال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال.

و«الفقر» له بداية ونهاية. وظاهر وباطن، فبدايته: الذل. ونهايته: العز. وظاهره: العدم، وباطنه: الغنى. كما قال رجل لآخر: فقر وذل؟ فقال: لا. بل فقر وعز.

وإذا عرفت معنى «الفقر» علمت أنه عين الغنى بالله. فلا معنى لسؤال من سأل: أي الحالين أكمل؟ الافتقار إلى الله، أم الاستغناء به؟

فهذه مسألة غير صحيحة. فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه.

وسئل عن ذلك محمد بن عبد الله الفرغاني؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى فقد صح الاستغناء بالله، وإذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به. فلا يقال أيهما أفضل: الافتقار أم الاستغناء؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى.

وأما كلامهم في مسألة «الفقير الصابر، والغني الشاكر» وترجيح أحدهما على صاحبه.

فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى. وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى، وحقائق الإيمان. لا بفقر ولا غنى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] ولم يقل: أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر] أي ليس كل من وسعت عليه وأعطيته: أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيقت عليه وقترت: أكون قد أهنته، فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته، والإيمان به، ومحبته ومعرفته. والإهانة: أن يسلبه ذلك.

قال - يعني ابن تيمية - ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر، بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة. سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ. فقال: لا يوزن غدًا الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر.

مبدأ الفقر.. التفويض

وأول قدم الفقر: الخروج عن النفس. وتسليمها لمالكها ومولاها. فلا يخاصم لها. ولا يتوكل لها. ولا يحاجج عنها ولا ينتصر لها، بل يفوض ذلك لمالكها وسيدها.

قال بندار بن الحسين: لا تخاصم لنفسك. فإنها ليست لك. دعها لمالكها يفعل بها ما يريد.

تحطيم الأصنام

ومن لوازم ذلك: قبض اليد عن الدنيا ضبطًا أو طلبًا.وإسكات اللسان عنها مدحًا والسلامة منها طلبًا أو تركًا.

و«الدنيا» عند القوم: ما سوى الله تعالى - من المال والجاه، والصور، والمراتب.

ولما كان لها تعلق بالجوارح والقلب واللسان، كان حقيقة الفقر: تعطيل هذه الثلاثة عن تعلقها بها وسلبها منها. فإذا قبض يده عن الإمساك جاد بها. وإن كانت غير حاصلة له كف يده عن طلبها. فلا يطلب معدومها. ولا يبخل بموجودها.

وأما «تعطيلها عن اللسان».

فهو أن لا يمدحها. فإن اشتغاله بمدحها دليل على محبتها ورغبته فيها. فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

وكما يطالب الفقير بالسلامة من آفات طلبها، فإنه يطالب بسلامة أخرى من آفات تركها، فإن لتركها آفات. ولطلبها آفات. والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك. بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة. لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها.

فإن قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها. فما وجه الآفة في تركها والرغبة عنها؟

قلت: من وجوه شتى:

أحدها: أنه إذا تركها - وهو بشر لا ملك - تعلق قلبه بما يقيمه ويقيته ويعيشه. وما هو محتاج إليه. فيبقى في مجاهدة شديدة مع نفسه. لترك معلومها وحظها من الدنيا. وهذه قلة فقه في الطريق، بل الفقيه العارف: يردها عنه بلقمة. كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة. ولا يقطع زمانه بمجاهدته ومدافعته، بل أعطها حظها، وطالبها بما عليها من الحق.

هذه طريقة الرسل صلى الله عليهم وسلم. وهي طريقة العارفين من أرباب السلوك. كما قال النبي ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًّا. ولربك عليك حقًّا. ولزوجك عليك حقًّا. ولضيفك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه».

والعارف البصير يجعل عوض مجاهدته لنفسه في ترك شهوة مباحة: مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجن، وقطاع الطريق على القلوب. كأهل البدع من بني العلم، وبني الإرادة ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم. ويتقوي على حربهم بإعطاء النفس حقها من المباح ولا يشتغل بها.

ومن آفات الترك: تطلعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك.

ومن آفات تركها، وعدم أخذها: ما يداخله من الكبر والعجب والزهو. وهذا يقابل الزهد فيها وتركها.

فالفقر الصحيح: السلامة من آفات الأخذ والترك. وهذا لا يحصل إلا بفقه في الفقر.

أثَمَّ شيء غير الفضل؟

وأيضًا، فإن من قواعد هذا الفقه في الفقر: الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل. وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال ويقطع شهود الأحوال. ويمحص من أدناس مطالعة المقامات.

والرجوع إلى السبق هو الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنته وجوده. وأن العبد - وكل ما فيه من خير- فهو محض جود الله وإحسانه. وليس للعبد من ذاته سوى العدم. وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه. فإذا شهد هذا وأحضره قلبه. وتحقق به. خلصه من رؤية أعماله، فإنه لا يراها إلا من الله وبالله. وليست منه هو ولا به.

واتفقت كلمة الطائفة على أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله. ويخلصه منها: شهود السبق، ومطالعة الفضل.

فإذا طالع سبق فضل الله. علم أن كل ما حصل له من حال أو غيره، فهو محض جوده. فلا يشهد له حالاً مع الله ولا مقامًا، كما لم يشهد له عملاً. فقد جعل عدته للقاء ربه: فقره من أعماله وأحواله. فهو لا يقدم عليه إلا بالفقر المحض. فالفقر خير العلاقة التي بينه وبين ربه، والنسبة التي ينتسب بها إليه، والباب الذي يدخل منه عليه.

والفرق بين الحال والمقام: أن «الحال» معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له. ولا اكتساب. ولا تعمد، و«المقام» يتوصل إليه بنوع كسب وطلب.

فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، فالمقام يحصل ببذل المجهود. وأما الحال: فمن عين الجود.

وسئل أصحاب أبي عثمان الحيري: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمر بالتزام الطاعات، ورؤية التقصير فيها.

وتلك هي الحنيفية المحضة. فإنه إذا بذل الطاعة لله، وبالله: صانه ذلك عن الشرك، وإذا شهد تقصيره فيها: صانه من الإعجاب، فيكون قائمًا بإياك نعبد وإياك نستعين.

وأبو عثمان هذا: هو سعيد بن إسماعيل النيسابوري من جلة شيوخ القوم وعارفيهم، وكان يقال: في الدنيا ثلاثة، لا رابع لهم: أبو عثمان النيسابوري بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله بن الجلا بالشام. وله كلام رفيع عال، وكان شديد الوصية باتباع السنة، وتحكيمها ولزومها. ولما حضرته الوفاة مزق ابنه قميصًا على نفسه. ففتح أبو عثمان عينه، وهو في السياق، فقال: يا بني خلاف السنة في الظاهر، علامة رياء في الباطن.

الفقر أغنى الغنى

ومن افتقر إلى الله تعالى: اغتنى.

والغنى نوعان: غنى بالله. وغنى عن غير الله، وهما حقيقة الفقر.

واستدل الهروي له بقول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى].

وفي الآية ثلاث أقوال:

أحدهما: أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله: «عائلًا» والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه من المال.

والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال. وهو حقيقة الغنى.

والثالث: وهو الصحيح - أنه يعم النوعين: نوعي الغنى، فأغنى قلبه به، وأغناه من المال.

ويكمل غنى القلب بغنى آخر، هو: غنى النفس، وآيته: سلامتها من الحظوط، وبراءتها من المراءاة.

ومعلوم: أن أمور القلب أكمل وأقوى من أمور النفس. لكن في هذا الترتيب نكتة لطيفة وهي أن النفس من جند القلب ورعيته. وهي من أشد جنده خلافًا عليه، وشقاقاً له. ومن قبلها تتشوش عليه المملكة. ويدخل عليه الداخل. فإذا حصل له كمال الغنى: لم يتم له إلا بغناها أيضًا. فإنها متى كانت فقيرة عاد حكم فقرها عليه. وتشوش عليه غناه. فكان غناها تمامًا لغناه وكمالاً له. وغناه أصلاً بغناها. فمنه يصل الغنى إليها. ومنها يصل الفقر والضرر والعنت إليه.

إذا عرفت هذا فاعلم أن غناها بشيئين:

الأول: «سلامتها من الحظوظ» وهي تعلقاتها الظاهرة والباطنة بما سوى الله.

الثاني: « براءتها من المراءاة » وهي إرادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها. فمراءاتها دليل على شدة فقرها. وتعلقها بالحظوظ من فقرها أيضًا.

* * *

(٤٢) منزلة الاجتباء

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الاجتباء»

فإن المؤمن متى بلغ ذروة الإيمان: اجتباه الله واصطفاه وجذبه إليه.

وقد استبد الأنبياء عليهم السلام بهذه المنزلة، وكادوا أن يحتكروها، وشغلوا محلها وفناءها، إلا حيزًا أخلاه الله تعالى ووقفه وادخره، ليهبه ثلة من المؤمنين في كل جيل يصدقونه الحب، فيحبهم، ويريدونه، فيريدهم.

فمن اجتباء الأنبياء: إن الله سبحانه ألقى إلى رسوله محمد ﷺ كتابه، وخصه بكرامته، وأهله لرسالته ونبوته، من غير أن يكون ذلك منه على رجاء أو ناله بكسب، أو توسل إليه بعمل، بل هو أمر أريد به، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

ومنها أنه اصطفى موسى واستخلصه لنفسه. وجعله خالصًا له من غير سبب كان من موسى، ولا وسيلة. فإنه خرج ليقتبس النار. فرجع وهو كليم الواحد القهار. وأكرم الخلق عليه، ابتداء منه سبحانه. من غير سابقة استحقاق، ولا تقدم وسيلة. وفي مثل هذا قيل:

أيها العبد كن لما لست ترجو ... من صلاح أرجى لما أنت راج

إن موسى أتى ليقبس نارًا ... من ضياء رآه والليل داج

فانثنى راجعًا، وقد كلمه اللـ ... ـه، وناجاه وهو خير مناج

فأخذه من نفسه، واصطنعه لنفسه، واختاره من بين العالمين، وخصه بكلامه.

والأنبياء عليهم السلام يتفاوتون في ذلك تفاوت أتباعهم:

فمن ذلك قصة موسى عليه السلام، حين ألقي الألواح - وفيها كلام الله - عن رأسه وكسرها، وجر بلحية أخيه. وهو نبي مثله، ولم يعاتبه الله على ذلك؛ كما عتب على آدم عليه السلام في أكل لقمة من الشجرة.

وأما غير الأنبياء، فمن أنواع الاجتباء لهم: أن يعصم الله عبده وهو مستشرف للجفاء، اضطرارًا بتنغيص الشهوات، وتعويق الملاذ، وسد مسالك العطب عليه إكراهًا.

وذلك أن العبد الصادق إذا استشرفت نفسه للجفاء بينه وبين الله تعالى بموافقة شهواته، في لحظة غفلة: عصمه الله اضطرارًا، بأن ينغص عليه الشهوات، فلا تصفو له البتة، بل لا ينال منها

إلا مشوبًا بأنواع التنغيص، الذي ربما أربى على لذتها واستهلكها، بحيث تكون اللذة في جنب التنغيص كالخلسة والغفوة، ليكرهها. وكذلك يعوق الملاذ عليه بأن يحول بينه وبينها، حتى لا يركن إليها، ولا يطمئن إليها ويساكنها، فيحول بينه وبين أسبابها.

محمد الكامل ﷺ

وأكمل من اجتباه الله تعالى من الأنبياء عليهم السلام: محمد ﷺ.

فموسى عليه السلام: كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر، وكان من أعظم خلق الله هيبة ووقارًا، وأشدهم بأسًا وغضبًا لله، وبطشًا بأعداء الله.

وعيسى عليه السلام: كان في مظهر الجمال. وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان. وكان لا يقاتل، ولا يحارب. وليس في شريعته قتال ألبتة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. ومن نازعك ثوبك، فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلاً، فامش معه ميلين» ونحو هذا.

أما نبينا ﷺ: فكان من مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله. وهذا اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابًا له وفرضًا وبالفضل ندبـًا إليه واستحبابًا. وبالشدة في موضع الشدة وباللين في موضع اللين. ووضع السيف موضعه ووضع الندي موضعه فيذكر الظلم ويحرمه والعدل ويوجبه والفضل ويندب إليه في بعض آيات. كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] فهذا عدل: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] فهذا فضل: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ فهذا تحريم للظلم ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦] فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ ندب إلى الفضل. وقوله: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البقرة] تحريم للظلم ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾ عدل و﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠﴾ فضل.

أمة محمد الكاملة.. خير الأمم

وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع. فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة. وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم. ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم. كما كمل

لنبيهم ﷺ من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله. وكمل في كتابه من المحاسن ما فرقها في الكتب قبله. وكذلك في شريعته.

فهؤلاء هم المجتبون الأخيار. كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

(٤٣) منزلة الإحسان

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الإحسان»

وهي لب الإيمان، وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها وكل ما قيل من أول الكتاب إلى هاهنا فهو من الإحسان.

وقد استشهد على هذه المنزلة بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن] وبحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه».

وقال ابن عباس والمفسرون: هل جزاء من قال: «لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟».

وأما الحديث: فإشارة إلى كمال الحضور مع الله عز وجل. ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

قال شيخ الإسلام الهروي:

وأولى درجاته: «الإحسان في القصد بتهذيبه علمـًا، وإبرامه عزمـًا».

أي أن إحسان القصد يكون بشيئين:

أحدهما: تهذيبه علمًا، بأن يجعله تابعًا للعلم على مقتضاه مهذبًا به، مُنقّى من شوائب الحظوظ. فلا يقصد إلا ما يجوز في العلم. و«العلم» هو اتباع الأمر والشرع.

والثاني: إبرامه عزمًا. و«الإبرام» الإحكام والقوة. أي يقارنه عزم يمضيه، ولا يصحبه فتور وتوان يضعفه ويوهنه.

فقه العمل السري

ومن درجاته: الإحسان في الأحوال، وهو أن يستر ما يهبه الله من حفظ وصيانة واجتباء، فيسترها عن الناس ما أمكنه، لئلا يعلموا بها. ولا يظهرها إلا لحجة. أو حاجة، أو مصلحة راجحة. فإن في إظهارها بدون ذلك آفات عديدة. مع تعريضها للّصوص والسرّاق والمغيرين والحاسدين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين حمق وعجز، وهو من حظوظ النفس والشيطان.

وأهل الصدق والعزم لها أستر، وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم.

مهاجرون أبداً

وأعلى الإحسان: الإحسان في الوقت، وهو أن تجعل هجرتك إلى الحق سرمدًا، إذ كل متوجه إلى الله بالصدق والإخلاص، فإنه من المهاجرين إليه. فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة، بل ينبغي أن يصحبها سرمدًا. حتى يلحق بالله عز وجل.

فما هي إلا ساعة. ثم تنقضي ويحمد غبَّ السير من هو سائر

ولله على كل قلب هجرتان وهما فرض لازم له على الأنفاس.

هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص، والإنابة والحب، والخوف والرجاء والعبودية. وهجرة إلى رسوله ﷺ: بالتحكيم له والتسليم والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته. فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل، ومتاهات الطريق.

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد. وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه ليقتبس نورًا، قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور. والله المستعان.

* * *

(٤٤) منزلة العلم

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «العلم»

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه: فسلوكه على غير طريق. وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها. وهذا إجماع من شيوخ العارفين. ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم، ونواب إبليس وشرطه.

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ.

وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة.

وقال أبو حفص رحمه الله: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا يعد في ديوان الرجال.

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء فهو عيش النفس.

وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: من عمل عملاً بلا اتباع سنة، فباطل عمله.

وقال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله: الصحبة مع الله: بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة والصحبة مع الرسول ﷺ: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم، ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة، ومع الأهل: بحسن الخلق. ومع الإخوان: بدوام البشر. ما لم يكن إثمًا. ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة.

زاد غيره: ومع الحافظين: بإكرامهما واحترامهما، وإملائهما ما يحمدانك عليه. ومع النفس: بالمخالفة، ومع الشيطان: بالعداوة.

وقال أبو عثمان أيضًا: من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً: نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً: نطق بالبدعة. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤].

وقال عمرو بن عثمان المكي: العلم قائد. والخوف سائق. والنفس حرون بين ذلك، جموح خداعة روَّاغة. فاحذرها وراعها بسياسة العلم. وسُقها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد.

أخبرنا .. أول علومنا

وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه. كقول من قال: «نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت».

وقول الآخر – وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق، من يسمع من الخلاق؟

ونحو هذا من الكلمات: فجهل وكلام شيطاني، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله من رواة الحديث لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام.

ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك: إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي. أو رأي نفسي، فليس بعد القرآن و«أخبرنا» إلا الشبهات، ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسنة. وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم.

و«العلم» خير من «الحال»، فنفع الحال لا يتعدى صاحبه. ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر.

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة. ودائرة الحال تضيق من غير صاحبه. وربما ضاقت عنه.

والعلم هاد والحال الصحيح مهتد به. والعلم تركة الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبتهم ووارثهم. وهو حياة القلوب. ونور البصائر. وشفاء الصدور. ورياض العقول. ولذة الأرواح. وأنس المستوحشين. ودليل المتحيرين. وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد. وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون. ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام. وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم. وهو قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة. والكاشف عن الشبهة. والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه.

مذاكرته تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قربة. وبذله صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام والقيام. والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب. لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين. وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

وروينا عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك رضي الله عنه فوضعت ألواحي وقمت أصلي. فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه.

ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أَجَلِّ مشهود به وهو «التوحيد» وقرن شهادتهم بشهادة وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم. فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح.

ومن هاهنا - والله أعلم - يؤخذ الحديث المعروف: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين».

وهو حجة الله في أرضه. ونوره بين عباده. وقائدهم ودليلهم إلى جنته. ومدنيهم من كرامته.

ويكفي في شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها، وتظلهم بها.

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران عليه السلام في طلب العلم هو وفتاه، حتى مسهما النصب في سفرهما في طلب العلم. حتى ظفر بثلاث مسائل. وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

أنواع العلم

والعلم نوعان:

فمنه علم جلي، يدرك بالعيان، أو باستفاضة صحيحة، أو صحة تجربة قديمة.

أي أن هذا العلم الجلي ثلاثة أنواع:

أحدها: ما وقع عن عيان. وهو البصر.

والثاني: ما استند إلى السمع. وهو علم الاستفاضة.

والثالث: ما استند إلى العقل. وهو علم التجربة.

فهذه الطرق الثلاثة - وهي السمع، والبصر، والعقل - هي أهم طرق العلم وأبوابه، ولا تنحصر طرق العلم فيها، فإن سائر الحواس توجب العلم، إذ يلحق بها ما يدرك بالباطن، وهي

الوجدانيات، وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق، وإن كان واحدًا، وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن عن تجربة.

ثم من العلم: علم خفي، ينبت في القلوب الطاهرة، من الأبدان الزاكية، بماء الرياضة الخالصة. ويظهر لأهل الهمة العالية، في الأحايين الخالية، والأسماع الصاخبة.

وهذا العلم خفي على أهل النوع الأول، وهو المسمى بالمعرفة. فهو ينبت في القلوب الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها، وعلائقها التي تعوق الأرواح عن ديار الأفراح. فإن هذه أكدار، وتنفسات في وجه مرآة القلب والروح. فلا تنجلي فيها صور الحقائق كما ينبغي. والنفس تنفس فيها دائمًا بالرغبة في الدنيا والرهبة من فوتها. فإذا جليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت. وظهرت فيها الحقائق والمعارف.

ولا تحمل هذه القلوب إلا الأبدان الزاكية التي زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال. فمتى خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا: زكت أرض القلب. فقبلت بذر العلوم والمعارف . فإن سقيت - بعد ذلك - بمدد الرياضة الشرعية النبوية المحمدية - وهي التي لا تخرج عن علم، ولا تبعد عن واجب. ولا تعطل سنة - أنبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة وتعرف. فاجتني منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطرف والفوائد، والثمار مختلفة الألوان، والأذواق.

وأما «الهمم العالية» فهي التي لا تقف دون الله عز وجل. ولا تُعَرِّج في سفرها على شيء سواه. وأعلى الهمم: ما تعلق بالعلم الأعلى. وأوسعها: ما تعلق بصلاح العباد. وهي همم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وورثتهم.

و«الأسماع الصاخبة» هي التي صحت من تعلقها بالباطل واللغو، وأصاخت لدعوة الحق ومنادي الإيمان.

وإن شئت فقل إن هذا العلم الخفي هو الإلهام والفهم الخاص الذي هو ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له، كما قال على بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سُئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: «لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه».

وإن شئت فقل في هذا العلم إنه البصيرة، وهي التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة. وهي أعلى درجات العلماء. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨] أي أنا وأتباعي على بصيرة.

وقيل: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ عطف على المرفوع «بـأدعو» أي أنـا أدعـو إلى الله عـلى بـصيرة، ومـن اتبعني كذلك يدعو إلى الله على بصيرة.

وعلى القولين فالآية تدل على أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة. فمـن لـيس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة. وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى.

أو قل: هي «الحكمة».

قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء] وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران].

و«الحكمة» في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب. فالمفردة: فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتـشابهه. ومقدمـه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله».

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقـه. وفي روايـة أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل.

وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهي السنة. كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمـل بـه، والإصـابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائــق الإيمان.

و«الحكمة» حكمتان: علمية، وعملية، فالعلميـة: الاطـلاع عـلى بـواطن الأشـياء، ومعرفـة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خلقاً وأمرًا، قدرًا وشرعًا، والعملية هي وضع الشيء في موضعه.

وأساس الحكمة: أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تـؤخره عنه، فإنه لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعًا وقدرًا، ولها حدود ونهايـات تـصل إليها ولا تتعداها. ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر - كانت «الحكمة» مراعـاة هـذه الجهـات الثلاثة. بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها فتكون متعديًا مخالفًا للحكمة. ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوتها.

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعًا وقدرًا. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض.

وتعدي الحق: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد. وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله.

فالحكمة إذًا: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه. فالرجل الكامل: من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل - كالمرأة - له نصف ميراث. والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وأكملهم أولو العزم. وأكملهم محمد ﷺ. ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه وعلى أمته بما أتاهم من الحكمة. كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾ [النساء:١١٣] وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة].

فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة. وكل خلل في الوجود، وفي العبد فسببه: الإخلال بها. فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيبًا. وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول، والله أعلم.

وإنما تكمل الحكمة بأن تشهد نظر الله في وعده. وتعرف عدله في حكمه. وتلحظ بره في منعه.

أي تعرف «الحكمة» في الوعد والوعيد، وتشهد حكمه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النساء] فتشهد عدله في وعيده، وإحسانه في وعده.

وكذلك تعرف عدله في أحكامه الشرعية، والكونية الجارية على الخلائق. فإنه لا ظلم فيها، ولا حيف ولا جور. وإن أجراها على أيدي الظلمة. فهو أعدل العادلين، ومن جرت على يديه هو الظالم.

وكذلك «تعرف بره في منعه».

فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق. ولا يغيض ما في يمينه سعة عطائه.

فما منع من منعه فضله إلا لحكمة كاملة في ذلك. فإنه الجواد الحكيم. وحكمته لا تناقض جوده. فهو سبحانه لا يضع بره وفضله إلا في موضعه ووقته. بقدر ما تقتضيه حكمته. ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا. ولو علم في الكفار خيرًا وقبولاً لنعمة الإيمان، وشكرًا له عليها، ومحبة له واعترافًا بها، لهداهم إلى الإيمان. ولهذا لما قالوا للمؤمنين: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام:٥٣] أجابهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته، ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته.

* * *

(٤٥) منزلة الفراسة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الفراسة»

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر] قال مجاهد رحمه الله: للمتفرسين: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: المتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠] فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

و«اللحن» ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان.أحدهما: الفطنة. ومنه الحديث: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض».

والثاني: التعريض والإشارة. وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث ألذه وهو مما ... يشتهي السامعون يوزنا وزنا
منطق صائب وتلحن أحيانا ... وخير الحديث ما كان لحنا

والثالث: فساد المنطق في الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله. ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر].

وفراسة المؤمنين صادقة دائمًا.

وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده. يفرق بين الحق والباطل، والصادق، والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده. يثب على القلب كوثب الأسد على الفريسة. لكن «الفريسة» فعيلة بمعنى مفعولة. وبناء «الفراسة» كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه «الفراسة» على حسب قوة الإيمان. فمن كان أقوى إيمانًا فهو أَحَدُّ فراسة.

وقال عمرو بن نجيد: كان شاه الكرماني حاد الفراسة لا يخطي ويقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال: لم تخطئ فراسته.

وقال أبو جعفر الحداد : الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض آخر من جنسه، فهو خاطر وحديث نفس.

وقال الهروي: لا يصدق منها إلا فراسة تُجنى من غرس الإيمان.

فشبه الإيمان بالغرس، لأنه يزداد وينمو، ويزكو على السقي، ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه. وأصله ثابت في الأرض. وفروعه في السماء. فمن غرس الإيمان في أرض قلبه الطيبة الزاكية، وسقي ذلك الغراس بماء الإخلاص والصدق والمتابعة: كان من بعض ثمره الفراسة.

وقال ابن مسعود ﵁: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١] وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص:٢٦] وأبو بكر في عمر ﵄، حيث استخلفه، وفي رواية أخرى. وامرأة فرعون حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص:٩].

وكـان الصدِّيق ﵁ أعظم الأمة فراسة. وبعده عمر بن الخطاب ﵁، ووقائع فراسته مشهورة. فإنه ما قال لشيء «أظنه كذا» إلا كان كما قال. ويكفي في فراسته: موافقته ربه في المواضع المعروفة، مما كان في شأن أسرى بدر، ونحوها.

ومر به سواد بن قارب ولم يكن يعرفه. فقال: «لقد أخطأ ظني، أو أن هذا كاهن؛ أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية» فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر. فقال: «سبحان الله، يا أمير المؤمنين، ما استقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به. فقال له عمر ﵁: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك. ولكن أخبرني عما سألتك عنه. فقال: صدقت يا أمير المؤمنين. كنت كاهنًا في الجاهلية. ثم ذكر القصة».

وفراسة الصحابة ﵃ أصدق الفراسة.

وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك، ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ. قال الله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] كان ميتًا بالكفر والجهل، فأحياه الله

بالإيمان والعلم. وجعل له بالقرآن والإيمان نورًا يستضيء به في الناس على قصد السبيل. ويمشي به في الظلم. والله أعلم.

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء: بعينه. وأذنه. وقلبه. فعينه للسيماء والعلامات. وأذنه: للكلام وتصريحه وتعريضه ومنطوقه ومفهومه وفحواه وإشارته ولحنه وإيمائه ونحو ذلك. وقلبه للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيه. فيعبر إلى ما وراء ظاهره، كعبور النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى باطن النقد والاطلاع عليه: هل هو صحيح، أو زغل؟ وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدلِّ، إلى باطن الروح والقلب. فنسبة نقده للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصيرفي ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد.

وكذلك نقد أهل الحديث. فإنه يمر إسناد ظاهر كالشمس على متن مكذوب. فيخرجه ناقدهم. كما يخرج الصيرفي الزغل من تحت الظاهر من الفضة.

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله.

وللفراسة سببان: أحدهما: جودة ذهن المتفرس، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطئ للعبد فراسة. وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة. وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر: كانت فراسته بين بين.

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة: وله الوقائع المشهورة. وكذلك الشافعي رحمه الله. وقيل: إن له فيها تآليف.

* * *

(٤٦) منزلة التعظيم

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «التعظيم»

وهذه المنزلة تابعة للمعرفة. فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب. وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيمًا وإجلالاً. وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته. ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته. وأقوالهم تدور على هذا. فقال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح] قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة.

وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيرًا.

وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة. فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم.

وأول التعظيم: تعظيم الأمر والنهي، وهو أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشدد غال.

فهاهنا أمران ينافيان تعظيم الأمر والنهي:

أحدهما: الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط. والثاني: إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه. كالوادي بين جبلين. والهدى بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافي عن الأمر: مضيع له، فالغالي فيه: مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلو بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

و«الغلو» نوعان: نوع يخرجه عن كونه مطيعًا. كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمي الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمي بها في المنجنيق، أو سعي بين الصفا والمروة عشرًا، أو نحو ذلك عمدًا.

وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار. كقيام الليل كله، وسرد الصيام الدهر أجمع، بدون صوم أيام النهي. والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا ويسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة» يعني: استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة، فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال ﷺ: «ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد» رواهما البخاري.

وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «هلك المتنطعون - قالها ثلاثا - وهم المتعمقون المتشددون».

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ: «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا».

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «إن هذا الدين متين. فأوغل فيه برفق. ولا تبغضن إلى نفسك عبادة الله» أو كما قال.

وأعظم التعظيم: تعظيم الحق سبحانه، وهو أن لا يجعل دونه سببًا، ولا يرى عليه حقًّا.

فهذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه، صاحب الخلق والأمر، والأولى تتضمن تعظيم أمره.

وإنما تكون بأمرين:

أحدهما: أن لا تجعل للوصلة إليه سببًا غيره. بل هو الذي يوصل عبده إليه، فلا يوصل إلى الله إلا الله، ولا يقرب إليه سواه. ولا يدني إليه غيره، ولا يتوصل إلى رضاه إلا به. فما دل على الله إلا الله، ولا هدى إليه سواه. ولا أدنى إليه غيره. فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سببًا فالسبب وسببيته وإيصاله: كله خلقه وفعله.

والثاني: أن لا ترى لأحد من الخلق - لا لك ولا لغيرك - حقًّا على الله، بل الحق لله على خلقه.

وأما حقوق العبيد على الله تعالى: من إثابته لمطيعهم، وتوبته على تائبهم، وإجابته لسائلهم: فتلك حقوق أحقها الله سبحانه على نفسه، بحكم وعده وإحسانه لا أنها حقوق أحقوها هم عليه. فالحق في الحقيقة لله على عبده، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره، وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه.

* * *

(٤٧) منزلة السكينة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «السكينة»

هذه المنزلة من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب. وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» التي معناها الطمأنينة في خمسة مواضع:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٢٦].

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ [التوبة:٤٠].

الثالث: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح].

الرابع: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

الخامس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٦].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة.

وقد جربت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السّكينة» هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف. فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه. ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة. إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رأسيهما. لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما. وكيوم حنين، حين ولوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحد منهم على أحد. وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس. وحسبك بضعف عمر رضي الله عنه عن حملها - وهو عمر - حتى ثبته الله بالصديق رضي الله عنه .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه. وهو يرتجز بكلمة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

لا هـــمَّ لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينا ... ولا تـــــــصدقنا ولا صليـــــــــنا

فـــأنزلن ســـكينة عليـــــــــنا ... وثبـــت الأقـــدام إن لاقيـــــنا

إن الألى قـــد بغـــوا عليـــــــنا ... وإن أرادوا فتنـــــة أبينـــــــــا

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: «إني باعث نبيا أمياً، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده لكل جميل. وأهب له كل خلق كريم. ثم أجعل السكينة لباسه. والبر شعاره، والتقوى ضميره. والحكمة مقولته. والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه».

لسانه الحكمة تنطقه السكينة

«السكينة» إذا نزلت على القلب اطمأن بها. وسكنت إليها الجوارح. وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والهجر، وكل باطل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه».

وكثيرًا ما ينطق صاحب «السكينة» بكلام لم يكن عن فكرة منه، لا رواية ولا هبة، ويستغربه هو من نفسه. كما يستغرب السامع له. وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة. وصدق الرغبة من السائل والمجالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه، وحضرته، مع تجرده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله، ولعباده المؤمنين.

السكينة.. نور وقوة وروح

وقال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي رحمه الله:

«السكينة: هي التي نزلت على قلب النبي ﷺ، وقلوب المؤمنين. وهي شيء يجمع قوة وروحًا، يسكن إليه الخائف. ويتسلى به الحزين والضجر. ويسكن إليه العصي والجريء والأبي».

هذا من عيون كلامه وغرره الذي تثنى عليه الخناصر. وتعقد عليه القلوب.

فذكر: أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب رسوله ﷺ. وقلوب عباده المؤمنين يشتمل على ثلاثة معان: النور، والقوة، والروح.

وذكر له ثلاث ثمرات: سكون الخائف إليه، وتسلي الحزين والضجر به، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه.

فبالروح الذي فيها: حياة القلب، وبالنور الذي فيها: استنارته، وضياؤه وإشراقه. وبالقوة ثباته وعزمه ونشاطه.

فالنور: يكشف له عن دلائل الإيمان، وحقائق اليقين. ويميز له بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والراشد، والشك واليقين.

والحياة: توجب كمال يقظته وفطنته، وحضوره وانتباهه من سنة الغفلة. وتأهبه للقائه.

والقوة: توجب له الصدق، وصحة المعرفة. وقهر داعي الغي والعنت وضبط النفس عن جزعها وهلعها، واسترسالها في النقائص والعيوب، ولذلك ازداد بالسكينة إيمانًا مع إيمانه.

والإيمان: يثمر له النور، والحياة والقوة. وهذه الثلاثة تثمره أيضًا، وتوجب زيادته. فهو محفوف بها قبلها وبعدها.

فبالنور: يكشف دلائل الإيمان. وبالحياة: ينتبه من سنة الغفلة. ويصير يقظانًا.

وبالقوة: يقهر الهوى والنفس. والشيطان. كما قيل:

وتلك مواهب الرحمن ليست ... تحصل باجتهاد، أو بكسب

ولكن لا غنى عن بذل جهد ... بإخلاص وجد، لا بلعب

وفضل الله مبذول. ولكن ... بحكمته، وعن ذا النص ينبي

فما من حكمة الرحمن وضع الـ ... ـكواكب بين أحجار وترب

فشكرًا للذي أعطاك منه ... فلو قبل المحَلّ لزاد ربي

فإذا حصلت هذه الثلاثة بالسكينة – وهي: النور، والحياة، والروح – سكن إليها العصي.

وهو الذي سكونه إلى المعصية والمخالفة. لعدم سكينة الإيمان في قلبه صار سكونه إليها عوض سكونه إلى الشهوات، والمخالفات. فإنه قد وجد مطلوبه. وهو اللذة التي كان يطلبها من المعصية. ولم يكن له ما يعيضه عنها. فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها، ونعيمها عن لذة المعصية. فاستراحت بها نفسه. وهاج إليها قلبه. ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية. فصارت لذته روحانيه قلبية. بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها. وحبس عنها وخلصته. فإذا تألقت بروقها قال:

تألق البرق نجديا. فقلت له ... يا أيها البرق، إني عنك مشغول

وإذا طرقته طوافيها خيالية في ظلام ليل الشهوات، نادي لسان حاله، وتمثل بمثل قوله:

طرقتك صائدة القلوب . وليس ذا وقت الزيارة. فارجعي بسلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل، ووعدته بالموافاة، تمثل بقول الآخر:

قالت - وقد عزمت على ترحالها - ماذا تريد؟ فقلت: أن لا ترجعي

فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سَكَّنت خوفه. وهو قوله: «يسكن إليها الخائف» وسلت حزنه.

فإنها لا حزن معها. فهي سلوة المحزون. ومذهبة الهموم والغموم. وكذلك تذهب عنه وخم ضجره. وتبعث نشوة العزم، وتحول بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر، وتورثه وقارًا وخشوعًا.

ومن معاني السكينة أيضًا: السكينة عند المعاملة، بمحاسبة النفوس، وملاطفة الخلق ومراقبة الحق.

وهذا المعنى هو الذي يحوم عليه السالكون، والعلم الذي يشمرون إليه للمعاملة بينهم وبين الله وبينهم وبين خلقه، وتحصل بثلاثة أشياء:

أحدها: محاسبة النفس، حتى تعرف ما لها وما عليها، ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالاً فيضيعها ويهملها، وأيضًا فإن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها.

قال الحسن رضي الله عنه: إن المؤمن - والله - لا تراه إلا قائمًا على نفسه إما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ مالي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا. ونحو هذا من الكلام.

فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعي في إصلاحها.

الثاني: ملاطفة الخلق. وهي معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة. فإن ذلك ينفرهم عنه. ويغريهم به. ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته، فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبي فتكسب مودته ومحبته. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عدو ومبغض فتطفئ بلطفك جمرته. وتستكفي شره. ويكون احتمالك لمضض لطفك به، دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحق سبحانه. وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل. ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه. وهي المقصودة لذاته. وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه، فمراقبة الحق سبحانه وتعالى: توجب إصلاح النفس واللطف بالخلق.

* * *

(٤٨) منزلة الطمأنينة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الطمأنينة»

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

«الطمأنينة» سكون القلب إلى الشيء. وعدم اضطرابه وقلقه. ومنه الأثر المعروف: «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» أي الصدق يطمئن إليه قلب السامع. ويجد عنده سكونًا إليه والكذب يوجب له اضطرابًا وارتيابًا. ومنه قوله ﷺ: «البر ما اطمأن إليه القلب» أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفي « ذكر الله » هاهنا قولان:

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه. فإنه يطمئن إليه قلب ويسكن. فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله.

والقول الثاني: وهو الأصح: أن ذكر الله هاهنا القرآن. وهو ذكره الذي أنزله على رسوله. به طمأنينة قلوب المؤمنين. فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين. ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن. فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه. واضطرابه وقلقه من شكه. والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام. فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به.

ومستحيل أن ينتفع بالقرآن وهداه: من لم يفقهه ويتدبره حق تدبره، ويتلوه حق تلاوته. ولا يمكن أن يصح ذلك ويتحقق إلا لمن كان قلبه بصيرًا حاضرًا مع ربه بآثار أسمائه وصفاته في سننه الكونية في نفسه وفيما حوله في كل حركة وسكنة وشأن.

وكذلك القولان أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف].

والصحيح: أن ذكره الذي أنزله على رسوله - وهو كتابه - من أعرض عنه: قيض له شيطانًا يضله ويصده عن السبيل. وهو يحسب أنه على هدى.

وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه].

والصحيح: أنه ذكره الذي أنزله على رسوله – وهو كتابه – ولهذا يقول المعرض عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه].

وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة. فطوبى لهم وحسن مآب.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر] دليل على أنها لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة. فهناك ترجع إليه. وتدخل في عباده تدخل في جنته. وكان من دعاء بعض السلف : «اللهم هب لي نفسًا مطمئنة إليك».

وختامها .. أمن

وحاصل الطمأنينة : سكون يقوِّيه أمن صحيح، شبيه بالعيان.

فالطمأنينة موجب السكينة، وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة، وهي سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح الذي لا يكن أمن غرور. فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور. ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له. و«الطمأنينة» لا تفارقه، فإنها مأخوذة من الإقامة. يقال: اطمأن بالمكان والمنزل: إذا أقام به.

وسبب صحة هذا الأمن المقوي للسكون: شبهه بالعيان بحيث لا يبقى معه شيء من مجوزات الظنون والأوهام بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به. فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه.

وفرق ما بينها وبين السكينة: إن «السكينة» تصول على الهيبة الحاصلة في القلب فتخمدها في بعض الأحيان. فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون. وذلك في بعض الأوقات. فليس حكمًا دائمًا مستمرًّا وهذا يكون لأهل «الطمأنينة» دائمًا ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس. فإن الاستراحة في «السكينة» قد تكون من الخوف والهيبة فقط. والاستراحة في منزل «الطمأنينة» تكون مع زيادة أنس. وذلك فوق مجرد الأمن، وقدر زائد عليه.

كذلك فإن «الطمأنينة» أعم. فإنها تكون في العلم والخبر به، واليقين والظفر بالمعلوم. ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به، ومعرفته والهداية به في ظلم الآراء والمذاهب. واكتفت به منها، وحكَّمته عليها وعزلتها. وجعلت له الولاية بأسرها كما جعلها الله. فبه خاصمت، وإليه حاكمت وبه صالت، وبه دفعت الشبه.

وأما «السكينة» فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه، وسكونه وزوال قلقه واضطرابه، كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو وصولته. والله سبحانه أعلم.

وأبرد ما تكون الطمأنينة على عبد أدركه الضجر من قوة التكاليف وأعباء الأمر وأثقاله

– ولاسيما من أقيم مقام التبليغ عن الله، ومجاهدة أعداء الله، وقطَّاع الطريق إليه – فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويحتملونه. فلابد أن يدركه الضجر، ويضعف صبره. فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سكينته. فاطمأن إلى حكمه الديني، وحكمه القدري.

ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته. فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم. وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وإنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن. فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان، فإن المحذور والمخوف: إن لم يقدر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أبرم تقديره. فلا جزع حينئذ – لا مما قدر ولا مما لم يقدر.

نعم إن كان له في هذه النازلة حيلة. فلا ينبغي أن يضجر عنها، وإن لم يكن فيها حيلة، فلا ينبغي أن يضجر منها.

كما أنها أبرد ما تكون على المبتلى، فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض. وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب. وقد تقوى ملاحظة العوض حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمة، ولا تستبعد هذا. فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به. وملاحظته لنفعه تغيبه عن تأمله بمذاقه أو تخففه عنه. والعمل المعول عليه: إنما هو على البصائر. والله أعلم.

* * *

(٤٩) منزلة الهمة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الهمَّة»

و«الهمَّة» فِعْلَةَ من الهَمِّ. وهو مبدأ الإرادة. ولكن خصوصًا بنهاية الإرادة. فالهم مبدؤها. والهمة نهايتها.

والعامة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسن. والخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب، فإن قيمة المرء همته ومطلبه.

والمراد: أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا. فتلك هي الهمة العالية، التي لا يقدر معها على المهلة، ولا يتمالك صبره، لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود، ولا يتلفت عنها، إلى ما سوى أحكامها. وصاحب هذه الهمة: سريع وصوله وظفره بمطلوبه. ما لم تعقه العوائق وتقطعه العلائق. والله أعلم.

هذه الدنيا.. موحشة

وأول نبضات الهمة: همة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني، وتحمله على الرغبة في الباقي، وتصفيه من كدر التواني.

و«الفاني»: الدنيا وما عليها. أي يزهد القلب فيها وفي أهلها. والرغبة فيها «وحشة» لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.

وأما الراغبون فيها: فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم. إذ فاتها ما خلقت له. فهي في وحشة لفواته.

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم. لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم. ولا شيء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه. ولذلك كان من نازع الناس أموالهم، وطلبها منهم: أوحش شيء إليها وأبغضه.

وأيضًا: فالزاهدون فيها: إنما ينظرون إليها بالبصائر. والراغبون: ينظرون إليها بالأبصار. يستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب. كما قيل:

وإذا أفاق القلب واندمل الهوى   رأت القلوب، ولم تر الأبصار

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة في الباقي لذاته. وهو الحق سبحانه. والباقي بإبقائه: هو الدار الآخرة.

ثم تصفية من كدر التواني، أي تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتواني، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط. والله أعلم.

وتعلو الهمة حتى تورث أنفة من المبالاة بالعلل. والثقة والأمل.

و«العـلـل» هاهنا: هي علل الأعمال، من رؤيتها بعين التعظيم، ونحو ذلك.

فصاحب هذه الهمة: يأنف على همته، وقلبه من أن يبالي بالعلل، فإن همته فوق ذلك، فمبالاته بها، وفكرته فيها: نزول من الهمة.

وعدم هذه المبالاة: إما لأن العلل لم تحصل له. لأن علو همته حال بينه وبينها. فلا يبالي بما لم يحصل له. وإما لأن همته وسعت مطلوبه. وعلوه يأتي على تلك العلل، ويستأصلها، فإنه إذا علق همته بما هو أعلى منها تضمنتها الهمة العالية. فاندرج حكمها في حكم الهمة العالية. وهذا موضع غريب عزيز جدًّا.

والهُمام يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي، فهو في سفر دائم بالقلب إلى الله، ليحصل له ويفوز به. فإنه طالب لربه تعالى طلبًا تامًّا بكل معنى واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعزلته وخلطته، وسائر أحواله. فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أيما صبغة. وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة. وأحدهم لا يقنع بمُجَرَّد رسوم الأعمال، ولا يقف عند عوض ولا درجة. فإن ذلك نزول من همته. ومطلبه أعلى من ذلك. فإن صاحب هذه الهمة قد قصر همته على المطلب الأعلى، الذي لا شيء أعلى منه. والأعواض والدرجات دونه، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية.

وأما أنفته من الثقة بالأمل: فإن الثقة توجب الفتور والتواني. وصاحب هذه الهمة: ليس من أهل ذلك، كيف؟ وهو طائر لا سائر. والله أعلم.

* * *

(٥٠) منزلة المحبة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «المحبة»

وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون. وإلى علمها شمر السابقون. وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون. فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح. وقرة العيون. وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات. والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات. والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

وهي سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق. وقعد من سواهم على الرسوم.

وهي عنوان طريقتهم ودليلها. فإن العنوان يدل على الكتاب، والمحبة تدل على صدق المطالب، وأنه من أهل الطريق.

كما أنها «معقد النسبة» أي النسبة التي بين الرب وبين العبد. فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والربوبية من الرب. وليس في العبد شيء من الربوبية، ولا في الرب شيء من العبودية. فالعبد عبد من كل وجه. والرب تعالى هو الإله الحق من كل وجه.

ومعقد نسبة العبودية هو المحبة. فالعبودية معقودة بها، بحيث متى انحلت المحبة انحلت العبودية. والله أعلم.

وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال. التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها. وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها. وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب. وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. إذ هم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضى الله – يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة – أن المرء مع من أحب. فيا لها من نعمة على المحبين سابغة.

تالله لقد سبق القوم السعاة، وهم على ظهور الفرش نائمون. وقد تقدموا الركب بمراحل. وهم في سيرهم واقفون.

مـــــن لي بمثـــــل ســـــيرك المـــــدلل   تمـــــشي رويـــــدا؟ وتجـــــي في الأول

أجابوا منادي الشوق إذا نادى بهم: حي على الفلاح. وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم. تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم. وشكروا مولاهم على ما أعطاهم. وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

فحيلا، إن كنت ذا همة. فقد	حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادي حبهم ورضاهم	إذا ما دعا «لبيك» ألفا كواملا
ولا تنظر الأطلال من دونهم، فإن	نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد	ودعه. فإن الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهم زادا إليهم. وسر على	طريق الهدى والفقر تصبح واصلا
وخذ قبسا من نورهم. ثم سر به	فنورهم يهديك. ليس المشاعلا
وخذ: يمنة عنها على المنهج الذي	عليه سرى وفد المحبة آهلا
وقل: ساعدي، يا نفس بالصبر ساعة	فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا
فما هي إلا ساعة. ثم تنقضي	ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

أو نقده من أثمان المحبة: بذل الروح فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟

بدم المحب يباع وصلهم	فمن الذي يبتاع بالثمن؟

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون. ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد. فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس. فتأخر البطالون. وقام المحبون ينظرون: أيهم يصلح أن يكون ثمنًا؟ فدارت السلعة بينهم. ووقعت في يد ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى. فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي. فتنوع المدعون في الشهود. فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخر الخلق كلهم. وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه. فطولبوا بعدالة البينة بتزكية: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فهلموا إلى بيعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع: عرفوا قدر السلعة وأن لها شأنًا. فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس. فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار. وقالوا: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك».

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت ، وأضعافها معاً ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران].

إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لايزال سعي المحب صاعدًا إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

من ذاق طعم المحبة.. عرفها

لا تحد المحبة بحد أوضح منها. فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء. فحدها وجودها. ولا توصف المحبة بوصف أظهر من «المحبة».

وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة. وتنوعت بهم العبارات. وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة.

وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض. ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حبب الأسنان.

الثاني: العلو والظهور. ومنه حبب الماء وحبابه.وهو ما يعلوه عند المطر الشديد. وحبب الكأس منه.

الثالث: اللزوم والثبات. ومنه: حب البعير وأحب، إذا برك ولم يقم.

قال الشاعر:

حلت عليه بالفلاة ضربا ضرب بعير السوء إذا أحبا

الرابع: اللب ومنه: حبة القلب، للبه وداخله. ومنه: الحبة لواحدة الحبوب. إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك. ومنه حِبُّ الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه وفيه معنى الثبوت أيضًا.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة. فإنها صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب. وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد. وثبوت إرادة القلب للمحبوب. ولزومها لزومًا لا تفارقه. ولإعطاء المحب محبوبه لبه، وأشرف ما عنده. وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وهمومه على محبوبه.

آثار المحبة وشواهدها

قيل: المحبة الميل الدائم، بالقلب الهائم.

وهذا الحد لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة، والصحيحة والمعلولة.

وقيل: إيثار المحبوب، على جميع المصحوب.

وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها.

وقيل: موافقة الحبيب، في المشهد والمغيب.

وهذا أيضًا موجبها ومقتضاها. وهو أكمل من الحدين قبله. فإنه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصة، بخلاف مجرد الميل والإيثار بالإرادة. فإنه إن لم تصحبه موافقة فمحبته معلولة.

وقيل: استكثار القليل من جنايتك، استقلال الكثير من طاعتك.

وقيل: معانقة الطاعة، ومباينة المخالفة.

وهو لسهل بن عبد الله. وهو أيضًا حكم المحبة وموجبها.

وقيل: أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقي لك منك شيء. وهو لأبي عبد الله القرشي. وهو أيضًا من موجبات المحبة وأحكامها. والمراد: أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبسًا في مرضاته ومحابه. فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك. فتأخذه منه له.

محبة .. عراقية

ومن أجمع ما قيل فيها: ما ذكره أبو بكر الكتاني، قال: جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى ــ أيام الموسم ــ فتكلم الشيوخ فيها. وكان الجنيد أصغرهم سنًّا. فقالوا : هات ما عندك يا عراقي. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه. ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، فإن تكلم فبالله. وإن نطق فعن الله. وإن تحرك فبأمر الله. وإن سكن فمع الله. فهو بالله ولله ومع الله.

فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد. جزاك الله يا تاج العارفين.

كيف تتعلم المحبة؟

في الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها. وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها. وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبه لا محالة.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها - انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما تنتقي أطايب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة. ودخلوا على الحبيب. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق.

والكلام في هذه المنزلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه، وطرف محبة الرب لعبده. والذي أجمع عليه العارفون: أنه يحبهم، وأنهم يحبونه، على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر ولا نسبة لسائر المحاب إليها وهي حقيقة «لا إله إلا الله» وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه ورسله: صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب.

وجمع طرق الأدلة - عقلاً ونقلاً وفطرة، وقياسًا واعتبارًا، وذوقًا ووجدًا - تدل على إثبات محبة العبد لربه، والرب لعبده.

وقد ذكرنا لذلك قريبًا من مائة طريق في كتابنا «روضة المحبين» وذكرنا فيه فوائد المحبة، وما

تثمر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموجباتها، والرد على من أنكرها. وبيان فساد قوله، وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر، والغاية التي وجدوا لأجلها. فإن الخلق والأمر، والثواب، والعقاب: إنما نشأ عن «المحبة» ولأجلها. وهي الحق الذي به خلقت السماوات والأرض. وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي. وهي سر التأليه. وتوحيدها: هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وليس كما زعم المنكرون: أن «الإله» هو الرب الخالق. فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية. ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلوهية. وهو المحبة والتعظيم، بل كانوا يؤلهون مع الله غيره. وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أنداداً.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] فأخبر أن من أحب من دون الله شيئًا، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، فهذا ند في المحبة، لا في الخلق والربوبية، فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم. ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله. ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا.

والثاني: أن المعنى يحبون الله، كما يحب المؤمنون الله. ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم. وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء] ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية. وإنما سووهم به

في المحبة والتعظيم. وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام] أي يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم.

وفي الآية معنى آخر - والله أعلم - هو أنهم يحبون أندادهم حبًّا من جنس محبة المؤمنين لله، وهي محبة ممتزجة بذل وتعظيم، وتقديس يحملهم على عبادتهم بالدعاء وغيره من أنواع العبادة، وعلى طاعتهم فيما يشرعون لهم من الدين الخرافي.

ويصح أن يقال: بل سووهم به في خصائص الربوبية. وهي التشريع. كما قال الله عنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] وفي قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١] وفي حديث عدي بن حاتم عن رسول الله ﷺ شرح ذلك، والمسألة مجرد خلاف في الاصطلاح، في معاني «الرب» و «الإله».

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] وهي تسمى آية المحبة. قال أبو سليمان الداراني: لما ادعت القلوب محبة الله: أنزل الله لها محنة قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

وقال: «يحببكم الله» إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول. وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل لكم. فما لم تحصل المتابعة. فليست محبتكم له حاصلة ، ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة:٥٤] فقد ذكر لهم أربع علامات.

الأولى والثانية: أنهم: أذلة، أعزة. قيل: معناه أرقاء، رحماء مشفقين عليهم. عاطفين عليهم. فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عداه بأداة «على» قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩].

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية ... يجد السبيل بها إليه اللوم

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ إلى قوله: ﴿مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء] فذكر المقامات الثلاث: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف: يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعًا: أنك لا تتنافس إلا في قرب من تحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه، إذ فيها حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [الإنسان].

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ [الليل]. فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾ [الأحزاب].

فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة، كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيمًا لا ينفد. وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين».

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه.

وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ثلاث من كن فه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلى عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضته عليه ،ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ،ورجله التي يمشي بها ،ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» وفي الصحيحين عنه أيضًا عن النبي ﷺ: «إذا أحب الله العبد دعا جبريل. فقال: إني أحب فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء، إن الله يحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض». وذكر في البغض عكس ذلك.

وفي الصحيحين عن عائشة ﵂ في حديث أمير السرية الذي كان يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ لأصحابه في كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن. فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله يحبه».

وفي جامع الترمذي من حديث أبي الدرداء ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «كان من دعاء داود ﵇: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك . اللهم اجعل حبك أحبَّ إليّ من نفسي وأهلي. ومن الماء البارد» وفيه أيضًا من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي: أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا فيما تحب».

والقرآن والسنة مملوءان بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين. وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم. كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عمران] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾ [آل عمران].

وقوله في ضد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة] ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ [لقمان] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾ [آل عمران] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء].

وكم في السنة: «أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا»، «وإن الله يحب كذا وكذا» كقوله: «أحب الأعمال إلى الله: الصلاة على أول وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله» و «أحب الأعمال إلى الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد في سبيل الله. ثم حج مبرور» و«أحب العمل إلى الله: ما داوم عليه صاحبه» وقوله: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه».

وأضعاف أضعاف ذلك. وفرحه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشد فرح يعلمه العباد. وهو من محبته للتوبة وللتائب.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان. ولتعطلت منازل السير إلى الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيها. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها. بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام. فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة. بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن «الإله» هو الذي يألهه العباد حبًّا وذلا، وخوفًا ورجاءً، وتعظيمًا وطاعة له. بمعنى «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب، أي تحبه وتذل له.

والعقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد، وكل ما سواه وكل من لم يحكم عقله بهذا: فلا تعبأ بعقله. فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار، والنظر تدعو كلها إلى محبته سبحانه. بل إلى توحيده في المحبة. وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول. كما قيل:

هب الرسل لم تأت من عنده	ولا أخبرت عن جمال الحبيب
أليس من الواجب المستحق	محبته في اللقا والمغيب؟
فمن لم يكن عقله آمرًا	بذا. ماله في الحجى من نصيب
وإن العقول لتدعو إلى	محبة فاطرها من قريب
أليست على ذاك مجبولة	ومفطورة لا بكسب غريب
أليس الجمال حبيب القلوب	لذات الجمال، وذات القلوب؟
فيا منكرًا ذاك والله أنت	عين الطريد وعين الحريب
ويا من يوحد محبوبه	ويرضيه في مشهد، أو مغيب
حظيت وخابوا فلا تبتئس	بكيد العدو وهجر الرقيب

وأصل «التأله» التعبد. و«التعبد» آخر مراتب الحب. يقال: عبده الحب وتيمه: إذا ملكه وذلَّله لمحبوبه.

فـ«المحبة» حقيقة العبودية. وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضي، والحمد والشكر، والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» في الحقيقة: هو زهد المحبين. فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم لمحبته.

وكذلك «الحياء» في الحقيقة: إنما هو حياء المحبين. فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم وأما ما لا يكون عن محبة: فذلك خوف محض.

وكذلك مقام «الفقر» فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها. وهو أعلى أنواع الفقر. فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلى من يحبه. لاسيما إذا وحَّده في الحب، ولم يجد منه وعوضًا سواه هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغنى» هو غنى القلب بحصول محبوبه. وكذلك «الشوق» إلى الله تعالى ولقائه. فإنه لب المحبة وسرها. كما سيأتي.

فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب: معطل لذلك كله. وحجابه أكثف الحجب. وقلبه أقسى القلوب. وأبعدها عن الله. وهو منكر لخلة إبراهيم عليه السلام. فإن «الخلة» كمال المحبة. وهو يتأول «الخليل» بالمحتاج. فخليل الله عنده: هو المحتاج فكم - على قوله - لله من خليل من بر وفاجر، بل مؤمن وكافر إذ كثير من الفجار والكفار من ينزل حوائجه كلها بالله صغيرها وكبيرها. ويرى نفسه أحوج شيء إلى ربه في كل حالة.

فلا بالخلة أقر المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان. ولهذا ضحي خالد بن عبد الله القسري بمقدم هؤلاء وشيخهم جعد بن درهم، وقال في يوم عيد الله الأكبر، عقيب خطبته : «أيها الناس، ضحوا، تقبل الله ضحاياكم. فإني مضح بالجعد بن درهم. فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا. تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا» ثم نزل فذبحه، فشكر المسلمون سعيه. ورحمه الله وتقبل منه.

مراتب المحبة

أولها: «العلاقة» وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

الثانية: «الإرادة» وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة: «الصبابة» وهي انصباب القلب إليه. بحيث لا يملكه صاحبه. كانصباب الماء في الحدور. فاسم الصفة منها «صب» والفعل صبا إليه يصبو صبًّا، وصبابة، فعاقبوا بين المضاعف والمعتل، وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف. ويقال: صبا وصبوة، وصبابة. فالصبا: أصل الميل، والصبوة: فوقه، والصبابة: الميل اللازم، وانصباب القلب بكليته.

الرابعة: «الغرام وهو الحب اللازم للقلب، الذي لا يفارقه. بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه». ومنه سمي عذاب النار غرامًا للزومه لأهله. وعدم مفارقته لهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان].

الخامسة: «الوداد» وهو صفو المحبة، وخالصها ولبها، و«الودود» من أسماء الرب تعالى: وفيه قولان.

أحدهما: أنه المودود، قال البخاري ﷺ في صحيحه: «الودود الحبيب».

والثاني: أنه الواد لعباده. أي المحب لهم. وقرنه باسمه «الغفور» إعلامًا بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، ويوده، فحظ التائب: نيل المغفرة منه.

وعلى القول الأول «الودود» في معنى يكون سر الاقتران. أي اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».

السادسة: «الشغف» يقال: شغف بكذا. فهو مشغوف به. وقد شغفه المحبوب. أي وصل حبه إلى شغاف قلبه. كما قال النسوة عن امرأة العزيز: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف:٣٠] وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها:أنه الحب المستولي على القلب، بحيث يحجبه عن غيره. قال الكلبي: حجب حبه قلبها حتى لا تعقل سواه.

الثاني: الحب الواصل إلى داخل القلب. قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتى دخل حبه شِغَاف قلبها، أي داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب. و«الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب. قال السدي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب. يقول: دخله الحب حتى أصاب القلب.

وقرأ بعض السلف «شغفها» بالعين المهملة. ومعناه: ذهب الحب بها كل مذهب. وبلغ بها أعلى مراتبه، ومنه: شغف الجبال، لرؤوسها.

السابعة: «العشق» وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه.

وفي اشتقاقه قولان:

أحدهما: أنه من العشقة – محركة – وهي نبت أصفر يلتوي على الشجر، فشبه به العاشق.

والثاني: أنه من الإفراط، وعلى القولين: فلا يوصف به الرب تبارك وتعالى، ولا العبد في محبة ربه.

الثامنة: «التتيم» وهو التعبد، والتذلل، يقال: تيمة الحب أي ذَلَّه وعبده. وتيمُ الله: عبد الله. وبينه وبين «اليتم» – الذي هو الانفراد – : تناسب في المعنى. فإن «المتيم» المنفرد بحبه وشجوه. كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه، وكل منهما مكسور ذليل. هذا كسره يتم. وهذا كسره تتيم.

التاسعة: «التعبد» وهو فوق التتيُّم. فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رقَّه فلم يبق له شيء من نفسه ألبتة. بل كله عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا. وهذا هو حقيقة العبودية. ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة: وصف الله بها في أشرف مقاماته. مقام الإسراء، كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١] ومقام الدعوة. كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩] ومقام التحدي كقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه السلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة -بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- : «اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: فحصلت له تلك المرتبة. عبوديته لله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب. تقول العرب: «طريق معبد» أي قد ذللته الأقدام وسهلته.

العاشرة : «مرتبة الخلة » التي انفرد بها الخليلان - إبراهيم ومحمد ﷺ - كما صح عنه أنه قال: «إن الله اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا ».

و«الخلة» هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب.

وهذا هو السر الذي لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده وفلذة كبده. لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه. و«الخلة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة. فغار الخليل على خليله: أن يكون في قلبه موضع لغيره. فأمره بذبح الولد. ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وطن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزمًا جازمًا: حصل مقصود الأمر. فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة. فحال بينه وبينه. وفداه بالذبح العظيم. وقيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات]، نجزي من بادر إلى طاعتنا، فنقر عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات] وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته. فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معًا.

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواص خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم. فما كل أحد يجيب داعيها. ولا كل عين قريرة بها :

فما كل عين بالحبيب قريرة ولا كل من نودي يجيب المناديا

ومـن يجـب داعـي هـداك فخلـه | يجـب كـل مـن أضـحى إلى الغـي داعيـا
وقـل للعبـون الرمـد: إيـاك أن تـرى | سنا الشمس فاستغشى ظلام اللياليـا
وسـامح نفوسًـا لم يهبهـا لحبهـم | ودعهـا ومـا اختـارت. ولا تـك جافيـا
وقـل للـذي قـد غـاب: يكفـي عقوبـة | مغيبك عـن ذا الـشأن لـو كنـت واعيـا
ألم تـر آثـار القطيعـة قـد بـدت | عـلى حالـه. فارحمـه إن كنـت راثيـا
فكن أبدًا حيث استقلت ركائب الـ | محبـة في ظهـر العـزائم ساريـا
وأدلـج. ولا تخـش الظـلام. فإنـه | سيكفيك وجـه الحـب في الليـل هاديـا

ومحبة.. هروية

ولذلك كان لـشيخ الإسـلام أبي إسـماعيل الهـروي ﷺ طريقـة أخـرى في تعريفهـا، فقـال: «المحبة:تعلق القلب بين الهمة والأنس».

يعني: تعلق القلب بالمحبوب تعلقًا مقترنًا بهمة المحـب، وأنـسه بـالمحبوب، في حـالتي بذلـه ومنعه، وإفراده بذلك التعلق. بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.

وإنما أشار إلى أنها «بين الهمة والأنس» لأن المحبة لما كانـت هـي نهايـة شـدة الطلـب، وكـان المحب شديد الرغبة والطلب: كانت «الهمة» من مقومات حبه، وجملة صفاته. ولما كـان الطلـب بالهمة قد يغري عن الأنس، وكان المحب لا يكون إلا مستأنسًا بجمال محبوبه، وطمعه بالوصـول إليه. فمن هذين يتولد الأنس: وجب أن يكون المحب موصوفًا بالأنس. فـصارت المحبـة قائمـة بين الهمة والأنس.

وبالمحبة تفنى خواطر المحب عن التعلق بالغير. وأول ما يفنى من المحب: خـواطره المتعلقـة بما سوى محبوبه. لأنه إذا انجذب قلبه بكليته إلى محبوبه انجذبت خواطره تبعًا.

اعقلها.. وابدأ المحبة

ومباديها عند الهروي: «محبة تقطع الوسـاوس، وتسلـي عـن المصائب».

فإن الوساوس والمحبة متناقضان. فإن المحبة توجـب اسـتيلاء ذكـر المحبـوب عـلى القلـب. والوساوس تقتضي غيبته عنه، حتى توسوس له نفسه بغـيره. فبـين المحبـة والوسـاوس تنـاقض شديد، كما بين الذكر والغفلة. فعزيمة المحبة: تنفي تـردد القلـب بـين المحبـوب وغـيره. وذلـك سبب الوساوس، وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغًـا لوسـواس الغـير، لاسـتغراق قلبـه في

حضوره بين يدي محبوبه. وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحب والوسواس؟

لا كان من لسواك فيه بقية فيها يقسم فكره ويوسوس

كذلك فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب ولا يجد من مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق. بل يقوى سلطان المحبة، حتى يلتذ المحب بكثير من المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته.

وهي محبة تنبت من مطالعة المنة، وتثبت باتباع السنة.

أي أنها تنشأ من مطالعة العبد منة الله عليه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فبقدر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة مكان القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. وليس للعبد قط إحسان إلا من الله. ولا إساءة إلا من الشيطان.

ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده: تأهيله لمحبته ومعرفته، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه، وأصل هذا: نور يقذفه الله في قلب العبد. فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته: أشرقت ذاته. فرأى فيه نفسه، وما أهلت له من الكمالات والمحاسن. فعلت به همته. وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه. لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه. فرقيت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأول منزل

وهذا النور كالشمس في قلوب المقربين السابقين، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين، وكالنجم في قلوب عامة المؤمنين. وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسهى.

ورسوخ هذه المحبة وثباتها في القلب إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله، وأقواله وأخلاقه، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها. وبحسب نقصانه يكون نقصانها، كما تقدم: أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معًا. ولا يتم الأمر إلا بهما. فليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله. ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرًا وباطنًا، وصدقته خبرًا، وأطعته أمرًا، وأجبته دعوة، وآثرته طوعًا. وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبته غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته. وإن لم يكن ذلك فلا تعتنِ. وارجع من حيث شئت فالتمس نورا. فلست على شيء.

وتأمل قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] أي الشأن في أن الله يحبكم. لا في أنكم تحبونه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ.

وتتصاعد المحبة حتى تبعث على إيثار الحق على غيره. وتلهج اللسان بذكره. فهي – لكمالها وقوتها: تقتضي من المحب أن يترك لأجل الحق ما سواه، فيؤثره على غيره.ولا يؤثر غيره عليه، ويجعل اللسان لهجًا بذكره. فإن من أحب شيئًا: أكثر من ذكره، حتى كأنه لا يشاهد غيره.

وإنما تظهر هذه المحبة من مطالعة الصفات، بإثباتها أولاً، ومعرفتها ثانيا، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثاً ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعًا. فلا يصح له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة. وكلما أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها: ازدادت محبته للموصوف بها.

وتزداد تصاعدًا بالنظر إلى الآيات نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة وفي آياته المسموعة وكل منهما داع قوي إلى محبته سبحانه. لأنها أدلة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته وإلهيته، وعلى حكمته وبره وإحسانه وعفوه، وحلمه. وكذلك الارتياض بالمقامات. فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات الإسلام والإيمان: كانت محبته أقوى. لأن محبة الله له أتم. وإذا أحب الله عبدًا أنشأ في قلبه محبته.

وهذا المقدار من المعاني هو ما يسمح به التعبير، وإلا فإن أوصاف المحبة لا تتناهى، إذ لها في كل مقام نسبة وتعلقًا به، وهي روح كل مقام، والحاملة له، وأقدام السالكين إنما تتحرك بها، فلها تعلق بكل قدم وحال ومقام، فلا تتناهى نعوتها ألبتة.

الشوق ثمرة المحبة

ومن آثار المحبة: الشوق.

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ [العنكبوت:٥].

قيل: هذا تعزية للمشتاقين، وتسلية لهم أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إلي. فقد أجلت له أجلاً يكون عن قريب، فإنه آت لا محالة. وكل آت قريب.

وفيه لطيفة أخرى. وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء:

لولا التعلل بالرجاء لقطَّعت ... نفس المحب صبابة وتشوقا

ولقد يكاد يذوب منه قلبه ... مما يقاسي حسرة وتحرقا

حتى إذا روح الرجاء أصابه ... سكن الحريق إذا تعلل باللقا

وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك».

و«الشوق» أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها، فإنه سفر القلب إلى المحبوب في كل حال.

وقيل: هو اهتياج القلوب، إلى لقاء المحبوب.

و«المحبة» أعلى منه. لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى ويضعف. قال يحيى بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

الشوق إلى الجنة.. حق

وأول معانيه عند الهروي: «شوق العابد إلى الجنة، ليأمن الخائف، ويفرح الحزين. ويظفر الآمل».

أي أن: شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث:

أحدها: حصول الأمن الباعث على الأمل. فإن الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه، لا ينبعث صاحبه لعمل ألبتة، إن لم يقارنه أمل. فإن تجرد عنه قطع وصار قنوطًا.

الثاني: فرح الحزين. فإن الحزن المجرد أيضًا إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه. فلولا روح الفرح لتعطلت قوي الحزين. وقعد حزنه به، ولكن إذا قعد به الحزن: قام به روح الفرح.

الثالث: روح الظفر. فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر. مات أمله. والله أعلم.

ركضًا إلى الله

ومنه: الشوق إلى الله عز وجل، وتعلق القلب بصفاته المقدسة.

وهذا الشوق لا ينافي الشوق إلى الجنة، فإن أطيب ما في الجنة: قربه تعالى، ورؤيته، وسماع كلامه، ورضاه.

نعم. الشوق إلى مجرد الأكل والشرب والحور العين ناقص بالنسبة إلى شوق المحبين إلى الله تعالى وإلى صفاته المختصة بالمنن والإحسان، كالبر والمنان، والمحسن والجواد، والمعطي، والغفور، والوهاب، واللطيف، ونحوها.

* * *

(٥١) منزلة الغيرة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الغيرة»

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف:٣٣] وفي الصحيح عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أغير من الله، ومن غيرته: حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وما أحد أحبَّ إليه المدح من الله. ومن أجل ذلك: أثنى على نفسه. وما أحد أحبَّ إليه العذر من الله، من أجل ذلك: أرسل الرسل مبشرين ومنذرين».

وفي الصحيح أيضًا، من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ. أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله: أن يأتي العبد ما حرم عليه».

وفي الصحيح أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني».

ومما يدخل في الغيرة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء].

قال السري لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة. ولا أحد أغير من الله. إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلاً لفهم كلامه، ولا أهلاً لمعرفته وتوحيده ومحبته. فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجابًا مستورًا عن العيون، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلاً له.

و«الغيرة» نوعان: غيرة من الشيء . وغيرة على الشيء.

والغيرة من الشيء: هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك.

والغيرة على الشيء: هي شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به.

و«الغيرة» أيضًا نوعان: غيرة العبد من نفسه على نفسه، كغيرته من نفسه على قلبه، ومن إعراضه على إقباله، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة. وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية. وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب. وعلى قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة.

ثم «الغيرة» أيضًا نوعان: غيرة الحق تعالى على عبده. وغيرة العبد لربه لا عليه. فأما غيرة الرب على عبده: فهي أن لا يجعله للخالق عبدًا. بل يتخذه لنفسه عبدًا. فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين. بل يفرده لنفسه. ويضن به على غيره. وهذه أعلى الغيرتين.

وغيرة العبد لربه، نوعان أيضًا: غيرة من نفسه. وغيرة من غيره. فالتي من نفسه: أن لا يجعل شيئًا من أعماله وأقواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه؛ والتي من غيره: أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون. ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

والإسلام كله حث على تأجيج هذه الغيرة وإنكار المنكر، وبهذا أرسلت الرسل وأنزلت الكتب.

ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم: وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام حتى لقوا الله تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم وأخبر النبي ﷺ: أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردل. وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة، حتى قال: «إن الناس إذا تركوه: أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده».

وأخبر: أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار. ويوجب تسلط الأشرار.

وأخبر أن تركه: يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه. ويحل لعنة الله. كما لعن الله بني إسرائيل على تركه.

غيرة الاستدراك

وأول درجاتها: «غيرة العابد على ضائع يسترد ضياعه. ويستدرك فواته، ويتدارك قواه».

و«العابد» هو العامل - بمقتضى العلم النافع - للعمل الصالح. فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح. فهو يسترد ضياعه بأمثاله. ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعل أمثالها، من جنسها وغير جنسها. فيقضي ما ينفع فيه القضاء ويعوض ما يقبل العوض. ويجبر ما يمكن جبره.

والفرق بين استرداد ضائعه، واستدراك فائته، أن الأول: يمكن أن يسترد بعينه، كما إذا فاته الحج في عام تمكن منه. فأضاعه في ذلك العام: استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أخر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها، ونحو ذلك.

وأما الفائت: فإنما يستدرك بنظيره. كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته، أو بتوبة وندم.

وأما «تدارك قواه» فهو أن يتدارك قوته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف. فهو يغار عليها : أن تذهب في غير طاعة الله. ويتدارك قوي العمل الذي لحقه الفتور عنه، بأن يكسوه قوة ونشاطًا، غيرة له وعليه.

فهذه غيرة العباد على الأعمال. والله أعلم.

فراغ القلب . يقتل الفراغ

ومنها: «الغيرة على وقت فات، فإن الوقت أبي الجانب، بطيء الرجوع» فالوقت أعز شيء على العابد، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك. فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه ألبتة. لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه. كما في المسند مرفوعًا: «من أفطر يومًا من رمضان، متعمدًا من غير عذر: لم يقضه عنه صيام الدهر، وإن صامه».

فالوقت منقض بذاته، منصرم بنفسه. فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته. واشتدت حسراته، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع. وطلب الرجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع. وطلب تناول الفائت. وكيف يرد الأمس في اليوم الجديد؟ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ [سبأ] ومنع مما يحبه ويرتضيه، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

ويقال: إن أصعب الأحوال المنقطعة: انقطاع الأنفاس. فإن أربابها إذا صعد النفس الواحد صعّدوه إلى نحو محبوبهم، صاعدًا إليه، متلبسًا بمحبته والشوق إليه. فإذا أرادوا دفعه دفعوا معه نفسًا آخر. فكل أنفاسهم بالله. وإلى الله، متلبسة بمحبته، والشوق إليه والأنس به. فلا يفوتهم نفس ما أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم. وكثير منهم يرى في نومه: أنه كذلك، لالتباس روحه وقلبه. فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته. ولا تستنكر هذه الحال. فإن المحبة إذا غلبت على القلب وملكته أوجبت له ذلك لا محالة.

والمقصود: أن الواردات سريعة الزوال. تمر أسرع من السحاب، وينقضي الوقت بما فيه. فلا يعود عليك منه إلا أثره، وحكمه. فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك. فإنه عائد عليك لا محالة. لهذا يقال للسعداء: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة] ويقال للأشقياء: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥﴾ [غافر].

* * *

(٥٢) منزلة الوجد

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الوجد»

ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار».

وقد استشهد صاحب المنازل بقوله تعالى في أهل الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤)﴾ [الكهف] وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد. فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق. وذاقوا حلاوته. وباشر قلوبهم. فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب: عكس الخذلان. فالخذلان: حلة من رباط التوفيق. فيغفل عن ذكر ربه. ويتبع هواه، ويصير أمره فرطًا.

والربط على القلب: شده برباط التوفيق. فيتصل بذكر ربه. ويتبع مرضاته. ويجتمع عليه شمله. فلهذا استشهد عليه بهذه الآية في مقام «الوجد».

مراتب الوجد

ومراتبه أربعة. أضعفها «التواجد» وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء.

واختلفوا فيه: هل يسلم لصاحبه أم لا؟ على قولين:

فطائفة قالت: لا يسلم لصاحبه. وينكر عليه، لما فيه من التكلف والتصنع المباين لطريق الصادقين. وبناء هذا الأمر على الصدق المحض.

وطائفة قالت: يسلم لصاحبه إذا كان قصده استدعاء الحقيقة، لا التشبه بأهلها. واحتجوا بقول عمر رضي الله عنه - وقد رأى رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان في شأن أسارى بدر، وما قبلوا منهم في الفداء - «أخبراني ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت».

قالوا: والتكلف والتعمل في أوائل السير والسلوك لابد منه إذ لا يطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال. ومن تأمله بنية حصول الحقيقة لمن رصد الوجد لا يذم.

المرتبة الثانية: المواجيد، وهي نتائج الأوراد وثمراتها.

المرتبة الثالثة: «الوجد» وهو ثمرة أعمال القلوب، من الحب في الله والبغض فيه، ما جعله النبي ﷺ ثمرة كون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما. وثمرة الحب فيه، وكراهة عوده في الكفر كما يكره أن يقذف في النار. فهذا «الوجد» ثمرة هذه الأعمال القلبية، التي هي الحب في الله والبغض في الله.

المرتبة الرابعة: «الوجود» وهي أعلى ذروة مقام الإحسان. فمن مقام الإحسان يرقى إليه. فإنه إذا غلب على قلبه مشاهدة معبوده، حتى كأنه يراه - وتمكن في ذلك - صار له ملكة أخمدت أحكام نفسه، وتبدل بها أحكامًا أخر، وطبيعة ثانية، حتى كأنه أنشئ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، وولد ولادًا جديدًا.

التدبر يقود إلى الوجد

ويبزغ كوجد عارض متجدد، يستفيق له شاهد السمع، أو شاهد البصر، أو شاهد الفكر.

وذلك يكون بانتباه السمع من سنته، إذا كان المنبه له خطابًا من خارج أو من نفسه، وبما يراه ويعاينه من آيات الله، فينتقل منها إلى ما انصبت آية له وعليه. ويختلط ذلك بما يفتح له من المعاني التي أوقعه عليها فكره وتأمله.

وهذه الشواهد الثلاثة التي دعا الله سبحانه عباده إلى تبينها والاستشهاد بها. وقبول الحق الذي تشهد به. وترتيب حكم هذه الشهادة عليها، من التوحيد والإقرار والإيمان، قال الله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] وقال: ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ** ﴾ [المؤمنون:٦٨] وقال: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد] وقال: ﴿ **قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ [يونس:١٠١] وقال: ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الروم:٨] وقال: ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل] والقرآن مملوء من هذا.

فإذا استفاق شاهد السمع والبصر والفكر، ووجد القلب حلاوة المعرفة والإيمان: خرج من جملة النيام الغافلين.

وهذا الوجد العارض قد يبقي واجده أثرًا من أحكامه بعد مفارقته. وقد لا يبقي. والظاهر: أنه لابد أن يبقي أثرًا، لكن قد يخفى، وينغمر بما يعقبه بعده، ويخلفه من أضداده.

آفاق الروح أعلى من أفق الفكر

وهناك وجد آخر، مشرقه أعلى من الأول، محل اليقظة فيه هو الروح، بينما محلها في الأول: السمع والبصر والفكر. والروح هي الحاملة للسمع والبصر والفكر. وهذه الأوصاف من صفاتها.

وأيضًا فلعلو وجد الروح سبب آخر. وهو علو متعلقه، فإن متعلق وجد السمع والبصر والفكر: الآيات والبصائر. ومتعلق وجد الروح: تعلقها بالمحبوب لذاته.

وقد جعل الله في قلب كل مؤمن واعظًا له يأمره وينهاه، ويناديه ويحذره، ويبشره وينذره وهو الداعي الذي يدعو فوق الصراط. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. كما في المسند والترمذي من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ضرب الله مثلا: صراطًا مستقيمًا. وعلى جنبتي الصراط سوران. وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام، والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن» فما ثم خطاب قط إلا من جهة من هاتين: إما خطاب القرآن، وإما خطاب هذا الواعظ.

كمال الحرية في وجد التجريد

ويزداد وميض شمس الوجد لمعانًا حتى يمحص العابد من درن الحظ، ويسلبه من رق الماء والطين، فيخلص عبوديته، والتي هي حقيقته، من وسخ حظوظ نفسه وإرادتها، المزاحمة لمراد ربه منه. فإن تحقيق العبودية - التي هي معنى العبد - لا يكون إلا بفقد النفس الحاملة للحظوظ. فمتى فقدت حظوظها تمحصت عبوديتها. وكلما مات منها حظ حي منها عبودية ومعنى. وكلما حَيِيَ فيها حظ ماتت عبودية، حتى يعود الأمر على نفسين وروحين وقلبين: قلب حي، وروح حية بموت نفسه وحظوظها، وقلب ميت، وروح ميتة بحياة نفسه وحظوظه. وبين ذلك مراتب متفاوتة في الصحة والمرض، وبين بين، لا يحصيها إلا الله عز وجل.

ثم يسلبه من رق الماء والطين، أي يعتقه ويجرره من رق الطبيعة والجسم المركب من الماء والطين، إلى رق رب العالمين، فخادم الجسم الشقي بخدمته عبد الماء والطين، كما قيل:

يا خادم الجسم، كم تشقى بخدمته؟ فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

والناس في هذا المقام ثلاثة: عبد محض. وحر محض، وبين بين.

فالعبد المحض: عبد الماء والطين. الذي قد استعبدته نفسه وشهوته، وملكته وقهرته. فانقاد لها.

والحر المحض: هو الذي قهر شهوته ونفسه وملكها. فانقادت معه، وذلت معه، وذلت له ودخلت تحت رقه وحكمه.

والثالث: من قد عقد له سبب الحرية. وهو يسعى في كمالها. فهو حر من وجه ، وعبد من وجه ، طالما بقي عليه حظ من حظوظ النفس.

فالحر من تخلص من رق الماء والطين. وفاز بعبودية رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية. فعبوديته من كمال حريته، وحريته من كمال عبوديته، ويظل أبدًا في ارتقاء، كلما نظر إلى مواقع لطف ربه به - حيث أهله لما يؤهل له أهل البلاء، وهم أهل الغفلة والإعراض عنه - أورثه ذلك النظر تعجبًا يوقعه في مزيد وجد.

قال بعض العارفين في الأثر المروي: «إذا رأيتم أهل البلاء فسلوا الله العافية» أتدرون من أهل البلاء؟ هم أهل الغفلة عن الله.

وتقوى هذه الحال إذا انضاف إليها شهود العبد خسة قدر نفسه. فاستصغرها أن تكون أهلاً لما أهلت له. وكذلك شهود انحطاط رتبته، وتفاهة قيمته، وخستها وقلتها.

وحاصل ذلك كله: احتقاره لنفسه واستعظامه للطف ربه به، وتأهيله له، فيتولد من بين هذين الشهودين: محبة وحمد وشكر، وعزم وإخلاص، ونصيحة في العبودية، وسرور وفرح بربه، وأنس به.

* * *

(٥٣) منزلة البرق

ومن أنوار ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نور «البرق»

الذي يبدو للعبد عند دخوله في طريق الصادقين وهو لامع يلمع لقلبه، يشبه لامع البرق.

قال صاحب المنازل «البرق: باكورة تلمع للعبد. فتدعوه إلى الدخول في هذه الطريق».

واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [طه].

ووجه الاستشهاد: أن النار التي رآها موسى كانت مبدأ في طريق نبوته.

و«البرق» مبدأ في طريق الولاية التي هي وراثة النبوة.

وقوله «باكورة» الباكورة: هي أول الشيء، ومنه باكورة الثمار. وهو لما سبق نوعه في النضج.

وهذا البرق ليس هو أول طريق أهل البدايات، بل بدايته «اليقظة» التي ذكرت كأول منزل، وإنما البرق أول طريق أرباب التوسط والنهايات.

وهو نور يقذفه الله في قلب العبد، ويبديه له، فيدعوه به إلى الدخول في الطريق الأعلى: طريق الصادقين.

قليله كثير.. وكثيرنا قليل

وومضته الأولى: تلمع من جانب العدة في أفق الرجاء فيستكثر فيه العبد القليل من العطاء، ويستقل فيه الكثير من الأعباء ويستحلي فيه مرارة القضاء.

والعدة: ما وعد الله أولياءه من أنواع الكرامة في هذه الدار وعند اللقاء، من ناحيتها يضيء البرق، فيوجب للعبد استكثار القليل، ولا قليل من الله من عطائه، والحامل له على هذا الاستكثار: أربعة أمور.

أحدها: نظره إلى جلالة معطيه وعظمته.

الثاني: احتقاره لنفسه، فإن ازدراءه لها يوجب استكثار ما يناله.

الثالث: محبته له. فإن المحبة إذا تمكنت من العبد استكثر قليل ما يناله من محبوبه.

الرابع: أن هذا - قبل العطاء - لم يكن له إلف به، ولا اتصال بالعطية. فلما فاجأته: استكثرها.

وأما «استقلاله الكثير من الإعياء» - وهو التعب والنصب - فلأنه لما بدا له برق الوعود من

أفق الرجاء: حمله ذلك على الجد والطلب. وحمل عنه مشقة السير. فلم يجد لذلك من مس الإعياء والنصب ما يجده من لم يشم ذلك.

وكذلك استحلاؤه – في هذا البرق – مرارة القضاء، وهو البلاء الذي يختبر به الله عز وجل عباده، ليبلوهم أيهم أصبر وأصدق، وأعظم إيمانًا، ومحبة وتوكلاً وإنابة؟ فإذا لاح للسالك هذا البرق: استحلى فيه مرارة القضاء.

إشارة التأهب

ويسطع مرة أخرى من جانب الوعيد في عين الحذر فيستقصر فيه العبد الطويل من الأمل، ويزهد في الخلق على القرب.

فهذا البرق أفقه: غير أفق البرق الأول. فإن هذا يلمع من أفق الحذر، وذاك من أفق الرجاء. فإذا شام هذا البرق. استقصر فيه الطويل من الأمل وتخيل في كل وقت: أن المنية تعاصفه وتفاجئه. فاشتد حذره من هجومها، مخافة أن تحل به عقوبة الله، ويحال بينه وبين الاستعتاب والتأهب للقاء. فيلقى ربه قبل الطهر التام. فلا يؤذن له بالدخول عليه بغير طهارة كما أنه لم يؤذن له في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة بغير طهارة.

وهذا يذكر العباد بالتطهر للموافاة والقدوم عليه، والدخول وقت اللقاء لمن عقل عن الله، وفهم أسرار العبادات. فإذا كان العبد لا يدخل عليه حتى يستقبل بيته المحرم بوجهه، ويستر عورته، ويطهر بدنه وثيابه، وموضع مقامه بين يديه. ثم يخلص له النية. فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء، لا يحصل إلا بأن يستقبل ربه بقلبه كله. ويستر عورته الباطنة بلباس التقوى. ويطهر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظاهرة والباطنة. ويتطهر لله طهرًا كاملاً. ويتأهب للدخول أكمل تأهب. وأوقات الصلاة نظير وقت الموافاة.

فإذا تأهب العبد قبل الوقت: جاءه الوقت وهو متأهب. فيدخل على الله. وإذا فرط في التأهب: خيف عليه من خروج الوقت قبل التأهب. إذ هجوم وقت الموافاة مضيق لا يقبل التوسعة. فلا يمكن العبد من التطهر والتأهب عند هجوم الوقت. بل يقال له: هيهات، فات ما فات، وقد بعدت بينك وبين التطهر المسافات. فمن شام برق الوعيد بقصر الأمل: لم يزل على طهارة.

وأما «تزهيده في الخلق على القرب» وإن كانوا أقاربه أو مناسبيه، أو مجاوريه وملاصقيه، أو معاشريه ومخالطيه: فلكمال حذره، واستعداده واشتغاله بما أمامه، وملاحظة الوعيد من أفق ذلك البارق الذي ليس بخلب، بل هو أصدق بارق.

ألوان طيف اللطف

ثم يتوهج من جانب اللطف في عين الافتقار فينشئ سحاب السرور. ويمطر مطر الطرب. ويجري من نهر الافتخار.

فهو يلمع من أفق ملاطفة الرب تعالى لعبده بأنواع الملاطفات. ومطلع هذا البرق: في عين الافتقار، الذي هو باب السلوك إلى الله تعالى، والطريق الأعظم الذي لا يدخل عليه إلا منه. وكل طريق سواه فمسدود. ومع هذا فلا يصل العبد منه إلا بالمتابعة فلا طريق إلى الله ألبتة أبدًا - ولو تعنَّى المتعنّون وتمنَّى المتمنون - إلا الافتقار، ومتابعة الرسول فقط. فلا يتعب السالك نفسه في غير هذه الطريق. فإنه على غير شيء. وهو صيد الوحش والسباع.

وهذا السلوك، باستشعار الافتقار، من شأنه أن ينشئ للعبد سرورًا خاصًّا وفرحًا بربه لا عهد له بمثله، ولا نظير له في الدنيا، حتى لكأنه في نفحة من نفحات الجنة. فإذا نشأ له ذلك: طرب باطنه وسره لما ورد عليه من عند وليه. وإذا اشتد ذلك الطرب جرى به نهر الافتخار.

فمنه: افتخار على الشيطان. وهذه مخيلة محمودة، طربًا وافتخارًا عليه. فإن الله لا يكره ذلك. ولهذا يحب المختال بين الصفين عند الحرب، لما في ذلك من مراغمة أعدائه، ويحب الخيلاء عند الصدقة.. كما جاء ذلك مصرحًا به في الحديث - لسر عجيب يعرفه أولو الصدقات والبذل من نفوسهم عند ارتياحهم للعطاء، وابتهاجهم به، واختيالهم على النفس الشحيحة الأمارة بالبخل. وعلى الشيطان المزين لها ذلك. فهذا الافتخار من تمام العبودية.

ومنه شعوره بأنه حري بالافتخار بما تميز به عن أبناء جنسه بما خصه الله به وإن لم يفتخر به ولم يظهره، إبقاء على عبوديته وافتقاره.

وسر ذلك: أن العبد إذا لاحظ ما هو فيه من الألطاف، وشهده من عين المنة، والجود: شهد مع ذلك فقره إليه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين. فكان ذلك من أعظم أبواب الشكر، وأسباب المزيد، وتوالي النعم عليه. وكلما توالت عليه النعم: أنشأت في قلبه سحائب السرور. وإذا انبسطت هذه السحائب في سماء قلبه، وامتلأ بها أفقه: أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور. فإن لم يصبه وابل فَطَلٌّ. وحينئذ يجري على لسانه وظاهره نهر الافتخار من غير عجب ولا فخر، بل فرحًا بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨] فالافتخار على ظاهره، والافتقار والانكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر.

وتأمل قول النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» فكيف أخبر بفضل الله ومنته عليه. وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخارًا به على من دونه، ولكن إظهارًا لنعمة الله عليه، وإعلامًا للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه. لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف] فإخباره عن نفسه بذلك، لما كان متضمنًا لمصلحة تعود على العزيز وعلى الأمة، وعلى نفسه: كان حسنًا. إذ لم يقصد به الفخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يحسنها ويهجنها. وصورته واحدة.

* * *

(٥٤) منزلة الذوق

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الذوق»

و«الذوق» مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر. ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن، بل ولا في لغة العرب. قال الله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران] وقال: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة ص] وقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل].

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله. فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر. فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر. وأفاد الإخبار عن لباسه أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا» فأخبر: أن للإيمان طعما، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب.

وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة، كما قال: «ذاق طعم الإيمان » وقال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان. من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار».

ولما نهاهم عن الوصال قالوا: «إنك تواصل» قال: «إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى» وفي لفظ «إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني» وفي لفظ «إن لي مطعمًا يطعمني، وساقيا يسقيني».

وقد غلط حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم، ولو كان كما ظنه هذا الظان لما كان صائمًا، فضلاً عن أن يكون مواصلاً، ولما صح جوابه بقوله: «إني لست كهيئتكم» فأجاب بالفرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل ويشرب بفيه الكريم حسا، لكان الجواب أن يقول: وأنا لست أواصل أيضًا. فلما أقرهم على قولهم «إنك تواصل» علم أنه ﷺ كان يمسك عن الطعام والشراب، ويكتفي بذلك الطعام والشراب العالي الروحاني، الذي يغني عن الطعام والشراب المشترك الحسي.

وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل على صحة النبوة، حيث قال لأبي سفيان: «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟» فقال: لا. قال: «وكذلك الإيمان، إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب».

فاستدل بما يحصل لأتباعه من ذوق الإيمان - الذي خالطت بشاشته القلوب لم يسخطه ذلك القلب أبدًا - على أنه دعوة نبوة ورسالة، لا دعوة ملك ورياسة.

والمقصود: أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان، أمر يجده القلب، تكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم.

فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد.ولا تزول الشبه والشكوك عن القلب إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحال. فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة. فيذوق طعمه ويجد حلاوته.

وليس المراد بوجد حلاوة الإيمان: الوجد الذي هو لهيب القلب. فإن ذلك مصدر وجد بالشيء وجدًا، وإنما هو من الوجود الذي هو الثبوت. فمصدر هذا الفعل: الوجود والوجدان، فوجد الشيء يجده وجدانـًا: إذا حصل له وثبت. كما يجد الفاقد الشيء الذي بعد منه. ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى] وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص:٤٤] فهذا كله من الوجود والثبوت. وكذلك قوله ﷺ: «وجد بهن حلاوة الإيمان».

هي الأعمال.. لا الآمال

وأول ما يذوقه العابد: أن يذوق قلبه ــ بالتصديق طعم العدة، فلا يعقله ظن، ولا يقطعه أمل، ولا تعوقه أمنية.

فإن العبد المصدق إذا ذاق طعم الوعد من الله على إيمانه وتصديقه وطاعته ثبت على حكم الوعد واستقام.

ولا يعقله ظن، أي لم يحبسه ظن، تقول: عقلت فلانـًا عن كذا، أي منعته عنه وصددته، ومننه عقال البعير، لأنه يحبسه عن الشرود. ومنه: العقل. لأنه يحبس صاحبه عن فعل ما لا يحسن ولا يجمل. ومنه: عقلت الكلام، وعقلت معناه: إذا حبسته في صدرك، وحصّلته في قلبك، بعد أن لم يكن حاصلاً عندك. ومنه: العقل للدية. لأنها تمنع آخذها من العدوان على الجاني وعصبته.

والمقصود: أن ذوق طعم الإيمان بوعد الله يمنع الذائق أن يحبسه ظن عن الجد في الطلب. والسير إلى ربه. و«الظن» هو الوقوف عن الجزم بصحة الوعد والوعيد، بحيث لا يترجح عنده جانب التصديق.

فالذائق بالتصديق طعم الوعد، لا يعارضه ظن يعقله عن صدق الطلب، ويحبس عزيمته عن الجد فيه. وفي حديث «سيد الاستغفار» قوله: «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت» أي مقيم على التصديق بوعدك، وعلى القيام بعهدك، بحسب استطاعتي.

والحامل على هذه الإقامة والثبات: ذوق طعم الإيمان، ومباشرته للقلب. ولو كان الإيمان مجازًا - لا حقيقة - لم يثبت القلب على حكم الوعد، والوفاء بالعهد. ولا يفيد في هذا المقام إلا ذوق طعم الإيمان.

وكان بعض الصحابة يكثر التلبية في إحرامه، ثم يقول: «لبيك. لو كان رياء لاضمحل» وقد نفى الله تعالى الإيمان عمن ادعاه. وليس له فيه ذوق. فقال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات:١٤] فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين. لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه. وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام. وليس هؤلاء كفارًا. فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله: ﴿وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ ولم يرد: قولوا بألسنتكم، من غير مواطأة القلب. فإنه فرق بين قولهم «آمنا» وقولهم «أسلمنا» ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان، قال: «لم تؤمنوا» ووعدهم سبحانه وتعالى - مع ذلك - على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئًا.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا في إيمانهم وإنما انتفي عنهم الريب: لأن الإيمان قد باشر قلوبهم. وخالطتها بشاشته. فلم يبق للريب فيه موضع. وصدّق ذلك الذوق بذلهم أحب شيء إليهم في رضا ربهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم، ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته. فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن «ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل».

فالذوق والوجد أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والنفاق أمر باطن. والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد. فاليقين يثمر الجهاد، ومقامات الإحسان. فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته. والريب والشك يثمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

ومن علامات الذوق أن لا يقطع صاحبه عن طلبه أمل دنيا، وطمع في غرض من أغراضها فإن الأمل والطمع يقطعان طريق القلب في سيره إلى مطلوبه.

ليس أن لا يكون له أمل، بل «لا يقطعه أمل» فإن الأمل إذا قام به ولم يقطعه: لم يضره، عوق سيره بعض التعويق. وإنما البلاء في الأمل القاطع للقلب عن سيره إلى الله.

وعند فقهاء القلوب: أن كل ما سوى الله، فإرادته أمل قاطع، كائنًا ما كان. فمن كان أمله ومنتهى طلبه: فليس من أهل ذوق الإيمان. فإنه من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب والأنس به: لم يكن له أمل في غيره. وإن تعلق أمله بسواه، فهو لإعانته على مرضاته ومحابه، فهو يؤمله لأجله، لا يؤمله معه.

فإن قلت: فما الذي يقطع به العبد هذا الأمل؟

قل: قوة رغبته في المطلب الأعلى، الذي ليس شيء أعلى منه. ومعرفته بخسة ما يؤمَّل دونه، وسرعة ذهابه، فيوشك انقطاعه. وأنه في الحقيقة كخيال طيف، أو سحابة صيف. فهو ظل زائل، ونجم قد تدلى للغروب، فهو عن قريب آفل. قال النبي ﷺ: «مالي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب احتمى في ظل شجرة ثم راح وتركها» وقال: «ما الدنيا في الآخرة كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟» فشبه الدنيا في جنب الآخرة بما يعلق على الإصبع من البلل حين تغمس في البحر.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء».

وقال مطرف بن عبد الله - أو غيره -: «نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة: أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حَدّق عين بصيرته في الدنيا والآخرة علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول، ولا يضمحل؟ فضلاً عن أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقربه، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] فيسير من رضوانه - ولا يقال له يسير - أكبر من الجنات وما فيها.

وفي حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إلى وجهه» وفي حديث آخر: «إنهم إذا رأوه - سبحانه - لم يلتفتوا إلى شيء مما هم فيه من النعيم، حتى يتوارى عنهم».

فمن قطعه عن هذا أمل، فقد فاز بالحرمان، ورضي لنفسه بغاية الخسران، والله المستعان، وعليه التكلان. وما شاء الله كان.

وكذلك لا تعوقه أمنية، وهي: ما يتمناه العبد من الحظوظ. وجمعها أماني. والفرق بينها وبين «الأمل» أن الأمل يتعلق بما يرجى وجوده. والأمنية: قد تتعلق بما لا يرجى حصوله. كما يتمنى العاجز المراتب العالية.

والأماني الباطلة: هي رؤوس أموال المفاليس، بها يقطعون أوقاتهم ويلتذون بها، كالتذاذ من زال عقله بالمسكر، أو بالخيالات الباطلة.

وفي الحديث المرفوع: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني».

ولا يرضى بالأماني عن الحقائق إلا ذوو النفوس الدنيئة الساقطة. كما قيل:

واترك منى النفس لا تحسبه يشبعها إن المنى رأس أموال المفاليس

وأمنية الرجل تدل على علو همته وخستها.

القلب الموزّع يضطرب ويفزع

ثم يذوق بالإرادة طعم الأنس. فلا يعلق به شاغل. ولا يفسده عارض. ولا تكدره تفرقة.

و«الإرادة» وصف المريد. والفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها: أن الأولى وصف حال العابد الذي ذاق بتصديقه طعم وعد الرب عز وجل. فجد في العبادة وأعمال البر، لثقته بالوعد عليها وصاحب هذه الدرجة: ذاقت إرادته طعم الأنس. فهي حال المريد.

والأنس به سبحانه أعلى من الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة. فإذا ذاق المريد طعم الأنس جد في إرادته، واجتهد في حفظ أنسه، وتحصيل الأسباب المقوية له.

فيعود لا يعلق به شاغل، أي لا يتعلق به شيء يشغله عن سلوكه وسيره إلى الله، لشدة طلبه الباعث عليه أنسه، الذي قد ذاق طعمه، وتلذذ بحلاوته.

والأنس بالله: حالة وجدانية وهي من مقامات الإحسان، تقوي بثلاثة أشياء: دوام الذكر، وصدق المحبة، وإحسان العمل.

وقوة الأنس وضعفه: على حسب قوة القرب. فكلما كان القلب من ربه أقرب، كان أنسه به أقوى. وكلما كان منه أبعد، كانت الوحشة بينه وبين ربه أشد، ولذلك يفسده العارض.

والعارض المفسد: هو الذي يعذل المحب، ويلومه على النشاط في رضا محبوبه وطاعته، ويدعوه إلى الالتفات إليه، والوقوف معه دون مطلبه العالي. فهو كالذي يجيء عرضًا يمنع المار في طريقه عن المرور، ويلفته عن جهة مقصده إلى غيرها.

وكل ما سوى الله فهو عارض. وإرادة السوى: توقف السالك، وتنكس الطالب، وتحجب الواصل. فإياك وإرادة السوى وإن علا. فإنك تحجب عن الله بقدر إرادتك لغيره. قال تعالى إخبارًا عن عبادة المقربين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان] وقال تعالى:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام:٥٢] وقال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الليل].

أما أنه لا تكدره تفرقة، فلأن التفرقة ضد الجمعية، والجمعية هي جمع القلب والهمة على الله بالحضور معه بحال الأنس، خاليًا من تفرقة الخواطر. و«التفرقة» من أعظم مكدرات القلب.وهي تزيل الصفاء الذي أثمره له الإسلام والإيمان والإحسان. فإن القلب يصفو لذلك، فتجيء التفرقة. فتكدر عليه ذلك الصفاء، وتشعث القلب. فيجد الصادق ألم ذلك الشعث وأذاه. فيتجهد في لمه، ولا يُلَم شعث القلوب بشيء غير الإقبال على الله والإعراض عما سواه. فهناك يلم شعثه، ويزول كدره، ويصح سفره، ويجد روح الحياة، ويذوق طعم الحياة الملكية، وتذوق همته طعم الجمع.

وذلك إنما هو أثر تجلي معاني الأسماء الحسنى على قلب العبد، فترتفع حجب الغفلة والشك والإعراض، ويتم استيلاء سلطان المعرفة على القلب.

فهو في هذه الدرجة مستغرق في شهود الأسماء والصفات، وقد استولى على قلبه نور الإيمان بها ومعرفتها، ودوام ذكرها، والنظر إلى الواحد الفرد، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء. سبق كل شيء بأوليته. وبقي بعد كل شيء بآخريته. وعلا فوق كل شيء بظهوره. وأحاط بكل شيء ببطونه.

وهذا موضع غلط فيه طائفتان من الناس:

إحداهما: غلت فيه، حتى قدمت الجمعية عند حصولها على الفرائض والسنن، ورأت نزولها عنها إلى القيام بالأوامر انحطاطا من الأعلى إلى الأدنى، حتى قيل لبعض من زعم أنه ذاق ذلك: قم إلى الصلاة، فقال:

يطالب بالأوراد من كان غافلا ... فكيف بقلبٍ كل أوقاته ورد؟

وهؤلاء بين كافر وناقص.

فمن لم ير القيام بالفرائض - إذا حصلت له الجمعية - فهو كافر، منسلخ من الدين. ومن عطل لها مصلحة راجحة -كالسنن الرواتب، والعلم النافع، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنفع العظيم المتعدي - فهو ناقص.

والطائفة الثانية: لا تعبأ بالجمعية، ولا تعمل عليها. ولعلها لا تدري ما مسماها ولا حقيقتها.

وطريقة الأقوياء، أهل الاستقامة: القيام بالجمعية في التفرقة ما أمكن. فيقوم أحدهم بالعبادات، ونفع الخلق، والإحسان إليهم، مع جمعيته على الله. فإن ضعف عن اجتماع الأمرين، وضاق عن ذلك قام بالفرائض. ونزل عن الجمعية. ولم يلتفت إليها، إذا كان لا يقدر على

تحصيلها إلا بتعطيل الفرض. فإن ربه سبحانه يريد منه أداء فرائضه، ونفسه يريد الجمعية، لما فيها من الراحة واللذة، والتخلص من ألم التفرقة وشعثها، فالفرائض حق ربه، والجمعية حظه هو.

بل الواقع: أن الصلاة صلة العبد بربه، ليرفع إليه فيها حاجاته في دنياه وآخرته وهي قرة عين المؤمن، كما كانت قرة عين رسول الله ﷺ، وهي العون على كل أمورهم. وكذلك الصيام: إنما هو حصن من أقوى أسباب الوقاية بما يربيه ربه، حال كونه معه بقوة العزيمة والإرادة الصادقة، والبصيرة النيرة، التي يكون بها المؤمن في وقاية من كل ما يخاف في أولاه وأخراه. وكل الطاعات المفروضة إنما هي كذلك، أسباب لسعادته ووقايته من كل ما يخاف في أولاه قبل أخراه. وكل شأن الإنسان في أهله، أو مسجده، أو مزرعته، أو مصنعه، أو ميدان حربه: فإنما هو خيره في الأولى قبل الأخرى. وهو به يسلم شأنه ويستسلم به لربه خلقًا وشرعًا. فتكون كل حركاته وسكناته في مطعمه وملبسه ومشربه ومنامه ويقظته عبادة بتذلل وحب صادقين. وخطوات يسعى بها حثيثًا إلى لقاء الله والمصير إليه، راضيا مرضيًّا في قبره وما بعده. فيسعى بها حثيثًا ليكون من عباد الرحمن. وهذا كان شأن الرسول ﷺ والذين آمنوا به. واتبعوا النور الذي أنزل معه. ثم لما دخل الدخيل وأدخل أباطيله وبدعه الخرافية، وزخرف حسنها شياطين الإنس والجن: تغير الناس. فتغيرت الأعمال والموجبات، وصاروا يعتقدون أن الذكر: أن يجلس في خلوة ليعد مئات لا إله إلا الله، أو ليصلي ألف ركعة، أو ليقرأ ألف ختمة في غفلة غافلة. وأشباه هذا مما يجعل العبادات أشكالاً وصورًا وتمثيلاً. بخلاف ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كنا نجاوز الآية حفظًا حتى نتقنها عملاً» أو كما قال.

فالعبودية الصحيحة: توجب عليه تقديم أحد الأمرين على الآخر. فإذا جاء إلى النوافل، وتعارض عنده الأمران: فمنهم من يرجح الجمعية.

ومنهم من يرجح النوافل، ومنهم من يؤثر هذا في وقت وهذا في وقت.

والتحقيق - إن شاء الله - أن تلك النوافل إن كانت مصلحتها أرجح من الجمعية، ولا تعوضه الجمعية عنها: اشتغل بها، ولو فاتت الجمعية، كالدعوة إلى الله، وتعليم العلم النافع، وقيام وسط الليل، والذكر أول الليل وآخره، وقراءة القرآن بالتدبر. ونفل الجهاد، والإحسان إلى المضطر، وإعانة الملهوف، ونحو ذلك. فهذا كله مصلحته من مصلحة الجمعية.

وإن كانت مصلحته دون الجمعية - كصلاة الضحى، وزيارة الإخوان، والغسل لحضور الجنائز وعيادة المرضي، وإجابة الدعوات، وضيافة الإخوان ونحو ذلك - فهذا فيه تفصيل.

فإن قويت جمعيته فظهر تأثيرها فيه: فهي أولى له، وأنفع من ذلك، وإن ضعفت الجمعية، وقوي إخلاصه في هذه الأعمال: فهي أنفع له، وأفضل من الجمعية.

والمعول عليه في ذلك كله: إيثار أحب الأمرين إلى الرب تعالى.

وذلك يعرف بنفع العمل وثمرته، من زيادة الإيمان به، وترتب الغايات الحميدة عليه. وكثرة مواظبة الرسول ﷺ، وشدة اعتنائه به، وكثرة الوصية به، وإخباره أن الله يحب فاعله. ويباهي به الملائكة. ونحو ذلك.

ونكتة المسألة وحرفها: أن الصادق في طلبه يؤثر مرضاة ربه على حظه. فإن كان رضا الله في القيام بذلك العمل، وحظه في الجمعية: خلّي الجمعية تذهب. وقام بما فيه رضا الله. ومتى علم الله من قبله: أن تردده وتوقفه - ليعلم - أي الأمرين أحب إلى الله وأرضى له - أنشأ له من ذلك التوقف والتردد حالة شريفة فاضلة، حتى لو قدم المفضول - لظنه أنه الأحب إلى الله ردت تلك النية والإرادة عليه ما ذهب عليه وفاته من زيادة العمل الآخر. وبالله التوفيق.

و«الجمع» شهود الفردانية التي تفنى فيها رسوم المشاهد، وهذا جمع في الربوبية.

وأعلى منه: الجمع في الألوهية وهو جمع قلبه وهمه وسره على محبوبه ومراضيه ومراده منه. فهو عكوف القلب بكليته على الله عز وجل. لا يلتفت عنه يمنة ولا يسرة. فإذا ذاقت الهمة طعم هذا الجمع اتصل اشتياق صاحبها، وتأججت نيران المحبة والطلب في قلبه، ويجد صبره عن محبوبه من أعظم كبائره. كما قيل:

والصبر يحمد في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

فلله همة نفس قطعت جميع الأكوان، وسارت فما ألقت عصى السير إلا بين يدي الرحمن. تبارك وتعالى، فسجدت بين يديه سجدة الشكر على الوصول إليه. فلم تزل ساجدة حتى قيل لها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر].

فسبحان من فاوت بين الخلق في هممهم، حتى ترى بين الهمتين أبعد مما بين المشرقين والمغربين. بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى عليين. وتلك مواهب العزيز الحكيم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١] ، [الجمعة:٤].

وهكذا يجد بهذين الجمعين لذة غامرة عند مناجاة ربه، وأنسًا به، وقربًا منه، حتى يصير كأنه يخاطبه ويسامره، ويعتذر إليه تارة، ويتملقه تارة، ويثني عليه تارة، حتى يبقى القلب ناطقًا بقوله: «أنت الله الذي لا إله إلا أنت» من غير تكلف له بذلك. بل يبقى هذا حالاً له ومقامًا، كما قال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وهكذا مخاطبته ومناجاته له، كأنه بين يدي ربه، فيسكن جأشه، ويطمئن قلبه، فيزداد لهجًا بالدعاء والسؤال، تذللاً لله الغني سبحانه، وإظهارًا لفقر العبودية بين يدي عز الربوبية، فإن الرب سبحانه يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه. لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله. بل هو المتفضل به ابتداء بلا سبب من العبد، ولا

توسط سؤاله وطلبه. بل قدر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه، إظهارًا لمرتبة العبودية والفقر والحاجة، واعترافًا بعز الربوبية. وكمال غنى الرب، وتفرده بالفضل والإحسان، وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئًا. ولكن ربه تعالى يحب أن يسأل، ويرغب إليه، ويطلب منه. كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة] وقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢] وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧] وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥] وقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:٥٦].

وقال النبي ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه كل شيء، حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر» وقال: «من لم يسأل الله يغضب عليه» وروى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل من فضله» وقال: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات. فتعرضوا لنفحاته. واسألوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم» وقال: «ما من داع يدعو الله بدعوة إلا آتاه بها أحد ثلاث: إما أن يعجل له حاجته، وإما أن يعطيه من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها. قالوا: إذًا نكثر يا رسول الله؟ قال: فالله أكثر» وقال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء».

وقال تعالى - في الحديث القدسي فيما روي عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته . فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسكم. يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار. وأنا أغفر الذنوب جميعًا ولا أبالي. فاستغفروني أغفر لكم» وقال ﷺ: «وأما السجود: فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني لا أحمل همّ الإجابة، ولكن أحمل همّ الدعاء. فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه».

وفي هذا يقول القائل:

لو لم ترد بذل ما أرجو وأطلبه ... من جود كفك ما عودتني الطلبا

والله سبحانه وتعالى يحب تذلل عبيده بين يديه، وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه، وشكواهم إليه، وعياذهم به منه، وفرارهم منه إليه. كما قيل:

قالوا: أتشكو إليه ما ليس يخفى عليه؟
فقلت: ربي يرضى ذل العبيد لديه

نفرح بالله تعالى ..وندعوه التثبيت

فإذا تم هذا الذل للعبد: تم له العلم بأن فضل ربه سبق له ابتداء قبل أن يخلقه، مع علم الله سبحانه به وبتقصيره، وأن الله تعالى لم يمنعه علمه بتقصير عبده أن يقدر له الفضل والإحسان.

فإذا شاهد العبد ذلك اشتد سروره بربه، وبمواقع فضله وإحسانه. وهذا فرح محمود غير مذموم. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس] ففضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن.وهو يحب من عبده أن يفرح بذلك ويسر به. بل يحب من عبده أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن يسر بها. وهو في الحقيقة فرح العبد بفضل الله حيث وفقه الله لها.وأعانه عليها ويسرها له. ففي الحقيقة: إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان: الفرح بالله، والسرور به، فيفرح به سبحانه ربًّا، وإلهًا، ومنعمًا ومربيا.

ولكن العاقل اللبيب يجمع إلى هذا السرور حذرًا من مكر الله تعالى، فإن السرور يبسط النفس وينميها، وينسيها عيوبها وآفاتها ونقائصها. إذ لو شهدت وأبصرته لشغلها ذلك عن الفرح.

وأيضًا فإن الفرح بالنعمة قد ينسيه المنعم. فيشتغل بالخلعة التي خلعها عليها عنه. فيطفح عليه السرور. حتى يغيب بنعمته عنه. وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للفم.

ولله كم هاهنا من مُسْتَرَدٍّ منه، ما وهب له عزة وحكمة! وربما كان ذلك رحمة به. إذ لو استمر على تلك الولاية لخيف عليه من الطغيان. كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق] فإذا كان هذا غني بالحطام الفاني، فكيف بالغني بما هو أعلى من ذلك وأكثر؟

و«المكر» الذي يخاف عليه منه، أن يغيب الله سبحانه عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣] وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٤] وقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس] وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص:٨٦] وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٢١] وأمثال ذلك. فيغيبه عن شهود ذلك. ويحيله

على معرفته في كسبه وطلبه. فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذات، ويحجبه عن الحوالة على المليء الوفي الذي له الغنى التام كله بالذات فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه، وصفوته من عباده، قال شعيب ﷺ، وقد قال له قومه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف] فردَّ الأمر إلى مشيئة الله تعالى وعلمه، أدبا مع الله، ومعرفة بحق الربوبية، ووقوفًا مع حد العبودية. وكذلك قال إبراهيم ﷺ لقومه - وقد خوفوه بآلهتهم - فقال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:٨٠] فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

وقد اختلف السلف: هل يكره أن يقول العبد في دعائه اللهم لا تؤمني مكرك؟

فكان بعض السلف يدعو بذلك. ومراده: لا تخذلني، حتى آمن مكرك ولا أخافه، وكرهه مطرف بن عبد الله بن الشخير.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن إسحاق عن مطرف: أنه كان يكره أن يقول: «اللهم لا تُنْسِنِي ذكرك، ولا تؤمني مكرك. ولكن أقول: «اللهم لا تنسني ذكرك، وأعوذ بك أن آمن مكرك، حتى تكون أنت تؤمنني».

وبالجملة: فمن أحيل على نفسه فقد مُكِر به.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد - مولى بني هاشم - حدثنا الصلت بن طريف المعولي حدثنا غيلان بن جرير عن مطرف قال: وجدت هذا الإنسان ملقى بين الله عز وجل وبين الشيطان. فإن يعلم الله تعالى في قلبه خيرًا: جذبه إليه. وإن لم يعلم فيه خيرًا: وكله إلى نفسه. ومن وكله إلى نفسه هلك.

وقال جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن مطرف قال: لو أخرج قلبي فجعل في يدي هذه في اليسار. وجيء بالخير فجعل في هذه اليمنى. ثم قربت من الأخرى ما استطعت أن أولج في قلبي شيئًا حتى يكون الله عز وجل يضعه.

ومما يدل على أن الفرح من أسباب المكر، ما لم يقارنه خوف قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام].

وقال قوم قارون له: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص] فالفرح متى كان بالله، وبما مَنَّ الله به، مقارنًا للخوف والحذر لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك ضره ولابد.

والذي يساعده على تصفية سروره من شوائب الطغيان أن يبالغ في الشكر، ويكثر منه، مع تيقنه أنه لن يوفي شكره حقه مهما شكر، فإن شكر العبد لربه نعمة من الله أنعم بها عليه. فهي تستدعي شكرًا آخر عليها وذلك الشكر نعمة أيضًا. فيستدعي شكرًا ثالثًا. وهلم جرًّا. فلا سبيل إلى القيام بشكر الرب على الحقيقة. ولا يشكره على الحقيقة سواه. فإنه هو المنعم بالنعمة وبشكرها. فهو الشكور لنفسه، وإن سمى عبده شكورًا. فمدحة الشكر في الحقيقة راجعة إليه، وموقوفة عليه. فهو الشاكر لنفسه بما أنعم على عبده. فما شكره في الحقيقة سواه.

والشكر هو صفة الرب جل جلاله وفعله. فإنه سمى نفسه بالشكور، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النساء] وقال أهل الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ٣٤﴾ [فاطر] فإذا لاحظ العبد سبق الفضل من الله، علم أنه سبحانه إنما فعل ذلك لمحبته للشكر، فإنه تعالى يحب أن يشكر، كما قال موسى عليه السلام: «يا رب، هلا ساويت بين عبادك؟ قال: إني أحب أن أشكر».

وإذا كان يحب الشكر فهو أولى أن يتصف به، كما أنه سبحانه وتر، يحب الوتر، جميل يحب الجمال، محسن يحب المحسنين، صبور يحب الصابرين، عفو يحب العفو، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، فكذلك هو شكور يحب الشاكرين. فملاحظة العبد سبق الفضل تشهده صفة الشكر. وتبعثه على القيام بفعل الشكر.

ذكريات الابتداء تعيدك إلى الشكر بعد الفتور

فإذا نسي السالك نفسه، وفرح فرحًا لا يقارنه خوف، فليرجع بذاكرته إلى بدايات سلوكه، وحدة طلبه، عسى أن يعود إلى سابق ما كان منه من السير الحثيث الذي كانت تسوقه الخشية، فيترك الفتور الذي لابد أن ينتج عنه السرور.

فتَخَلُّل الفترات للسالكين أمر لازم لابد منه. فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم رجا له أن يعود خيرًا مما كان.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: «إن لهذه القلوب إقبالاً وإدبارًا، فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل وإن أدبرت فألزموها الفرائض».

وفي هذه الفترات والغيوم والحجب، التي تعرض للسالكين، من الحكم ما لا يعلم تفصيله إلا الله. وبها يتبين الصادق من الكاذب.

فالكاذب: ينقلب على عقبيه. ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه.

والصادق: ينتظر الفرج ولا ييأس من رَوْح الله. ويلقي نفسه بالباب طريحًا ذليلاً مسكينًا

مستكينًا، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه ألبتة، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من العبد - وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب - لكن ليس هو منك. بل هو الذي مَن عليك به، وجردك منه، وأخلا عنك. وهو الذي ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤].

فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام، فاعلم أنه يريد أن يرحمك، ويملأ إناءك فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مضيع. فسل ربه ومن هو بين أصابعه أن يرده عليك. ويجمع شملك به.

وقد أخبر النبي ﷺ: «إن لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة».

فالطالب الجاد: لابد أن تعرض له فترة فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد.

وربما كانت للسالك بداية ذات نشاط، كان فيها عالي الهمة، فيفيده عند فتوره أن يرجع إلى ذكريات تلك البداية، فتتجدد له العزيمة، ويعود إلى دأبه في الشكر.

وكان الجنيد رحمه الله كثير الذكر لبداية سيره، وكان إذا ذكرها يقول: واشوقاه إلى أوقات البداية!

يعني: لذة أوقات البداية، وجمع الهمة على الطلب، والسير إلى الله، والإعراض عن الخلق.

وهكذا تكون للمؤمن الشاكر الصادق بدايات عديدة مباركة، لا بداية واحدة، ويكون وقته عامرًا مليئًا كله، لكل حين ما يناسبه، حتى أن التوفيق لكل عمل ينويه يأتيه في الوقت الذي هو أليق له، وعند اشتداد الحاجة إليه.

وذلك لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه، كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه. وكما إذا وقع الفرج في وقته الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى، وجريانها في الخلق، علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها.

وقد استشهد الهروي لذلك بقول الله تعالى: ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه].

ووجه استشهاده بآية: أن الله سبحانه قدّر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه. فإن العرب تقول: جاء فلان على قدر، إذا جاء وقت الحاجة إليه. قال جرير:

نال الخلافة إذ كانت على قدر كما أتى ربه موسى على قدر

فبعث الله سبحانه موسى أحوج ما كان الناس إلى بعثته. وبعث عيسى كذلك.

وبعث محمد ﷺ وعليهم أجمعين أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله. فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له، أحوج ما كان إلى عمارته.

وإذا أراد الله بعبد خيرًا أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعدًا له وإذا أراد به شرًّا جعل وقته عليه. وناكده وقته. فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت، والأول: كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده.

الرجاء الصافي يريك ما تأنس به

فإذا اقترن الصفاء بالشكر: صار الوقت وقت وجد صادق، غير متكلف له، ولا متعمل في تحصيله، ويمنحه هذا الوجد الأنس بما يرى من فضل الله تعالى عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩].

فليس هو مجرد الرؤية، بل رؤية ما يأنس به القلب ويسكن إليه. ولا يقال لمن رأى عدوه أو مخوفًا: آنسه.

والمقصود: أن هذا الوقت وقت وَجْد، صاحبه صادق فيه لرؤيته ضياء فضل الله ومنته عليه. و«الفضل» هو العطاء الذي لا يستحقه المعطى، أو يعطى فوق استحقاقه. فإذا آنس هذا الفضل، وطالعه بقلبه: أثار ذلك فيه وجدًا آخر، باعثًا على محبة صاحب الفضل، والشوق إلى لقائه، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.

ودخلت على بعض أصحابنا، وقد حصل له وجد أبكاه، فسألته عنه؟ فقال: ذكرت ما مَنَّ الله به عليَّ من السنة ومعرفتها، والتخلص من شُبه القوم، أي أهل البدع، وقواعدهم الباطلة، وموافقة العقل الصريح، والفطرة السليمة لما جاء به الرسول ﷺ، فسرني ذلك حتى أبكاني.

فهذا الوجد أثاره إيناس فضل الله ومنته.

وهذا الوجد، أو الإيناس، أو الفضل، إنما يجذبه رجاء صاف غير مكدر، مقترن بشكر، والرجاء الصافي هو الذي لا يشوبه كدر توهم معاوضة منك، بل يكون رجاء محضًا لمن هو مبتدئك بالنعم من غير استحقاقك، والفضل كله له ومنه، وفي يده أسبابه وغاياته ولا يستطيع العبد أن ينال شيئًا بدون توفيقه وإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى.

وبالمقابل، فإن هناك من الوجد ما يبعث عليه صدق السالك في الخوف من الله تعالى، فالأول سببه الرجاء، وهذا سببه الخشية.

أو تجذبه المحبة أيضًا، فإن المحبة متى قويت اشتعلت نارها في القلب، فحدث عنها لهيب الاشتياق إلى لقاء الحبيب.

وهذه الثلاثة: الحب والخوف، والرجاء، هي التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه والأنفع له، وهي أساس السلوك، والسير إلى الله. وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء] وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية. وعليها دارت رحى الأعمال. والله أعلم.

* * *

(٥٥) منزلة الصفاء

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الصفاء»

قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة ص].

و«الصفا» اسم للبراءة من الكدر.

ووجه الاستشهاد بالآية: أن «المصطفى» مفتعل من الصفوة. وهي خلاصة الشيء، وتصفيته مما يشوبه: ومنه: اصطفى الشيء لنفسه. أي خلصه من شوب شركة غيره له فيه. ومنه «الصفي» وهو السهم الذي كان يصطفيه رسولهﷺ لنفسه من الغنيمة. ومنه: الشيء الصافي. وهو الخالص من كدر غيره.

رخصة مرور.. شرطها التجريد

وأساسه: صفاء علم يهذب لسلوك الطريق، ويصحح همة القاصد.

وهذا العلم الصافي هو العلم الذي جاء به رسول الله ﷺ.

وكان الجنيد يقول دائمًا: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. فمن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يقتدى به.

وكان يقول: علمنا هذا متشبك بحديث رسول الله ﷺ.

وقال أبو سليمان الداراني: إنه لتمر بقلبي النكتة من نكت القوم. فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل، من الكتاب والسنة. وقال النصرإبادي: أصل هذا المذهب: ملازمة الكتاب والسنة. وترك الأهواء والبدع، والاقتداء بالسلف، وترك ما أحدثه الآخرون. والإقامة على ما سلكه الأولون.

فهذا العلم الصافي المتلقي من مشكاة الوحي والنبوة يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية. وحقيقتها التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا. وتحكيمه باطنًا وظاهرًا. والوقوف معه حيث وقف بك. والمسير معه حيث سار بك.

فلا تخالفه ألبتة، ولكن اجعل رسول الله ﷺ لك إمامًا وقدوة وحاكمًا، فتجيبه إذا دعاك، وتقف معه إذا استوقفك، وتسير إذا سار بك، وتقيل إذا قال، وتنزل إذا نزل، وتغضب لغضبه، وترضى لرضاه. وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك. وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك.

وبالجملة: فتجعل الرسول معلمك ومربيك ومؤدبك. وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل في العبودية. ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك.

وهذان التجريدان هما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. والله وحده هو المعبود المألوه، الذي لا يستحق العبادة سواه، ورسوله: المطاع المتبع، المهتدى به، الذي لا يستحق الطاعة سواه. ومن سواه: فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته، فيطاع تبعًا للأصل.

فالعلم الحاصل بالشواهد والأدلة: هو العلم الحقيقي.وأما ما يدعى حصوله بغير شاهد ولا دليل فلا وثوق به. وليس بعلم. نعم قد يقوي العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد بحيث يصير المعلوم كالمشهود، والغائب كالمعاين، وعلم اليقين كعين اليقين. فيكون الأمر شعورًا أولا. ثم تجويزًا ثم ظنًّا، ثم علمًا. ثم معرفة. ثم علم يقين. ثم حق يقين. ثم عين يقين. ثم تضمحل كل مرتبة في التي فوقها، بحيث يصير الحكم لها دونها. فهذا حق.

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال فليس بصحيح. فإن الله سبحانه ربط التعريفات بأسبابها، كما ربط الكائنات بأسبابها. ولا يحصل لبشر علم إلا بدليل يدله عليه. وقد أيد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التي دلتهم على أن ما جاءهم من عند الله. ودلت أممهم على ذلك. وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند الله. وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأمم. فالأدلة والشواهد التي كانت لهم، ومعهم أعظم الشواهد والأدلة، والله تعالى شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد. فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها، وحكم لا برهان عند قائله. وما كان كذلك لم يكن علمًا.

وفائدة هذا التقرير تظهر في فهم حقيقة «العلم اللدني» الذي يدعي البعض أن الله يقذفه في قلوبهم إلهامًا بلا سبب منهم ولا استدلال، فنحن نقول إن العلم اللدني ما قام الدليل الصحيح عليه: أنه جاء من عند الله على لسان رسله. وما عداه فلدني من لدن نفس الإنسان. منه بدأ وإليه يعود. وقد انبثق سد العلم اللدني، ورخص سعره. حتى ادعت كل طائفة أن علمهم لدني. وصار من تكلم في حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له، ويلقيه شيطانه في قلبه: يزعم أن علمه لدني.

وقد صدق هؤلاء وكذبوا، فإن «اللدني» منسوب إلى «لدن» بمعنى «عند» فكأنهم قالوا: العلم العندي، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لدنه. وقد ذم الله تعالى بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام:٩٣] فكل من قال: هذا العلم من عند الله – وهو كاذب في هذه النسبة – فله نصيب وافر من هذا الذم. وهذا في القرآن كثير، يذم الله سبحانه من أضاف إليه ما لا علم له به، ومن قال عليه ما لا يعلم. ولهذا رتب سبحانه المحرمات أربع مراتب. وجعل أشدها: القول عليه بلا

علم. فجعله آخر مراتب المحرمات التي لا تباح بحال. بل هي محرمة في كل ملة، وعلى لسان كل رسول. فالقائل «إن هذا علم لدني» لما لا يعلم أنه من عند الله، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده: كاذب مفتر على الله. وهو من أظلم الظالمين، وأكذب الكاذبين.

فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ، واقتدى به في ظاهره وباطنه.

فلا يتعنى السالك على غير هذه الطريق. فليس حظه من سلوكه إلا التعب، وأعماله: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النور].

ولا يتعنى السالك على هذه الطريق. فإنه واصل ولو زحف زحفًا. فأتباع الرسول ﷺ: إذا قعدت بهم أعمالهم، قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم. كما قيل:

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويدًا وتجي في الأول

والمنحرفون عن طريقه، إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم: قعد بهم عدولهم عن طريقه.

بل الأعمال والاجتهادات على غير هدي رسول الله ﷺ: إنما هي أعمال جاهلية، مهما سماها عاملوها بأسماء إسلامية. كما كان أهل الجاهلية يسمون أعمالهم الجاهلية: إبراهيمية، وحنيفية. فلن تقوم الأعمال الجاهلية بعاملها إلا نكوصًا على الأعقاب، وانكبابًا على الوجوه بعمى وبكم وصمم وعداوة لله ورسوله، وموالاة للشيطان قال الله: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان].

همم الفلك السامي

وهذا الصفاء العلمي يصحح همة القاصد، ومتى صحت الهمة علت وارتفعت. فإن سقوطها ودناءتها من علتها وسقمها، وإلا فهي كالنار تطلب الصعود والارتفاع ما لم تمنع.

وأعلى الهمم: همة اتصلت بالحق سبحانه طلبًا وقصدًا. وأوصلت الخلق إليه دعوة ونصحًا.

وهذه همة الرسل وأتباعهم. وصحتها: بتمييزها من انقسام طلبها، وانقسام مطلوبها، وانقسام طريقها. بل توحد مطلوبها بالإخلاص، وطلبها بالصدق، وطريقها بالسلوك خلف الدليل الذي نصبه الله دليلاً. لا من نصبه هو دليلاً لنفسه.

وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم، فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ: «سلني» فقال: أسألك مرافقتك في الجنة. وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه، أو يواري جلده.

وانظر إلى همة إبراهيم وإسماعيل ، فإن إبراهيم عليه السلام لما بلغ ما بلغ - هو وولده - في المبادرة إلى الامتثال، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به: ألقاه الوالد على جبينه في الحال. وأخذ الشفرة وأهوى إلى حلقه - أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده، وفني بأمر الله عنهما. فتوسط بحر جمع السر والقلب والهم على الله وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ [الصافات:١٠٣] أي استسلما وانقاد الأمر الله. فلم يبق هناك منازعة. لا من الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف، وتسليم محض.

قوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات] أي صرعه على جبينه، وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم، وتلك هي هيئة ما يراد ذبحه.

وانظر إلى همة رسول الله ﷺ - حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض - فأباها. ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه تعالى. فأبت له تلك الهمة العالية: أن يتعلق منها بشيء مما سوى الله ومحابه. وعرض عليه أن يتصرف بالملك، فأباه. واختار التصرف بالعبودية المحضة. فلا إله إلا الله، خالق هذه الهمة، وخالق نفس تحملها، وخالص همم لا تعدو همم أخس الحيوانات.

رخصة إقامة.. شرطها النقاء

ومن الصفاء: صفاء الحال.

والحال ثمرة العلم ولا يصفو حال إلا بصفاء العلم المثمر له، وعلى حسب شوب العلم يكون شوب الحال. وإذا صفا الحال وجد العبد حلاوة المناجاة.

فهذه الدرجة تختص بصفاء الحال، كما اختصت الأولى بصفاء العلم.

فمتى صفا له حاله من الشوائب خلصت له حلاوته من مرارة الأكدار. فذاق تلك الحلاوة في حال مناجاته. فلو كان الحال مشوبًا مكدرًا لم يجد حلاوة المناجاة. والحال المستندة إلى وارد تذاق به حلاوة المناجاة: هو من حضرة الأسماء والصفات، بحسب ما يصادف القلب من ظهورها وكشف معانيها.

فمن ظهر له اسم «الودود» - مثلاً - وكشف له عن معاني الاسم، ولطفه، وتعلقه بظاهر العبد وباطنه: كان الحال الحاصل له من حضرة هذا الاسم مناسبًا له. فكان حال اشتغال حب وشوق، ولذة ومناجاة، لا أحلى منها ولا أطيب، بحسب استغراقه في شهود معنى هذا الاسم، وحظه من أثره.

فإن «الودود» - إن كان بمعنى المودود، كما قال البخاري في صحيحه «الودود» الحبيب- واستغرق العبد في مطالعة صفات الكمال، التي تدعو العبد إلى حب الموصوف بها: أثمر له صفاء علمه بها، وصفاء حاله في تعبده بمقتضاها سرورًا وبهجة.

وكذلك إن كان اسم فاعل بمعنى «الواد» وهو المحب: أثمرت له مطالعة ذلك حالاً تناسبه.

فإنه إذا شاهد بقلبه غنيا كريمًا جوادًا، عزيزًا قادرًا، كل أحد محتاج إليه بالذات. وهو غني بالذات عن كل ما سواه. وهو - مع ذلك - يوَدُّ عباده ويحبهم، ويتودد إليهم بإحسانه إليهم وتفضله عليهم - كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب.

وكذلك سائر الأسماء والصفات. فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها.

* * *

(٥٦) منزلة الفرح

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «السرور والفرح»

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس].

وتصدير الباب بهذه الآية في غاية الحسن. فإن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته. وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة. فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم، محسن: يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه: أولى وأحرى.

ونذكر ما في هذه الآية من المعنى:

قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وغيرهم «فضل الله» الإسلام. و«رحمته» القرآن. فجعلوا «رحمته» أخص من «فضله» فإن فضله الخاص: عام على أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض فجعلهم مسلمين بفضله وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦] وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «القرآن ورحمته: أن جعلنا من أهله».

قلت: يريد بذلك، أن هاهنا أمرين:

أحدهما: الفضل في نفسه.

والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات. فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له. والله أعلم.

و«الفرح» لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور، وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس] ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته، التي تتضمن الموعظة - وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة. فأخبر سبحانه أن ما آتى عباده من الموعظة - التي هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور، المتضمن لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغي، والسفه - وهو أشد ألمًا من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها. وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا. فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به. و«الرحمة» التي تجلب لها كل خير ولذة. وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها. أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به. ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به. لا ما يجمع أهل الدنيا منها. فإنه ليس بموضع للفرح. لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة. وهو طيف خيال زار الصب في المنام. ثم انقضى المنام. وولى الطيف. وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء «الفرح» في القرآن على نوعين: مطلق ومقيد:

فالمطلق: جاء في الذم. كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود].

والمقيد: نوعان أيضًا. مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومنته. فهو مذموم. كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام].

والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضًا. فضل ورحمة بالسبب. وفضل بالمسبب. فالأول كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس] والثاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران:١٧٠].

فالفرح بالله، وبرسله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن من أعلى مقامات العارفين: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦].

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره. فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته.

فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله. إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران:١٧٠].

و«الفرح» صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود: أن «الفرح» أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه، والفرح بالشيء فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينة وسكن وانشراح. والفرح لذة وبهجة وسرور. فكل فرح راضٍ. وليس كل راضٍ فرحًا. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام.

و«السرور» والمسرة: مصدر سَرَّه سرورا ومسرة. وكأن معنى سَرَّه: أثَّر في أسارير وجهه فإنه تبرق منه أسارير الوجه. كما قال شاعر العرب:

وإذا نظرت إلى أسرَّة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

وأما الاستبشار: فهو من البشرى. والبشارة: هي أول خبر صادق سار.

و«البشرى» يراد بها أمران:

أحدهما: بشارة المخبر. والثاني: سرور المخْبَر. قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤] فسرت «البشرى» بهذا وهذا. ففي حديث عبادة بن الصامت وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له».

وقال ابن عباس: «بشرى الحياة الدنيا: هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله، وفي الآخرة: عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله. تزف كما تزف العروس، تبشر برضوان الله».

وقال الحسن: هي الجنة. واختاره الزجاج والفراء. وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن، يجري له على ألسنة الناس. وكل ذلك صحيح.

فالثناء من البشرى. والرؤيا الصالحة من البشرى. وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى. والجنة من أعظم البشرى. قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [البقرة:٢٥] وقال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت].

قيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه. ولذلك كانت نوعين «بشرى سارة» تؤثر فيه نضارة وبهجة، و«بشرى محزنة» تؤثر فيه بسورًا وعبوسًا. ولكن إذا أطلقت كانت للسرور. وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

والله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤] وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ

لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود] فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها ألبتة. بل ما من فرحة إلا ومعها ترحة سابقة، أو مقارنة، أو لاحقة. ولا تتجرد الفرحة. بل لابد من ترحة تقارنها. ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن فينغمر حكمه وألمه مع وجودها. وبالعكس.

ولقد نزل القرآن أيضًا بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٧٠] وقوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس:٥٨].

وورد اسم السرور في موضعين من القرآن في أحواله الآخرة. وهما:

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق] والموضع الثاني: قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان].

وورد السرور في أحوال الدنيا في مواضع على وجه الذم. كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق].

فقد رأيت ورود كل واحد من «الفرح» و«السرور» في القرآن بالنسبة إلى أحوال الدنيا وأحوال الآخرة.

والترجيح للفرح لأن الرب تبارك وتعالى يوصف به. ويطلق عليها اسمه، دون «السرور» فدل على أن معناه أكمل من معنى السرور. وأمر الله به في قوله تعالى: ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس:٥٨] وأثنى على السعداء به في قوله: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٧٠].

الاتصال المطرب

وسرور قلب المؤمن إنما تجلبه هزتان. الأولى: هزة سرور ذوق، يذهب بثلاثة أحزان: حزن أورثه خوف الانقطاع. وحزن هاجته ظلمة الجهل. وحزن بعثته وحشة التفرق.

إذ لما كان «السرور» ضد الحزن. والحزن لا يجامعه: كان مذهبًا له. ولما كان سببه: ذوق الشيء السار. فإنه كلما كان الذوق أتم كان السرور به أكمل.

وهذا السرور يذهب بثلاثة أحزان:

الحزن الأول:حزن أورثه خوف الانقطاع، وهذا حزن المتخلفين عن ركب المحبين، ووفد المحبة: فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة هذا الركب، وهذا الوفد.وهم الذين: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة] فثبط عزائمهم وهممهم أن تسير إليه وإلى جنته.

وأمر قلوبهم أمرًا كونيا قدريا أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعي إلى محابه. فلو عاينت قلوبهم - حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد، وقد غمرتها الهموم، وعقدت عليها

سحائب البلاء. فأحضرت كل حزن وغم، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها، وقد غابت عنها المسرات، ونابت عنها الأحزان - لعلمت أن الأبرار في هذه الدار في نعيم، وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان. فيذيق الصديق طعم الوعد الذي وعد به على لسان الرسول. فلا يعقله ظن، ولا يقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية - كما تقدم - فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر] وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة] وأمثال هذه الآيات.

بشاشة العلم

والحزن الثاني، الذي يذهب سرور الذوق، هو حزن ظلمة الجهل.

والجهل نوعان: جهل علم ومعرفة، وجهل عمل وَغَي. وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب. وكما أن العلم يوجب نورًا وأنسًا.فضده يوجب ظلمة ويوقع وحشة. وقد سمى الله سبحانه وتعالى «العلم» الذي بعث به رسوله نورًا، وهدى وحياة. وسمى ضده: ظلمة وموتًا وضلالاً. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٥٧] وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام:١٢٢] وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء] وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] فجعله «روحا» لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. و«نورًا» لما يحصل به من الهدى والرشاد.

ومثل هذا النور في قلب المؤمن: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ

دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

ومثل حال من فقد هذا النور: بمن هو في ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور:٤٠].

سكينة الاجتماع

الحزن الثالث: حزن بعثته وحشة التفرق. وهو تفرق الهم والقلب عن الله عز وجل. ولهذا التفرق حزن ممض على فوات جمعية القلب على الله ولذاتها ونعيمها. فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل، لم يكن لها نسبة إلى لذة جمعية قلبه على الله، وفرحه به، وأنسه بقربه، وشوقه إلى لقائه. وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه. فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك ولله در القائل:

أيا صاحبي، أما ترى نارهم؟ فقال: تريني ما لا أرى

سقاك الغرام ولم يسقني فأبصرت ما لم أكن مبصرا

فلو لم يكن في التفرق المذكور إلا ألم الوحشة، ونكد التشتت، وغبار الشعث. لكفى به عقوبة، فكيف؟ وأقل عقوبته: أن يبتلى بصحبة المنقطعين ومعاشرتهم وخدمتهم. فتصير أوقاته - التي هي مادة حياته - ولا قيمة لها، مستغرقة في قضاء حوائجهم، ونيل أغراضهم. وهذه عقوبة قلب ذاق حلاوة الإقبال على الله، والجمعية عليه، والأنس به، ثم آثر على ذلك سواه، ورضي بطريقة بني جنسه، وما هم عليه. ومن له أدنى حياة في قلبه ونور. فإنه يستغيث قلبه من وحشة هذا التفرق.

ففي القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته.

وفيه حزن: لا يذهبه إلا السرور بمعرفته. وصدق معاملته.

وفيه قلق: لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات: لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه، وقضائه ومعانقة الصبر على ذاك إلى وقت لقائه.

وفيه طلب شديد: لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.

وفيه فاقة: لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدُّ تلك الفاقة منه أبدًا.

فالتفرق يوقع وحشة الحجاب. وألمه أشد من ألم العذاب. قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ [المطففين] فاجتمع عليهم عذاب الحجاب، وعذاب الجحيم.

فالحزن يتولد من مفارقة المحبوب. ليس له سبب سواه. وإن تولد من حصول مكروه، فذلك المكروه إنما كان كذلك لما فات به من المحبوب. فلا حزن إذًا، ولا هم ولاغم، ولا أذى ولا كرب إلا في مفارقة المحبوب. ولهذا كان حزن الفقر والمرض، والألم والجهل، والخمول والضيق، وسوء الحال ونحو ذلك، على فراق المحبوب، من المال، والوجد والعافية، والعلم، والسعة، وحسن الحال. ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى مفارقة المشتهيات من أعظم العقوبات. فقال تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سبأ] فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبوب. والهم والغم والحزن والأسف: بفوات المحبوب. فأطيب العيش : عيش المحب الواصل إلى محبوبه. وأمرُّ العيش: عيش من حيل بينه وبين محبوبه.

يا قومنا : أجيبوا داعي الله

أما هزة الطرب الثانية فهي هزة سرور سماع الإجابة، وهو سرور يمحو آثار الوحشة. وهو مقيد بكونه «سماع إجابة» فإنه السماع المنتفع به، لا مجرد سماع الإدراك، فإنه مشترك بين المجيب والمعرض. وبه تقوم الحجة، وينقطع العذر. ولهذا قال الله عن أصحابه: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النساء:٤٦] وقال النبي ﷺ - لليهودي الذي سأله عن أمور من الغيب - «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني.

وأما سماع الإجابة: ففي مثل قوله تعالى: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة:٤٢] أي: مستجيبون له. وهو المراد. وهذا المراد بقول المصلي «سمع الله لمن حمده» أي أجاب الله حمد من حمده. وهو السمع الذي نفاه الله عز وجل عمن لم يرد به خيرًا. في قوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال:٢٣] أي لجعلهم يسمعون سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم. وعلى هذا يكون المعنى لأسمع قلوبهم فإن سماع القلب يتضمن الفهم.

والتحقيق: أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيرًا لأفهمهم ولجعلهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه.

والمقصود: أن «سماع الإجابة» هو سماع انقياد القلب، والروح، والجوارح، لما سمعته الأذان،

وهو يزيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانقياد التام. فإنه على قدر فقد ذلك تكون الوحشة. وزوالها إنما يكون بالانقياد التام.

وقد بين الله سبيل حصول هذه المعرفة فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة ق].

فالله سبحانه كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة:

إحدها: أن يكون له قلب حي واع. فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكر.

الثاني: أن يصغي بسمعه، فيميله كله نحو المخاطب، فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له. وهو «الشهيد» أي الحاضر غير الغائب. فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر: لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة. وحَدَّق بها نحو المرئي. ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك. فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدث نحو المرئي، أو حدق نحوه ولكن قلبه في موضع آخر: لم يدركه. فكثيرًا ما يمر بك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول بغيره. فلا تشعر بمروره. فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره. وكمال الإصغاء.

فإذا اجتمع إلى ذلك سماع إجابة من الرب عز وجل: تم السرور، فإن العبد إذا دعا ربه فسمع ربه دعاءه سماع إجابة، وأعطاه ما سأله على حسب مراده ومطلبه، أو أعطاه خيرًا منه: حصل له بذلك سرور يمحو من قلبه آثار ما كان يجده من وحشة البعد. فإن للعطاء والإجابة سرورًا وأنسًا وحلاوة. وللمنع وحشة ومرارة. فإذا تكرر منه الدعاء، وتكرر من ربه سماع وإجابة لدعائه: محا عنه آثار الوحشة. وأبدله بها أنسًا وحلاوة.

* * *

(٥٧) منزلة السر

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «السر»

قال صاحب المنازل:

«باب السر. قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود:٣١] أصحاب السر: هم الأخفياء، الذين ورد فيهم الخبر».

أما استشهاده بالآية، فوجهه: أن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم قد أودع الله قلوبهم سرًّا من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفي على أعداء الرسل، فنظروا إلى ظواهرهم. وعموا عن بواطنهم. فازدروهم واحتقروهم. وقالوا للرسول: «اطرد هؤلاء عنك، حتى نأتيك ونسمع منك» وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام:٥٣] فقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود] قال الزجاج: المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس عليَّ أن أطلع على ما في أنفسهم. فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله. والله سبحانه وتعالى عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه. وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام] فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهلهم للهدي والحق، وحرمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم. كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها.وليس كل أحد عنده هذا السر. فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

قوله: «أصحاب السر: هم الأخفياء، الذين ورد فيهم الخبر».

قد يريد به: حديث سعد بن أبي وقاص، حيث قال له ابنه: «أنت هاهنا والناس يتنازعون في الإمارة؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي».

وقد يريد به: قوله ﷺ: «رب أشعث أغبر، مدفوع بالأبواب لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرَّه».

وهم على طبقتين: الطبقة الأولى: طائفة علت هممهم، وصفت قصودهم، وصح سلوكهم، حتى سبقوا السائرين، فلم يوقف لهم على رسم، ولم يُنسبوا إلى اسم، ولم يشر إليهم بالأصابع.

أي أن لهم ثلاث صفات ثبوتية. وثلاثًا سلبية:

الأولى: «علو هممهم» وعلو الهمة: أن لا تقف دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه. ولا تبيع حظها من الله، وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به، بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية. فالهمة العالية على الهمم، كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم.ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم. فإن «الهمة» كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها. وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان. فإن الآفات قواطع وجواذب، وهي لا تعلو إلى المكان العالي فتجتذب منه. وإنما تجتذب من المكان السافل. فعلو همة المرء: عنوان فلاحه، وسفول همته: عنوان حرمانه.

العلامة الثانية: «صفاء القصد» وهو خلاصة من الشوائب التي تعوقه عن مقصوده. فصفاء القصد: تجريده لطلب المقصود له لا لغيره. فهاتان آفتان في القصد. إحداهما: أن لا يتجرد لمطلوبه. الثانية: أن يطلبه لغيره لا لذاته.

ويراد به: خلوص القصد من كل إرادة تزاحم مراد الرب تعالى. بل يصير القصد مجردًا لمراده الديني الأمري.

وعلامته: اندراج حظ العبد في حق الرب تعالى. بحيث يصير حظه هو نفس حق ربه عليه. ولا يخفى على البصير الصادق علو هذه المنزلة.

العلامة الثالثة: «صحة السلوك» وهو سلامته من الآفات والعوائق والقواطع والحجب. وهو إنما يصح بثلاثة أشياء:

أحدها: أن يكون على الدرب الأعظم، الدرب النبوي المحمدي، لا على الجواد الوضعية، والرسوم الاصطلاحية. وإن زخرفوا لها القول، ودققوا لها الإشارة، وحسنوا لها العبارة. فتلك من بقايا النفوس عليهم وهم لا يشعرون.

الثاني: أن لا يجيب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدعة.

الثالث: أن يكون في سلوكه ناظرًا إلى المقصود. وقد تقدم بيان ذلك.

فبهذه الثلاثة يصح السلوك. والعبارة الجامعة لها: أن يكون واحدًا لواحد، في طريق واحد. فلا ينقسم طلبه ولا مطلوبه، ولا يتلون مطلوبه، بل يسعى إلى تخليص قصده من العلائق

والعوائق، التماسًا للحقائق، فيغيب عن عاداته، ليقطع بذلك العلائق، وهي ما يتعلق بقلبه وقالبه وحسه من المألوفات. ويسبق العوائق، حتى لا تلحقه ولا تدركه.

وهذه الغيبة إنما تكون لالتماس الحقائق. فإن «العوائق» و«العلائق» تحول بينه وبين طلبها وحصولها لمضادتها لها.

و«الحقائق» جمع حقيقة، ويراد بها: الحق تعالى وما نسب إليه. فهو الحق، وقوله الحق، ووعده الحق، ولقاؤه حق، ورسوله حق، وعبوديته وحده حق، وعبودية ما سواه الباطل. فكل شيء ما خلا الله باطل.

والمقصود: أن المريد إن لم يتخلص قصده في مطلوبه عما يعوقه من الشواغل، أو ما يدركه من المعوقات: لم يبلغ مقصوده. ولم يصل إليه، وإن وصل إليه فبعد جهد شديد ومشقة، بسبب تلك الشواغل. ولم يصل القوم إلى مطلبهم إلا بقطع العلائق، ورفض الشواغل.

وصحة السلوك لا تميت الطبيعة والنفس بالكلية، ولولا ذلك لما قام سوق الامتحان والتكليف في هذا العالم. بل قهرًا بسلطان العلم والمعرفة والإيمان والمحبة. والمقهور المغلوب لابد أن يتحرك أحيانًا - وإن قَلَّت - ولكن حركة أسير مقهور، بعد أن كانت حركته حركة أمير مسلط.

فمن تمام إحسان الرب إلى عبده، وتعريفه قدر نعمته: أن أراه النفس التي كانت حاكمًا عليه، قاهرًا له: مقهورة مغلوبة، فحينئذ يستغيث العبد بربه ووليه، ومالك أمره كله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك.

وأيضًا فإنه يزيل من قلبه آفة الركون إلى نفسه، أو عمله أو حاله، كما قيل: إن ركنت إلى العلم أنسيناكه. وإن ركنت إلى المعرفة حجبناها عنك. وإن ركنت إلى قلبك أفسدناه، فلا يركن العبد إلى شيء سوى الله ألبتة. ومتى وجد من قلبه ركونًا إلى غيره فليعلم أنه قد أحيل على مفلس، بل معدم، وأنه قد فتح له الباب مكرًا. فليحذر ولوجه.

واعلم أن كل ما منك حجاب على مطلوبك. فإن وقفت معه فأنت دون الحجاب. وإن قطعته إلى تجريد المطلوب صرت فوق الحجاب. فطلبك وإرادتك وتوكلك، وحالك وعملك: كله حجاب. إن وقفت معه، أو ركنت إليه. وإن جاوزته إلى الذي أنت به وله، وفي يديه، وتحت تصرفه ومشيئته، وليس لك ذرة واحدة إلا به ومنه، ولم تقف مع طلبك في إرادتك: فقد صرت فوق حجاب الطلب.

ومن أعظم الضر: حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذابًا من الجحيم، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين] فالعارف قلبه غير محجوب، بل

يعيش في نور ظفره بإقبال قلبه على الله عز وجل، وجمع همه عليه، وفنائه بمراده عن مراد نفسه. فصار واجدًا لما أكثر الخلق فاقدا له. قد لبس قلبه نور ذلك الوجود، حتى فاض على لسانه وجوارحه، وحركاته وسكناته. فإن نطق علاه النور وإن سكت علاه النور.

والحجب عشرة:

حـجاب التعطيل، ونفي حقائق الأسماء والصفات، وهو أغلظها. فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه ألبتة، إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القولية، كحجاب أهل الأهواء، والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العملية. كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخر والخيلاء ونحوها.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم ، وزهاداتهم واجتهاداتهم. فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك. فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة. فأهل الكبائر الظاهرة: أدنى إلى السلامة منهم. وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع : حجاب أهل الصغائر.

الثامن : حجاب أهل الفضلات، والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضارها ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السـيـر عن المقصود.

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى، تحول بينه وبين هذا الشأن، وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى، فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب ألبتة.

وهذه الأربعة عناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقلتها. فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب. وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب. فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هناك. وفي هذه المسافة قطَّاع الطريق المذكورون. فإن حاربهم وخلص العمل إلى قلبه

دار فيه. وطلب النفوذ من هناك إلى الله. فإنه لا يستقر دون الوصول إليه ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم] فإذا وصل إلى الله سبحانه أثابه عليه مزيدًا في إيمانه ويقينه وعقله. وحمل به ظاهره وباطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سيئ الأخلاق والأعمال. وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه. فيحارب الدنيا بالزهد فيها، وإخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى. فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق، والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه، ويحارب النفس بقوة الإخلاص.

هذا كله إذا وجد العمل منفذًا من القلب إلى الرب سبحانه وتعالى. وإن دار فيه ولم يجد منفذًا وثبت عليه النفس، فأخذته وصيرته جندًا لها. فصالت به وَعَلَتْ وطغت ، فتراه أزهد ما يكون، وأعبد ما يكون، وأشده اجتهادًا، وهو أبعد ما يكون عن الله. وأصحاب الكبائر أقرب قلوبًا إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص.

فانظر إلى السُجَّاد العُبَّاد. الزاهد الذي بين عينيه أثر السجود، ذي الخويصرة التميمي الخارجي، كيف أورثه طغيان عمله أن أنكر على النبي ﷺ، وأورث أصحابه احتقار المسلمين، حتى سلوا عليهم سيوفهم، واستباحوا دماءهم.

وانظر إلى الشريب السكير الذي كان كثيرًا ما يؤتى به إلى النبي ﷺ، فيحده على الشراب، كيف قامت به قوة إيمانه ويقينه، ومحبته لله ورسوله، وتواضعه وانكساره لله، حتى نهى رسول الله ﷺ عن لعنته، وهو عياض بن حمار رضي الله عنه .

فظهر بهذا: أن طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات.

وأما الصفات الثلاث السلبية للطبقة الأولى من أصحاب السر، فأولها: سبقهم السائرين، بحيث لم يوقف لهم على رسم، فإنهم - لعلو هممهم - قد سبقوا الناس فلم يقفوا معهم، فهم المفردون السابقون. فلسبقهم لم يوقف لهم على أثر في الطريق. ولم يعلم المتأخر عنهم أين سلكوا؟ والمشمر بعدهم: قد يرى آثار نيرانهم على بُعْدٍ عظيم، كما يرى الكوكب، ويستخبر ممن رآهم: أين رآهم؟ فحاله كما قيل:

أسائل عنكم كل غاد ورائح ... وأومي إلى أوطانكم، وأسلم

العلامة الثانية: إنهم لم ينسبوا إلى اسم، أي لم يشتهروا باسم يعرفون به عند الناس من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطريق.

وأيضًا، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد، ويجري عليهم اسمه. فيعرفون به دون غيره من

الأعمال. فإن هذا آفة في العبودية. وهي عبودية مقيدة. وأما العبودية المطلقة فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها. فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها. فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم. فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي. بل إن سُئل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الأتباع. وعن خِرقته؟ قال: لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصوده ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢] وعن رباطه؟ قال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور] وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسـلام لا أب لي سـواه ... إذا افتخـروا بقـيس أو تميـم

والعلامة الثالثة: أنهم – لخفائهم عن الناس – لم يعرفوا بينهم، حتى يشيروا إليهم بالأصابع. أولئك ذخائر الله حيث كانوا، إذ إنهم لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غير مشار إليهم، ولا متميزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلى اسم طريق، أو مذهب، أو شيخ: كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة. وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات. فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيد بها. ولزوم الطرق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة. هذه هي التي قطعت أكثر الخلق عن الله، وهم لا يشعرون. والعجب أن أهلها هم المعروفون بالطلب والإرادة، والسير إلى الله. وهم – إلا الواحد بعد الواحد – المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود.

وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السنة».

يعني: أن أهل السنة ليس لهم اسم ينسبون إليه سواها.

فمن الناس: من يتقيد بلباس لا يلبس غيره. أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية لا يمشي غيرها، أو بزي وهيئة لا يخرج عنهما، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها. وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره. وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه. فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه. قد قيدتهم العوائد والرسوم، والأوضاع والإصلاحات عن تجريد المتابعة. فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل. فترى أحدهم يتعبد بالرياضة والخلوة، وتفريغ القلب. ويعد العلم قاطعًا له عن الطريق. فإذا ذكر له الموالاة في الله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر عُدَّ ذلك فضولاً وشرًّا. وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك أخرجوه من بينهم، وعدوه غَيرًا عليهم، فهؤلاء أبعد الناس عن الله. وإن كانوا أكثر إشارة. والله أعلم.

أصحاب السر الأعمق

الطبقة الثانية: طائفة أشاروا عن منزل، وهم في غيره. وورّوا بأمر، وهم لغيره.ونادوا على شأن وهم على غيره. فهم بين غيرة عليهم تسترهم. وأدب فيهم يصونهم، وظرف يهذبهم.

أهل هذه الطبقة استسروا اختيارًا وإرادة لذلك، صيانة لأحوالهم، وكمالاً في تمكنهم. فمقاماتهم عالية، لا ترمقها العيون، ولا تخالطها الظنون. يشيرون إلى ما يعرفه المخاطب من مقامات المريدين السالكين، وبدايات السلوك، ويخفون ما مكنهم فيه الحق سبحانه وتعالى، من أحوال المحبة ومواجيدها، وآثار المعرفة وتوحيدها. فهذه هي «التورية».

فكأنهم يظهرون للمخاطب: أنهم من أهل البدايات. وهم في أعلى المقامات. يتكلمون معهم في البداية والإرادة والسلوك، ومقامهم فوق ذلك. وهم محقون في الحالتين. لكنهم يسترون أشرف أحوالهم ومقاماتهم عن الناس.

وبالجملة: فهم مع الناس بظواهرهم، يخاطبونهم على قدر عقولهم، ولا يخاطبونهم بما لا تصل إليه عقولهم، فينكرون عليهم. فيحسبهم المخاطب مثله. فالناس عندهم، وليسوا هم عند أحد.

يشيرون إلى منزل «التوبة» و«المحاسبة» وهم في منزل «المحبة» و«الوجد» و«الذوق».

والتورية: أن يذكر لفظًا يفهم به المخاطب معنى، وهو يريد غيره. مثاله: أن يقول أحدهم: أنا غني. فيوهم المخاطب له أنه غني بالشيء. ومراده: غني بالله عنه. كما قيل:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم ... وإن الغنى العالي عن الشيء لا به

فهم بين غَيرة عليهم تسترهم، أي يغار الحق سبحانه عليهم، فيسترهم عن الخلق، ويغارون على أحوالهم ومقاماتهم. فيسترون أحوالهم عن رؤية الخلق لها. وبين أدب فيهم يصونهم، وظرف يهذبهم.

وهو أن يقوم بهم أدب يصونهم عن ظن السوء بهم، ويصونهم عن دناءة الأخلاق والأعمال. فأدبهم صوان على أحوالهم، فهمته العلية ترتفع به. وأدبه يرسو به إلى التراب. كما قيل:

أبلّج سهل الأخلاق ممتنع ... يبرزه الدهر وهو يحتجب

إذا ترقَّت به عزائمه ... إلى الثريا رسا به الأدب

فأدب المريد والسالك: صوان له وتاج على رأسه.

و«الظرف» في هذه الطائفة: أحلى من كل حلو. وأزين من كل زين. فما قرن شيء إلى شيء أحسن من ظرف إلى صدق وإخلاص، وسر مع الله وجمعية عليه. فإن أكثر من عني بهذا الشأن تضيق نفسه وأخلاقه عن سوى ما هو بصدده. فتثقل وطأته على أهله وجليسه. ويضن عليه

ببشره، والتبسط إليه، ولين الجانب له. ولعمر الله إنه لمعذور، وإن لم يكن في ذلك بمشكور، فإن الخلق كلهم أغيار. إلا من أعانك على شأنك، وساعدك على مطلوبك.

فإذا تمكن العبد في حاله، وصار له إقبال على الله، وجمعية عليه – ملكة ومقامًا رسخًا – أنس بالخلق وأنسوا به. وانبسط إليهم وحملهم على ضلعهم وبطء سيرهم. فعكفت القلوب على محبته للطفه وظرف. فإن الناس ينفرون من الكثيف ولو بلغ في الدين ما بلغ. ولله ما يجلب اللطف والظرف في القلوب، ويدفع عن صاحبه من الشر. ويسهل له ما توعَّر على غيره. فليس الثقلاء بخواص الأولياء. وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك. وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة، ولطافة وظرفًا. فترى الصادق فيها: من أحلى الناس، وألطفهم وأظرفهم. قد زالت عنه ثقالة النفس، وكدورة الطبع، وصار روحانيا سمائيًّا، بعد أن كان حيوانيا أرضيا. فتراه أكرم الناس عشرة، وألينهم عريكة، وألطفهم قلبًا وروحًا. وهذه خاصة المحبة. فإنها تلطف وتظرف وتنظف.

ومن ظرف أهل هذه الطبقة: أن لا يظهر أحدهم على جليسه بحال ولا مقام. ولا يواجهه إذا لقيه بالحال. بل بلين الجانب، وخفض الجناح، وطلاقة الوجه. فيفرش له بساط الأنس. ويجلسه عليه. فهو أحب إليه من الفرش الوثيرة.

وبالجملة: فهذه الطريق لا تنافي اللطف والظرف.

لكن هاهنا دقيقة قاطعة، وهي الاسترسال مع هذه الأمور. فإنها أقطع شيء للمريد والسالك. فمن استرسل معها قطعته، ومن عاداها بالكلية وعرت عليه طريق سلوكه. ومن استعان بها أراحته في طريقه. أو أراحت غيره به. وبالله التوفيق.

* * *

(٥٨) منزلة الغُربة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الغربة»

قال شيخ الإسلام: (باب الغربة) قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود:١١٦].

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن. فإن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية. وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ. فطوبى للغرباء» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس» وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن زهير عن عمرو بن أبي عمرو - مولى المطلب بن حنطب - عن المطلب بن حنطب عن النبي ﷺ قال: «طوبى للغرباء» قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «الذين يزيدون إذا نقص الناس».

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظًا - لم ينقلب على الراوي لفظه وهو «الذين ينقصون إذا زاد الناس» - فمعناه: الذين يزيدون خيرًا وإيمانًا وتقى إذا نقص الناس من ذلك والله أعلم.

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبًا كما بدأ. فطوبى للغرباء . قيل: ومن الغرباء ، يا رسول الله ؟ قال: النزَّاع من القبائل» وفي حديث عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ ذات يوم، ونحن عنده : «طوبى للغرباء». قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «ناس صالحون قليل في ناس كثير. من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم».

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن أحب شيء إلى الله الغرباء» قيل: ومن الغرباء؟ قال: «الفرارون بدينهم. يجتمعون إلى عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة».

وفي حديث آخر: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ. فطوبى للغرباء» قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «الذين يحيون سنتي. ويعلمونها الناس».

وقال نافع عن مالك: «دخل عمر بن الخطاب المسجد. فوجد معاذ بن جبل جالسًا إلى بيت النبي ﷺ، وهو يبكي. فقال له عمر: ما يبكيك، يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا. ولكن حديثًا حدثنيه حبيبي ﷺ وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: «إن الله يحب الأخفياء الأحفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى. يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة».

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون. ولقلتهم في الناس جدًّا: سموا غرباء، فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل الإسلام في الناس غرباء. والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا، فلا غربة عليهم. وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيه: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه. وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريبا من تناءت دياره ولكن من تنأين عنه غريب

فالغربة: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق. وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه «بدأ غريبًا» وأنه «سيعود غريبًا كما بدا» وأن «أهله يصيرون غرباء».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقًّا. فإنهم لم يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ ولم يدعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم: «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده».

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها. بل هو آنسُ ما يكون إذا استوحش الناس. وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا. فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره».

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «كل ضعيف أغبر، ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره» وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب. لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال، وله حال. الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي ﷺ - التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس. وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد. وإن أنكر ذلك أكثر الناس. وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا. وأكثر

الناس - بل كلهم - لائم لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي ﷺ: «هم النزاع من القبائل» أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهل الأرض على أديان مختلفة. فهم بين عُبَّاد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصائبة وفلاسفة. وكان الإسلام في أول ظهوره غريبًا. وكان من أسلم منهم واستجاب ولرسوله غريبًا في حيه وقبيلته. وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعًا من القبائل، بل آحادًا منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام. فكانوا هم الغرباء حقًّا. حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجًا، فزالت تلك الغربة عنهم. ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريبًا كما بدأ. بل الإسلام الحق - الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره. وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة، فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا. وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدًّا، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة. ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات. ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإرادتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعوا شحهم، وأعجب كل منهم برأيه؟

ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة. ففي سنن أبي داود والترمذي - من حديث أبي ثعلبة الخشني - قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥] فقال: «بل ائتمروا بالمعروف. وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه. فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام. فإن من وراءكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبض على الجمر. للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله» قلت: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين رجلا منكم» وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ما الناس فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. فإذا أراد أني سلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال،

وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وازدرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه. كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم، غريب في صلاته، لسوء صلاتهم. غريب في طريقه، لضلال وفساد طرقهم. غريب في نسبته، لمخالفة نسبهم. غريب في معاشرته لهم، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته. لا يجد من العامة مساعدًا ولا معينًا . فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع. داع إلى الله ورسوله بين دعاة الأهواء والبدع. آمر بالمعروف، ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف.

ثم إن الناس كلهم في هذه الدار غرباء. فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها. وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» وهكذا هو في نفس الأمر. لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه، ويعرفه حق المعرفة. ولي من أبيات في هذا المعنى:

وحي على جنات عدن. فإنها ... منازلك الأولى. وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فيا هل ترى ... نعود إلى أوطاننا، ونسلم؟

وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكم؟

وقد زعموا: أن الغريب إذا نأى ... وشطَّت به أوطانه. ليس ينعم

فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة ... من العمر، إلا بعد ما يتألم

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريبًا، وهو جناح سفر. لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر في صورة قاعد. وقد قيل:

وما هذه الأيام إلا مراحل ... يحث بها داع إلى الموت قاصد

وأعجب شيء - لو تأملت - أنها ... منازل تطوى والمسافر قاعد

* * *

(٥٩) منزلة التمكن

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «التمكن»

قال صاحب المنازل: (باب التمكن) قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم].

وجه استدلاله بالآية: في غاية الظهور. وهو أن المتمكن لا يبالي بكثرة الشواغل. ولا بمخالفة أصحاب الغفلات، ولا بمعاشرة أهل البطالات. بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له. ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم:٦٠] فمن وفى الصبر حقه، وتيقن أن وعد الله حق لم يستفزه المبطلون، ولم يستخفه الذين لا يوقنون. ومتى ضعف صبره ويقينه – أو كلاهما – استفزه هؤلاء. واستخفه هؤلاء. فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه. فكلما ضعف ذلك منه قوي جذبهم له. وكلما قوي صبره ويقينه قوي انجذابه منهم وجذبه لهم.

و«التمكن» هو القدرة على التصرف في الفعل والترك. ويسمى «مكانة» أيضًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ﴾ [الأنعام:١٣٥].

وهو فوق «الطمأنينة» لأنها تكون مع نوع من المنازعة. فيطمئن القلب إلى ما يسكنه. وقد يتمكن فيه وقد لا يتمكن. ولذلك كان «التمكن» هو غاية الاستقرار. وهو تفعل من المكان. فكأنه قد صار مقامه مكانًا لقلبه قد تبوأه منزلاً ومستقرًّا، وصار معتصمًا به، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٤٦] وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

فالاعتصام به نوعان: اعتصام توكل واستعانة وتفويض وعياذ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصام بوحيه، وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم وكشوفاتهم، ومواجيدهم. فمن لم يكن كذلك فهو منسل من هذا الاعتصام. فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علمًا وعملاً، وإخلاصًا واستعانة، ومتابعة، واستمرارًا على ذلك إلى يوم القيامة. وتلك هي حقيقة التمكن.

إخلاص.. في الطريق الواسع

فمن التمكن: تمكن المريد، وهو أن يجتمع له صحة قصد يسيره، وبسعة الطريق: يهون عليه السير، وكل طالب أمر من الأمور فلابد له من تَعَين مطلوبه. وهو المقصود. ومعرفة الطريق الموصلة إليه، والأخذ في السلوك. فمتى فاته واحد من هذه الثلاث: لم يصح طلبه ولا سيره، فالأمر دائر بين مطلوب يتعين إيثاره على غيره، وطلب يقوم بقصد من يقصده، وطريق توصل إليه.

فإذا تحقق العبد بطلب ربه وحده: تعين مطلوبه. فإذا بذل جهده في طلبه: صح له طلبه. فإذا تحقق باتباع أوامره، واجتناب نواهيه: صح له طريقه. وصحة القصد والطريق موقوفة على صحة المطلوب وتعينه.

فحكم القصد يتلقى من حكم المقصود. فمتى كان المقصود أهلاً للإيثار: كان القصد المتعلق به كذلك. فالقصد والطريق تابعان للمقصود.

وتمام العبودية: أن يوافق الرسول ﷺ في مقصوده وقصده وطريقه. فمقصوده: الله وحده. وقصده: تنفيذ أوامره في نفسه وفي خلقه. وطريقه: اتباع ما أوحي إليه. فصحبه الصحابة ﵃ على ذلك حتى لحقوا به. ثم جاء التابعون لهم بإحسان، فمضوا على آثارهم.

ثم تفرقت الطرق بالناس، فخيار الناس من وافقه في المقصود والطريق. وأبعدهم عن الله ورسوله من خالفه في المقصود. وهم أهل الشرك بالمعبود والبدعة في العبادة. ومنهم من وافقه في المقصود، وخالفه في الطريق. ومنهم من وافقه في الطريق وخالفه في المقصود.

فمن كان مراده الله، والدار الآخرة: فقد وافقه في المقصود. فإن عبد الله بما أمر على لسان رسوله ﷺ: فقد وافقه في الطريق. وإن عبده بغير ذلك: فقد خالفه في الطريق.

ومن كان مقصوده - من أهل العلم، والعبادة، والزهد في الدنيا - الرياسة، فقد خالفه في المقصود، وإن تقيد بالأمر.

فإن لم يتقيد به، فقد خالفه في المقصود والطريق.

إما سعة الطريق، فبأمرين:

بسعتها حتى لا تضيق عليه، فيعجز عن سلوكها، وباستقامتها حتى لا يزيغ عنها إلى غيرها، فإن طريق الحق واسعة مستقيمة، وطريق الباطل ضيقة معوجة.

بإزالة حجاب العلائق تدخل الأنوار

ومنه: تَمَكُّن السالك، وهو أن يجتمع له صحة القطاع وبرق كشف، وضياء حال.

وهذه الدرجة أتم مما قبلها. فإن تلك تمكن في تصحيح قصد الأعمال. وهذه تمكن في حال التمكن. والتمكن في الحال أبلغ من التمكن في القصد.

والمراد بصحة الانقطاع: انقطاع قلبه عن الأغيار، والشواغل الموجبة للأكدار.

ومع ذلك فحاله مع الله صاف من معارضات السوى، فلا يعارض همته إرادة، بل متمكن في انقطاعه، ولحاله نور وضياء.

وسبب هذا الضياء: أنه قد فاض على قلبه نور اليقين بالأسماء والصفات. فصار لقلبه من معرفتها والإيمان بها، وذوق حلاوة ذلك: نور خاص، غير مجرد نور العبادة، والإرادة والسلوك.

وإذا بلغ العبد في مقام المعرفة إلى حد كأنه يطالع ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال، ونعوت الجلال. وأحست روحه بالقرب الخاص الذي ليس هو كقرب المحسوس من المحسوس، حتى يشاهد رفع الحجاب بين روحه وقلبه وبين ربه. فإن حجابه هو نفسه. وقد رفع الله سبحانه عنه ذلك الحجاب بحوله وقوته: أفضى القلب والروح حينئذ إلى الرب. فصار يعبده كأنه يراه.

والله سبحانه جعل شهود الأسماء والصفات طريقًا لهذه المعرفة، ومن شاهد الصفة فلابد أن يشاهد متعلقاتها. فإن النظر في متعلقاتها يكسبه التعظيم للمتصف بها.

فمن شاهد صفة الكلام مثلاً: زادته تعظيمًا لله تعالى ولابد، إذ لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار العالم كلها أقلام يكتب بها كلام الرب جل جلاله، لفنيت البحار، ونفدت الأقلام، وكلام الله عز وجل لا ينفد ولا يفنى.

فمن شاهد الصفات الأخرى بمثل هذه المشاهدة، من العلم، والقدرة، ونحوها، وجال قلبه في عظمتها ازداد معرفة وتعظيمًا، وزاد نور قلبه، وضياء روحه.

فكلما كان بصفات الله أعرف، ولها أثبت، ومعارض الإثبات منتفٍ عنده كان أكمل شهودًا. ولهذا أكمل الخلق شهودًا من قال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» ولكمال معرفته بالأسماء والصفات استدل بما عرفه منها على أن الأمر فوق ما أحصاه وعلمه.

فمشهد الصفات: مشهد الرسل والأنبياء، ورثتهم، وكل من كان بها أعرف كان بالله أعلم.

وكان مشهده بحسب ما عرف منها، فإن التائب الصادق في توبته إذا تاب إليه: وجده غفورًا رحيما. والمتوكل إذا صدق في التوكل عليه: وجده حسيبًا كافيا. والداعي إذا صدق في الرغبة إليه: وجده قريبًا مجيبًا. والمحب إذا صدق في محبته: وجده ودودًا حبيبًا. والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به: وجده كاشفًا للكرب مخلصًا منه. والمضطر إذا صدق في الاضطرار إليه: وجده رحيمًا مغيثًا. والخائف إذا صدق في اللجإ إليه: وجده مؤمنًا من الخوف. والراجي إذا صدق في الرجاء: وجده عند ظنه به.

فمحبه وطالبه ومريده الذي لا يبغي به بدلاً، ولا يرضى بسواه عوضًا، إذا صدق في محبته وإرادته: وجده أيضًا وجودًا أخص من تلك الوجودات. فإنه إذا كان المريد منه يجده، فكيف بمريده ومحبه؟ فيظفر هذا الواجد بنفسه وبربه.

أما ظفره بنفسه: فتصير منقادة له، مطيعة له، تابعة لمرضاته غير آبية، ولا أمارة. بل تصير خادمة له مملوكة، بعد أن كانت مخدومة مالكة.

وأما ظفره بربه: فقربه منه، وأنسه به، وعمارة سره به. وفرحه وسروره به أعظم فرح وسرور.

فالموحد يشاهد - بإيمانه ويقينه - ذاتًا جامعة للأسماء الحسنى، والصفات العُلاَ، لها كل صفة كمال، وكل اسم حسن، وذلك يجذبه إلى نفس اجتماع همه على الله، وعلى القيام بفرائضه.

والطريق - بمجموعها - لا تخرج عن هذين السببين، وإن طولوا العبارات، ودققوا الإشارات. فالأمر كله دائر على جمع الهمة على الله، واستفراغ الوسع بغاية النصيحة في التقرب إليه بالنوافل، بعد تكميل الفرائض. فلا تُطوِّل ولا يطوَّل عليك.

* * *

(٦٠) منزلة المعاينة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ منزلة «المعاينة»

والمعاينة نوعان: معاينة بصر، ومعاينة بصيرة. فمعاينة البصر: وقوعه على نفس المرئي، أو مثاله الخارجي، كرؤية مثال الصورة في المرآة والماء. ومعاينة البصيرة: وقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي. فيكون إدراكه له بمنزلة إدراك العين للصورة الخارجية. وقد يقوى سلطان هذا الإدراك الباطن، بحيث يصير الحكم له، ويقوى استحضار القوة العاقلة لمداركها، بحيث يستغرق فيه. فيغلب حكم القلب على حكم الحس والمشاهدة. فيستولي على السمع والبصر. بحيث يراه، ويسمع خطابه في الخارج. وهو في النفس والذهن. لكن لغلبة الشهود، وقوة الاستحضار، وتمكن حكم القلب واستيلائه على القوي: صار كأنه مرئي بالعين، مسموع بالأذن. بحيث لا يشك المدرك ولا يرتاب في ذلك ألبتة. ولا يقبل عذلاً.

وحقيقة الأمر: أن ذلك كله شواهد وأمثلة علمية، تابعة للمعتقد، فذلك الذي أدرك بعين القلب والروح إنما هو شاهد دال على الحقيقة. وليس هو نفس الحقيقة. فإن شاهد نور جلال الذات في قلب العبد ليس هو نفس نور الذات الذي لا تقوم له السماوات والأرض. فإنه لو ظهر لها لتدكدكت، ولأصابها ما أصاب الجبل. وكذلك شاهدُ نور العظمة في القلب إنما هو نور التعظيم والإجلال، لا نور نفس المعظم ذي الجلال والإكرام.

وليس مع القوم إلا الشواهد، والأمثلة العلمية، والرقائق التي هي ثمرة قرب القلب من الرب، وأنسه به، واستغراقه في محبته وذكره، واستيلاء سلطان معرفته عليه. والرب تبارك وتعالى وراء ذلك كله. منزه مقدس عن اطلاع البشر على ذاته، أو أنوار ذاته. أو صفاته، أو أنوار صفاته، وإنما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهد من الجنة والنار، وأما رؤيته سبحانه عيانًا، أو رؤيتهما، فمستحيل في هذه الدار الدنيا.

وهذا هو الذي وجده عبد الله بن حرام الأنصاري يوم أحد، لما قال: «واها لريح الجنة! إني أجد والله ريحها دون أحد» ومن هذا قوله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر» ومن هذا قوله ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف».

فالعمل: إنما هو على الشواهد. وعلى حسب شاهد العبد يكون عمله.

ونحن نشير بعون الله وتوفيقه، إشارة يعلم بها حقيقة الأمر.

فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة: أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها. ويرى أهلها وعشاقها صرعى حولها،

قد عذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أَمَرَّ الشراب: أضحكتهم قليلاً، وأبكتهم طويلاً. سقتهم كئوس سمها، بعد كئوس خمرها، فسكروا بحبها، وماتوا بهجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها: ترحل قلبه عنها. وسافر في طلب الدار الآخرة وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وإنها هي الحيوان حقًّا. فأهلها لا يرتحلون منها. ولا يظعنون عنها. بل هي دار القرار، ومحط الرحال، ومنتهى السير. وأن الدنيا بالنسبة إليها - كما قال النبي ﷺ - : «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟» وقال بعض التابعين: ما الدنيا في الآخرة إلا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا.

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقدها واضطرامها، وبُعْد قعرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها. فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه، زرق العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم. فلما انتهوا إليها فُتحت في وجوههم أبوابها. فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفا: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف].

ثم أتى النداء من قبل رب العالمين: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [الطور] فيراهم وهم إليها يدفعون في الحميم، على وجوههم يسحبون. وفي النار كالحطب يسجرون: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ [الأعراف] فبئس اللحاف وبئس الفراش. وإن استغاثوا من شدة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩] فإذا شربوه قطع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم. شرابهم الحميم وطعامهم الزقوم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: انخلع من الذنوب والمعاصي، واتباع الشهوات. ولبس ثياب الخوف والحذر. وأخصب قلبه من مطر أجفانه. وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بُعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات، والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها. فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك: شاهد من الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلًا عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها. تربتها المسك، وحَصْباؤها الدُّرُّ، وبناؤها لَبِنِ الذهب والفضة، وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس. ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق. وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور. وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة. وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون. وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون. وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون. وأزواجهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون. فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يحبرون. وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله: فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا.

هذا، وفوق ذلك: شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، ويغيب به العبد عنها كلها. وهو شاهد جلال الرب تعالى، وجماله وكماله، وعزه وسلطانه، وقيوميته وعلوه فوق عرشه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيومًا فوق عباده، مستويا على عرشه، منفردًا بتدبير مملكته، آمرًا ناهيا، مرسلًا رسله، ومنزلًا كتبه، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل. ويرحم إذا استُرحم، ويغفر إذا اسْتُغفر، ويعطي إذا سُئل، ويجيب إذا دُعي، ويقبل إذا استقبل. أكبر من كل شيء. وأعظم من كل شيء وأعز من كل شيء. وأقدر من كل شيء. وأعلم من كل شيء، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل. ولا يتبرم بإلحاح الملحين.. سواء عنده من أسر القول ومن جهر به. فالسر عنده علانية. والغيب عنده شهادة. يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. ويرى نياط عروقها، ومجاري القوت في أعضائها.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة، من غير أن تعدم. بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد. وتندرج فيه الشواهد كلها. ومن هذا شاهده: فله سلوك وسير خاص. ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد: سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه، وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن. هو في واد والناس في واد.

والمقصود: أن العيان والكشف والمشاهدة في هذه الدار إنما تقع على الشواهد والأمثلة العلمية. وهو المثل الأعلى الذي ذكره سبحانه في ثلاثة مواضع من كتابه: في سورة النحل وسورة الروم وسورة الشورى.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الروم]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى].

وهذا المثل الأعلى هو ما يقوم بقلوب عابديه ومحبيه، والمنيبين إليه من هذا الشاهد وهو الباعث لهم على العبادة والمحبة والخشية والإنابة. وتفاوتهم فيه لا ينحصر طرفاه. فكل منهم له مقام معلوم لا يتعداه. وأعظم الناس حظًّا في ذلك معترف بأنه لا يحصي ثناء عليه سبحانه، وأنه فوق ما يثني عليه المثنون، وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

وما بلغ المهدون نحوك مدحه ... وإن أطنبوا، إن الذي فيك أعظم

لك الحمد كل الحمد لا مبدا له ... ولا منتهى والله بالحمد أعلم

وطهارة القلب، ونزاهته من الأوصاف المذمومة، والإرادات السفلية، وخلوه وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه: هو كرسي هذا الشاهد، الذي يجلس عليه، ومقعده الذي يتمكن فيه. فحرام على قلب متلوث بالخبائث والأخلاق الرديئة والصفات الذميمة، متعلق بالمرادات السافلة: أن يقوم به هذا الشاهد، وأن يكون من أهله.

نزه فؤادك عن سوانا وائتنا ... فجنابنا حل لكل منزه

والصبر طلسم لكنز لقائنا ... من حلَّ ذا الطلسم فاز بكنزه

إذا طلعت شمس التوحيد، وباشرت جوانبها الأرواح. ونورها البصائر، تجلت بها ظلمات النفس والطبع. وتحركت بها الأرواح في طلب من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فسافر القلب في بيداء الأمر. ونزل منازل العبودية، منزلًا منزلًا. فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة، مقيم على معبود واحد، فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه، توقظه إذا رقد، وتذكره إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد، إن قام بقلبه شاهد من الربوبية والقيومية رأى أن الأمر كله لله. ليس لأحد معه من الأمر شيء: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر] ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر] ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون].

وإن قام بقلبه شاهد من الإلهية: رأى في ذلك الشاهد الأمر والنهي، والنبوات، والكتب والشرائع، والمحبة والرضا والكراهة، والبغض، والثواب والعقاب. وشاهد الأمر نازلًا ممن هو مستو على عرشه، وأعمال العباد صاعدة إليه، ومعروضة عليه. يجزي بالإحسان منها في هذه الدار وفي العقبى نضرة وسرورًا، ويقدم إلى ما لم يكن عن أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثورًا.

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة: رأى الوجود كله قائمًا بهذه الصفة. قد وسع من هي صفته كل شيء رحمة وعلمًا. وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه. فاستوى على عرشه برحمته لتسع كل شيء، كما وسع عرشه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهد العزة والكبرياء، والعظمة والجبروت فله شأن آخر.

وهكذا جميع شواهد الصفات. فما ذكرناه إنما هو أدنى تنبيه عليها. فالكشف والعيان والمشاهدة لا تتجاوز الشواهد ألبتة.

* * *

(٦١) منزلة الحياة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الحياة»

قال صاحب المنازل:

(باب الحياة) قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جدًّا. فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان. فأحياه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التي أحيا بها بدنه. وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له. إذ لا حياة للروح إلا بذلك. وإلا فهي في جملة الأموات. ولهذا وصف الله تعالى مَنْ عَدِم ذلك بالموت، فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل:٨٠] وسمى وحيه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة. وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر] فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم. وله المعيشة الضنك. وأما في الآخرة: فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته. فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل] وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضا والرزق الحسن وغير ذلك.

والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا.

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح فإنه ملكها. ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث. أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضًا تكون في الدور الثلاث. فالأبرار في النعيم هنا وهنالك. والفجار في الجحيم هنا وهناك، والفجار في الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل:٣٠] وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣] فذكر الله سبحانه وتعالى، ومحبته وطاعته، والإقبال عليه: ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته: كفيل بالحياة المنغصة، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة.

ارتواء العلماء

والحياة مراتب:

منها: حياة العلم من موت الجهل، فإن الجهل موت لأصحابه، كما قيل:

وفي الجهل - قبل الموت - موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... فليس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن. فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض. قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الروم:٥٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر] وشبههم - في موت قلوبهم - بأهل القبور. فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبورًا لها. فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة، وملزومها. فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له، كانت ميتة حقيقة. وليس هذا تشبيهًا لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب «الزهد من كلام لقمان»، أنه قال لابنه: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك. فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل القطر» وقال معاذ ابن جبل: «تعلموا العلم؛ فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة. وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء. يرفع الله به أقوامًا، فيجعلهم في

الخير قادة، وأئمة تُقتص آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم. ترغب الملائكة في خُلَّتهم، بأجنحتها تمسحهم. يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة. التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام. وبه يعرف الحلال من الحرام. وهو إمام العمل، والعمل تابع له. يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء» رواه الطبراني وابن عبد البر وغيرهما. وقد روي مرفوعًا إلى النبي ﷺ. والوقف أصح.

الهمم نابضات

ومنها: حياة الإرادة والهمة. وضعف الإرادة، والطلب: من ضعف حياة القلب. وكلما كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى. فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب. وسلامة القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وإرادته. فضعف الطلب وفتور الهمة: إما من نقصان الشعور والإحساس، وإما من وجود الآفة المضعفة للحياة. فقوة الشعور، وقوة الإرادة: دليل على قوة الحياة. وضعفها دليل على ضعفها. وكما أن علو الهمة وصدق الإرادة، والطلب من كمال الحياة: فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها. فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة. فعلى يقدر ذلك تكون الحياة الطيبة. وأخس الناس حياة أخسهم همة. وأضعفهم محبة وطلبًا، وحياة البهائم خير من حياته. كما قيل:

نهارك، يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والرّدى لك لازم

وتكدح فيما سوف تنكر غبّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

تسر بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما غرَّ باللذات - في النوم - حالم

والمقصود أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة. والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل، قالوا: هو حي القلب. وحياة القلب بدوام الذكر، وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملو ... ك، وأحبار سوء ورهبانها؟

وباعوا النفوس، ولم يربحوا ... ولم يغل في البيع أثمانها

فقــــد رتــــع القـــوم في جيفـــة   يبـــين لـــذي اللـــب خـــسرانا

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب. فحياة القلب: بدوام الذكر، والإنابة إلى الله، وترك الذنوب، والغفلة الجاثمة على القلب. والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه الحياة. ولايزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت. وعلامة موته:أنه لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا. كما قال عبد الله بن مسعود: «أتدرون من ميت القلب الذي قيل فيه:

لـيس مـن مـات فاسـتراح بميـت   إنـــما الميـــت ميـــت الأحيـــاء

قالوا: ومن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

والرجل: هو الذي يخاف موت قلبه، لا موت بدنه. إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم. ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية. وذلك من موت القلب والروح. فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام الذي يخيل كأنه حقيقة. فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالًا. كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لو أن الحياة الدنيا – من أولها إلى آخرها – أوتيها رجل واحد. ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره، ثم استيقظ، فإذا ليس في يده شيء» وقد قيل: «إن الموت موتان: موت إرادي، وموت طبيعي. فمن أمات نفسه موتًا إراديا كان موته الطبيعي حياة له» ومعنى هذا: أن الموت الإرادي: هو قمع الشهوات المردية، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسكين هوائجها المتلفة. فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد، ومعرفته، والاشتغال به. ويرى حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم: أخسر الخسران فأما إذا كانت الشهوات وافدة، واللذات مؤثرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة، فالقلب حينئذ: إما أن يكون أسيرًا ذليلًا، أو مهزومًا مُخْرَجًا عن وطنه ومستقره الذي لا قرار له إلا فيه، أو قتيلًا ميتًا وما لجرح به إيلام. وأحسن أحواله: أن يكون في حرب، يدال له فيها مرة، ويدال عليه مرة. فإذا مات العبد موته الطبيعي كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإماتة نفسه. فتكون حياته هاهنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار.

وهذا موضع لا يفهمه إلا ألباء الناس وعقلاؤهم، ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العلية، والنفوس الزكية الأبية.

الحياء حركة

ومن مراتب الحياة:

حياة الأخلاق، والصفات المحمودة، التي هي حياة راسخة للموصوف بها. فهو لا يتكلف الترقي في درجات الكمال، ولا يشق عليه. لاقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارقه ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسجيته. فحياة من قد طبع على الحياء والعفة والجود والسخاء،

والمروءة والصدق والوفاء ونحوها: أتم من حياة من يقهر نفسه، ويغالب طبعه، حتى يكون كذلك. فإن هذا بمنزلة من تعارضه أسباب الداء وهو يعالجها ويقهرها بأضدادها. وذلك بمنزلة من قد عوفي من ذلك.

وكلما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم. ولهذا كان خلق «الحياء» مشتقًّا من «الحياة» اسمًا وحقيقة. فأكمل الناس حياة: أكملهم حياء. ونقصان حياء المرء من نقصان حياته. فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح، فلا تستحي منها. فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك، فاستحيت منه. وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة. ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان. وحياة السخي أكمل من حياة البخيل. وحياة الفطن الذكي أكمل من حياة القدم البليد. ولهذا لما كان الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – أكمل الناس حياة حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تبلى أجسامهم – كانوا أكمل الناس في هذه الأخلاق. ثم الأمثل فالأمثل من أتباعهم.

فانظر الآن إلى حياة حلاَّف مهين هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم. وحياة جواد شجاع، بر عادل عفيف محسن – تجد الأول ميتًا بالنسبة إلى الثاني.

و«البسط» من أجلّ هذه الأخلاق، وأقواها في صفة الحياة، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب. وهي سعة الصدر، ودوام البشر، وحسن الخلق، والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه، والمزاح بالحق مع الصغير والكبير أحيانًا. وإجابة الدعوة ولين الجانب. حتى يظن كل واحد من أصحابه: أنه أحبهم إليه. وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجبًا، أو مستحبًّا أو مباحًا يعين عليهما.

ومن العباد من وفقه الله تعالى فنال حظًّا من هذا البسط النبوي الكريم وجعل الله انبساطهم مع الخلق رحمة لهم. كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩] فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه، ليقتدي بهم السالك، ويهتدي بهم الحيران، ويشفي بهم العليل، ويستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطبع والهوى. فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا. وينتفعون بكلماتهم إذا نطقوا. فإن حركتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله، وعلى أمر الله: جذبت قلوب الصادقين إليهم، فيهتدي بهم الحائر، ويسير بهم الواقف، ويستقيم بهم الحائد، ويقبل بهم المعرض، ويكمل بهم الناقص، ويرجع بهم الناكص، ويتقوى بهم الضعيف.

وهؤلاء هم خلفاء الرسل حقًّا، وهم أولو البصر واليقين، فجمعوا بين البصيرة والبصر. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة]، فنالوا إمامة الدين، بالصبر واليقين.

والعلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره، واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرسل، وورثة الأنبياء. وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره. فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصرًا على نفسه. فبينه وبين الأول ما بينهما. وعالم لم يستنر بنوره، ولا استنار به غيره. فهذا علمه وبال عليه، وبسطته للناس فتنة لهم، وبسطة الأول رحمة لهم.

كل ذلك و«سرائرهم مصونة» مستورة لم يكشفوها لمن انبسطوا إليه. وإن كان البسط يقتضي الإلف، واطلاع كل من المتباسطين على سر صاحبه. فإياك ثم إياك أن تطلع من باسطته على سرك مع الله، ولكن اجذبه وشوّقه، واحفظ وديعة الله عندك، لا تعرضها للاسترجاع.

لذة الوصول تدعو إلى استئناف السير

ومن مراتب الحياة: حياة الفرح والسرور، وقرة العين بالله. وهذه الحياة إنما تكون بعد الظفر بالمطلوب، الذي تقر به عين طالبه. فلا حياة نافعة له بدونه. وحول هذه الحياة يدندن الناس كلهم. وكلهم قد أخطأ طريقها. وسلك طرقًا لا تفضي إليها، بل تقطعه عنها، إلا أقل القليل.

فدار طلب الكل حول هذه الحياة. وحُرِمَها أكثرهم.

وسبب حرمانهم إياها: ضعف العقل والتمييز والبصيرة، وضعف الهمة والإرادة. فإن مادتها بصيرة وقَّادة، وهمة نقادة. والبصيرة كالبصر تكون عمى وعورًا وعمشًا ورمدًا، وتامة النور والضياء وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة في الأصل. وقد تحدث فيها بالعوارض الكسبية.

والمقصود: أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها مَنْ عقله مُسْبَى في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات ودينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات؟!

فهو في الشهوات منغمس، وفي الشبهات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلى المرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه في كل واد هائم. فلو أنه تجرد من نفسه، ورغب عن مشاركة أبناء جنسه، وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم، ومن سجن الهوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس، إلى طهارة القدس: لرأى الإلف الذي نشأ بنشأته، وزاد بزيادته، وقوى بقوته وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله قذى في عين بصيرته، وشجا في حلق إيمانه، ومرضًا مترامیا إلى هلاكه؟

فإن قلت: قد أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء. فهل يمكنك وصف طريقها، لأصل إلى شيء من أذواقها. فقد بان لي أن ما نحن فيه من الحياة حياة بهيمية. ربما زادت علينا فيها البهائم بخلوها من المنكرات والمنغصات وسلامة العاقبة؟

قلت: لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة، وطلب علمها ومعرفتها: لدليل على حياتك. وأنك لست من جملة الأموات.

فأول طريقها: أن تعرف الله، وتهتدي إليه طريقًا يوصلك إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة. فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية. ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة. ثم يقوم حارسًا على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه. فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها. فيفْدَي من أسرها. ويصير طليقًا فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه، ومحبته والإنابة إليه. ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه. إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرج من بين البيوت، لعلني ... أحدث عنك النفس في السر خاليا

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه. فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديا إليه. فيطالع سيرته ومبادئ أمره،وكيفية نزول الوحي عليه ويعرف صفاته، وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فُتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه، وما أريد بها. وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المذمومة، فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف. وشاهد حظه من الصفات والأفعال الممدوحة، فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكن من ذلك: انفتح في قلبه عين أخرى يشاهد بها صفات الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئي لعينه. فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بما يشاء وصعود الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبه ربًّا قاهرًا فوق عباده، آمرًا ناهيا، باعثًا لرسله، منزلًا لكتبه، معبودًا مطاعًا، لا شريك له، ولا مثيل، ولا عدل له، ليس لأحد معه من الأمر شيء، بل الأمر كله له. فيشهد ربه سبحانه قائمًا بالملك والتدبير. فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره. فيشهد قيام الكون كله به، وقيامه سبحانه بنفسه. فهو القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال. وهي «الحياة» التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والكلام، وسائر صفات الكمال. وصفة «القيومية» الصحيحة المصححة لجميع الأفعال. فالحي القيوم: من له كل صفة كمال. وهو الفعال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فتح له مشهد «القرب» و«المعية» فيشهده سبحانه معه، غير غائب عنه، قريبًا غير بعيد، مع كونه فوق سماواته على عرشه، بائنًا من خلقه، قائمًا بالصنع والتدبير، والخلق والأمر، فيحصل له - مع التعظيم والإجلال- الأنس بهذه الصفة. فيأنس به بعد أن كان مستوحشًا. ويقوى به بعد أن كان ضعيفًا، ويفرح به بعد أن كان حزينًا. ويجد بعد أن كان فاقدًا. فحينئذ يجد طعم قوله: «ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به. ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه. ولئن استعاذني لأعيذنه».

فأطيب الحياة على الإطلاق: حياة هذا العبد. فإنه محب محبوب، متقرب إلى ربه، وربه قريب منه. قد صار له حبيبه لفرط استيلائه على قلبه، ولهجه بذكره. وعكوف همته على مرضاته، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله. وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه. فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به. وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به.

فإن صعب عليك فهم هذا المعنى، وكون المحب الكامل المحبة يسمع ويبصر، ويبطش ويمشي بمحبوبه، وذاته غائبة عنه. فاضرب عنه صفحًا، وخلِّ هذا الشأن لأهله.

خل الهوى لأناس يعرفون به قد كابدو الحب حتى لان أصعبه

فإن السالك إلى ربه لاتزال همته عاكفة على أمرين: استفراغ القلب في صدق الحب، وبذل الجهد في امتثال الأمر. فلا يزال كذلك حتى يبدو على سره شواهد معرفته، وآثار صفاته وأسمائه. ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانًا، ويبدو أحيانًا. يبدو من عين الجود. ويتواري بحكم الفترة. والفترات أمر لازم للعبد. فكل عامل له شرَّة، ولكل شرَّة فترة. فأعلاها فترة الوحي، وهي للأنبياء، وفترة الحال الخاص للعارفين، وفترة الهمة للمريدين، وفترة العمل للعابدين. وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة، والتعرفات الإلهية، وتعريف قدر النعمة، وتجديد الشوق إليها، ومحض التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد، حتى تستقر، وينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غير قاطعة له. بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحًا وتنفيسًا عنه.

فهمة المحب إذا تعلقت روحه بحبيبه، عاكفًا على مزيد محبته، وأسباب قوتها. فهو يعمل على هذا. ثم يترقي منه إلى طلب محبة حبيبه له. فيعمل على حصول ذلك. ولا يعدم الطلب الأول، ولا يفارقه ألبتة. بل يندرج في هذا الطلب الثاني. فتتعلق همته بالأمرين جميعًا. فإنه إنما يحصل له منزلة: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» بهذا الأمر الثاني. وهو كونه محبوبًا لحبيبه. كما قال في الحديث: «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره..إلخ» فهو يتقرب إلى ربه، حفظًا لمحبته له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذ يشُدُّ مِئزر الجد في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب إليه. فقلبه: للمحبة والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء. ولسانه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه. وجوارحه: للطاعات. فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السير المفضي إلى هذه الغاية التي لا تنال إلا به. ولا يتوصل إليها إلا من هذا الباب، وهذه الطريق. وحينئذ تجمع في سيره جميع متفرقات السلوك: من الحضور، والهيبة، والمراقبة، ونفي الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحب يشرع - أولًا - في التقربات بالأعمال الظاهرة. وهي ظاهرة التقرب. ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب. وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقله وبدنه. ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان. فيعبد الله كأنه يراه، فيتقرب إليه حينئذ من باطنه بأعمال القلوب: من المحبة والإنابة، والتعظيم والإجلال والخشية. فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود في محبة حبيبه بلا تكلف. فيجود بروحه ونفسه. وأنفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالًا، لا تكلفًا، فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره وباطنه. وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط. فليدم على ذلك. وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام. فعساه أن يحظى بحال القرب.

ووراء هذا «القرب الباطن» أمر آخر أيضًا. وهو شيء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله رسوله ﷺ عن هذا المعنى. حيث يقول حاكيا عن ربه تبارك وتعالى: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا. ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا. ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» فيجد هذا المحب في باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيا.

فذكر من مراتب القرب ثلاثة، ونبه بها على ما دونها وما فوقها. فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعًا. فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع. فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعًا. فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني: أسرع المشي حينئذ إلى ربه. فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولة. وهاهنا منتهى الحديث، منبهًا على أنه إذا هرول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه. فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد

الجزاء، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر. أو إحالة له على المراتب المتقدمة. فكأنه قيل له: وقس على هذا. فعلى قدر ما تبذل منك متقربًا إلى ربك يتقرب إليك بأكثر منه. وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه. أي من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعماله: تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرب عبده إليه.

وليس القرب في هذه المراتب كلها قرب مسافة حسية، ولا مماسة، بل الرب تعالى فوق سماواته على عرشه، والعبد في الأرض.

وهذا الموضع هو سر السلوك، وحقيقة العبودية. وهو معنى الوصول الذي يدندن حوله القوم.

وملاك هذا الأمر: هو قصد التقرب أولًا، ثم التقرب ثانيا، ثم حال القرب ثالثًا. وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقة هذا الانبعاث: أن تفنى بمراده عن هواك، وبما منه عن حظك. بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك. وقد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جوزي على ذلك بقرب هو أضعافه. وعرفت أن أعلى أنواع التقرب تقرب العبد بجملته، بظاهره وباطنه، وبوجوده، إلى حبيبه. فمن فعل ذلك فقد تقرب بكله ولم تبق منه بقية لغير حبيبه. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية ... يجد السبيل بها إليه العذّل

وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطي أضعاف ما تقرب به. فما الظن بمن أعطي حال التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه، وجميع إرادته وهمته، وأقواله وأعماله؟

وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يجاد عليه، بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه، عوضًا عن كل شيء، جزاءً وفاقًا. فإن الجزاء من جنس العمل. وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق] ففرق بين الجزاءين كما ترى، وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه.

ومنها: أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قربه وكرامته.

ومنها: أن من بذل لله شيئًا أعاضه الله خيرًا منه.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة].

ومنها: قوله في الحديث القدسي: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

ومنها: قوله: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا» الحديث.

فالعبد لايزال رابحًا على ربه أفضل مما قدم له. وهذا المتقرب، بقلبه وروحه وعمله: يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة. بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته، كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها. بل أعظم من ذلك.

فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها. وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة. فكيف إن انصبغ القلب به، وصار حالًا ملازمًا لذاته؟ فالله المستعان.

فهذه الحياة: هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة. فمن فقدها ففقده لحياته الطبيعية أولى به.

هذه حياة الفتى فإن فقدت ... فقده للحياة أليق به

فلا عيش إلا عيش المحبين، الذي قرت أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعموا بحبه. ففي القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يلم شعثه بغير ذلك ألبتة. ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم، وآلام وحسرات. فإنه إن كان ذا همة عالية تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. فإن همته لا ترضى فيها بالدون وإن كان مهينًا خسيسًا فعيشه كعيش أخس الحيوانات. فلا تقر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

بل إن المعرض الصاد يعاقبه الله تعالى بمثل هذه الهموم والحسرات، كما قال الله سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨].

ووجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه المقرب المبعد. فليحذر القريب من الإبعاد والمتصل من الانفصال. فإن الحق جل جلاله غيور لا يرضى ممن عرفه ووجده حلاوة معرفته، واتصل قلبه بمحبته والأنس به، وتعلقت روحه بإرادة وجهه الأعلى - أن يكون له التفات إلى غيره ألبتة.

ومن غيرته سبحانه: حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. والله سبحانه يغار أشد الغيرة على عبده أن يتلفت إلى سواه. فإذا أذاقه حلاوة محبته، ولذة الشوق إليه، وأنس معرفته. ثم ساكن غيره باعده من قربه. وقطعه من وصله، وأوحش سره. وشتت قلبه. ونغص عيشه. وألبسه رداء الذل والصغار والهوان. فنادى عليه حاله، إن لم يصرح به قاله: هذا جزاء من تعوض عن وليه وإلهه وفاطره، ومن لا حياة له إلا به: بغيره وآثر غيره عليه. فاتخذ سواه حبيبًا ورضي بغيره أنيسًا، واتخذ سواه وليا. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف].

فإذا ضرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب، ومُلِيء من الهموم والغموم والأحزان، وبدل بالأنس وحشة، وبالعز ذلًا، وبالقناعة حرصًا، وبالقرب بعدًا وطردًا، وبالجمع شتاتًا وتفرقة - كان هذا بعض جزائه. فحينئذ تطرقه الطوارق والمؤلمات، وتعتريه وفود الأحزان والهموم بعد وفود المسرات.

وإذا أردت أن تعرف ما حل بك من بلاء الانفصال، فانظر أين يبيت قلبك إذا أخذت مضجعك؟ وإلى أين يطير إذا استيقظت من منامك؟

لا إله إلا الله! ما أشد غبن من باع أطيب الحياة في هذه الدار المتصلة بالحياة الطيبة هناك، والنعيم المقيم بالحياة المنغصة المنكدة المتصلة بالعذاب الأليم. والمدة ساعة من نهار، أو عشية أو ضحاها، أو يوم أو بعض يوم. فيه ربح الأبد أو خسارة الأبد.

الموت مرحلة وليس نهاية

ومن مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه. فإن من ورائه روحًا وريحانًا وراحة. نسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك. قال بعض العارفين: لتكن مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق إلى أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة. قال الله تعالى في هذه الحياة ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة].

ويكفي في طيب هذه الحياة: مرافقة الرفيق الأعلى، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد، الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلًا عن مخالطته وعشرته إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، في جوار الرب الرحمن الرحيم.

ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجسر يعبر منه إليها: لكفي به تحفة للمؤمن.

جزي الله عنا الموت خيرًا. فإنه ... أبر بنا من كل بر وألطف
يعجل تخليص النفوس من الأذى ... ويدني إلى الدار التي هي أشرف

فالاجتهاد في هذا العمر القصير، والمدة القليلة، والسعي والكدح، وتحمل الأثقال ، والتعب والمشقة: إنما هو لهذه الحياة. والعلوم والأعمال: وسيلة إليها. وهي يقظة. وما قبلها من الحياة

نوم. وهي عين، وما قبلها أثر. وهي حياة جامعة بين فقد المكروه، وحصول المحبوب في مقام الأنس، وحضرة القدس، حيث لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب. حيث الطمأنينة والراحة، والبهجة والسرور. حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها. لأنها في بلد لا عهد لنا به. ولا إلف بيننا وبين ساكنه. فالنفس لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زمانًا طويلًا تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد. وتستوحش إذا استشعرت مفارقته.

حصول العلم بهذه الحياة: إنما وصل إلينا بخبر إلهي، على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم ﷺ فقامت شواهدها في قلوب أهل الإيمان. حتى صارت لهم بمنزلة العيان. ففرت نفوسهم من هذا الظل الزائل، والخيال المضمحل، والعيش الفاني المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص، رغبة في هذه الحياة، وشوقًا إلى ذلك الملكوت،ووجدًا بهذا السرور، وطربًا على هذا الحد، واشتياقًا لهذا النسيم الوارد من محل النعيم المقيم.

ولعمر الله إن من سافر إلى بلد العدل والخِصْب، والأمن والسرور: صبر في طريقه على كل مشقة، وإعواز وجدب، وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم، وأجاب المنادي إذا نادى به، حي على الفلاح. وبذل نفسه في الوصول بَذْل المحب بالرضى والسماح، وواصل السير بالغدو والرواح. فحمد عند الوصول مسراه، وإنما يحمد المسافر السُّرَى عند الصباح.

عند الصباح يحمد القوم السري وفي الممات يحمد القوم اللقا

وما هذا والله بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير، الذي هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف:٣٥] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم] ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون].

فوا حسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على ما هما عليه، وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى.وما ذاك إلا بتوفيق مَنْ أزِمَة الأمور بيديه. ومنه ابتداء كل شيء وانتهاؤه إليه، أقعد نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلى هذه الدار، وجذب قلوب من سبقت لهم منه الحسنى. وأقامهم في الطريق، وسهل عليهم ركوب الأخطار. فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين. وعُقدت الغبرة وثار العجاج، فتواري عنه السائرون والمتخلفون. وسينجلي عن قريب، فيفوز العاملون، ويخسر المبطلون.

ومن طيب هذه الحياة ولذتها. قال النبي ﷺ: «ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا، وأن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، فإنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا. لما يرى من كرامة الله له» يعني ليقتل فيه مرة أخرى. وسمع بعض العارفين منشدًا ينشد :

إنـــــما العـــــيش في بهيمـــــة اللــــــ ذة، وهـــــو مـــــا يقولـــــه الفلـــــسفي

حكـــم كـــأس المنـــون: أن يتـــساوي في حـــــساها البليـــــد والألمعـــــي

ويـــصير الغبـــي تحـــت ثـــرى الأر ض كـــما صـــار تحتهـــا اللَّـــوذعي

فـــسل الأرض عنهـــا إن أزال الـــش كَّ والـــشبهة الـــسؤال الجـــلي

فقال: قاتله الله، ما أشد معاندته للدين والعقل! هذا نفس عدو الفطرة، والشريعة، والعقل والإيمان والحكمة. يا مسكين: أمن أجل أن الموت تساوى فيه الصالح والطالح، والعالم والجاهل، وصاروا جميعًا تحت أطباق الثرى: يجب أن يتساووا في العاقبة؟ أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد في الطريق؟ فلما بلغوا القصد نزل كل واحد في مكان كان معدًّا له، وتلقي بغير ما تُلُقي به رفيقه في الطريق. أما لكل قوم دار فأجلس كل واحد منهم حيث يليق به؟ وقوبل هذا بشيء وهذا بضده؟ أما قدم على الملك من جاءه بما يحبه، فأكرمه عليه، ومن جاءه بما يسخطه، فعاقبه عليه؟ أما قدم ركب المدينة، فنزل بعضهم في قصورها وبساتينها وأماكنها الفاضلة. ونزل قوم على قوارع الطريق بين الكلاب؟ أما قدم اثنان من بطن الأم الوحدة،فصار هذا إلى المُلك، وهذا إلى الأسر والعناء؟

وقولك «سل الأرض عنها» أما إنا قد سألناها، فأخبرتنا: أنها قد ضمت أجسادهم وجثثهم وأوصالهم، لا كفرهم وإيمانهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حلمهم وسفههم، ولا طاعتهم ومعصيتهم، ولا يقينهم وشكهم، ولا توحيدهم وشركهم، ولا جورهم وعدلهم، ولا علمهم وجهلهم، فأخبرتنا عن هذه الجثث البالية والأبدان المتلاشية، والأوصال المتمزقة، وقالت: هذا خبر ما عندي.

وأما خبر تلك الأرواح وما صارت إليه فسلوا عنها كتب رب العالمين، ورسله الصادقين، وخلفاءهم الوارثين. سلوا القرآن، فعنده الخبر اليقين. وسلوا من جاء به، فهو بذلك أعرف العارفين. وسلوا العلم والإيمان، فهما الشاهدان المقبولان. وسلوا العقول والفطر، فعندها حقيقة الخبر: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية] تعالى الله أحكم الحاكمين عن هذا الظن والحسبان، الذي لا يليق إلا بأجهل الجاهلين.

ثم قال : الناظر في هذا الباب رجلان. رجل ينظر إلى الأشياء، ورجل ينظر في الأشياء. فالأول: يحار فيها. فإن صورها وأشكالها وتخاطيطها تستفرغ ذهنه وحسه، وتبدد فكره وقلبه. فنظره إليها بعين حسه، لا يفيده منها ثمرة الاعتبار. ولا زبدة الاختبار. لأنه لما فقد الاعتبار أولًا، فإنه فقد الاختيار ثانيا.

وأما الناظر في الأشياء: فإن نظره يبعثه على العبور من صورها إلى حقائقها والمراد بها. وما اقتضى وجودها من الحكمة البالغة، والعلم التام. فيفيده هذا النظر تمييز مراتبها، ومعرفة نافعها من ضارها، وصحيحها من سقيمها، وباقيها من فانيها، وقشرها من لُبِّها. ويميز بين الوسيلة والغاية، وبين وسيلة الشيء ووسيلة ضده. فيعرف حينئذ أن الدنيا قشر والآخرة لُبُّه وأن الدنيا محل الزرع، والآخرة وقت الحصاد. وأن الدنيا معبر وممر. والآخرة دار مستقر.

وإذا عرف أن الدنيا طريق وممر: كان حريا بتهيئة الزاد لقراره، ويعلم حينئذ أنه لم ينشأ في هذه الدار للاستيطان والخلود. ولكن للجواز إلى مكان آخر، هو المنزل والمتبوأ. وأن الإنسان دعي إلى ذلك بكل شريعة، وعلى لسان كل نبي، وبكل إشارة ودليل. ونُصب له على ذلك علم، وضرب لأجله كل مثل. ونبه عليه بنشأته الأولى ومبادئه، وسائر أحواله، طعامه وشرابه، وأرضه وسمائه، بحيث أزيلت عنه الشبهة. وأوضحت له المحجة، وأقيمت عليه الحجة. وأعذر إليه غاية الإعذار، وأمهل أتم الإمهال. فاستبان لذي العقل الصحيح والفطرة السليمة أن الظعن عن هذا المكان ضروري، والانتقال عنه حق لا مرية فيه. وأن له محلًا اخر له قد أنشئ ولأجله قد خُلق. وله هُيئ. فمصيره إليه. وقدومه بلا ريب عليه. وأن داره هذه منزل عبور، لا منزل قرار.

وبالجملة: مَنْ نظر في الموجودات، ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها. وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة. وكالظل بالنسبة إلى الشخص. وسمعها كلها تنادي بما نادي به ربها وخالقها وفاطرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان] وتنادي بلسان الحال؛ بما نادي به ربها بصريح المقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس] وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد] ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها. فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد].

وسمع بعض العارفين منشدًا ينشد عن بعض الزنادقة عند موته وهو محمد بن زكريا الرازي المتطبب:

لعمري ما أدري وقد أذن البلى بعاجل ترحالي إلى أين ترحالي؟

وأين محل الروح بعد خروجه عن الهيكل المنحل والجسد البالي؟

فقال: وما علينا من جهله. إذا لم يدر أين ترحاله؟ ولكننا ندري إلى أين ترحالنا وترحاله. أما ترحاله: فإلى دار الأشقياء، ومحل المنكرين لقدرة الله وحكمته، والمكذبين بما اتفقت عليه كلمة المرسلين عن ربهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد] ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة].

وأما ترحالنا، أيها المسلمون، المصدقون بلقاء ربهم، وكتبه ورسله فإلى نعيم دائم، وخلود متصل، ومقام كريم، وجنة عرضها السماوات والأرض في جوار رب العالمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، الأول بالحق، الموجود بالضرورة، المعروف بالفطرة، الذي أقرت به العقول، ودلت عليه كل الموجودات وشهدت بوحدانيته وربوبيته جميع المخلوقات، وأقرت بها الفطر. المشهود وجوده وقيوميته بكل حركة وسكون، بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون. الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة من أنواع النباتات، وبث به في الأرض جميع الحيوانات ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا﴾ [النمل:٦١] الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه. ويكشف السوء ويفرج الكربات. ويقيل العثرات. الذي يهدي خلقه في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بُشرًا بين يدي رحمته، فيحيي الأرض بوابل القطر. الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزق من في السماوات والأرض من خلقه وعبيده. الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة. ويخرج الحي من الميت. ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ [المؤمنون:٨٨] ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان] المستعان به عن كل نائبة وفادحة، والمعهود منه كل بر وكرامة. الذي عنت له الوجوه،وخشعت له الأصوات، وسبَّحت بحمده الأرض والسماوات، وجميع الموجودات. الذي لا تسكن الأرواح إلا بحبه، ولا تطمئن إلا بذكره، ولا تزكو العقول إلا بمعرفته، ولا يدرك النجاح إلا بتوفيقه، ولا تحيا القلوب إلا بنسيم لطفه وقربه، ولا يقع أمر

إلا بإذنه، ولا يهتدي ضال إلا بهدايته، ولا يستقيم ذو أود إلا بتقويمه، ولا يفهم أحد إلا بتفهيمه، ولا يتخلص من مكروه إلا برحمته، ولا يحفظ شيء إلا بكلاءته، ولا يفتتح أمر إلا باسمه، ولا يتم إلا بحمده، ولا يدرك مأمول إلا بتيسيره، ولا تنال سعادة إلا بطاعته، ولا حياة إلا بذكره ومحبته ومعرفته،ولا طابت الجنة إلا بسماع خطابه ورؤيته. الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأوسع كل مخلوق فضلًا وبرًّا.

فهو الإله الحق، والرب الحق والملك الحق، والمنفرد بالكمال المطلق من كل الوجوه. المبرأ عن النقائص والعيوب من كل الوجوه. لا يبلغ المثنون وإن استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء ثناء عليه، بل ثناؤه أعظم من ذلك فهو كما أثنى على نفسه. هذا الجار.

وأما الدار: فلا تعلم نفس حسنها وبهاءها، وسعتها ونعيمها، وبهجتها وروحها وراحتها. فيها ما لا عين رأيت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر. فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. فهي الجامعة لجميع أنواع الأفراح والمسرات، الخالية من جميع المنكدات والمنغصات، ريحانة تهتز، وقصر مشيد، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة.

فترحالنا أيها الصادقون المصدقون إلى هذه الدار بإذن ربنا وتوفيقه وإحسانه.

وترحال الكاذبين إلى الدار التي أعدت لمن كفر بالله ولقائه، وكتبه ورسله.

ولن يجمع الله بين الموحدين له الطالبين لمرضاته، الساعين في طاعته، الدائبين في خدمته، المجاهدين في سبيله وبين الملحدين، الساعين في مساخطه، الدائبين في معصيته، المستفرغين جهدهم في أهوائهم وشهواتهم، في دار واحدة، إلا على سبيل الجواز والعبور. كما جمع بينهما في هذه الدنيا. ويجمع بينهم في موقف القيامة. فحاشاه من هذا الظن السيئ الذي لا يليق بكماله وحكمته.

وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، وأتم وأطيب. وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة. وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخرة. فليس العمل على الطلل، إنما الشأن في الساكن. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة].

وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم. فما الظن بحياة الرسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل ما شاء:

فالعيش نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيال ساري

فللرسل والشهداء والصدِّيقين من هذه الحياة التي هي يقظة من نوم الدنيا أكملها وأتمها.

وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها. والله المستعان.

التمام هنالك، الوفاء ثَمَّ

ثم من مراتب الحياة:

الحياةالدائمة الباقية بعد طَي هذا العالم. وذهاب الدنيا وأهلها في دار الحيوان. وهي الحياة التي شمر إليها المشمرون، وسابق إليها المتسابقون، ونافس فيها المتنافسون. وهي التي أجرينا الكلام إليها. ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها. وهي التي يقول من فاته الاستعداد لها: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر] وهي التي قال الله عز وجل فيها: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت].

والحياة المتقدمة كالنوم بالنسبة إليها. وكل ما تقدم من وصف السير ومنازله، وأحوال السائرين، وعبوديتهم الظاهرة والباطنة فوسيلة إلى هذه الحياة. وإنما الحياة الدنيا، بالنسبة إليها، كما قال النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم ترجع؟».

وكما قيل: تنفست الآخرة. فكانت الدنيا نفسًا من أنفاسها. فأصاب أهل السعادة نفس نعيمها. فهم على هذا النفس يعملون. وأصاب أهل الشقاوة نفس عذابها. فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياة طيبة. فما الظن بحياتهم في البرزخ، وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها؟ فما الظن بحياتهم في دار النعيم المقيم الذي لا يزول، وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بكرة وعشيا ويسمعون خطابه؟

فإن قلت: ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التي لا خطر لها، وما الذي زهدها فيها؟ وما سبب رغبتها في الحياة الفانية المضمحلة، التي هي كالخيال والمنام؟ إفساد في تصورها وشعورها؟ أم تكذيب بتلك الحياة؟ أم لآفة في العقل، وعمي هناك؟ أم إيثار للحاضر المشهود بالعيان على الغائب المعلوم بالإيمان؟

قيل: بل ذلك لمجموع أمور مركبة من ذلك كله.

وأقوى الأسباب في ذلك: ضعف الإيمان. فإن الإيمان هو روح الأعمال. وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها. وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار

صاحبه وانتهاؤه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة].

وبالجملة: فإذا قوي الإيمان قوي الشوق إلى هذه الحياة، واشتد طلب صاحبه لها.

السبب الثاني: جشوم الغفلة على القلب. فإن الغفلة نوم القلب. ولهذا تجد كثيرًا من الأيقاظ في الحسن نيامًا في الواقع. فتحسبهم أيقاظًا وهم رقود، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن. وكمال هذه الحياة كان لنبينا ﷺ، ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منهما.

فالغفلة واليقظة يكونان في الحس والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن ونائمه. وكما أن يقظة الحس على نوعين، فكذلك يقظة القلب على نوعين:

فالنوع الأول من يقظة الحس: أن صاحبها ينفذ في الأمور الحسية. ويتوغل فيها بكسبه وفطانته، واحتياله وحسن تأتيه.

والنوع الثاني: أن يقبل على نفسه وقلبه وذاته. فيعتني بتحصيل كماله، فيلحظ عوالي الأمور وسفاسفها. فيؤثر الأعلى على الأدنى. ويقدم خير الخيرين بتفويت أدناهما. ويرتكب أخف الشرين خشية حصول أقواهما. ويتحلي بمكارم الأخلاق ومعالي الشيم. فيكون ظاهره جميلًا، وباطنه أجمل من ظاهره. وسريرته خيرًا من علانيته. فيزاحم أصحاب المعالي عليها كما يتزاحم أهل الدينار والدرهم عليهما. فبهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منهما.

أحدهما: يقظة تبعثه على اقتباس الحياة الدائمة الباقية، التي لا خطر لها، من هذه الحياة الزائلة الفانية، التي لا قيمة لها.

فإن قلت: مَثّل لي، كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟ فإني لا أفهمه.

قلت: وهذا أيضًا من نوم القلب، بل من موته. وهل تقتبس الحياة الدائمة إلا من هذه الحياة الزائلة؟ وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء. فيتقد الثاني ويضيء غاية الإضاءة، ويتصل ضوءه، وينطفئ الأول. والمقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة: إنما ينتقل من دار منقطعة إلى دار باقية. وقد توسط الموت بين الدارين. فهو قنطرة لا يعبر إلى تلك الدار إلا عليها، وباب لا يدخل إليها إلا منه. فهما حياتان في دارين بينهما موت؛ وكما أن نور تلك الدار مقتبس من نور هذه الدار، فحياتها كذلك مقتبسة من حياتها، فعلى قدر نور الإيمان في هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار. وعلى قدر حياته في هذه الدار تكون حياته هناك.

نعم هذا النور والحياة، الذي يقتبس منه ذلك النور والحياة، لا ينقطع. بل يضيء للعبد في البرزخ، وفي موقف القيامة، وعلى الصراط. فلا يفارقه إلى دار الحيوان ، يطفأ نور الشمس وهذا النور لا يطفأ. وتبطل الحياة المحسوسة وهذه الحياة لا تبطل. هذا أحد نوعي يقظة القلب.

النوع الثاني: يقظة تبعث على حياة، لا تدركها العبارة، ولا ينالها التوهم، ولا يطابق فيها اللفظ لمعناه ألبتة. والذي يشار به إليها: حياة المحب مع حبيبه، الذي لا قوام لقلبه وروحه وحياته إلا به ولا غنى له عنه طرفة عين. ولا قرة لعينه، ولا طمأنينة لقلبه، ولا سكون لروحه إلا به. فهو أحوج إليه من سمعه وبصره وقوته. وعذاب حجابه عنه: أعظم من العذاب الآخر، كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب: أعظم من النعيم بالأكل والشرب، والتمتع بالحور العين، فهكذا عذاب الحجاب: أعظم من عذاب الجحيم. ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦] فالحسنى الجنة. والزيادة: رؤية وجهه الكريم في جنات عدن. وجمع لأعدائه بين العذابين في قوله : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾ [المطففين].

والمقصود: أن الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة، وهي حجاب عليه. فإن كشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغال بما لا يفيد. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاصٍ وذنوب صغار تبعده عن الله. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب كبائر توجب مقت الرب تعالى له، وغضبه ولعنته. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه. ولا تجدي عليه شيئًا. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية. تتضمن الكذب على الله ورسوله. والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول. فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب، يقدح في أصول الإيمان الخمس: وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقاؤه. فلغلظ حجابه وكثافته، وظلمته وسواده لا يرى حقائق الإيمان ويتمكن منه الشيطان، يعده ويمنيه، والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهي. وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان، فأسره وسجنه، إن لم يهلكه. وتولى تدبير المملكة واستخدم جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التي جرى عليها العمل. وأغلق باب اليقظة. وأقام عليها أبواب الغفلة.وقال: إياك أن تؤتي من قبلك. واتخذ حاجبًا من الهوى، وقال: إياك أن تمكن أحدًا يدخل على إلا معك. فأمر هذه المملكة قد صار إليك وإلى البواب. فيا بواب الغفلة، ويا حاجب الهوى ليلزم كل منكما ثغره. فإن أخليتما فسد أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شر الخزي والهوان. ولا نفرح بهذه المدينة أبدًا.

فلا إله إلا الله! إذا اجتمعت على القلب هذه العساكر، مع رقة الإيمان، وقلة الأعوان والإعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط في سلك أبناء الزمان، وطول الأمل المفسد للإنسان إن آثر العاجل الحاضر على الغائب الموعود به بعد طي هذه الأكوان، فالله المستعان وعليه التكلان.

ولما كان كل حيوان متنفسًا، فإن النفس موجب الحياة وعلامتها: كانت أنفاس الحياة خمسة أنفاس: نفس الخوف. ومصدره: مطالعة الوعيد، وما أعد الله لمن آثر الدنيا على الآخرة. والمخلوق على الخالق، والهوى على الهدى، والغي على الرشاد.

ونفس الرجاء. ومصدره: مطالعة الوعد، وحسن الظن بالرب تعالى. وما الله أعد لمن آثر الله ورسوله، والدار الآخرة، وحكم الهدى على الهوى، والوحي على الآراء،والسنة على البدعة، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه على عوائد الخلق.

ونفس بالمحبة. مصدره: مطالعة الأسماء والصفات، ومشاهدة النعماء والآلاء.

فإذا ذكر ذنوبه: تنفس الخوف. وإذا ذكر رحمة ربه، وسعة مغفرته وعفوه: تنفس بالرجاء وإذا ذكر جماله وجلاله وكماله وإحسانه وإنعامه: تنفس بالحب. فالنفس الصادر عن هذه الملاحظة والمطالعة: أشرف أنفاس العبد على الإطلاق. فأين نفس المشتاق المحب الصادق إلى نفس الخائف الراجي؟ ولكن لا يحصل له هذا النفس إلا بتحصيل ذينك النفسين، فإن أحدهما ثمرة تركه للمخالفات. والثاني: ثمرة فعله للطاعات. فمن هذين النفسين يصل إلى النفس الثالث.

ثم نفس الاضطرار، وذلك لانقطاع أمله مما سوى الله. فيضطر حينئذ بقلبه وروحه ونفسه وبدنه إلى ربه ضرورة تامة. بحيث يجد في كل منبت شعرة منه فاقة تامة إلى ربه ومعبوده فهذا النفس نفس مضطر إلى ما لا غنى له عنه طرفة عين. وضرورته إليه من جهة كونه ربه، وخالقه وفاطره وناصره، وحافظه ومعينه ورازقه، وهاديه ومعافيه، والقائم بجميع مصالحه ومن جهة كونه: معبوده وإلهه، وحبيبه الذي لا تكمل حياته ولا تنفع إلا بأن يكون هو وحده أحب شيء إليه. وأشوق شيء إليه.

فإذا علت هذه الأنفاس: حصل له القرب من ربه والأنس به، والفرح به، وبالخلع التي خلعها ربه على قلبه وروحه، مما لا يقوم لبعضه ممالك الدنيا بحذافيرها، فحينئذ يتنفس نفسًا آخر يقال له: نفس الافتخار، يجد به من التفريج والترويح والراحة والانشراح ما يشبه من بعض الوجوه بنفس من جعل في عنقه حُبل ليخنق به حتى يموت. ثم كشف عنه وقد حبس نفسه.

فتنفس نفس من أعيدت عليه حياته. وتخلص من أسباب الموت.

فإن قلت: ما للعبد والافتخار؟ وأين العبودية من نفس الافتخار؟

قلنا: لا نريد بذلك أن العبد يفتخر بذلك. ويختال على بني جنسه. بل هو فرح وسرور لا يمكن دفعه عن نفسه بما فتح عليه ربه. ومنحه إياه، وخصه به. وأول ما فرح به العبد: فضل ربه

عليه. فإنه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. ويحب الفرح بذلك. لأنه من الشكر. ومن لا يفرح بنعمة المنعم لا يعد شكورًا. فهو افتخار بما هو محض منة الله ونعمته على عبده، لا افتخار بما من العبد. فهذا هو الذي ينافي العبودية لا ذاك.

وهنا سر لطيف. وهو أن هذا النفس يفخر على أنفاسه التي ليست كذلك. كما تفخر الحياة على الموت. والعلم على الجهل. والسمع على الصمم، والبصر على العمى. فيكون الافتخار للنفس على النفس. لا للمتنفس على الناس . والله أعلم.

* * *

(٦٢) منزلة المعرفة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «المعرفة»

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣].

وقد تكلموا على «المعرفة» بآثارها وشواهدها. فقال بعضهم: من إمارات المعرفة بالله: حصول الهيبة منه، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته.

وقال أيضا: المعرفة توجب السكون. فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته.

وقال لي بعض أصحابنا: ما علاقة المعرفة التي يشيرون إليها؟ فقلت له: أنس القلب بالله.

قال لي: علامتها أن يحس بقرب قلبه من الله. فيجده قريبًا منه.

وقال أحمد بن عاصم: من كان بالله أعرف: كان له أخوف. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] وقول النبي ﷺ : «أنا أعرفكم بالله. وأشدكم له خشية».

وقال آخر: من عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها.

وقال غيره: من عرف الله تعالى اتسع عليه كل ضيق.

ولا تنافي بين هذين الأمرين. فإنه يضيق عليه كل مكان لا يساعد فيه على شأنه ومطلوبه. ويتسع عليه ما ضاق على غيره. لأنه ليس فيه، ولا هو مساكن له بقلبه. فقلبه غير محبوس فيه.

والأول: في بداية المعرفة. والثاني: في نهايتها التي يصل إليها العبد.

وقال آخر: من عرف الله تعالى صفا له العيش. فطابت له الحياة، وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين. وأنس بالله.

وقال غيره: من عرف الله قرت عينه بالله. وقرت عينه بالموت. وقرت به كل عين. ومن لم يعرف الله يقع قلبه على الدنيا حسرات. ومن عرف الله لم يبق له رغبة فيما سواه. ومن ادعى معرفة الله وهو راغب في غيره : كذبت رغبته معرفته. ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به، وخافه ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه، وأَجَلَّه وعظمه على قدر معرفته به.

ومن علامات المعرفة: أن يبدو لك الشاهد، وتفنى الشواهد، وتنحل العلائق، وتنقطع العوائق. وتجلس بين يدي الرب تعالى، وتقوم وتضطجع على التأهب للقائه، كما يجلس الذي شدّ

أحماله وأزمع السفر على التأهب له. ويقوم على ذلك ويضطجع عليه. كما ينزل المسافر في المنزل، فهو قائم وجالس ومضطجع على التأهب.

وقيل للجنيد: إن أقواما يدَّعون المعرفة، يقولون: إنهم يصلون بترك الحركات من باب البر والتقوى؟ فقال الجنيد: هذا قول أقوام تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالًا من الذي يقول هذا. إن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. وإلى الله رجعوا فيها. ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بيني وبينها.

ومن علامات العارف :أنه لا يطالب ولا يخاصم، ولا يعاتب، ولا يرى له على أحد فضلًا. ولا يرى له على أحد حقًّا.

ومن علاماته: أنه لا يأسف على فائت. ولا يفرح بآت؛ لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال. لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال. وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفًا حتى يكون كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب. وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاء على نفسه، وثناء على ربه. وهذا من أحسن الكلام. فإنه يدل على معرفته بنفسه، وعيوبه وآفاته، وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله، فهو شديد الازدراء على نفسه، لهج بالثناء على ربه.

وقال آخر: لا يكون العارف عارفًا حتى لو أعطي ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفه عين. وهذا يحتاج إلى شرح. فإن ما هو دون ذلك يشغل القلب، لكن يكون اشتغاله بغير الله لله. فذلك اشتغال به سبحانه، لأنه اشتغل بغيره لأجله لم يشتغل عنه.

ومن علاماته: أنه مستأنس بربه، مستوحش ممن يقطعه عنه. ولهذا قيل: العارف من أنس بالله، فأوحشه من الخلق، وافتقر إلى الله فأغناه عنهم. وذل لله فأعزه فيهم، وتواضع لله فرفعه بينهم. واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

قيل: والعارف يتلون بتلون أقسام العبودية. فبينا تراه مصليا إذ رأيته ذاكرًا، أو قارئًا، أو معلمًا، أومجاهدًا، أو حاجًّا، أو مساعدًا للضعيف، أو مغيثًا للملهوف . فيضرب في كل غنيمة من الغنائم بسهم. فهو مع المتعلمين متعلم. ومع الغزاة غازٍ، ومع المصلين مصلٍّ، ومع المتصدقين متصدق. فهو ينتقل في منازل العبودية من عبودية إلى عبودية، وهو مقيم على معبود واحد. لا ينتقل في منازل العبودية إلى غيره.

وقال يحيى بن معاذ: العارف كائن بائن. وهذا يفسر على وجوه:

منها: أنه كائن مع الخلق بظاهره، بائن عنهم بسره وقلبه.

ومنها: أنه كائن مع أبناء الآخرة، بائن عن أبناء الدنيا.

ومنها: أنه كائن مع الله بموافقته. بائن عن الناس في مخالفته.

وقيل: إن من علامة العارف: «أن لا يعتقد باطنًا من العلم ينقصه عليه ظاهر من الحكم. ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله».

وهذا من أحسن الكلام الذي قيل في المعرفة.

قوله: «باطن العلم الذي ينقضه ظاهر الحكم» فإنه يشير به إلى ما عليه المنحرفون، ممن ينسب إلى السلوك، فإنهم يقع لهم أذواق ومواجيد، وواردات تخالف الحكم الشرعي. وتكون تلك معلومة لهم لا يمكنهم جحدها. فيعتقدونها ويتركون بها ظاهر الحكم. وهذا كثير جدا. وهو الذي انتقد أئمة الطريق على هؤلاء. وصاحوا بهم من كل ناحية. وبدعوهم وضللوهم به.

قوله: «ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله» كثرة النعم تطغي العبد، وتحمله على أن يصرفها في وجوهها وغير وجوهها. وهي تدعو إلى أن يتناول العبد بها ما حل وما لا يحل، وأكثر المنعم عليهم لا يقصرون في صرف النعمة على القدر الحلال، بل يتعداه إلى غيره، وتسول له نفسه أن معرفته بالله ترد عليه ما انتهبته منهم أيدي الشهوات والمخالفات. ويقول: العارف لا تضره الذنوب، كما تضر الجاهل. وربما يسول له أن ذنوبه خير من طاعات الجهال. وهذا من أعظم المكر. والأمر بضد ذلك. فيحتمل من الجاهل ما لا يحتمل من العارف وإذا عوقب الجاهل ضعفا عوقب العارف ضعفين. وقد دل على هذا شرع الله. قال تعالى في نساء النبي: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] فإذا أكملت النعمة على العبد، فقابلها بالإساءة والعصيان: كانت عقوبته أعظم. فدرجته أعلى وعقوبته أشد.

وقيل: مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر. ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة. ومن الكبر إلى التواضع. ومن سوء الطوية إلى النصيحة.

نثبت صفات الله تعالى بلا تأويل ولا تشبيه

وقال شيخ الإسلام الهروي:

«المعرفة: معرفة الصفات التي وردت أساميها بالرسالة، وظهرت شواهدها في الصنعة. وهي على أربعة أركان: إثبات الصفات باسمها من غير تشبيه، ونفي التشبيه عنها من غير تعطيل، والإياس من إدراك كنهها وابتغاء تأويلها، مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات».

وهذا من جيد الكلام، ويدل على علو كعب الهروي.

وذلك أنه لا يستقر للعبد قدم في المعرفة بل ولا في الإيمان حتى يؤمن بصفات الرب جل

جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه. فالإيمان بالصفات وَتَعرُّفها: هو أساس الإسلام، والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان. وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به. وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر. فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فُصِّلَت] فأخبر سبحانه: أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به. وأنه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظانين به ظن السوء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح] ولم يجئ مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه، وجحد صفاته وإنكار حقائق أسمائه: من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه: حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به. وهو شر من الشرك. فالمعطل شر من المشرك. فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك. فالمعطلون أعداء الرسل بالذات. بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل. فإنه لولا تعطيل كماله أو بعضه وظن السوء به: لما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات] أي فما ظنكم به: أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟

أظننتم أنه محتاج إلى شركاء يعينونه كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاسٍ. فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟ أم ذليل، فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلة، ويتعزز به من الذلة؟ أم يحتاج إلى الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علوًا كبيرًا.

والمقصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه. فلا تجد معطلًا إلا وشركه على حسب تعطيله، فمستقل ومستكثر.

معرفة الصفات.. روح السلوك

والرسل من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أرسلوا بالدعوة إلى الله.

وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول، فعرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفًا مفُصلًا، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه. وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم

ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب عفوه، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي. يؤتي الحكمة من يشاء. مالك الملك. يؤتي الملك من يشاء. وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء. بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. كل يوم هو في شأن، يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويفك عانيا، وينصر مظلومًا، ويقصم ظالمًا، ويرحم مسكينًا. ويغيث ملهوفًا. ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها. ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره، فأزمة الأمور كلها بيده، ومدار الممالك كلها عليه. وهذا مقصود الدعوة، وزبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرسله وأتباعهم. وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول. وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار. وما قبل ذلك من الحساب والحوض والميزان والصراط.

فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده لها: هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته. وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا ومثير هممهم إذا قصروا. فإن سيرهم إنما هو على الشواهد. فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له. وأعظم الشواهد: صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم. وذلك هو العلم الذي رفع لهم في السير فشمروا إليه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «من رأى رسول الله ﷺ فقد رآه غاديا رائحًا. لم يضع لبنة على لبنة، ولكن رفع له علم فشمر إليه» ولايزال العبد في التواني والفتور والكسل، حتى يرفع الله عز وجل له بفضله ومنه علمًا يشاهده بقلبه، فيشمر إليه، ويعمل عليه.

فإن عطلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأسبل دونها حجاب الطرد، وتخلفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القدر: أن اقعدي مع القاعدين: فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه: هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه، وتخافه وترجوه وتشتاق إليه. وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته. فإذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها بعد ذلك ما هو مشروط بالمعرفة. وملزم لها. إذ وجود الملزم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه: ممتنع.

فحقيقة المحبة، والإنابة والتوكل، ومقام الإحسان ممتنع على المعطل كل الامتناع، إذ كيف تُأَلِّهْ القلوب من لا يسمع كلامها. ولا يرى مكانها. ولا يحبُّ ولا يحَبَّ، ولا يقوم به فعل ألبتة،

ولا يتكلم ولا يكلم. ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء. ولا يقوم به رأفة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة ، ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها؟

فكيف يتصور على ذلك،ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم. وهو مستو على عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تُألّهْ القلوب من لا يحب ولا يُحب، ولا يرضى ولا يغضب، ولا يفرح ولا يضحك؟

فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، والشوق إلى لقائه، وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه! فلو رآها أهلًا لذلك لمنَّ عليها به. وأكرمها به. إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده. والله أعلم حيث يجعل كرامته. ويضع نعمته: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣] ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزُّخرُف] وليس جحودهم على صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه في الحقيقة تنزيهًا. وإنما هو حجاب ضرب عليهم، فظنوه تنزيهًا. كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها. وزين لهم سوء أعمالهم، فرأوها حسنة.

وهذه الصفات دل عليها الوحي الذي جاء من عند الله على لسان رسوله. والحس الذي شاهد به البصير آثار الصنعة. فاستدل بها على صفات صانعها. والعقل الذي طابت حياته بزرع الفكر، والقلب الذي يحيا بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار.

فأما الرسالة: فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتًا مفصلًا على وجه أزال الشبهة. وكشف الغطاء. وحَصَّل العلم اليقيني. ورفع الشك والريب فثلجت له الصدور، واطمأنت به القلوب. واستقر به الإيمان في نصابه. ففصلت الرسالة الصفات والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي.

وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ، وأبعده من الإجمال والاحتمال، وأمنعه من قبول التأويل. وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره. بل أبعد منه لوجوه كثيرة. ذكرتها في كتاب «الصواعق المرسلة، على الجهمية والمعطلة» بل تأويل آيات الصفات بما يخرجها عن حقائقها كتأويل آيات الأمر والنهي سواء. فالباب كله باب واحد، ومصدره واحد، ومقصوده واحد، وهو إثبات حقائقه. والإيمان بها.

وكذلك سطا على تأويل آيات المعاد قوم، وقالوا: فعلنا فيها كفعل المتكلمين في آيات

الصفات. بل نحن أعذر. فإن اشتمال الكتب الإلهية على الصفات والعلو وقيام الأفعال: أعظم من نصوص المعاد للأبدان بكثير. فإذا ساغ لكم تأويلها، فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد؟

وكذلك سطا قوم آخرون على تأويل آيات الأمر والنهي، وقالوا: فعلنا فيها كفعل أولئك في آيات الصفات، مع كثرتها وتنوعها. وآيات الأحكام لا تبلغ زيادة على خمسمائة آية.

قالوا: وما يظن أنه معارض من العقليات لنصوص الصفات. فعندنا معارض عقلي لنصوص المعاد، من جنسه أو أقوى منه.

وقال متأولو آيات الأحكام على خلاف حقائقها وظواهرها: الذي سوغ لنا هذا التأويل القواعد التي اصطلحتموها لنا.وجعلتموها أصلًا نرجع إليه. فلما طردناها كان طردها: أن الله ما تكلم بشيء قط، ولا يتكلم، ولا يأمر ولا ينهى ولا له صفة تقوم به. ولا يفعل شيئًا. وطرد هذا الأصل: لزوم تأويل آيات الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب.

وقد ذكرنا في كتاب «الصواعق» أن تأويل آيات الصفات وأخبارها بما يخرجها عن حقائقها هو أصل الفساد، وزوال الممالك. وتسليط أعداء الإسلام عليه إنما كان بسبب التأويل، ويعرف هذا من له اطلاع وخبرة بما جرى في العالم. ولهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته، لأنه سبب لفساد العالم. وتعطيل الشرائع.

ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة علم قطعًا بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها. فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه.

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨] هل يحتمل هذا التقسيم والتنويع: تأويل إتيان الرب جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته؟وهل يبقى مع هذا السياق شبهة أصلًا: أنه إتيانه بنفسه؟ وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣] إلى أن قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء] ففرق بين الإيحاء العام، والتكليم الخاص. وجعلهما نوعين. ثم أكد فعل التكليم بالمصدر الرافع لتوهم ما يقوله المحرفون. وكذلك قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى] فنوع تكليمه إلى تكليم بواسطة، وتكليم بغير واسطة. وكذلك قوله لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤] ففرق بين الرسالة والكلام. والرسالة إنما هي بكلامه.

وكذلك قول النبي ﷺ: «إنكم ترون ربكم عيانا. كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو، ليس

دونه سحاب، وكما ترون الشمس في الظهيرة صحوًا ليس دونها سحاب». ومعلوم أن هذا البيان والكشف والاحتراز: ينافي إرادة التأويل قطعًا. ولا يرتاب في هذا من له عقل ودين.

أما الطريق الثاني من طرق إثبات الصفات، فهو دلالة الصنعة عليها. فإن المخلوق يدل على وجود خالقه ، على حياته وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيئته. فإن الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزامًا ضروريا. وما فيه من الإتقان والإحكام ووقعه على أكمل الوجوه: يدل على حكمة فاعلة وعنايته. وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق: يدل على رحمة خالقه، وإحسانه وجوده.

وآثار الكمال: تدل على أن خالقه أكمل منه. فمعطي الكمال أحق بالكمال. وخالق الأسماع والأبصار والنطق: أحق بأن يكون سميعا بصيرًا متكلمًا. وخالق الحياة والعلوم والقدر والإرادات: أحق بأن يكون هو كذلك في نفسه. فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات: هو أدل شيء على إرادة الرب سبحانه، ومشيئته وحكمته، التي اقتضت التخصيص.

وحصول الإجابة عقيب سؤال الطالب، على الوجه المطلوب: دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات. وعلى سمعه لسؤال عبيده. وعلى قدرته على قضاء حوائجهم. وعلى رأفته ورحمته بهم.

والإحسان إلى المطيعين، والتقرب إليهم والإكرام، وإعلاء درجاتهم: يدل على محبته ورضاه. وعقوبته للعصاة والظلمة، وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة، تدل على صفة «الغضب والسخط» والإبعاد. والطرد والإقصاء: يدل على المقت والبغض.

فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل. ولهذا دعا سبحانه في كتابه عباده إلى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يثبت بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صفته المشهودة. والقرآن مملوء بذلك.

فيظهر شاهد اسم «الخالق» من نفس المخلوق. وشاهد اسم «الرازق» من وجود الرزق والمرزوق. وشاهد اسم «الرحيم» من شهود الرحمة المبثوثة في العالم. واسم «المعطي» من وجود العطاء الذي هو مدار لا ينقطع لحظة واحدة. واسم «الحليم» من حلمه على الجناة والعصاة وعدم معاجلتهم.واسم «الغفور» و«التواب» من مغفرة الذنوب، وقبول التوبة. ويظهر شاهد اسمه «الحكيم» من العلم بما في خلقه وأمره من الحكم والمصالح ووجوه المنافع. وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنى له شاهد في خلقه وأمره. يعرفه من عرفه ويجهله من جهله. فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته.

وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه على غيره، وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره: من مشاهدة صنعته، فكيف لا تعرف صفات من هذا العالم العلوي والسفلي وهذه المخلوقات من بعض صنعه؟

وإذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات، وجدتها بأسرها كلها دالة على الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى. وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى بمكابرة. ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات] فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه. فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها. وتنادي عليها، وتخبر بها بلسان النطق والحال. كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خطَّ فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

تشير بإثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدي، ومن هو قائل

فلست ترى شيئًا أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه. وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها. فهي تدل عقلًا وحسًّا، وفطرة ونظرًا، واعتبارًا.

وكلما قوي النور في قلب العبد كان بصره أتم وأكمل، وكلما قل نصيبه من النور، وطفئ مصباحه في قلبه طفئ نور التصديق بالصفات وإثباتها في قلبه. فإنه يشاهدها بذلك النور. فإذا فقده لم يشاهدها. وجاءت الشُبه الباطلة مع تلك الظلمة. فلم يكن له نصيب منها سوى الإنكار.

والتفكر يساعد على هذا الإدراك، ولذلك كان من صفات المؤمنين إنهم يتفكرون في الآيات، فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه. ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وشرفها. وبذلك وصفهم الله تعالى إذ قال : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم] فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب، ونور البصيرة يدل على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما فكرٌ مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة : فإنما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها، وينضاف إلى نور البصيرة وطيب حياة العقل: حياة القلب بحسن النظر، الدائر بين تعظيم الخالق جل جلاله وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالة عليه. فلابد من الأمرين فإنه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار، لم يحصل له الاستدلال على الصفات. وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبحانه، لم يستفد به إثبات الصفات. فإذا اجتمع له تعظيم وحسن النظر في صنعه، أثمر له إثبات صفات كماله، ولابد، مع إنه يستحيل أن يصح للقلب تعظيمه لربه من خلال تدبر آثار أسمائه وصفاته وتدبر آياته القرآنية، ثم يغفل به عن حسن الاعتبار، ولا أن يحصل له اعتبار من غير تعظيم.

و«الاعتبار» هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع. ومن الدليل إلى المدلول. فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك. فينتقل ذهنه من الملزم إلى لازمه. قال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر] و«الاعتبار» افتعال من العبور. وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمة، ومن النظير إلى نظيره.

وهذا «الاعتبار» يضعف ويقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره. وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك. قد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه. فقال تعالى في الطريق الأولى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فُصِّلَت:٥٣] ثم قال في الطريق الثانية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فُصِّلَت] فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به. وما لا يفعله ولا يأمر به.

مثال ذلك: أن اسمه «الحميد» سبحانه يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر. واسمه «الحكيم» يدل على أنه لا يخلق شيئًا عبثًا. واسمه «الغني» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا. واسمه «الملك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته، وتدبيره، وعطائه ومنعه، وثوابه وعقابه، وبَثَّ رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد. فمتى قام بالعبد تعظيم الحق جل جلاله وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبْلة له.

وأما أركان هذه المعرفة:

فأحدها: إثبات تلك الصفة. فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

الثاني: أنه لا يتعدي بها اسمها الخاص الذي سماها الله به. بل يحترم الاسم كما يحترم الصفة. فلا يعطل الصفة. ولا يغير اسمها ويعيرها اسمًا آخر. كما تسمي الجهمية والمعطلة سمعه وبصره، وقدرته وحياته، وكلامه : أعراضًا. ويسمون وجهه ويديه وقدمه سبحانه : جوارح وأبعاضًا . ويسمون حكمته وغاية فعله المطلوبة: عللًا وأغراضًا. ويسمون أفعاله القائمة به: حوادث. ويسمون علوَّه على خلقه واستواءه على عرشه: تحيزًا، ويتواصون بهذا المكر الكُبَّار إلى نفي ما دل عليه الوحي، والعقل والفطرة، وآثار الصنعة من صفاته. فيسطون بهذه الأسماء التي سموها وآباؤهم على نفي صفاته وحقائق أسمائه.

واعلم أن الله تعالى قد أطلق على نفسه أفعالًا لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد ، وشاء ، وأحدث. ولم يسم «بالمريد» و«الشائي» و« المحدث» كما لم يسم نفسه «بالصانع» و «الفاعل»

و«المتقن» وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ أقبح خطأ من اشتق له من كل فعل اسما. وبلغ بأسمائه زيادة على الألف فسماه «الماكر، والمخادع، والفاتن، والكائد» ونحو ذلك. وكذلك باب الأخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به. فإنه يخبر عنه بأنه «شيء، وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمى بذلك.

فأما «الواجد» فلم تجئ تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنى. والصحيح: أنه ليس من كلام النبيﷺ. ومعناه صحيح. فإنه ذو الوجد والغنى. فهو أولى بأن يسمى به من «الموجود» ومن «الموجد» أما «الموجد» فإنه منقسم إلى كامل وناقص، وخير وشر، وما كان مسماه منقسمًا لم يدخل اسمه في الأسماء الحسنى. كالشيء المعلوم. ولذلك لم يسم بالمريد ولا بالمتكلم. وإن كان له الإرادة والكلام، لانقسام مسمى «المريد» و «المتكلم» وأما «الموجد» فقد سمى نفسه بأكمل أنواعه. وهو «الخالق، البارئ، المصور» فالموجد كالمحدث والفاعل والصانع.

وهذا من دقيق فقه الأسماء الحسنى. فتأمله.

الثالث:عدم تشبهها بما للمخلوق. فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. فالعارفون به، المصدقون لرسله، المقرون بكماله: يثبتون له الأسماء والصفات، وينفون عنه مشابهة المخلوقات. فيجمعون بين الإثبات ونفي التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل. فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهدى بين ضلالتين. فصراطهم صراط المنعم عليهم. وصراط غيرهم صراط المغضوب عليهم والضالين. قال الإمام أحمد رحمه الله : «لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين» وقال: «التشبيه: أن تقول يدي كيدي الله» تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا. فإن العقل قد يئس من تعرف كُنه الصفة وكيفيتها. فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول السلف«بلا كيف» أي بلا كيف يعقله البشر. فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها: فالكيفية وراء ذلك، كما أنا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر. ولا نعرف حقيقة كيفيته، مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق. فعجزنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم.

فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود في معرفة من له الكمال كله، والجمال كله. والعلم كله، والقدرة كلها، والعظمة كلها، والكبرياء كلها؟ من لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحانه السماوات والأرض وما فيها وما بينهما.. وما وراء ذلك؟ الذي يقبض سماواته بيده. فتغيب كما تغيب الخردلة في كف أحدنا، الذي نسبة علوم الخلائق كلها إلى علمه أقل من نسبة نقرة عصفور من بحار العالم الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مداد وأشجار

الأرض من حين خُلقت إلى قيام الساعة أقلام: لفني المداد وفُنيت الأقلام، ولم تَنْفَد كلماته.

فقاتل الله الجهمية والمعطلة! أين التشبيه هاهنا؟ وأين التمثيل؟ لقد اضمحل هاهنا كل موجود سواه. فضلًا عن أن يكون له ما يماثله في ذلك الكمال، ويشابهه فيه. فسبحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته. وولاها ما تولت من وقوفها مع الألفاظ التي لا حرمة لها، والمعاني التي لا حقائق لها.

ولما فهمت هذه الطائفة من الصفات الإلهية ما تفهمه من صفات المخلوقين، فَرَّتْ إلى إنكار حقائقها وابتغاء تحريفها، وسمته تأويلًا. فشبهت أولًا، وعطلت ثانيا، وأساءت الظن بربها وبكتابه وبنبيه وبأتباعه.

أما إساءة الظن بالرب: فإنها عطلت صفات كماله. ونسبته إلى أنه أنزل كتابًا مشتملًا على ما ظاهره كفر وباطل، وأن ظاهره وحقائقه غير مراده.

وأما إساءة ظنها بالرسول: فلأنه تكلم بذلك وقرره وأكده. ولم يبين للأمة أن الحق في خلافه وتأويله.

وأما إساءة ظنها بأتباعه: فبنسبتهم لهم إلى التشبيه والتمثيل، والجهل والحشو.

الرابع: إسقاط التفريق بين الصفات والذات، إذ التفريق بين الصفات والذات في الوجود مستحيل. وهو ممكن في الشهود بأن يشهد الصفة ويذهل عن شهود الموصوف، أو يشهد الموصوف ويذهل عن شهود الصفة، فتجريد الذات أو الصفات إنما يمكن في الذهن: فالمعرفة في هذه الدرجة تعلقت بالذات والصفات جميعًا. فلم يفرق العلم والشهود بينهما. ولا ريب أن ذلك أكمل من شهود مجرد الصفة، أو مجرد الذات.

وليس المراد أنك تسقط التفريق بين الذات والصفات في الخارج والعلم، بحيث تكون الصفات هي نفس الذات. فهذا لا يقوله موحد، وإن كان كثير من أرباب الكلام يقولون: إن الصفات هي الذات. فليس مرادهم: إن الذات نفسها صفة. فهذا لا يقوله عاقل. وإنما مرادهم: إن صفاتها شيء غيرها. فإن أراد هؤلاء أن مفهوم الصفة هو مفهوم الذات: فهذه مكابرة. وإن أرادوا أنه ليس هاهنا أشياء غير الذات انضمت إليها وقامت بها فهذا حق.

والتحقيق: أن صفات الرب جل جلاله داخلة في مسمى اسمه. فليس اسمه «الله، والرب والإله» أسماء لذات مجردة، لا صفة لها ألبتة، فإن هذه الذات المجردة وجودها مستحيل. وإنما يفرضها الذهن فرض الممتنعات. ثم يحكم عليها. واسم «الله» سبحانه «والرب والإله» اسم لذات لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال. كالعلم، والقدرة والحياة، والإرادة، والكلام، والسمع والبصر، والبقاء، والقدم، وسائر الكمال الذي يستحقه الله لذاته، فصفاته داخلة في مسمى اسمه . فتجريد الصفات عن الذات، والذات عن الصفات: فرض وخيال ذهني لا

حقيقة له، وهو أمر اعتباري لا فائدة فيه.ولا يترتب عليه معرفة. ولا إيمان ولا هو علم في نفسه. وبهذا أجاب السلف الجهمية لما استدلوا على خلق القرآن . بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزُّمَر:٦٢] قالوا: والقرآن شيء.

فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه، وكلامه من صفاته، وصفاته داخلة في مسمى اسمه، كعلمه وقدرته وحياته، وسمعه وبصره، ووجهه ويديه فليس «الله» اسما لذات لا نعت لها، ولا صفة، ولا فعل، ولا وجه، ولا يدين. ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان. لا وجود له في الأعيان، كإله الجهمية، الذي فرضوه غير خارج عن العالم ولا داخل فيه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا محايث له ولا مباين. وكإله الفلاسفة الذي فرضوه وجودًا مطلقًا لا يتخصص بصفة ولا نعت، ولا له مشيئة ولا قدرة، ولا إرادة ولا كلام. وكإله الاتحادية الذي فرضوه وجودًا ساريا في الموجودات ظاهرًا فيها. هو عين وجودها. وكإله النصارى الذي فرضوه قد اتخذ صاحبة وولدًا. وتدرع بناسوت ولده. واتخذ منه حجابًا. فكل هذه الآلهة مما علمته أيدي أفكارها. وإله العالمين الحق: هو الذي دعت إليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله فوق سماواته على عرشه، بائن من خلقه، موصوف بكل كمال، منزه عن كل نقص. لا مثال له، ولا شريك. ولا ظهير، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه : ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد] غني بذاته عن كل ما سواه. وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

فإذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالأزل والبقاء والفعل، وعَجْز مَنْ سواه عن القدرة على إيجاد ذرة أو جزء من ذرة. وأنه لا وجود له من نفسه. فوجوده ليس له ، ولا به ولا منه. وتولي هذا العلم عن القلب: يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر. كما سقط غناه وربوبيته وملكه وقدرته. فصار الرب سبحانه وحده هو المعبود والمشهود والمذكور، كما كان وحده هو الخالق المالك، الغني الموجود بنفسه أزلًا وأبدًا. وأما ما سواه فوجوده وتوابع وجوده عارية ليست له، وكلما فني العبد عن ذكر غيره وشهوده صفت هذه المعرفة في قلبه، وانجذبت روحه إلى الواحد القهار. فهي تجول في ميدان أوسع من السماوات والأرض، بعد أن كانت مسجونة في سجون المخلوقات. فإذا استمر له عكوف قلبه على الحق سبحانه، ونظر قلبه إليه كأنه يراه. ورؤية تفرده بالخلق والأمر والنفع والضر. كملت وتمت معرفته، فإن الرب سبحانه إذا رقي عبده بالتدرج نوَّر باطنه وعقله بالعلم. فرأى أنه لاخالق سواه، ولا رب غيره. ولا يملك الضر والنفع والعطاء والمنع غيره. وأنه لا يستحق أن يعبد بنهاية الخضوع والحب سواه. وكل معبود سوى وجهه الكريم فباطل. فهذا توحيد العلم.

ثم إذا رقاه الحق سبحانه درجة أخرى فوق هذه: أشهده عود المفعولات إلى أفعاله سبحانه. وعود أفعاله إلى أسمائه وصفاته، وقيام صفاته بذاته. فيضمحل شهود غيره من قلبه.

ثم إذا رقاه درجة أخرى: أشهده قيام العوالم كلها به وحده، أي بإقامته لها وإمساكه لها، فإنه سبحانه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك البحار أن تغيض أو تفيض على العالم. ويمسك السماء أن تقع على الأرض. ويمسك الطير في الهواء صافات ويقبضن. ويمسك القلوب الموقنة أن تزيغ عن الإيمان. ويمسك حياة الحيوان أن تفارقه إلى الأجل المحدود. ويمسك على الموجودات وجودها. ولولا ذلك لاضمحلت وتلاشت. والكل قائم بأفعاله وصفاته التي هي من لوازم ذاته. فليس الوجود الحقيقي إلا له. أعني الوجود الذي هو مستغن فيه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بالذات، لا قيام له بنفسه طرفة عين، وكلما أسرع العبد في إقباله على ربه: أسرع ربه به الارتقاء، لأن العبد إذا أقبل على ربه، وتفقد أحواله، وتمكن من شهود قيام ربه عليه، فإنه يكون في أول أمره: مكابدًا وصابرًا ومرابطًا. فإذا صبر وصابر ورابط صبر في نفسه وصابر عدوه، ورابط على ثغر قلبه أن يدخل فيه خاطر لا يحبه وليه الحق وقطع كلاليب الشهوات والشبهات، فحينئذ يصفو له إقباله على ربه، فيستولي نور المراقبة على أجزاء باطنه، فيمتلئ قلبه من نور التوجه، بحيث يغمر قلبه، ويستره عما سواه، ثم يسري ذلك النور من باطنه فيعم أجزاء ظاهره. فيتشابه الظاهر والباطن فيه. فيجد آثار الجلال والجمال المقدس في قلبه وروحه. ويجد العبودية والمحبة، والدعاء والافتقار، والتوكل والخوف والرجاء، وسائر الأعمال القلبية قائمة بقلبه. لا تشغله عن مشهد الروح. ولا تستغرق مشهد الروح عنه. ويجد ملاحظته للأوامر والنواهي حاضرًا في جذر قلبه حيث نزلت الأمانة. فلا يشغله مشهد الروح المستغرق، ولا مشهد القلب عن ملاحظة مراضي الرب تعالى ومحابه، وحقه على عبده، ويجد ترك التدبير والاختيار وصحة التفويض موجودًا في محل نفسه. فيعامل الله سبحانه بذلك، بحيث لا تشغله مشاهدة الأولى عنه. ويقوم بملاحظة عقله لأسرار حكمة الله في خلقه وأمره، ولا يحجبه ذلك كله عن ملاحظة عبوديته. فيبقى مغمور الروح بملاحظة الفردانية وجلالها وكمالها وجمالها. قد استغرقته محبته والشوق إليه. معمور القلب بعبادات القلوب معمور القلب بملاحظة الحكمة ومعاني الخطاب. طاهر القلب عن سفاسف الأخلاق مع الله تعالى ومع الخلق، قد صار عبدًا محضًا لربه بروحه وقلبه وعقله، ونفسه وبدنه وجوارحه. قد قام كل بما عليه من العبودية. بحيث لا تحجبه عبودية بعضه عن عبودية البعض الآخر.

نوحده تعالى ربّا وإلهًا

فأهل التوحيد والاستقامة يرتقون إلى هذه المنازل إذن بأمرين، أحدهما أرفع من الآخر.

الأمر الأول: شهود الربوبية والقيومية. فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير، والخلق والرزق، والعطاء والمنع، والضر والنفع، وأن جميع الموجودات منفعلة لا فاعلة. وما له منها فعل فهو منفعل في فعله، محل محض لجريان أحكام الربوبية عليه. لا يملك شيئًا منها لنفسه ولا لغيره،

فلا يملك ضرًّا ولا نفعًا. فإذا تحقق العبد بهذا المشهد: خمدت منه الخواطر والإرادات. نظرًا إلى القويم الذي بيده تدبير الأمور، وشخوصًا منه إلى مشيئته وحكمته فهو ناظر منه به إليه. فإن بشهوده عن شهود ما سواه. وما هذا فهو ساع في طلب الوصول إليه، قائمًا بالواجبات والنوافل.

الأمر الثاني:شهود الإلهية، وحقيقته: إرادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاؤه، فيفنى بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه. فحقيقة هذا الشهود: الانتفاع بالعظة، والخوف والرجاء، والتعظيم والإجلال. ونحن نشير إلى مبادئ ذلك وتوسطه وغايته. فنقول:

اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال، أو رياسة أو صورة، وتعلق بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل العدة، والتأهب للقدوم على الله عز وجل، فذلك أول فتوحه، وتباشير فجره. فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه. فيفعله ويتقرب به إليه. وما يسخطه منه، فيجتنبه. وهذا عنوان صدق إرادته. فإن كل من أيقن بلقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين يسأل عنهما الأولون والآخرون ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لابد أن يتنبه لطلب معرفة معبوده، والطريق الموصلة إليه. فإذا تمكن في ذلك: فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شيء أشوق إليه من ذلك. فإنها تجمع عليه قوي قلبه وإرادته.وتسد عليه الأبواب التي تفرق همه وتشتت قلبه. فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ارتقاء الذروة

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها. ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب، ونيل الشهوات. بحيث إنه إذا دخل في الصلاة ودَّ أن لا يخرج منها ، ثم يفتح له حلاوة استماع كلام الله. فلا يشبع منه. وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبي إذا أعطي ما هو شديد المحبة له. ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله. وكمال نعوته وصفاته وحكمته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى يغيب فيه. ويحس بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يفتح له باب الحياء من الله. وهو أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع قي القلب يريه ذلك النور: أنه واقف بين يدي ربه عز وجل. فيستحي منه في خلواته، وجلواته، ويرزق عند ذلك: دوام المراقبة للرقيب. ودوام التطلع إلى حضرة العلي الأعلى. حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سماواته، مستويا على عرشه، ناظرًا إلى خلقه، سامعًا لأصواتهم، مشاهدًا لبواطنهم. فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيرًا من الهموم بالدنيا وما فيها. فهو في وجود والناس في وجود آخر. هو في وجود بين يدي ربه ووليه، ناظرًا إليه بقلبه والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا،

فهو يراهم وهم لا يرونه. ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية، فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده. فيشهده مالك الضر والنفع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة. فيتخذه وحده وكيلًا. ويرضى به ربًّا ومدبرًا وكافيا. وعند ذلك إذا وقع خلقه عنه سبحانه. بل يناديه كل من ينادي المخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه. فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء.

فإذا استمر له ذلك:يطوي الكون عن قلبه بحيث لا يبقى فيه إلا الله الواحد القهار. وتفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه، كما يفيض نور الشمس عن جرمها. فيغرق حينئذ في الأنوار كما يغرق راكب البحر في البحر. وذلك إنما يكون في الرياضة والمجاهدة، وزوال أحكام الطبيعة، وطول الوقوف في الباب.

فإذا استمر على حاله وقفًا بباب مولاه. لا يلتفت عنه يمينًا ولا شمالًا. ولا يجيب غير من يدعوه إليه. ويعلم أن الأمر وراء ذلك، وأنه لم يصل بعد. ومتى توهم أنه قد وصل: انقطع عنه المزيد رجى أن يفتح له فتح آخر. هو فوق ما كان فيه. مستغرقًا قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق، فيبقى قلبه سابحًا في بحر من أنوار آثار الجلال، ويجد قلبه عاليا على ذلك كله، صاعدًا إلى من ليس فوقه شيء. ثم يرقيه الله سبحانه. فيشهده أنوار الإكرام بعد ما شهد أنوار الجلال. فيستغرق في نور من أنوار أشعة الجمال. وفي هذا المشهد يذوق المحبة الخاصة الملهبة للأرواح والقلوب. فيبقى القلب مأسورًا في يد حبيبه ووليه، ممتحنًا بحبه.

فيا له من قلب ممتحن مغمور مستغرق بما ظهر له من أشعة أنوار الجمال الآحادي، والناس مفتونون ممتحنون بما يفني من المال والصور والرياسة. معذبون بذلك قبل حصوله، وحال حصوله، وبعد حصوله. وأعلاهم مرتبة: من يكون مفتونًا بالحور العين، أو عاملًا على تمتعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح. وهذا المحب قد ترقى في درجات المحبة على أهل المقامات، ينظرون إليه في الجنة كما ينظرون إلى الكوكب الدري الغابر في الأفق لعلو درجته وقرب منزلته من حبيبه، فإن المرء مع من أحب. ولكل عمل جزاء وجزاء المحبة: المحبة والاصطناع والقرب. فهذا هو الذي يصلح. وكفى بذلك شرفًا وفخرًا في عاجل الدنيا. فما ظنك بمقاماتهم العالية عند مليك مقتدر؟ فكيف إذا رأيتهم في موقف القيامة، وقد أسمعهم المنادي «لينطلق كل قوم مع ما كانوا يعبدون» فيبقون في مكانهم ينتظرون معبودهم وحبيبهم الذي هو أحب شيء إليهم، حتى يأتيهم، فينظرون إليه ويتجلى لهم ضاحكًا.

والمقصود: أن هذا العبد لايزال الله يرقيه طبقًا بعد طبق، ومنزلًا بعد منزل، إلى أن يوصله إليه. ويمكن له بين يديه، أو يموت في الطريق. فيقع أجره على الله. فالسعيد كل السعيد، والموفق

كل الموفق: من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالى يمينًا ولا شمالًا. ولا اتخذ سواه ربًّا ولا وكيلًا. ولا حبيبًا ولا مدبرًا. ولا حاكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا.

وجميع ما تقدم من مراتب الوصول: إنما هي شواهد وأمثلة إذا تجلت له الحقائق في الغيب بحسب استعداده ولطفه ورقته من حيث لا يراها ظهر من تجليها شاهد في قلبه. وذلك الشاهد دال عليها ليس هو عينها. فإن نور الجلال في القلب ليس هو نور ذي الجلال في الخارج. فإن ذلك لا تقوم له السماوات والأرض. ولو ظهر للوجود لتدكدك. لكنه شاهد دال على ذلك، كما أن المثل الأعلى شاهد على الذات. والحق وراء ذلك كله، منزه عن حلول واتحاد، وممازجة لخلقه، وإنما تلك رقائق وشواهد تقوم بقلب العارف. تدل على قرب الألطاف منه في عالم الغيب حيث يراها.

فالوصول حق. يجد الواصل آثار تجلي الصفات في قلبه. وآثار تجلي الحق في قلبه. ويوقف القلب فوق الأكوان كلها بين يدي الرب تعالى. وهو على عرشه. ومن هناك يكاشف بآثار الجلال والإكرام. فيجد العرش والكرسي تحت مشهد قلبه حكمًا. وليس الذي يجده تحت قلبه حقيقة: العرش والكرسي. بل شاهد ومثال علمي، يدل على قرب قلبه من ربه، وقرب ربه من قلبه. وبين الذوقين تفاوت. فإذا قرب الرب من قلب عبده بقيت الأكوان كلها تحت مشهد قلبه. وحينئذ يطلع في أفقه شمس التوحيد، وينال التحقيق، بتخليص مصحوبه من الحق، بالحق وفي الحق، كما قال الهروي،واستشهد بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

ووجه إشارة الآية: أن إبراهيم ﷺ طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى إلى رؤية تحقيقه عيانا. فطلب بعد حصول العلم الذهني تحقيق الوجود الخارجي. فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب.ولما كان بين «العلم» و«العيان» تحقيق الوجود الخارجي. فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب.ولما كان بين «العلم» و«العيان» منزلة أخرى. قال النبي ﷺ : «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] وإبراهيم لم يشكّ ﷺ ، ورسول الله ﷺ لم يشك. ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني قبل مشاهدة معلومه ظنا. قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة] . كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] وهذا الظن علم جازم. كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة] لكن بين الخبر والعيان فرق. وفي المسند مرفوعًا «ليس الخبر كالعيان» ولهذا لما أخبر الله موسى: أنه قد فتن قومه، وأن السامري أضلهم: لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك.

التحقيق ميزان الموحد

إذا عرفنا هذا: كان سهلًا إن شاء الله أن نعرف هذا التعريف للتحقيق.

فلفظ «التحقيق» هو تفعيل. من حقق الشيء تحقيقًا، فهو مصدر ، فعله: حقق الشيء ، أي أثبته وخلصه من غيره.

أما «المصحوب» فهو ما يصحب الإنسان في قصده ومعرفته من معلوم ومراد.

و«الحق» هو الله سبحانه، وما كان موصلًا إليه، مُدنيا للعبد من رضاه.

إذا عرف هذا، فمصحوب العبد من الحق: هو معرفته ومحبته، وإرادة وجهه الكريم، وما يستعين به على الوصول إليه، وما هو محتاج إليه في سلوكه،ف«التحقيق» هو تخليصه من المفسدات القاطعة عنه، الحائلة بين القلب وبين الموصل إليه. وتحصينه من المخالطات. وتخليصه من المشوشات. فإن تلك قواطع له عن مصحوبه الحق.

فصاحب مقام التحقيق: لا يقف مع العوارض، فإنها قواطع، ويتغافل عنها ما أمكنه، فإنها تمر بالتغافل مرًّا سريعًا، لا يوسع دوائرها، فإنه كلما وسعها اتسعت، ووجدت مجالًا فسيحًا. فصالت فيه وجالت. ولو ضيقها بالإعراض عنها والتغافل لاضمحلت وتلاشت، فصاحب مقام التحقيق ينساها ويطمس آثارها. ويعلم أنها جاءت بحكم المقادير في دار المحن والآفات.

قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مرة: العوارض والمحن هي كالحر والبرد، فإذا علم العبد أنه لابد منهما لم يغضب لورودهما. ولم يغتم لذلك ولم يحزن.

فإذا صبر العبد على هذه العوارض ولم ينقطع بها:رجي له أن يصل إلى مقام التحقيق. فيبقى مع مصحوبه الحق وحده. فتهذب نفسه. وتطمئن مع الله وتنفطم عن عوائد السوء، حتى تغمر محبة الله قلبه وروحه. وتعود جوارحه متابعة للأوامر. فيحس قلبه حينئذ بأن معية الله معه وتوليه له. فيبقى في حركاته وسكناته بالله لا بنفسه. وترد على قلبه التعريفات الإلهية، ويشهد الإلهية والقيومية والفردانية. فإن على هذه المشاهد الثلاثة مدار المعرفة والوصول.

والمقصود: أن صاحب مقام «التحقيق» يعرف الحق، ويميز بينه وبين الباطل. فيمسك بالحق. ويلغي الباطل. فهذه مرتبة. ثم يتبين له أن ذلك ليس به، بل بالله وحده. فيبرأ حينئذ من حوله وقوته. ويعلم أن ذلك بالحق، ثم يتمكن في ذلك المقام. ويرسخ فيه قلبه. فيصير تحقيقه بالله وفي الله.

ففي الأول: يخلص به مطلوبه من غيره، ويتجرد له من سواه.

وفي الثاني: يخلص له إضافته إلى غيره، وأن يكون سواه سبحانه.

وفي الثالث: تجرد له شهوده وقصوره، بحيث صارت في مطلوبه.

فالأول: سفر إلى الله. والثاني: سفر بالله. والثالث: سفر في الله.

وإن أشكل عليك معنى «السفر فيه» والفرق بينه وبين «السفر إليه» ففرق بين حال العارف الزاهد السائر إلى الله، الذي لم يفتح له في الأسماء والصفات والمعرفة الخاصة، وبين حال العارف الذي قد كشف له في معرفة الأسماء والصفات والفقه فيها ما حجب عن غيره.

وإنك إن كنت تنسب العلم إلى نفسك قبل وصولك إلى مقام «التحقيق» ففي حالة «التحقيق» تعود نسبته إلى معلمه ومعطيه الحق. ولعل هذا معنى قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. إذ جمعهم الرب تبارك وتعالى وقال: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ [المائدة:١٠٩] قيل: قالوه تأدبًا معه سبحانه: إذ ردوا العلم إليه. وقيل: معناه لا علم لنا بحقيقة الباطن. وإنما أجابنا من أجابنا ظاهرًا والباطن غيب. وأنت علام الغيوب.

والتحقيق إن شاء الله أن علومهم تلاشت في علمه سبحانه واضمحلت. فصارت بالنسبة إليه كلا علم. فردوا العلم كله إلى وليه وأهله، ومن هو أولى به. فعلومهم وعلوم الخلائق جميعهم في جنب علمه تعالى كنقرة عصفور في بحر من بحار العالم.

* * *

(٦٣) منزلة رعاية الأسباب

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ منزلة «رعاية الأسباب»

ذلك أن التوحيد يقتضي القيام بالأسباب الظاهرة، كالحركات والأعمال، واعتبارها وعدم إهمالها وتعطيلها، ولكن يقوم بها وقد عزلها عن ولاية النجاح والنجاة، كما قالﷺ: «اعملوا، واعلموا أن أحدًا منكم لن ينجيه عمله».

وكذلك يقتضي القيام بالأسباب الباطنة، كالإيمان والتصديق، ومحبة الله ورسوله، فإن النجاة معلقة بها، بل التوحيد نفسه من الأسباب، بل هو أعظم الأسباب الباطنة.

فالقيام بالأسباب واعتبارها وإنزالها منازلها التي أنزلها الله فيها: هو محض التوحيد والعبودية، بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي. كما في الصحيح عنهﷺقال: «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة، ومقعده من النار» قالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: «لا. اعملوا. فكل ميسر لما خلق له» وفي الصحيح عنه أيضًا أنه قيل له: «يا رسول الله، أرأيت ما يكدح الناس فيه اليوم ويعملون. أمر قضي عليهم ومضى، أم فيما يستقبلون مما آتاهم فيه الحجة؟ فقال: «بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم» قالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا؟ قال: «لا. اعملوا. فكل ميسر لما خلق له» وفي السنن عنه ﷺ أنه قيل له: «أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتُقاة نتقي بها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال: «هي من قدر الله».

وكذلك قول عمر لأبي عبيدة رضي الله عنهما ، وقد قال أبو عبيدة لعمر: «أتفر من قدر الله؟ يعني الطاعون قال: أفر من قدر الله إلى قدر الله. وذلك في سفر عمر إلى الشام. فكان طاعون عمواس. فرجع عمر. فقال له أبو عبيدة: «أتفر من قدر الله؟ فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ أفر من قدر الله إلى قدر لله. ثم نادى في الجيش: هل فيهم من سمع من رسول الله ﷺ في الطاعون شيئًا؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف من أخريات الجيش. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في بلد وأنتم بها فلا تخرجوا منها. وإن سمعتم به في بلد وأنتم خارجون عنها فلا تدخلوها» ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر] مثل قوله في الآية قبلها: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر] ومثل قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] وقوله ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس:٣٩] وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزَّمل:٢٠] وقوله : ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق] وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان] وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون:١٨] وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى].

والمعنى في كل ذلك واضح: أنه خلقه بنظام وترتيب جعلت فيه المسببات بقدر الأسباب. ولم يخلق شيئًا أنفًا بالمصادفة التي تشبه العبث، سبحانه، وبغير تقدير سابق في العلم والحكمة. فالمرض يقدر أسبابه والشفاء يقدر أسبابه. ومنها الدواء وقوة المزاج، ولا شيء بالمصادفة ولا بالخلق الأنف، كما يزعم الجاهليون الذين لا يعرفون الله بأسمائه وصفاته وبآثار علمه وحكمته ورحمته.

وقد قال الله تعالى في السحاب: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧] وقال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية:٥] وقال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦] وقال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة]﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال].

والقرآن مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة. فيأتي بباء السببية تارة، وباللام تارة، وبأن تارة، وبكي تارة، ويذكر الوصف المقتضي تارة، ويذكر صريح التعليل تارة، كقوله: ذلك بأنهم فعلوا كذا، وقالوا كذا. ويذكر الجزاء تارة، كقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة] و [الحشر:١٧] وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة] أو [الزمر:٣٤] وقوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] ويذكر المقتضي للحكم والمانع منه، كقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [الإسراء:٥٩] وعند منكري الأسباب والحكم: لم يمنعه إلا محض مشيئته ليس إلا، وقال: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس] وقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة] وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق] وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق] وقال: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠] وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء].

نلتفت إلى الأسباب دون الركون إليها

والموحد المتوكل لا يطمئن إلى الأسباب ، ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن إليها، ولكن يكون قائمًا بها،ملتفتًا إليها، ناظرًا إلى مسببها ومجريها. فلا يصح التوكل شرعًا وعقلًا إلا عليه سبحانه وحده. فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده. فهو الذي سبب الأسباب:وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها، ولم يجعل منها سببًا يقتضي وحده أثره. بل لابد معه من سبب آخر يشاركه. وجعل لها أسبابًا تضادها وتمانعها، بخلاف مشيئته سبحانه. فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر. ولا في الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته. فيشاء الأمر ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله. والجميع بمشيئته واختياره. فلا يصح التوكل إلا عليه، ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمته، كما قال أعرف الخلق بهﷺ: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك» وقال : «لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك».

فإذا جمعت بين التوحيد وبين إثبات الأسباب، استقام قلبك على السير إلى الله. ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم. وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم. وبالله التوفيق.

وما سبق به علم الله وحكمه حق. وهو لا ينافي إثبات الأسباب، ولا يقتضي إسقاطها. فإنه سبحانه قد علم وحكم: أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه. فإسقاط الأسباب خلاف موجب علمه وحكمه. فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب، لم يكن نظره وشهوده مطابقًا للحق، بل كان شهوده غيبة، ونظره عمى. فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها. فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هي عليه في علمه وحكمه وخلقه وأمره؟

والعلل التي تتقى في الأسباب نوعان:

أحدهما: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق ويغلظ وبين ذلك.

الثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب. وهذا أيضًا قد يكون كفرًا وظلمًا. وبين ذلك. بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله. سبق به علمه وحكمه. وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يقضي ولا يحكم. ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية. ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم. فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها. ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تُحصل له فلاحًا، ولا توصله إلى المقصود. فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا.

ويفرّغ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها، تجريدًا للتوكل، واعتمادًا على الله وحده. وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح حيث يقول: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبب. ونهاه عن العجز. وهو نوعان : تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله، وترك تجريدها. فالدين كله ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية.

فالأسباب والوسائط والعلل محل اعتبار الناظرين، ومعارف المستدلين﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر] وكم في القرآن من الحث على النظر والاعتبار بها، والتفكر فيها، وذم من أعرض عنها، والإخبار بأن النظر فيها والاستدلال يوجب العلم والمعرفة بصدق رسله؟ فهو آيات كونية مشاهدة تصدق الآيات القرآنية!!

فما علق بها آثارها سُدى، ولا رتب عليها مقتضياتها وأحكامها باطلًا، بل ذلك موجب كماله وكمال نعوته وصفاته. وبها عرفت ربوبيته وإلهيته، وملكه وصفاته وأسماؤه.

هذا ولم يخلقها سبحانه عن حاجة منه إليها،ولا توقف لكماله المقدس عليها. فلم يتكثر بها من قلة. ولم يتعزز بها من ذلة. بل اقتضى كماله أن يفعل ما يشاء، ويأمر ويتصرف ويدبر كما يشاء، وأن يحمد ويعرف، ويذكر ويعبد. ويعرف الخلق صفات كماله ونعوت جلاله. ولذلك خلق خلقًا يعصونه ويخالفون أمره، لتعرف ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه كمال مغفرته، وعفوه وحلمه وإمهاله. ثم أقبل بقلوب من شاء منهم إليه، فظهر كرمه في قبول توبته، وبره ولطفه في العدو عليه بعد الإعراض عنه، كما قال النبي ﷺ : «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم» فلمن كانت تكون مغفرته لو لم يخلق الأسباب التي يعفو عنها ويغفرها؟ والعبد الذي له يغفر؟ فخلق العبد المغفور له، وتقدير الذنب الذي يغفر، والتوبة التي يغفر بها: هو نفس مقتضى العزة والحكمة. وموجب الأسماء الحسنى، والصفات العلا.

فتعليق الكوائن بالأسباب كتعليق الثواب والعقاب بالأسباب، وهو محض الحكمة، وموجب الكمال الإلهي. ومقتضى الحمد التام، ومظهر صفة العزة، والقدرة والملك ، والشرائع كلها من أولها إلى آخرها مبنية على تعليق الأحكام بالعلل، والقضايا بالحجج، والثواب بالطاعة، والعقوبات بالجرائم.

* * *

(٦٤) منزلة استئناف التوبة

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ منزلة «استئناف التوبة»

وهو تَمَكُّن يؤدي إلى استئناف التوبة من التقصير الذي رافق نزوله المنازل السابقة ، وجمع القلب على المعبود وحده ، وتمحيض الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوة وجهادًا ، فإنه إن كان في باطنه مقبوضًا ، لما هو فيه من جمعيته على الله ،فإنه في ظاهره مبسوط مع الخلق ، مظهرًا لقوته ، قصدًا لهدايتهم إلى الحق سبحانه ودعوتهم إليه، فهو كائن بائن ، داخل خارج، متصل منفصل .

وكما أن التوبة بداية منازل السائرين ،وأول مدرج من مدارج السالكين ، فإنها نهاية أيضًا .

ولعل سمعك ينفر من هذا غاية النفور ، وتقول : هذا كلام من لم يعرف شيئًا من طريق القوم. ولا نزل في منازل الطريق . ولعمر الله إن كثيرًا من الناس ليوافقك على هذا ، ويقول : أين كنا؟ وأين صرنا؟ نحن قد قطعنا منزلة «التوبة» وبيننا وبينها مائة مقام . فنرجع من مائة مقام إليها. ونجعلها غاية مقام السالكين ؟

فاسمع الآن وَعِهْ، ولا تعجل بالإنكار ، ولا تبادل بالرد ، وافتح ذهنك لمعرفة نفسك ، وحقوق ربك ، وما ينبغي له منك ، وماله من الحق عليك . ثم أنسب أعمالك وأحوالك وتلك المنازل التي نزلتها والمقامات التي قمت فيها - لله وبالله - إلى عظيم جلاله ، وما يستحقه وما هو له أهل . فإن رأيتها وافية بذلك مكافئة له فلا حاجة حينئذ إلى التوبة . والرجوع إليها رجوع عن المقامات العلية ، وانحطاط من علو إلى سفل ، ورجوع من غاية إلى بداية . وما ذلك ببعيد من كثير من المنتسبين إلى هذا الشأن ، المغرورين بأحوالهم ومعارفهم وإشاراتهم . وإن رأيت أن أضعاف أضعاف ما قمت به - من صدق وإخلاص ، وإنابة وتوكل وزهد وعبادة - لا يفي بأيسر حق له عليك ، ولا يكافئ نعمة من نعمه عندك . وأن ما يستحقه - لجلاله وعظمته - أعظم وأجل وأكبر مما يقوم به الخلق ، رأيت ضرورة التوبة في النهاية .

فاعلم الآن : أن التوبة نهاية كل عارف ، وغاية كل سالك ، وكما أنها بداية فهي نهاية والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية . بل هي في النهاية في محل الضرورة .

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله في آخر الأمر عند النهاية ، وكيف كان رسول الله ﷺ في آخر حياته أشد ما كان استغفارًا وأكثره ، قال الله تعالى : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ

فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة] وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك ، وهي آخر الغزوات التي غزاها ﷺ بنفسه. فجعل الله سبحانه « التوبة عليهم » شكرانًا لما تقدم من تلك الأعمال ، وذلك الجهاد . وقال تعالى في آخر ما أنزل على رسوله : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر] وفي الصحيح :«أنه ﷺ ما صلى صلاة – بعد ما نزلت عليه هذه السورة – إلا قال فيها : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك . اللهم اغفر لي» وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه . ولهذا فهم منها علماء الصحابة – كعمر بن الخطاب . وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم : أنه أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه الله إياه . فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله ، وآخر ما سمع من كلامه عند قدومه على ربه:«اللهم اغفر لي . وألحقني بالرفيق الأعلى»وكان ﷺ يختم كل عمل صالح بالاستغفار. كالصوم ، والصلاة ، والحج ، والجهاد . فإنه كان إذا فرغ منه ، وأشرف على المدينة ، قال : «آيبون ، تائبون ، لربنا حامدون » وشرع أن يختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة ، وشرع أن يختم العبد عمل يومه بالاستغفار ، فيقول عند النوم : «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» وأن ينام على سيد الاستغفار .

والعارف بالله وأسمائه وصفاته وحقوقه يعلم أن العبد أحوج ما يكون إلى التوبة في نهايته . فبهذا الاستئناف يكون تحقيق العبودية ، والقيام بأعبائها ، واحتمال فرائضها وسننها وأدائها ، والجهاد لأعداء الله ، والدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحمل الأذى في الله، ومعرفة الأسماء والصفات ،ومعرفة ما يحبه الله تعالى ويكرهه ، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين ، والعلم بمراتب العبودية ومنازلها .

فالحق أن نهاية السالكين تكميل مرتبة العبودية صرفًا . وهذا مما لا سبيل إليه لبني الطبيعة . وإنما خص بذلك الخليلان – عليهما الصلاة والسلام– من بين سائر الخلق . أما إبراهيم الخليل – صلوات الله وسلامه عليه – فإن الله عز وجل شهد بأنه وَفَّى . وأما سيد ولد آدم – صلوات الله وسلامه عليه – فإنه كمل مرتبة العبودية . فاستحق التقديم على سائر الخلائق . فكان صاحب الوسيلة والشفاعة التي يتأخر عنها جميع الرسل ، ويقول هو: «أنا لها» ولهذا ذكره الله سبحانه وتعالى بالعبودية في أعلى مقاماته ، وأشرف أحواله . كقوله تعالى : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء:١] وقوله : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الجن] وقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة:٢٣] وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:١] ولهذا يقول المسيح ، حين يرغب إليه في الشفاعة : « اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر له ما

تقدم من ذنبه وما تأخر» فأستحق تلك الرتبة العليا بتكميل عبوديته لله ، وبكمال مغفرة الله له . أما اتباع الرسل فالأمثل ثم الأمثل .

والحال الذي يحصل لمن قام بذلك هو حال الرسل وخلفائهم، وهو جمع الهمة على الله سبحانه ، محبة وإنابة وتوكلًا ، وخوفًا ورجاء ومراقبة ، وجمع الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوة وجهادًا . فهما حالان : جمع القلب على المعبود وحده . وجمع الهم له على محض عبوديته .

فإن قلت : فأين شاهد هذين الجمعين ؟ قلت : في القرآن كله، فخذه من فاتحة الكتاب في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وتأمل في قوله «إياك» التخصص لذاته المقدسة بالعبادة والاستعانة ، وما في قوله «نعبد» الذي هو للحال والاستقبال ، وللعبادة الظاهرة والباطنة : من استيفاء أنواع العبادة ، حالًا واستقبالًا قولا وعملًا ، ظاهرًا وباطنًا ، والاستعانة على ذلك لا بغيره . ولهذا كانت الطريق كلها في هاتين الكلمتين . وهي معنى قولهم «الطريق في :« إياك » أريد بما تريد » فجمع المراد في واحد، والإرادة في مراده الذي يحبه ويرضاه .فإلى هذا دعا الرسل من أولهم إلى آخرهم . وإليه شخص العاملون والمتوجهون . وكل الأحوال والمقامات – من أولها إلى آخرها – مندرجة في ضمن ذلك ، ومن ثمراته وموجباته .

فالعبودية تجمع كمال الحب في كمال الذل ، وكمال الانقياد لمراضي المحبوب وأوامره فهي الغاية التي ليس فوقها غاية . وإذا لم يكن إلى القيام بحقيقتها – كما يجب – سبيل ، فعلى التوبة المعول ، وقد عرفت – بهذا وبغيره– أن الحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية . ولولا تنسم روحها لحال اليأس بين ابن الماء والطين وبين الوصول إلى رب العالمين ، هذا لو قام بما ينبغي عليه أن يقوم به لسيده من حقوقه. فكيف والغفلة والتقصير والتفريط والتهاون ، وإيثار حظوظه في كثير من الأوقات على حقوق ربه لا يكاد يتخلص منها ؟

* * *

(٦٥) منزلة استئناف التوحيد

ومن المنازل : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ منزلة «استئناف التوحيد»

وهو ظفر السالك في النهاية بحقيقة التوحيد المحض كما ظفر به في البداية .

إن «التوحيد» أول دعوة الرسل . وأول منازل الطريق . وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩].

وقال هود لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥] .

وقال صالح لقومه : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣].

وقال شعيب لقومه : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥].

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] .

فالتوحيد : مفتاح دعوة الرسل . ولهذا قال النبي ﷺ لرسوله معاذ ابن جبل رضي الله عنه وقد بعثه إلى اليمن - «إنك تأتي قومًا أهل كتاب . فليكن أول ما تدعوهم إليه : عبادة الله وحده . فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة - وذكر الحديث » وقال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله » ولهذا كان الصحيح : أن أول واجب يجب على المكلف : شهادة أن لا إله إلا الله .

ولكن كما أن التوحيد أول ما يدخل به في الإسلام فإنه آخر ما يخرج به من الدنيا . كما قال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » فهو أول واجب ، وآخر واجب ، فالتوحيد أول الأمر وآخره .

ومجرد تنزيه الله عن الحدث لا يدل على التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وينجو به العبد من النار ، ويدخل به الجنة ، ويخرج من الشرك ، فإنه مشترك بين جميع الفرق . وكل من أقر بوجود الخالق سبحانه أقر به . فعُبَّاد الأصنام والمجوس ، والنصارى ، واليهود ، والمشركون - على اختلاف نحلهم - كلهم ينزهون الله عن الحدث ويثبتون قدمه . حتى أعظم

الطوائف على الإطلاق شركا ، وكفرًا ، وإلحادًا ، وهم طائفة الاتحادية ، فإنهم يقولون : هو الوجود المطلق ، وهو قديم لم يزل . ولم تزل المحدثات تكتسي وجوده ، تلبسه وتخلعه .

والفلاسفة – الذين هم أبعد الخلق عن الشرائع وما جاءت به الأنبياء–يثبتون واجب الوجود قديمًا منزهًا عن الحدث .

والمشركون – عبَّاد الأصنام الذين يعبدون معه آلهة أخرى – يثبتون واجب الوجود قديمًا منزهًا عن الحدث .

فالتنزيه عن الحدث حق : لكن لا يعطي إسلامًا ولا إيمانا. ولا يدخل في شرائع الأنبياء . ولا يخرج من نحل أهل الكفر ومللهم ألبتة .

ومع هذا فقد سُئل سيد الطائفة الجنيد عن التوحيد ؟ فقال : هو إفراد القديم عن المحدث . والجنيد أشار إلى أنه لا تصح دعوى التوحيد . ولا مقامه ولا حاله . ولا يكون العبد موحدًا إلا إذا أفرد القديم عن المحدث . فإن كثيرًا ممن ادعى التوحيد لم يفرده سبحانه من المحدثات . فإن من نفى مباينته لخلقه فوق سماواته على عرشه ، وجعله في كل مكان بذاته لم يفرده عن المحدث . بل جعله حالا في المحدثات مخالفًا لها ، موجودًا فيها بذاته .

قال الأشعري في كتاب المقالات : هذه حكاية قول قوم من النساك. وفي الأمة قوم ينتحلون النُسك ، يزعمون أنه جائز على الله تعالى الحلول في الأجسام . وإذا رأوا شيئًا يستحسونه قالوا : لا ندري ! لعله ربنا .

قلت : وهذه الفرقة طائفتان . إحداهما :تزعم أنه سبحانه يحل في الصورة الجميلة المستحسنة.

والثانية : تزعم أنه سبحانه يحل في الكمَّل من الناس . وهم الذين تجردت نفوسهم عن الشهوات . واتصفوا بالفضائل ، وتنزهوا عن الرذائل . والنصارى تزعم أنه حل في بدن المسيح وتدرع به . والاتحادية تزعم أنه وجود مطلق اكتسته الماهيات فهو عين وجودها.

فكل هؤلاء لم يفردوا القديم عن المحدث .

هو الله الخالق .. له الأسماء الحسنى

وهذا الإفراد – الذي أشار إليه الجنيد – نوعان . أحدهما : إفراد في الاعتقاد والخبر . وذلك نوعان أيضا أحدهما : إثبات مباينة الرب تعالى للمخلوقات ، وعلوه فوق سبع سماوات . كما نطقت به الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها . وأخبرت به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم . والثاني : إفراده سبحانه بصفات كماله ، وإثباتها له على وجه التفصيل ، كما أثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسله منزهة عن التعطيل والتحريف والتمثيل، والتكييف والتشبيه ، بل تثبت له سبحانه حقائق الأسماء والصفات . وتنفي عنه فيها مماثلة المخلوقات ، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تحريف ولا تعطيل ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

وفي هذا النوع يكون إفراده سبحانه بعموم قضائه وقدره لجميع المخلوقات - أعيانها وصفاتها وأفعالها- وأنها كلها واقعة بمشيئته وقدرته، وعلمه وحكمته . فيباين صاحب هذا الإفراد سائر فرق أهل الباطل من الاتحادية ، والحلولية ، والجهمية الفرعونية ، الذين يقولون : ليس فوق السماوات رب يعبد . ولا على العرش إله يصلي له ويسجد . والقدرية الذين يقولون : إن الله لا يقدر على أفعال العباد ، من الملائكة والإنس والجن ، ولا على أفعال سائر الحيوانات ، بل يقع في ملكه ما لا يريد ، ويريد ما لا يكون . فيريد شيئًا لا يكون ، ويكون شيء بغير إرادته ومشيئته. والله سبحانه أعلم .

وهو الله المعبود .. سبحانه

والنوع الثاني من الإفراد: إفراد القديم عن المحدث بالعبادة - من التأله ،والحب ، والخوف ، والرجاء والتعظيم ، والإنابة والتوكل ، والاستعانة وابتغاء الوسيلة إليه - فهذا الإفراد ، وذلك الإفراد : بهما بعثت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وشرعت الشرائع ، ولأجل ذلك خلقت السماوات والأرض ، والجنة والنار ، وقام سوق الثواب والعقاب . فتريد القديم سبحانه عن الحدث : في ذاته وصفاته وأفعاله . وفي إرادته وحده ومحبته وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه ، والاستعانة والحلف به ، والنذر له ، والتوبة إليه ، والسجود له ، والتعظيم والإجلال ، وتوابع ذلك . ولذلك كانت عبارة الجنيد عن التوحيد عبارة سادة مسددة .

و« التوحيد » هو الغاية المطلوبة من جميع المقامات والأعمال والأحوال ، فغايتها كلها التوحيد . وإنا كلام العلماء والمحققين من أهل السلوك كله لقصد تصحيحه . وهذا بين من أول المقامات إلى آخرها . فإنها تشير إلى تصحيحه وتجريده .

فالتوكل مثلا : هو حقيقة التوحيد ، ولا يتم التوحيد إلا به ، وفي «باب التوكل » بيان ذلك ، وأنه من مقامات الرسل .

مَنْ ظن نفسه متوكلًا وهو واهم

للتوكل ثلاث علل تؤثر في كمال التوحيد ، وتنشأ عن أوهام تجعل العبادة ناقصة .

إحداها: أن يترك ما أمر به من الأسباب ، استغناء بالتوكل عنها . فهذا توكل عجز وتفريط وإضاعة . لا توكل عبودية وتوحيد . كمن يترك الأعمال التي هي سبب النجاة ، ويتوكل في حصولها . ويترك القيام بأسباب الرزق - من العمل والحراثة والتجارة ونحوها - ويتوكل في حصوله ويترك طلب العلم ، ويتوكل في حصوله . فهذا توكله عجز وتفريط . كما قال بعض السلف : لا تكن ممن يجعل توكله عجزًا وعجزه توكلا .

العلة الثانية : أن يتوكل في حظوظه وشهواته دون حقوق ربه . كمن يتوكل في حصول مال أو زوجة أو رياسة . وأما التوكل في نصرة دين الله، وإعلاء كلمته وإظهار سنة رسوله ، وجهاد أعدائه فليس فيه علة . بل هو مزيل للعلل .

العلة الثالثة : أن يرى توكله منه . ويغيب بذلك عن مطالعة المنة وشهود الفضل ، وإقامة الله له في مقام التوكل . وليس مجرد رؤية التوكل علة ، كما يظنه ، بل عليه أن يرى أن توكله من عين الجود ، ومحض المنة ، وأنه توفيق الله تعالى .

فهذه العلل الثلاث هي التي تعرض في مقام التوكل وغيره من المقامات . وهي التي يعمل العارفون بالله وأمره على قطعها . وهكذا الكلام في سائر علل المقامات . وإنما ذكرنا هذا مثالًا لما يذكر من عللها . فعلل كل مقام هي هذه الثلاثة المذكورة : أن يترك بها ما هو أعلى منها ، وأن يعلقها بحظه ، والانقطاع بها عن المقصود ، وأن لا يراها توفيقًا ربانيا وجودًا وكرمًا .

كمال التوحيد شرط الإمامة

لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم - علمًا ومعرفة وحالًا - تفاوتًا لا يحصيه إلا الله. فأكمل الناس توحيدًا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والمرسلون منهم أكمل في ذلك . وأولوا العزم من الرسل أكملهم توحيدًا . وهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأكملهم توحيدًا : الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما . فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما - علما ومعرفة وحالا ، ودعوة للخلق وجهادًا - فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ، ودعوا إليه ، وجاهدوا الأمم عليه. ولهذا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه . كما قال سبحانه - بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته - ثم قال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام] فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم.

ولما قاموا بحقيقته - علما وعملًا ودعوة وجهادًا - جعلهم الله أئمة للخلائق .يهدون بأمره ويدعون إليه . وجعل الخلائق تبعًا لهم . يأتمرون بأمرهم . وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده . وخص بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم . وبالشقاء والضلال مخالفيهم . وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة] أي لا ينال عهدي بالإمامة مشرك . ولهذا أوصى نبيه محمدًا ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم، وكان يعلم أصحابه ، إذا أصبحوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ﷺ ، وملة أبينا إبراهيم ، حنيفًا مسلما ، وما كان من المشركين » فملة إبراهيم : التوحيد ، ودين محمد : ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقادا . وكلمة الإخلاص : هي شهادة أن لا إله إلا الله وفطرة الإسلام: هي ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلا ، وانقيادا وإنابة .

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء .قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة].

فقسم سبحانه الخلائق قسمين : سفيها لا أسفه منه ، ورشيدًا. فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك .والرشيد : من تبرأ من الشرك قولًا وعملًا وحالًا . فكان قوله توحيدًا ، وعمله توحيدًا ، وحاله توحيدًا، ودعوته إلى التوحيد . وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين – من أولهم إلى آخرهم – قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] وقال تعالى : ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّخرُف] وقال تعالى : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ [الأنبياء] أي هذا الكتاب الذي أنزل عليَّ . وهذه كتب الأنبياء كلهم : هل وجدتم في شيء منها اتخاذ آلهة مع الله ؟ أما كلها ناطقة بالتوحيد آمرة به؟ وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] و«الطاغوت» اسم لكل ما عبدوه من دون الله . فكل مشرك إلهه طاغوته .

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية على التوحيد الذي جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم . ونزلت به الكتب كلها . وبه أمر الله الأولين والآخرين ، وذكر الآيات الواردة بذلك .

ثم قال : وقد أخبر الله عن كل رسول من الرسل أنه قال لقومه ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩] وهذه أول دعوة الرسل وآخرها . قال النبي ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . وأني رسول الله » وقال : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » والقرآن مملوء من هذا التوحيد ، والدعوة إليه . وتعليق النجاة والسعادة في الآخرة به . وحقيقته : إخلاص الدين كله لله . والفناء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء. وهو أن تثبت إلهية الحق تعالى في قلبك . وتنفي إلهية ما سواه . فتجمع بين النفي والإثبات . فالنفي هو الفناء . والإثبات هو البقاء . وحقيقته : أن تفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه . وبطاعته عن طاعة ما سواه وكذلك بموالاته وسؤاله ، والاستغناء به ، والتوكل عليه . ورجائه ودعائه، والتفويض إليه ، والتحاكم إليه ، واللجوء إليه ،

والرغبة فيما عنده . قال تعالى ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٤] وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤] وقال تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤] وقال تعالى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزُّمَر] وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام] وقال تعالى : ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء] ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر] وقال : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧] وقال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزُّمَر] وقال عن أصحاب الكهف: ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف] وقال عن صاحب يس : ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس] وقال تعالى : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ [الشورى:٩].

وقال تعالى : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزُّمَر] وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج] . وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النساء:٣٦].

وهذا في القرآن كثير . بل هو أكثر من أن يذكر . و هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره ، وذروة سنامه ، وقطب رحاه ، وأمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته ، كما قال تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] وقال

تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزُّخرُف] وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء].

وإذا تدبرت القرآن – من أوله إلى آخره رأيته يدور على هذا التوحيد، وتقريره وحقوقه .

قال شيخنا : والخليلان هم أكمل خاصة الخاصة توحيدًا . ولا يجوز أن يكون في الأمة من هو أكمل توحيدًا من نبي من الأنبياء فضلًا عن الرسل ، فضلًا عن أولي العزم ، فضلًا عن الخليلين. وكمال هذا التوحيد : هو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلًا . بل يبقى العبد مواليًا لربه في كل شيء ، يحب من أحب وما أحب ، ويبغض من أبغض وما أبغض ، ويوالي من يوالي ، ويعادي من يعادي ، ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما نهى عنه .

ولعمر الله إنه لظهوره وجلائه أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأمر الله به الأولين والآخرين من عباده .

فظهور هذا التوحيد وانجلاؤه ووضوحه وشهادة الفطر و العقول به : من أعظم الأدلة أنه أعلى مراتب التوحيد ، وذروة سنامه . ولذلك قوي على نفي الشرك الأعظم . فإن الشيء كلما عظم لا يدفعه إلا العظيم . فلو كان شيء أعظم من التوحيد لدفع الله به الشرك الأعظم . ولعظمته وشرفه نصبت عليه القبلة وأسست عليه الملة ، ووجبت به الذمة . وانفصلت به دار الكفر من دار الإسلام ، وانقسم به الناس إلى سعيد وشقي ، ومهتدٍ وغَوِي ، ونادت عليه الكتب والرسل .

التوحيد فقه قلبي لا بلاغة لسان

وهذا التوحيد مستتر في قلوب أهله وإن كان أكثرهم لا يحسن الاستدلال عليه تقريرًا وإيضاحًا ، وجوابًا عن المعارض ، ودفاعًا لشبه المعاند . ولا ريب أن أكثر الناس لا يحسنون ذلك وهذا قدر زائد على وجود التوحيد في قلوبهم . فما كلُ من وجد شيئًا وعلمه وتيقنه أحسن أن يستدل عليه ، ويقرره ، ويدفع الشبه القادحة فيه . فهذا لون ووجوده لون.

فاستدلال كل أحد بحسبه ، ولا يحصي أنواع الاستدلال ووجوه مراتبه إلا الله . فلكل قوم هاد ، ولكل علم صحيح ويقين دليل يوجبه ، وشاهد يصح به . وقد لا يمكن صاحبه التعبير

عنه عجزًا وعيًّا . وإن عبر عنه فقد لا يمكنه التعبير عنه باصطلاح أهل العلم وألفاظهم . بل من استقرأ أحوال الناس رأى أن كثيرًا من أهل الإسلام - أو أكثرهم - أعظم توحيدًا ، وأكثر معرفة، وأرسخ إيمانًا من أكثر المتكلمين ، وأرباب النظر والجدال ، ويجد عندهم من أنواع الأدلة والآيات التي يصح بها إيمانهم ما هو أظهر وأوضح وأصح مما عند المتكلمين . وهذه الآيات التي ندب الله عباده إلى النظر فيها ، والاستدلال بها على توحيده ، وثبوت صفاته وأفعاله ، وصدق رسله : هي آيات مشهودة بالحس ، معلومة بالعقل ، مستقرة في الفطر . لا يحتاج الناظر فيها إلى أوضاع أهل الكلام والجدل ، واصطلاحهم ، وطرقهم ألبتة. وكل من له حس سليم ، وعقيل يميز به يعرفها ويقر بها ، وينتقل من العلم بها إلى العلم بالمدلول . وفي القرآن ما يزيد على عشرات المئات من هذه الآيات البينات . ومن لم يحفظ القرآن فإنه إذا سمعها وفهمها وعقلها انتقل ذهنه منها إلى المدلول أسرع انتقال وأقر به .

وبالجملة : فما كل من علم شيئًا أمكنه أن يستدل عليه . ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه يحسن ترتيب الدليل وتقريره ، والجواب عن المعارض .

بذرة التوحيد نامية

قال شيخ الإسلام الهروي :

« ويجب التوحيد بالعقل والسمع، ويوجد بتوفيق الله بعد تبصيره ، وينمو بإجابة داعي الحق والتبصر في الشواهد » .

هذه ثلاث مسائل :

إحداها : ما يجب به .

والثانية : ما يوجد به .

والثالثة : ما ينمو به.

فأما المسألة الأولى : فاختلف فيها الناس . فقالت : طائفة يجب بالعقل ويعاقب على تركه . والسمع مقرر لما وجب بالعقل مؤكد له . فجعلوا وجوبه والعقاب على تركه ثابتين بالعقل . والسمع مبين ومقرر للوجوب والعقاب . وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم من أتباع الأمة في مسألة التحسين والتقبيح العقليين .

وقالت طائفة : لا يثبت بالعقل . لا هذا ولا هذا . بل لا يجب بالعقل فيها شيء . وإنما الوجوب بالشرع . ولذلك لا يستحق العقاب على تركه. وهذا قول الأشعرية ومن وافقهم على نفي التحسين والتقبيح .

والحق : أن وجوبه ثابت بالعقل والسمع ، والقرآن على هذا يدل . فإنه يذكر الأدلة والبراهين

العقلية على التوحيد ، ويبين حسنه وقبح الشرك عقلًا وفطرة . ويأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك. ولهذا ضرب الله سبحانه الأمثال ، وهي الأدلة العقلية . وخاطب العباد بذلك وخطاب من استقر في عقولهم وفطرهم حسن التوحيد ووجوبه . وقبح الشرك وذمه. والقرآن مملوء بالبراهين العقلية الدالة على ذلك . كقوله : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزُّمَر] وقوله : ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل] وقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج] إلى أضعاف ذلك من براهين التوحيد العقلية التي أرشد إليها القرآن ونبه عليها .

ولكن هاهنا أمر آخر . وهو أن العقاب على ترك هذا الواجب يتأخر إلى حين ورود الشرع . كما دل عليه قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء] وقوله : ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبۡنَا﴾ [المُلك] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص] وقوله : ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام] فهذا يدل على أنهم ظالمون قبل إرسال الرسل . وأنه لا يهلكهم بهذا الظلم قبل إقامة الحجة عليهم . فالآية رد على الطائفتين معًا ، من يقول : إنه لا يثبت الظلم والقبح إلا بالسمع ، ومن يقول : إنهم معذبون على ظلمهم بدون السمع . فالقرآن يبطل قول هؤلاء وقول هؤلاء . كما قال تعالى : ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص] فأخبر : أن ما قدمت أيديهم قبل إرسال الرسل سبب لإصابتهم بالمصيبة . ولكن لم يفعل سبحانه ذلك قبل إرسال الرسول الذي يقيم به حجته عليهم، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي

لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزُّمَر] وهذا في القرآن كثير . يخبر أن الحجة إنما قامت عليهم بكتابه ورسوله ، كما نبههم بها في عقولهم وفطرهم : من حسن التوحيد والشكر ، وقبح الشرك والكفر .

وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاة في كتاب « مفتاح دار السعادة » وذكرنا هناك نحوًا من ستين وجهًا تبطل قول من نفي القبح العقلي . وزعم أنه ليس في الأفعال ما يقتضي حسنها ولا قبحها . وأنه يجوز أن يأمر الله بعين ما نهى عنه ، وينهى عن عين ما أمر به ، وأن ذلك جائز عليه. وإنما الفرق بين المأمور والمنهي بمجرد الأمر والنهي ، لا بحسن هذا وقبح هذا . وأنه لو نهى عن التوحيد والإيمان والشكر لكان قبيحًا . ولو أمر بالشرك والكفر والظلم والفواحش لكان حسنًا. وبينا أن هذا القول مخالف للعقول والفطر ، والقرآن والسنة .

والمقصود : وجوبه بالسمع والعقل ،وإن اختلفت جهة الإيجاب . فالعقل يوجبه : بمعنى اقتضائه لفعله ، وذمه على تركه ، وتقبيحه لضده . والسمع يوجبه بهذا المعنى . ويزيد : إثبات العقاب على تركه ، والإخبار عن مقت الرب تعالى لتاركه ، وبغضه له . وهذا قد يعلم بالعقل . فإنه إذا تقرر قبح الشيء وفحشه بالعقل ، وعلم ثبوت كمال الرب جل جلاله بالعقل أيضًا : اقتضى ثبوت هذين الأمرين : علم العقل بمقت الرب تعالى لمرتكبه . وأما تفاصيل العقاب ، وما يوجبه مقت الرب منه : فإنما يعلم بالسمع .

واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلومًا بالعقل ، مستقرًّا في الفطر ، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل . فإن هذه القضية من أجلّ القضايا البديهيات وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر . ولهذا يقول سبحانه عقيب تقرير ذلك :«أفلا تعقلون؟ أفلا تذكرون؟ » وينفي العقل عن أهل الشرك ، ويخبر عنهم بأنهم في النار ، إنهم لم يكونوا يسمعون ولا يعقلون . وإنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل ، وأخبرهم عنهم : أنهم ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة] وأخبرهم عنهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف:٢٦] أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئًا . ولو لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالى: «وانظروا» و«اعتبروا» و«فسيروا في الأرض فانظروا» فائدة . فإنهم يقولون : عقولنا لا تدل على ذلك . وإنما هو مجرد إخبارك . فما هذا النظر والتفكر والاعتبار والسير في الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة ، والأقيسة العقلية والشواهد العيانية ؟ أفليس في ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وقبح الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر . معلوم لمن كان له قلب حي ، وعقل سليم ، وفطرة صحيحة . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزُّمَر] وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة ق] وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس] وقال تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم] .

ومن بعض الأدلة العقلية : ما أبقاه الله تعالى من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم ، وما حل بهم ، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم .وجعل العاقبة لهم . قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٣٨] وقال في ثمود : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل] وقال في قوم لوط : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر] وقال تعالى في قوم لوط : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] وهو سبحانه يذكر في سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات ، ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد. ثم يقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء] فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك ، توحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة . ثم يخبر أن في ذلك آية وبرهانا للمؤمنين ، ثم يذكر مصدر ذلك كله ، وأنه عن أسمائه وصفاته . فصدور هذا الإهلاك عن عزته . وذلك الإنجاء عن رحمته . ثم يقرر في آخر السورة نبوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير . ويجيب عن شبه المكذبين له أحسن جواب . وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية. فضرب الأمثال والأقيسة ، فدلالة القرآن سمعية عقلية .

المسألة الثانية : قوله « ويوجد بتبصير الحق » وجوب الشيء شرعًا لا يستلزم وجوده حسًّا فلذلك ذكر ما يوجد به بعد ذكر ما يجب به.وهو تبصير الحق تعالى . ومراده : التبصير التام الذي

لا تختلف عنه الهداية ، وإلا فقد يبصر العبد الحق ولا توجد منه الهداية . كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فُصِّلَت:١٧] فهو - سبحانه - بصرهم ، فآثروا الضلال على الهدى . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة] وقال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤] فهذا التبصير لم يوجب وجود الهداية ، لأنه سبحانه لم يرد وجودها وإنما أراد وجود مجرد البصيرة . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما التبصير التام : فإنه يستلزم وجود الهداية . وهو الذي أمرنا أن نسأله إياه في كل صلاة وقال فيه أهل الجنة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس] فعم بدعوته البيان والدلالة ، وخصَّ بهدايته التوفيق والإلهام .

المسألة الثالثة : قوله : «وينمو بإجابة داعي الحق» إذا لا يكفي مجرد مشاهدة الشواهد في نموه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف] يمر عليها العبد،ولا ينمو بها ولا يزيد بل ينقص إيمانه وتوحيده . فإذا أجاب الداعي وتبصر في الشواهد نما توحيده ، وقوي إيمانه . وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] وقال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم:٧٦] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة:١٢٤].

وقد تضمن كلام الشيخ ما دلت عليه النصوص ،واتفق عليه الصحابة والتابعون : أن الإيمان والتوحيد ينموان ويتزايدان . وهذا من أعظم أصول أهل السنة الذي فارقوا به الجهمية والمرجئة.

تعلق الهداية بالتوفيق الرباني لا ينفي وجوب الدعوة

وتعلق العبد بالشواهد ، وهي الأدلة والآيات : من التوحيد ، فإن الله سبحانه نصب الأدلة على التوحيد ، وأقام البراهين وأظهر الآيات ، وأمرنا أن نشهد الأدلة والآيات ، وننظر فيها ونستدل بها ، ولا يجتمع هذا الإثبات وذلك النفي ألبتة ، والمخلوقات كلها آيات للتوحيد ، وكذلك الآيات المتلوة أدلة عليه .

فالتوحيد - كل التوحيد - أن يشهد كل شيء دليلًا عليه ، مرشدًا إليه، والرسل هم أدلة للتوحيد، وقال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الرعد] والهادي: هوالدليل الذي يدل بهم في الطريق إلى الله ، والدار

الآخرة . ولا يناقض هذا قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦] وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر:٨] فإن الله سبحانه تكلم بهذا وهذا . فرسله الهداة هداية الدلالة والبيان. وهو الهادي هداية التوفيق والإلهام فالرسل هم الأدلة حقًّا . والله سبحانه هو الموفق الملهم ، الخالق للهدى في القلوب .

ومن محض التوحيد : أن تشهد العبودية وقيامك بها ، وتشهد أنها من عين المنة والفضل، وتشهد فقرك وفاقتك ، فقد خرج النبي ﷺ يومًا على حلقة من أصحابه ، وهم يتذاكرون . فقال: « ما أجلسكم؟ قالوا : جلسنا نذكر ما مَنَّ الله به علينا ، وهدانا بك إلى الإسلام . فقال : آلله ، ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا :الله ما أجلسنا إلا ذلك . فقال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن الله يباهي بكم الملائكة ».

فكان من أسباب مباهاة الله بهم الملائكة :شهودهم سبب التوحيد ، ووسيلة النجاة ، وأنهم ممن مَنَّ الله عليهم ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران:١٦٤].

ولا يصادم هذا الشعور بالفقر أن يفتخر المؤمن بما كان من منة الله تعالى عليه ، إذا كان قصده ذكرها ونشرها تعليمًا وتربية للآخرين .

فالافتخار نوعان : مذموم ، ومحمود . فالمذموم : إظهار مرتبته على أبناء جنسه ترفعا عليهم وهذا غير مراد . والمحمود : إظهار الأحوال السنية، والمقامات الشريفة ، بوحا بها . أي تصريحًا وإعلانًا ، لا على وجه الفخر . بل على وجه تعظيم النعمة ، والفرح بها ، وذكرها ونشرها، والتحدث بها ، والترغيب فيها وغير ذلك من المقاصد في إظهارها . كما قال النبي ﷺ :« أنا سيد ولد آدم ولا فخر » و«أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيام ولا فخر » و « أنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :« أنا أول من رمى بسهم في سبيل الله» وقال أبو ذر رضي الله عنه : « لقد أتى عليَّ كذا وكذا وإني لثالث الإسلام »وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :«إنه لعهد النبي الأمي إلى : أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق ». وقال عمر رضي الله عنه : «وافقت ربي في ثلاث » وقال علي رضي الله عنه –وأشار إلى صدره – : « إن هاهنا علما جما. لو أصبت له حملة » وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة . وإن زيدًا ليلعب مع الغلمان » وقال أيضًا : « ما من كتاب الله آية إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ وماذا أريد بها ؟ ولو أعلم أن أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لرحلت إليه » وقال بعض الصحابة : « لأن تختلف في الأسنة أحب إليّ من أن أحدث نفسي في الصلاة بغير ما أنا فيه » وهذا أكثر من أن يذكر.

الإسلام فرق

ومن تمام التوحيد : أن يكون العبد صاحب جمع وفرق .

و« الجمع » في اللغة الضم .والاجتماع الانضمام . والتفريق : ضده وفي اصطلاح الصوفية : هو شخوص البصيرة إلى مَنْ صدرت عنه المتفرقات كلها .

وأما « الفرق » الإسلامي : فهو الفرق بين ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه ، وبين ما نهى عنه وكرهه ومقت فاعله . وهذا الفرق من لم يكن من أهله لم يشم رائحة الإسلام ألبتة . وقد حكى الله سبحانه عن أهل الشهوات أنهم أنكروا هذا الفرق . فشهدوا الجمع بين المأمور والمحظور إذ قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥] فلا فرق بينهما . وقالوا : الميتة مثل المذكاة، لا فرق بينهما وقالوا : الحلال والحرام شيء واحد . فهذا جمعهم وذلك فرقهم .

وعبادتنا جمع

أما الجمع فجمعان:

جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية . فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه ، يدبر أمر عباده وحده . فلا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، ولا مميت ولا محيي ، ولا مدبر لأمر المملكة – ظاهرًا وباطنًا – غيره . فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . لا تتحرك ذرة إلا بإذنه . ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه . ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه ، وأحاطت بها قدرته ، ونفذت بها مشيئته ، واقتضتها حكمته . فهذا جمع توحيد الربوبية .

وأما جمع توحيد الإلهية ، فهو : أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله. وإرادته ، وحركاته على أداء حقه تعالى ، والقيام بعبوديته سبحانه. فتجتمع شئون إرادته على مراده الديني الشرعي .

وهذان الجمعان : هما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن العبد يشهد من قوله : «إِيَّاكَ» الذات الجامعة لجميع صفات الكمال ، التي لها كل الأسماء الحسنى . ثم يشهد من قوله « نعبد » جميع أنواع العبادة ظاهرًا وباطنًا ، قصدًا وقولًا وعملًا وحالًا واستقبالًا . ثم يشهد من قوله «إيَّاك نستعين» جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض . فيشهد منه جميع الربوبية . ويشهد من «إيَّاك نعبد » جميع الإلهية . ويشهد من« إياك » الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى .

ثم يشهد من « اهدنا » عشر مراتب . إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى : هداية العلم والبيان ، فيجعله عالمًا بالحق مدركا له .

الثانية : أن يقدره عليه ، وإلا فهو غير قادر بنفسه .

الثالثة : أن يجعله مريدًا له .

الرابعة : أن يجعله فاعلا له .

الخامسة : أن يثبته على ذلك ، ويستمر به عليه .

السادسة : أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له .

السابعة : أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة . أخص من الأولى. فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالًا . وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلًا .

الثامنة : أن يشهده المقصود في الطريق ، وينبه عليه . فيكون مطالعًا له في سيره ، ملتفتًا إليه ، غير محتجب بالوسيلة عنه .

التاسعة : أن يشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة : أن يشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها ، وهما طريق أهل الغضب ، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصدًا وعنادًا . وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلًا وضلالًا . ثم يشهد جمع «الصراط المستقيم » في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله ، وأتباعهم من الصديقين والشهداء الصالحين .

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم . فمن حصل لهذ هذا الجمع . فهو على الصراط المستقيم . والله أعلم .

* * *

(٦٦) منزلة الشهادة

وهي نهاية رحلة هجرة المؤمن إلى الله ورسوله

وتقوده إلى تكرار السير الانعطاف نحو باب البداية

وآخر منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : منزلة «الشهادة»

واعلم أن التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ، ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في المطلب والمقصد .

فالأول : هو حقيقة ذات الرب تعالى ، وأسمائه وصفاته ،وأفعاله ، وعلوه فوق سماواته على عرشه ، وتكلمه بكتبه ، وتكليمه لمن شاء من عباده ، وإثبات عموم قضائه ، وقدره ، وحكمه . وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح . كما في أول سورة الحديد ، وسورة طه وآخر سورة الحشر ، وأول سورة تنزيل السجدة ، وأول سورة آل عمران ، وسورة الإخلاص بكمالها . وغير ذلك .

النوع الثاني : مثل ما تضمنه سورة : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤] وأول سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها ، وأول سورة « الأعراف » وآخرها ، وجملة سورة «الأنعام » وغالب سورة القرآن ، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد .

بل نقول قولا كليا :إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد ، شاهدة به ، داعية إليه .فإن القرآن : إما خبر عن الله ، وأسمائه وصفاته وأفعاله . فهو التوحيد العلمي الخبري . وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع كل ما يعبد من دونه . فهو التوحيد الإرادي الطلبي . وإما أمر ونهي ، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته وإما خبر عن كرامة الله لأهل التوحيد وطاعته ،وما فعل بهم في الدنيا . وما يكرمهم به في الآخرة . فهو جزاء توحيده ،وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب . فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ توحيد ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيد متضمن

لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد ، الذين أنعم الله عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد . ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهد له به ملائكته ، وأنبياؤه ورسله . قال : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران].

فتضمنت هذه الآية الكريمة: إثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع هذه الطوائف ، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذهبهم . وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية ، والحقائق الإيمانية .

فتضمنت هذه الآية : أجلَّ شهادة ،وأعظمها ، وأعدلها ،وأصدقها ، من أجلِّ شاهد ، بأجلِّ مشهود به . وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء ، والإعلام والبيان ، والإخبار .

قال مجاهد : حكم، وقضى .

وقال الزجاج :بَين .

وقالت طائفة : أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن «الشهادة» تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله . وتتضمن إعلامه ، وإخباره وبيانه . فلها أربع مراتب .

مراتبها:علم ، ومعرفة ، اعتقاد لصحة المشهود به ، وثبوته .

وثانيها:تكلمه بذلك ، ونطقه به وإن لم يعلم به غيره . بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها ، وينطق بها أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بما شهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية ، والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربعة : علم الله سبحانه بذلك . وتكلمه به ، وإعلامه ، وإخباره لخلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به .

أما مرتبة العلم : فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة ، وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به . قال الله تعالى : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّخرُف:٨٦] وقال النبي ﷺ : «على مثلها فاشهد » وأشار إلى الشمس .

وأما مرتبة التكلم والخبر : فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به ، وإن لم يتلفظ بالشهادة . قال تعالى : ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام:١٥٠] وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزُّخرُف] فجعل ذلك منهم شهادة ، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ،ولم يؤدوها عنه غيرهم . قال النبي ﷺ :« عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » وشهادة الزور هي قول الزور . كما قال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج:٣٠] وعند نزول هذه الآية قال رسول الله ﷺ : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » فسمى قول الزور شهادة . وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء:١٣٥] فشهادة المرء على نفسه هي إقراره على نفسه . وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي « فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ » وقال تعالى : ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام].

وهذا -وأضعافه - يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره ، لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة . كما هو مذهب مالك ، وأهل المدينة ، وظاهر كلام أحمد . ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك . وقد قال ابن عباس : « شهد عندي رجال مرضيون- وأرضاهم عندي عمر - أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح، حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس » ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة . والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة. لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة . بل قال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة »الحديث .

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فقد دخل في الإسلام . وشهد شهادة الحق .ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة وأنه قد دخل في قوله : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» وفي لفظ آخر « حتى يقولوا لا إله إلا الله » فدل على أن مجرد قولهم «لا إله إلا الله » شهادة منهم . وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة . فليس مع من اشترط لفظ الشهادة . دليل يعتمد عليه . والله أعلم .

آيات الله تعالى في الآفاق تشهد

وأما مرتبة الإعلام والإخبار، فنوعان : إعلام بالقول . وإعلام بالفعل .وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر :تارة بعلمه . وتارة س بقوله . وتارة بفعله.

فشهادة الرب جلَّ جلاله وبيانه وإعلامه . يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة أخرى . فالقول : هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه . ومما قد علم بالاضطرار : أن جميع الرسل أخبروا عن الله : أنه شهد لنفسه « بأنه لا إله إلا هو» وأخبر بذلك . وأمر عباده أن يشهدوا به . وشهادته سبحانه «أن لا إله إلا هو » معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه .

وأما بيانه وإعلامه بفعله : فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة . وهذا أيضًا يستعمل فيه لفظ الشهادة ، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة والإرشاد والبيان، فإن الدليل بين عليه ويظهره، كما يبينه الشاهد المخبر، بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ . وقد يسمى شاهد الحال نطقًا وقولًا وكلامًا . لقيامه مقامه ، وأدائه مؤاده . كما قيل :

وقالت له العينان : سمعا وطاعة ... وحذرتا بالدر لما يثقب

وقال الآخر:

شكا إليَّ جملي طول السرى ... صبرا جميلي فكلانا مبتلى

ويسمى هذا شهادة أيضًا . كما في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم ﴾ [التوبة:١٧] فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله . فهي شهادة بكفرهم ، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به .

والمقصود : أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه . فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله . ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية . فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل . كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فُصِّلَت:٥٣] أي أن القرآن حق فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية . وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير . قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه : أنه لا إله إلا هو .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وأما المرتبة الرابعة – وهي الأمر بذلك والإلزام به ، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه ، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه – فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به ، وقضى وأمر ، وألزم عباده به . كما قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل:٥١] وقال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البيِّنة:٥] وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء:٢٢] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾[القصص:٨٨] والقرآن كله شاهد بذلك .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك : أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر ، وبين وأعلم، وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله . وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل ، وإثباتها أظلم الظلم . فلا يستحق العبادة سواه . كما لا تصلح الإلهية لغيره وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده

إلهًا ، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلها . وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات . كما إذا رأيت رجلًا يستفتي أو يشهد ، أو يستطب مَنْ ليس أهلًا لذلك ، ويدَع من هو أهل له . فتقول : هذا ليس بمفت ولا شاهد لا طبيب المفتي فلان . والشاهد فلان . والطبيب فلان . فإن هذا أمر منك ونهي .

وأيضًا فلفظ «الحكم» و«القضاء» يستعمل في الجمل الخبرية . فيقال للجمل الخبرية «قضية» و«حكم» وقد حكم فيها بكيت وكيت ، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات] فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكما . وقال في موضع آخر : ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم] لكن هذا حكم لا إلزام معه ، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن للإلزام . والله سبحانه أعلم .

قيام الله بالقسط يقتضي الثواب العقاب

وقوله تعالى : «قائما بالقسط» هو العدل . فشهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده . وبالوحدانية في عدله . و«التوحيد» و«العدل» هما جماع صفات الكمال فإن «التوحيد » يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد و التعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه . و« العدل » يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة .

فهذا توحيد الرسل وعدلهم : إثبات الصفات ، والأمر بعباده الله وحده لا شريك له . وإثبات القدر والحكم. والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره . لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية ، الذي هو إنكار الصفات وحقائق الأسماء الحسنى ، وعدلهم ، الذي هو التكذيب بالقدر ، أو نفي الحكم والغايات والعواقب الحميدة التي يفعل الله لأجلها ويأمر . وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته يتضمن أمورًا :

أحدها : أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق ، وإنكارها وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق ، فلا أعدل من التوحيد ولا أظلم من الشرك .فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولًا وفعلًا . حيث شهد بها ، وأخبر وأعلم عباده . وبَيَّن لهم تحقيقها وصحتها . وألزمهم بمقتضاها . وحكم به . وجعل الثواب والعقاب عليها . وجعل الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها . فالدين كله من حقوقها . والثواب كله عليها . والعقاب كله على تركها .

وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالى في هذه الشهادة . فأوامره كلها تكميل لها ، وأمر بأداء حقوقها . ونواهيه كلها صيانة لها عما يهضمها ويضادها . وثوابه كله عليه ، وعقابه كله على

تركها ، وترك حقوقها. وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها . وهي الحق الذي خلقت به . وضدها هو الباطل والعبث الذي نزه نفسه عنه . وأخبر أنه لم يخلق به السماوات والأرض ، قال تعالى – ردًا على المشركين المنكرين لهذه الشهادة – ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة ص] وقال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف:١] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٥] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان] وهذا كثير في القرآن . والحق الذي خلقت به السماوات والأرض ولأجله : هو التوحيد ، وحقوقه في الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، فالشرع والقدر، والخلق والأمر ، والثواب والعقاب قائم بالعدل . والتوحيد صادر عنها . وهذا هو الصراط المسقيم الذي عليه الرب سبحانه وتعالى . قال تعالى – حكاية عن نبيه هود – : ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود] فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله . فهو يقول الحق . ويفعل العدل : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام] ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾[الأحزاب].

والمقصود : أن قوله تعالى ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ هو كقوله ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقوله ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ نصب على الحال . وفيه وجهان. أحدها: أنه حال من الفاعل في «شهد الله» والعامل فيها الفعل . والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو ، والثاني : أنه حال من قوله «هو» والعامل فيها معنى النفي .أي لا إله إلا هو ، حال كونه قائمًا بالقسط . وبين التقديرين فرق ظاهر فإن التقدير الأول : يتضمن أن المعنى: شهد الله – متكلمًا بالعدل ، مخبرًا به ، آمرًا به ، فاعلًا له ، مجازيًا به – أنه لا إله إلا هو . فإن العدل يكون في القول والفعل ، و«المقسط» هو العادل في قوله وفعله . فشهد الله قائمًا بالعدل – قولًا وفعلًا – أنه لا إله إلا هو . وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط . وهي أعدل شهادة ، كما أن المشهود به أعدل شيء وأصحه .

وإذا كان القيام بالقسط يكون في القول والفعل كان المعنى : أنه كان سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل عالم به ، لا بالظلم . فإن هذه الشهادة تضمنت قولًا وعملًا ، فإنها تضمنت أنه هو الذي

يستحق العبادة وحده دون غيره . وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء وأن الذين أشركوا به غيره هم الضالون الأشقياء . فإذا شهد قائمًا بالعدل- المتضمن جزاء المخلصين بالجنة، وجزاء المشركين بالنار - كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها . وكان قوله : ﴿ قَآيِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ تنبيهًا على جزاء الشاهد بها والجاحد لها . والله أعلم .

واحد .. وذو عدل ..سبحانه

وأما التقدير الثاني- وهو أن يكون قوله : «قائما» حالًا مما بعد «إلا» ، فالمعنى: أنه لا إله إلا هو قائمًا بالعدل . فهو وحده المستحق الإلهية ، مع كونه قائمًا بالقسط .

قال شيخنا ابن تيمية : وهذا التقدير أرجح . فإنه يتضمن : أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له بأنه لا إله إلا هو وأنه قائم بالقسط .

قلت : مراده أنه إذا كان قوله ﴿قَآيِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ حالًا من المشهود به . فهو كالصفة له . فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها . فإذا وقعت الشهادة على ذي الحال وصاحبها كان كلاهما مشهودًا به . فيكون ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨] قد شهدوا بأنه قائم بالقسط . كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو. والتقدير الأول لا يتضمن ذلك . فإنه إذا كان التقدير : شهد الله – قائمًا بالقسط – أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو، كان القيام بالقسط حالًا من اسم «الله» وحده .

وأيضا فكونه قائمًا بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالًا من مجرد الشهادة .

فإذا قيل : فإذا كان حالًا من «هو» فهلا اقترن به ؟ ولِمَ فصل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف ، فجاء متوسطًا بين صاحب الحال وبينها ؟

قلت : فائدته ظاهرة . فإنه لو قال ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآيِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ لأوهم عطف الملائكة وأولي العلم على الضمير في قوله ﴿قَآيِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ ولا يحسن العطف لأجل الفصل . وليس المعنى على ذلك قطعا. وإنما المعنى على خلافه . وهو أن قيامه بالقسط مختص به ، كما أنه مختص بالإلهية . فهو وحده الإله المعبود المستحق العبادة . وهو وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل .

وقوله «لا إله إلا هو» ذكر محمد بن جعفر أنه قال :

الأولى: وصف وتوحيد .

والثانية : رسم و تعليم ، أي قولوا « لا إله إلا هو» ومعنى هذا : أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها . والتالي للقرآن إنما يخبر عن شهادته هو . وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه . فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالي . فيكون شاهدًا هو أيضًا .

وأيضا فالأولى: خبر عن شهادة بالتوحيد . والثانية : خبر عن نفس التوحيد . وختم بقوله «العزيز الحكيم » فتضمنت الآية توحيده وعدله ، وعزته وحكمته .

فالتوحيد : يتضمن ثبوت صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وعدم المماثل له فيها وعبادته وحده ولا شريك له .

و«العدل» يتضمن وضعه الأشياء موضعها ، وتنزيلها منازلها ، وأنه لم يختص شيئًا منها إلا بمخصص اقتضى ذلك . وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ، ولا يمنع من يستحق العطاء ، وإنما كان هو الذي جعله مستحقًّا . و«العزة» تتضمن كمال قدرته وقوته وقهره . و«الحكمة» تتضمن كمال علمه وخبرته ، وأنه أمر ونهي وخلق وقدر ، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد .

فاسمه «العزيز» يتضمن الملك ، واسمه «الحكيم » يتضمن الحمد . وأول الآية يتضمن التوحيد . وذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» وذلك أفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنبيون من قبله . و«الحكيم » الذي أمر بأمر كان حسنًا في نفسه . وإذا نهى عن شيء كان قبيحا في نفسه . وإذا أخبر بخبر كان صادقًا. وإذا فعل فعلا كان صوابا ، وإذا أراد شيئًا كان أولى بالإرادة من غيره ، وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده .

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك . وعدله المنافي للظلم. وعزته المنافية للعجز . وحكمته المنافية للجهل والعيب . ففيها الشهادة له بالتوحيد ، والعدل ، والقدرة والعلم والحكمة . ولهذا كانت أعظم شهادة .

ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة، وسائر الطوائف أهل البدع لا يقومون بها .

فهذه الشهادة العظيمة متضمنة لإبطال ما هم عليه وردِّه . كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون وردُّه . وهي مبطلة لقول طائفتي الشرك والتعطيل . ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات . وينفون عنه مماثلة المخلوقات ويعبدونه وحده لا يشركون به شيئا .

شهادته سبحانه لنفسه أتم من شهادة المبتدعة

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه للعباد ، ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم به : لم ينتفعوا . ولم يقم عليها بها الحجة . كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها ، بل كتمها .ولم ينتفع بها أحد ، ولم تقم بها حجة . وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها . فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة : السمع، والبصر ، والعقل.

أما السمع : فبسمع آياته المتلوة القولية المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله ، وعلوه على عرشه فوق سبع سماواته ، وتكلمه بكتبه ، وتكلمه لمن شاء من عبادة تكلما وتكليما. حقيقة لا مجازًا .

وفي هذا إبطال لقول من قال : إنه لم يرد من عباده ما دلت عليه آياته السمعية من إثبات معانيها وحقائقها التي وضعت لها ألفاظها . فإن هذا ضد البيان والإعلام . ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان . وقد ذم الله من كتم شهادة عنده من الله ، وأخبر أنه من أظلم الظالمين . فإذا كانت عند العبد شهادة من الله تُحقق ما جاء به رسوله من إعلان نبوته، وتوحيد الرسل وأن إبراهيم وأهل بيته كانوا على الإسلام كلهم.

ومن كتم هذه الشهادة : كان من أظلم الظالمين- كما فعله أعداء رسول الله ﷺ من اليهود . الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم - فكيف يظن بالله سبحانه أنه كتم شهادة الحق التي يشهد بها الجهمية والمعتزلة والمعطلة . ولا يشهد بها لنفسه ، ثم يشهد لنفسه بما يضادها ويناقضها، ولا يجامعها بوجه ما ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! فإن الله سبحانه شهد لنفسه بأنه استوى على العرش ، وبأنه القاهر فوق عباده ، وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم ، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر ، وتتنزل من عنده به . وأن العمل الصالح يصعد إليه ، وأنه يأتي ويجيء ، ويتكلم، ويرضى ويغضب ، ويحب ويكره ، ويفرح ويضحك ، وأنه يسمع ويبصر ، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه . إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه ، وشهد له به رسله . وشهدت له الجهمية بضد ذلك ، وقالوا : شهادتنا أصح ، وأعدل من شهادة النصوص ، فإن النصوص تضمنت كتمان الحق وإظهار خلافه .

فشهادة الرب تعالى تكذب هؤلاء أشد التكذيب . وتتضمن أن الذي شهد به قد بينه وأوضحه وأظهره ، حتى جعله في أعلى مراتب الظهور والبيان . وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعطلة والجهمية لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به سبحانه . فإن الحق في نفس الأمر - عندهم - لم يشهد به لنفسه ، والذي شهد به لنفسه ، وأظهره وأوضحه فليس بحق، ويجوز أن يستفاد منه الحق واليقين .

وأما آياته العيانية الخلقية ، والنظر فيها والاستدلال لها :فإنها تدل على ما تدل عليه آياته القولية والسمعية . وآيات الرب هي دلائله وبراهينه التي بها يعرفه العباد ، وبها يعرفون أسماءه وصفاته . وتوحيده ،وأمره ونهيه . فالرسل تخبر عنه بكلامه الذي تكلم به . وهو آياته القولية ويستدلون على ذلك بمفعولاته التي تشهد على صحة ذلك ، وهي آياته العيانية ، والعقل يجمع بين هذه وهذه فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة. وهو سبحانه - لكمال عدله ورحمته ، وإحسانه وحكمته ، ومحبته للعذر ، وإقامته للحجة - لم

يبعث نبيا من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به . قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل] وقال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر:٤] وقال تعالى : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ [فاطر] .

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام . حتى قال له قومه ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣] ومع هذا فبينته من أظهر البينات . وقد أشار إليها بقوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود] فهذا من أعظم الآيات :أن رجلًا واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب. غير جزع ولا فزع ، ولا خوار ، بل واثق مما قاله جازم به ، قد أشهد الله أولًا على براءته من دينهم ، ومما هم عليه إشهاد واثق به ، معتمد عليه ، معلم لقومه : أنه وليه وناصره ، وأنه غير مسلطهم عليه .

ثم أشهدهم – إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة – أنه بريء من دينهم وآلهتهم ، التي يوالون عليها ويعادون ، ويبذلون دمائهم وأموالهم في نصرتها .

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم ، واحتقارهم وازدرائهم ، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه ، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه، لا يستطيعون ، فإنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك .

ثم قرر دعوته أحسن تقرير . وبين أن ربه تعالى وربهم ، الذي نواصيهم بيده ، هو وليه ووكيله ، القائم بنصره وتأييده ، وأنه على صراط مستقيم . فلا يخذل من توكل عليه وآمن به . ولا يشمت به أعداءه . ولا يكون معهم عليه . فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه – في قوله وفعله – يمنع ذلك ويأباه .

وتحت هذا الخطاب : أن من صراطه المستقيم أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه . وينزل به بأسه . فإن الصراط المستقيم هو العدل الذي عليه الرب تعالى . ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام . ونصره أولياءه ورسله على أعدائهم . وأنه يذهب بهم ، ويستخلف قومًا غيرهم . ولا يضره ذلك شيئًا . وأنه القائم سبحانه عل كل شيء حفظًا ورعاية وتدبيرًا وإحصاءً .

فأي آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم ؟ وهي شهادة من الله سبحانه لهم . بينَّها لعباده غاية البيان . وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله . وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر،وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

ومن أسمائه تعالى : «المؤمن» وهو - في أحد التفسيرين - المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم . فهو الذي صدّق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه . وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاءً وخلقا . فإنه سبحانه أخبر - وخبره الصدق وقوله الحق - أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته رسله حق . فقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فُصِّلَت:٥٣] أي القرآن . فإنه هو المتقدم في قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ [فُصِّلَت:٥٢] ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت] فشهد سبحانه لرسول بقوله أن ما جاء به حق . ووعده أن يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضًا . ثم ذكر ما هو أعَظم من ذلك وأجَلَّ، وهو شهادته سبحانه على كل شيء . فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له ، عليم بتفاصيله . وهذا استدلال بأسمائه وصفاته . والأول استدلال بقوله وكلماته . والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته .

فإن قلت : قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته . فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته ، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا .

قلت : أجل ! هو لعمر الله كما ذكرت . وشأنه أعلى . فإن الربت تعالى هو المدلول عليه ، وآياته هي الدليل والبرهان .

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته . فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات . وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته ، وأنه الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص ، فالكمال كله ، والجمال والجلال والبهاء ، والعزة والعظمة والكبرياء كلها من لوازم ذاته . يستحيل أن يكون على غير ذلك . فالحياة كلها له ، والعلم كله له ، والقدرة كلها له . والسمع والبصر والإرادة والمشيئة والرحمة والغنى ، والجود والإحسان والبر ، كله خاص له قائم به . وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه ، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه .

ومن كمال المقدس : إطلاعه على كل شيء ، وشهادته عليه ، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله ، ولا ذرة من ذراته ، باطنًا وظاهرًا، ومَنْ هذا شأْنه : كيف يليق بالعباد أن يشركوا به . وأن يعبدوا معه غيره ؟ وأن يجعلوا معه إلها آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقِرَّ من يكذب عليه أعظم الكذب ، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه . ثم ينصره على ذلك ويؤيده ، ويعلي كلمته ويرفع شأنه . ويجيب دعوته ، ويهلك عدوه ، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوي البشر . وهو - مع ذلك - كاذب عليه مفترٍ ، ساعٍ في الأرض بالفساد ؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء وقدرته على كل شيء ، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبي ذلك كل الإباء ومن ظن ذلك به ، وجَوَّزه عليه فهو من أبعد الخلق من معرفته ، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة ، وصفة المشيئة .

والقرآن مملوء من هذه الطريق ، وهي طريق الخاصة ، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله . وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله .

وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك،فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله.قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة] أفلاه تراه كيف يخبر سبحانه أن كماله وحكمته وقدرته تأبي أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل ؟ بل لابد أن يجعله عبرة لعباده ، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه . وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى:٢٤] هاهنا انتهي جواب الشرط : ثم أخبر جازما غير معلق أنه : ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ [الشورى:٢٤] وقال تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] فأخبر أن من نفي عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره ، ولا عرفه كما ينبغي ، ولا عظمه كما يستحق . فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه ويؤيده ؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة ؟ وهذا في القرآن كثير جدًا . يستدل بكماله المقدس ،وأوصافه وجلاله على صدق رسله ، وعلى وعده ووعيد ه . ويدعو عباده إلى ذلك . كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته ، وعلى بطلان الشرك .كما في قوله : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر] وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن .

ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة ، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها ، كقوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا

بِهَاۖ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف] وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الإسراء] فأعلمك أن ما كان سيئة في نفسه فهو يكرهه . وكماله يأبى أن يجعله شرعًا له ودينًا . فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به ، وبما يحبه ويبغضه ، ويثيب عليه ويعاقب عليه . ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة . فلذلك كان طريقة الجمهور الدلالات بالآيات المشاهدة فإنها أوسع وأسهل تناولا . والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض . ويرفع درجات من يشاء ، وهو العليم الحكيم .

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره . فإنه هو الدعوة والحجة . وهو الدليل والمدلول عليه . وهو الشاهد والمشهود له . وهو الحكم والدليل . وهو الدعوى والبينة . قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ ﴾ [هود:١٧] أي من ربه .وهو القرآن . وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله : ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت] فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزل على رسوله يكفي عن كل آية . ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله ،وأن الله سبحانه أرسل به رسوله . وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة ، وينجيه من العذاب . ثم قال : ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [العنكبوت] فإذا كان الله سبحانه عالمًا بجميع الأشياء كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها . فإنها شهادة بعلم تام ، محيط بالمشهود به . فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم .

وهو سبحانه يذكر علمه عند شهادته ، وقدرته وملكه عند مجازاته ، وحكمته عند خلقه وأمره ، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله ، وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم . وسمعه عند ذكر دعائهم ومسألته . وعزته وعلمه عند قضائه وقدره .

فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه ، وارتباطها بالخلق والأمر ، والثواب والعقاب .

يظاهر الله رسله بشهادته لنفسه

ومن هذا قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد] فاستشهد على رسالته بشهادة الله له . ولابد أن تعلم هذه الشهادة . وتقوم بها الحجة على المكذبين له . وكذلك قوله : ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ

ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ [الأنعام:١٩] وكذلك قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء] وكذلك قوله: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يس] وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة] وقوله : ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون:١] وقوله : ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩] فهذا كله شهادة منه لرسوله . قد أظهرها وبينها . وبين صحتها غاية البيان . بحيث قطع العذر بينه وبين عباده ، وأقام الحجة عليهم . فكونه سبحانه شاهدًا لرسوله معلوم بسائر أنواع الأدلة : عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها .

ومن نظر في ذلك وتأمله علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة . وأعدلها وأظهرها . وصدقه بسائر أنواع التصديق : بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه ، وبفعله وإقراره ، وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله ، وتنزيهه عن القبائح ، وعما لا يليق به . وفي كل وقت ويحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم له الحجة ، ويزيل به العذر ، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح] .

فيظهره ظهورين :ظهورًا بالحجة ، والبيان ، والدلالة ، وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة والتأييد ، حتى يظهره على مخالفيه ، ويكون منصورًا .

وقوله:« لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون» فما فيه من الخبر عن علم الله الذي لا يعلمه غيره من أعظم الشهادة بأنه هو الذي أنزله . كما قال في الآية الأخرى : ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود] وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله – وهومعلوم له ، كما يعلم سائر الأشياء . فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل – وإنما المعنى : أنزله مشتملًا على علمه . فنزوله مشتملًا على علمه : هو آية كونه من عنده ، وأنه حق وصدق ونظير هذا قوله : ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفرقان:٦] ذكر ذلك سبحانه تكذيبًا وردًّا على من قال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان] .

الفطر السليمة شهادة ربانية

ومن شهادته أيضا : ما أودعه في قلوب عباده : من التصديق الجازم واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه . فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب ، والافتراء على رب العالمين ، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته . بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك . وتدفعه الفطر والعقول السليمة ، كما تدفع الفطر – التي فطر عليها الحيوان – الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذي . كالأبوال والأنتان. فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له ، والطمأنينة به ، والسكون إليه ومحبته . وفطرها على بعض الكذب والباطل ، والنفور عنه، والريبة به ، وعدم السكون إليه .

ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه . ولما سكنت إلا إليه ، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره . ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن . فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علمًا ضروريًّا ويقينًا جازمًا أنه حق وصدق. بل أحق كل حق ، وأصدق كل صدق . وأن الذي جاء به أصدق خلق الله ، وأبرهم ، وأكملهم علمًا وعملًا ، ومعرفة ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء] وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد] فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان . وعلمت علما ضروريًا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية –من الفرح والألم ، والحب ، والخوف – أنه من عند الله . تكلم به حقًّا . وبَلَّغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد.فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد .وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له :«فهل يرتد أحد منهم سَخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه ؟ فقال : لا.فقال له :وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد » وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت:٤٩] وقوله : ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ [الحج:٥٤] وقوله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ:٦] وقوله : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد:١٩] وقوله : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرعد] يعنى : أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية . بل الله هو الذي يهدي ويضل . ثم نبههم على أعظم آية وأجلّها ، وهي: طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله . فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:٢٨] أي بكتابه وكلامه : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ فطمأنينة القلوب الصحيحة ، والفطر

السليمة به ؛ وسكونها إليه من أعظم الآيات . إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل .

ذكر شهادة العلماء تغني عن ذكر شهادة الرسل

فإن قيل : فَلِمَ لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة ، فيقول: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل ، وهم أعظم شهادة من أولي العلم ؟

قيل : في ذلك عدة فوائد :

إحداها : أن أولي العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم .

وثانيها : أن في ذكر «أولي العلم» في هذه الشهادة ، وتعليقها بهم ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته ، وأن من كان من أولي العلم فإنه يشهد بهذه الشهادة . كما يقال إذا طلع الهلال واتضح . فإن كل من كان من أهل النظر يراه .وإذا فاحت رائحة ظاهرة ، فكل من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزُّمَر] أي كل من له رؤية يراها حينئذ عيانا . ففي هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة فهو من أعظم الجهال . وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره. فهو من أولي الجهل ، لا من أولي العلم . وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة، ويؤديها على وجهها إلا أتباع الرسل أهل الإثبات فهم أولو العلم . وسائر من عداهم أولو الجهل . وإن وسعوا القول وأكثروا الجدال.

ومنها: الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة : أنهم «أولو العلم » فشهادته لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطلة والفرعونية لهم بأنهم جهَّال . وأنهم حشوية ، وأنهم مشبهة، وأنهم مجسمة ونوابت ونواصب ، فكفاهم أصدق الصادقين لهم بأنهم من «أولي العلم » إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه ، من غير تحريف ولا تعطيل .وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة ومضمونها . وخصومهم نفوا عنه حقائقها ، وأثبتوا له ألفاظها ومجازاتها .

وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية : الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم . فإنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته . واستشهد بهم - جَلَّ وعلا - على أجلِّ مشهود به . وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة ، كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق .فالحجة قامت بالرسل على الخلق . وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم حجج الله على العباد .

وقد فسرت «شهادة أولي العلم » بالإقرار . وفسرت بالتبيين والإظهار:أنها تتضمن الأمرين : فشهادتهم إقرار ، وإظهار وإعلام . وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة . قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] وقال تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:٧٨].

أي : سماكم المسلمين فيما أنزل على الرسل من قبل وفي هذا القرآن الذي أنزله على رسولكم . فأخبر : أنه جعلهم عدولًا خُيارًا . ونوَّه بذكرهم قبل أن يوحدهم ، لما سبق في علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة . فمن لم يقم بهذه الشهادة - علمًا وعملًا ، ومعرفة وإقرارًا ، ودعوة وتعليمًا ، وإرشادًا - فليس من شهداء الله . والله المستعان .

لا دين سوى الإسلام

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩].اختلف المفسرون : هل هو كلام مستأنف ، أو داخل في مضمون هذه الشهادة ؟فهو بعض المشهود به .

وهذا الاختلاف مبني على القراءتين في كسر«إن» وفتحها . فالأكثرون على كسرها على الاستئناف . وفتحها الكسائي وحده . هو الكسر . لأن الكلام الذي قبله قد تم . فالجملة الثانية مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها . وهذا أبلغ في التقرير ، وأذهب في المدح والثناء . ولهذا كان كسر ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] أحسن من الفتح . وكان الكسر في قول الْمُلَبي: « لبيك إن الحمد والنعمة لك » أحسن من الفتح.

وأرجح ما ذكر في توجيه قراءة الكسائي بالفتح : أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين معًا ، كلاهما مشهود به على تقدير حذف الواو وإرادتها .

والتقدير: وأن الدين عنده الإسلام . فتكون جملة استغني فيها عن حرف العطف بما تضمنت من ذكر المعطوف عليه . كما وقع الاستغناء عنها في قوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف:٢٢] فيحسن ذكر الواو وحذفها ، كما حذفت هنا وذكرت في قوله : ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[الكهف:٢٢].

وقد دلَّ قوله : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] على أن دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم ، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه . قال أول الرسل نوح: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس] وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة:١٢٨] ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ [البقرة] وقال يعقوب لبنيه عند الموت : ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ [البقرة] وقال موسى لقومه : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ [يونس] وقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ [آل عمران] وقالت ملكة سبأ : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ [النمل].

فالإسلام دين أهل السماوات ، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض،لا يقبل الله من أحد دينًا سواه .

فأديان أهل الأرض ستة : واحد للرحمن ، وخمسة للشيطان . فدين الرحمن : هو الإسلام ، والتي للشيطان : اليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ، والصابئة . ودين المشركين .

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف.

وبدخول السالك ضمن أولي العلم المذكورين خلالها ، وشهادته معهم بقيومية الله سبحانه ، وعزته وحكمته : يبلغ مقصده ، ويعتلي الذروة ، فيقف على القمة ، شامخًا ، إذ يرى بين يديه منظرًا شاملًا للمنازل التي مر بها ، متناثرة في وديان الإخبات والمحبة ، ومجموعة على سفوح التوكل والصبر ، فيخر ساجدًا ، حامدًا إذا وصل سالمًا ثابتًا ، شاكرًا خاشعًا .

* * *

خاتمة

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢ ﴾ [الصافات]

فنختم الكتاب بهذه الآية ، حامدين لله ، مثنين عليه بما هو أهله ، وبما أثنى به على نفسه .

والحمد لله رب العالمين حمدًا طيبًا مباركًا فيه ، كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله . غير مكفي ولا مكفور، ولا مُوَدَّع ، ولا مستغنى عنه ربنا.

ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته ، وأن يوفقنا لأداء حقه ، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .وأن يجعل ما قصدنا له - في هذا الكتاب وفي غيره - خالصًا لوجهه الكريم ، ونصيحة لعباده .

فيا أيها القارئ له :

ما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله. ولا تلتفت إلى قائله. بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال. وقد ذم الله تعالى من يردَّ الحق إذا جاء به من يبغضه . ويقبله إذا قاله من يحبه . فهذا خلق الأمة الغضبية . قال بعض الصحابة : « اقبل الحق ممن قاله ، وإن كان بغيضًا . وردَّ الباطل على من قاله، وإن كان حبيبا » وما وجدت فيه من خطأ فإن قائله لم يأل جهد الإصابة . ويأبي الله إلا أن يتفرد بالكمال . كما قيل :

والنقص في أصل الطبيعة كامن فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلومًا جهولًا ؟ ولكن من عُدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته .

وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق . وغايته النصيحة لله ، ولكتابه ولرسوله ، ولإخوانه المسلمين . وإن جعل الحق تبعًا للهوى فسد القلب والعمل والحال والطريق . قال الله تعالى : ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[المؤمنون:٧١] .

وقال النبي ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » فالعلم والعدل : أصل كل خير . والظلم والجهل: أصل كل شر . والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق . وأمره أن يعدل بين الطوائف . ولا يتبع هوي أحد منهم .

فقال تعالى : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى].

والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد وعلى آله أجمعين .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

* * *